روس داوثت

المجتمع المنحط

كيف صرنا ضحايا نجاحاتنا؟



ترجمة:
أنس محجوب / ع. محجوب

صفحة
7

The Decadent Society

How We Became the Victims of Our Own Success

Ross Douthat

المجتمع المنحطّ

كيف صرنا ضحايا لنجاحاتنا؟

تأليف: روس داوثت

ترجمة: أنس محجوب

عبدالمنعم المحجوب





الكتاب
المجتمع المنحطّ

المؤلف
روس داوثت

الطبعة الأولى :2021
الترقيم الدولي
978-603-91630-2-2
رقم الإيداع
1442/10569

Email: admin@page7.com
Website: www.page7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان : الجبيل . شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

تكمن الأزمة تحديداً في حقيقة أن القديم يُحتضر، وأن الجديد لا يمكن أن يُولَد، وفي هذه الفترة التي تفصل بين نظامَيْن يظهر عددٌ هائل من الأعراض المرضيّة.

أ. غرامشي



إلى غويندولين وإليانور ونيكولاس... وبلوم



الفهرس

تمهيد

انحطاط ثلاثيّ الأبعاد

كلّ شيء في هذا الكتاب (لا أكاد أستثني) جيّدٌ وسيءٌ في الوقت نفسه. كل مسألةٍ تُعرضُ للتفكير هنا تصبحُ سيفًا ذا حدّين، فالتقدّم العلمي مثلاً، إما تطوّر مجدٍ على المدى البعيد وإما ابتكار عبثيّ مجرّد. الركود! إما حافزٌ مؤقّت لاشتراع التجديد، وإما نهاية بائسة. التكاثر! إما علامة على الصحّة والازدهار وإما سببُ و/أو نتيجةُ التخلّف. الهجرة! إما أن تفعّل المجتمع وإما أن تقود إلى خلل اجتماعي-ثقافي. العنصرية! إما أن تكون عاملَ تضامنٍ وتحالف وإما أن تتحوّل إلى عنف وتزمّت، وهكذا في ما يتعلّقُ بأسلوب الحياة، مدى العمر، العلاقة، الجنس، الهوية، الثقافة، التاريخ، الدين، الرغبة، الحلم...إلخ، وصولاً إلى مستقبلٍ ما لم يعد ممكناً توقّعه. كلّ ظاهرة أو حدث أو انتقال أو تطلّع أو ابتكار أو دعوة أو رغبة، كلّ شيء باختصار، يقع بين حدّين: «إما.. وإما». كلّ فكرة تحمل نقيضها، أو بذرةَ نقيضها في الحدّ الأدنى، ما لم يتزامن تحوُّلها إلى مشروعٍ ما مع الوعي بها وبآثارها القريبة منّا حتى نعالجها، أو البعيدة عنا فنمهّد معالجتَها أمام أحفادنا. حسناً، هذا هو «المجتمع المنحط» في إحدى صورهِ.

ليس المجتمع المنحط سيئاً يستوجب الإدانة، ولا هو جيّد يدعو إلى الفخر. ليس متردياً مقبلاً على الفناء، ولا هو مزدهرٌ يخلد إلى الرّاحة لأنه أنجز كلّ ما يجب. إنه ليس يوتوبيا، ولا هو ديستوبيا. ماذا إذن؟ إنه -كما يريد روس داوثت أن

يقول- نحن البشر (الأمريكيون طبعاً) الذين يعطون هذا المجتمع طبيعته، ويشكّلون زمنه. البشر الذين يسعون إلى تحقيق الأفضل في صراعهم مع النهايات الحتميّة، وفي مثابرتهم على الحدّ من الأسباب التي تجبرهم على ارتكاب الأخطاء. المجتمع المنحطّ فوق كلّ هذا يظلّ مصدر قلق. ولكن ما الذي ليس كذلك؟ ما الذي لا يدعو للقلق، منحطاً كان، أو ما قبل (أو ما بعد) منحطّ ما دامت النهايات هناك في انتظاره دون أن يجد مأمناً يجنّبه الاحتمالات السيئة؟ وحتى لا نستدعي أكثر ممّا يجب هنا من إرث العالم، الإرث الهائل الذي صنع صورة الحياة كما نعيشها (نحنُ الأمريكيين)، يجب أن أقول إن المؤلّفَ ليس متشائماً (ولا هو متفائل أيضاً)، بل يحاول أن يختار من الاستثناءات القليلة المتاحة ما يتلاءم مع الولايات المتحدة (وكندا أيضاً، لنقل: بحكم الجوار) أولاً، ثم مع الدول الأوربية (الغربية منها فقط) ثانياً.

إن النظرة الأولى التي تبدو بها أطروحة «المجتمع المنحط» بعيدةً عمّا نهتمّ به، أو لا تتّصل بمحيطنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، قد لا تكون صائبة تماماً. كثيرٌ من القضايا التي يعرضها هذا الكتاب لا يمكن التفكير فيها إلا من خلال طبيعتها الشاملة وتأثيرها على العالم بأسره: ***تغيرات المناخ والتعداد السكاني، أو الموارد الطبيعية واستغلال الطاقة، أو الهجرة والتحولات الدينيّة والمدنيّة، على سبيل المثال***. ربما ننظر إلى أطروحة داوثت عن بعد، أو من خارجها، بما يمكّننا من استكناه مُفادها وحصرها وإعادة استظهارها وفق ما نستجيب له من ضرورات، بوصفنا ننتمي إلى «العالم النّامي»، وقد لا نكون معنيين بالشعور بما يكتنفها من ألم وقلق وحرص على المبادرة والاقتراح، كما يفعل هو بوصفهِ ينتمي إلى «العالم المتطوّر»، إلّا بقدر اهتمامنا بمصير العالم المشترك، مدركين في الوقت نفسه أن المنطقة العربية (الشرق الأوسط وشمال أفريقيا) ليست خلواً من آثار ما يحدث في جغرافيا هذا الكتاب، بل هي غالباً ما تُردِّد صدى التحولات (السطحية والعميقة) التي تحدث في الطرف الغربيّ القصي، وهو ما يضعنا جميعاً في عمق

الجدل الذي يتصدّى له هذا المحلّل الأمريكي المحافظ.

***

لنبدأ بتأثيث المصطلح. يرى داوثت أن كلمة «**انحطاط**» Decadence فضفاضة وغير ثابتة في الثقافة العامة، بل تُستخدم «بطريقة متداخلة، ولكن نادراً ما يتم استخدامها بدقة، وفي ذلك بالطبع جزء من جاذبيتها وسحرها». لابد أنه شعر بالغرابة التي قد يُواجَه بها اختياره هذا، وأدرك الحاجة إلى المجازفة بتعديل المعنى الذي استقرّت عليه الاستجابة اللغوية منذ زمن طويل، فعمد منذ البداية إلى إخراج الكلمة من معناها القاموسي[1]، بإضفاء شيء من التميز عليها، وإعادة توظيفها. لقد كانت الكلمة تتوزّع بين دلالات عامة غير مؤكّدة:

- انتشار الأخلاق المتدنية وحب المتعة والمال والشهرة، وما إلى ذلك. ويبدو هذا التعريف جزئياً ولا يفي بدلالة الانحطاط، ولشرح ذلك يستعين المؤلِّفُ بمثال «سكروج» وهو الشخصية الرئيسية في رواية تشارلز ديكنز «أنشودة عيد الميلاد»، وكان أنانياً وطمّاعاً وماكراً قاسي القلب، إنه غير أخلاقي ومحبّ للمال، ولكنه لا يوصف بأنه «منحط»، و«إن كنا نقول من الناحية الثقافية أنه يوصف بالانحطاط»، لأن الانحطاط من جهة أخرى يرتبط غالباً بنقص الدقة والتصميم، بينما كان سكروج دقيقاً ويتميز بالتصميم. فالأخلاق المتدنية وحب المتعة والمال والشهرة... إلخ، إذن، هي صفات تصاحب الانحطاط ولكنها لا تعرّفه.

- هناك أيضاً صورة أخرى من صور الانحطاط شائعة في الخيال الشعبي، وهي الارتباط بالجنس والشراهة، يقول: «إذا كنت تتسوّق مثلاً لشراء شيء «منحطّ» على أمازون، فإن خوارزمية البحث ستقدم لك في الغالب

(1). يعود أصل كلمة «منحط» decadent إلى اللاتينية decadere وتعني: سقط، غرق، ومنه تحدّرت كلمتان رئيسيتان الأولى هي decay (اضمحلال) والثانية هي decadence (انحطاط).

رومانسيات إباحية وشوكولاتة الفراولة»، ولكن هذه صورة جزئية هي الأخرى، وهي أقرب طبعاً إلى التفسّخ والانحلال الاجتماعي، منها إلى الانحطاط.

- قد تعبّر كلمة «منحط» في الثقافة الشعبية عن الاستحسان أيضاً، حيث تأخذ معنى الليونة أو الرخاوة، كأن تصف بها كعكة مثلاً، فتقول decadent، وأنت تعني أنها «سائغة»، وهذا استخدام دارج لا يفيد مصطلح الانحطاط.

لا يتردّد دوانت عن تكرار أن هذه المعاني شائعة في «الثقافة الشعبية» أو «الخيال الشعبي»، لينتقل سريعاً إلى نوع من تكثيف معنى «المنحط» وتركيزه، كما استخدمه في هذا الكتاب:

- الوصف بـ«منحط» يمكن أن يشير إلى جمالية ما أو إلى فلسفة معينة في القرن التاسع عشر مثلاً، للحديث عما فيهما من ابتذال ولا جدوى.
- يأخذ «المنحط» معنى التقهقر، كما يمكن أن يشير بشكل حُكْمي إلى أي أسلوب قد يرى النّقادُ أنه يمثل تراجعاً عن مستوى عالٍ كان سائداً في السابق.
- الانحطاط حالة مستمرّة من الابتعاد عن صورة الكمال (المتخيّلة أساساً)، وفقدان المستوى المرغوب، أو الانحراف بالتدريج عن نموذج الكمال المأمول.
- أما المعنى الأخير الذي يشير إليه، وهو ما سيضمنه كلمة «منحط» أينما وردت، فهو ذلك المزيج من الشعور بالإرهاق والسعي إلى بلوغ الكمال، في آن واحد، ويستشهد هنا بعبارة للشاعر الروسي فيتشيسلاف إيفانوف لمقاربة هذا المعنى، تقول: «الشعور بالقمع والكبرياء في آن واحد، كأن تكون آخر حلقة في سلسلة ما»، ولكن أي كمال هو؟ إنه «الكمال النهائي الذي لم يتحقق بعد»، ولأن المجتمع منحطٌ إلى هذا الدّرك، دون أن يدرك ذلك غالباً، فلا يبدو أن المسار الذي يمكن اقتفاءه سيكون واضحاً كما

يجب. من الأفضل للمجتمع إذن أن يتحرّك، حتى إذا غامر بسلامته، بدلاً من أن يظلّ راكداً، ومنشغلاً بتكرار الأنماط المعيشة، ولا يرى انحطاطه (هذه فعلاً هي رسالة الكتاب).

كلمة «انحطاط»، على هذا الأساس، لا تعني هنا «انتشار الأخلاق المتدنية وحب المتعة والمال والشهرة حباً جمّاً، وما إلى ذلك»، بل يمكن استعارة معنى حضاريّ لها كلما خرجنا عن الاكتفاء بوصف «شيء» ما بالانحطاط، ونحنُ نعني إحالة ماديّة، إلى وصفه كذلك في وجوده، هنا والآن، أي بتضمين الإحالة الوجودية، التي تشمل الجوانب المادية بالطبع، وتستجلب في الوقت نفسه السمات الثقافية والجمالية والاجتماعية والتراثية والدينية والسلوكية من جهة، والسياسية والصناعية والعلمية من جهة ثانية، والأحلام أو التطلعات المستقبلية من جهة ثالثة. هناك ثلاثة أبعاد مدمَجَة في عمق هذا الاصطلاح المعاد تدويره.

إن المؤلّف يعمّم كلمة «انحطاط» على طيف واسع: الاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلوم والخيال العلمي والطب والبيئة والأدب والفن، حتى الترفيه وتزجية أوقات الفراغ، ويضمّنه التعثّر ومحاولة النهوض مع عدم الاعتراف بقابلية السقوط، وهو يعني سقوط المجتمع الأمريكي قبل كل شيء آخر. ولكن وفق أي معيار، لماذا ومتى، وكيف؟ ألم تعد الولايات المتحدة قويّةً، كاملةً، متقدّمةً، عصريةً، ومستقبليةً أيضاً؟ أليست رمزاً ضد الانحطاط الذي يمكن أن نجد له شواهد كثيرة في العالم؟ ومجتمعات العالم هذه ألا ترى في الولايات المتحدة «رمزاً» يقود إلى كل شيء مرغوب؟ ربما نستثني -بشكل ما- روسيا والصين، وفرنسا بقدر آخر، وألمانيا أيضًا... بغض النظر عن الاعتبارات التي يصنّف بها داوثت هذه الدول. أليس هنالك شيءٌ من تذويب هذا «الرمز» وإعادة تشكيله وفق رؤية جديدة؟

إن الانحطاط -في تحليل داوثت- هو عمليّة مستمرة ومتغيرة، لا مجال فيها إلى

تحديد نهاية صارمة، أو الإقرار بالمصير، فهو يخلص إلى أن المفهوم في حدّ ذاته قد يخلو من أي حكم حتمي، أو يوحي بنهاية واضحة، مقتفياً في ذلك أثر الفيلسوف والناقد الفرنسي-الأمريكي جاك بارزون في كتابه «من البزوغ إلى الانحطاط: 500 سنة من الحياة الثقافية الغربية»، الذي يميل إلى أن المجتمع يمكن أن يكون منحطاً دون أن يمرّ بـ«لحظة» توقف، أو دمار كامل، أو يُثبت أحدٌ أنه في طريقه إلى الانهيار. المجتمع المنحط، بهذا الفهم، هو مجتمع متحرّك (بالرغم من مظهر الركود)، ومتفاعل (بالرغم من مظهر العزلة)، ومرن (بالرغم من مظهر التصلّب)، ومثمر (بالرغم من مظهر العقم)، ويسير إلى الأمام (بالرغم من مظهر التكرار)، هو من ثمَّ مجتمع حيّ مهما استمتع بدعوات الفناء الأبوكاليبتية المصيريّة. تلك الأصوات في الحقيقة تغذّي فيه روح البقاء على قيد الحياة.

يستفيد داوثت من تعريف بارزون للانحطاط بأنه «ركود اقتصادي وتدهور مؤسسي وإرهاق ثقافي وفكري على مستوى عالٍ من الازدهار المادي والتطور التكنولوجي»، وبهذا المعنى يعيش الغرب انحطاطاً لا شكّ فيه، وتبدو الولايات المتحدة، قبل أوروبا، مجتمعاً منحطاً بوضوح، وهي تستسيغ انحطاطها وتبرّره وتصنع له فلسفةً خاصة لا تعوزها القوة. هذا هو الأمر الواقع الذي يعترف به المؤلّف، ويدعمه بالشواهد والحجج، حيث الولايات المتحدة «لا تزال، في الواقع، غنيةً على نحو غير عادي... ولا تزال دولة الرفاهية فيها فعّالة في تخفيف آلام فترات الركود».

الانحطاط أخيراً لا يعني التدرّج من العطالة إلى السقوط، وإن كان يشي بالاستعداد المسبق للانجراف في طريق السقوط، كما أن «عصر الانحطاط» ليس نهاية كارثية، بقدر ما هو زمن يعلو فيه النداء من أجل العمل على استعادة النمو والإبداع وتحقيق الأهداف المنسية أو التي ضاعت في خضمّ الاهتمام بما هو ليس «منحطاً» في الحياة اليومية، إلى الدرجة التي فقد فيها الناس التمييز بين ما هو مُجدٍ للجميع من أجل بناء مستقبل مشترك، وبين ما هو مفيد فقط لكل شخص وحده

لكي يُنقذ نفسه معتقداً أن المصائر مختلفة.

ما هو «المنحطّ» إذن؟ إنه كل ما مرّ مجتمعاً في طيف واحد، يرافقه عدم الانتباه إلى ما يجب فعله حيث الناس منشغلون أكثر فأكثر بالأكل والشرب واللهو دون غضاضة، بينما ينهار العالم. ويمكن أن تستعار دلالة الانحطاط للتعبير عن التدهور والتدنّي والاضمحلال والتفسّخ والانحلال في جميع المجالات: السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، الأخلاقي، اللغوي، الجمالي، والفني... إلخ. فالمنحط، بهذا القدر أو ذاك: منحدر، متدهور، منحلّ، متدنّ، مضمحل، متردّ، ولكنه ليس كذلك فحسب، وهو على الاستعارة: تالف، تافه، بالٍ، متفسّخ، فاسد، ساقط، سافل، بحسب السياق، ولكنه ليس كذلك فقط، ويمكننا أن نستعير جميع أو بعض هذه الصفات للتعبير عن «المنحط» بشكل عام مضمّنين استخدامنا دلالة قدحيّة دائماً أساسها الانتقاص الذي يحطُّ من قدر الشيء.

لقد حاولنا (أنس وأنا، قبل أن نبدأ ترجمة هذا الكتاب) أن نجد بديلاً عن كلمة «منحط»، لأن ظلالها في اللغة العربية تقود للوهلة الأولى إلى دلالات قد تبدو بعيدة عن مغزى المؤلف، فالمنحط في الاستخدام الدارج، وفي الخيال الشعبي العربي، كما في الخيال الغربي، يرتبط عادة بعدم الالتزام بالمعايير الاجتماعية، أو غياب الوازع الأخلاقي... ولكننا كنا نعود فنرجّح الكلمة كلما ابتعدنا عنها.

كلمة «**عصر الانحطاط**» مألوفة لدينا نحن العرب، ونسمّي بها عصراً طويلاً معتماً قد نمطّطهُ ليغطّي ستة قرون! أو قد نكتفي بأن نصف به زمناً مشؤوماً من تاريخنا نخصّصه قبل كل شيء لوصف الحقبة العثمانية المظلمة مثلاً، ولسنا غرباء على كل حال عن الانحطاط في الزمن المعاصر الذي تتآكل فيه أطرافنا قوى غريبة ليست خلواً من الثارات التاريخية والأطماع المستقبلية.

الانحطاط بدلالته القدحية في اللغة العربية استخدام حديث، لم يعرفه العرب قديماً، وإن استخدموا كلمات أخرى متفرقة تجتمع على معناه، على أن هذا

الاستخدام يتفق تماماً مع دلالته في اللغات الأوروبية (باختلاف أصولها) على نحو عام، بالإضافة إلى أننا نجد من جذر الكلمة ما يفيد هذه الدلالة على الاستعارة، فالحطُّ في «لسان العرب» هو الوضْعُ والإنزال: «حطَّه يحُطّه حطّاً فانْحَطَّ»، و«حطّه: وضعه، أنزله»، و«حَطّ السّعرُ وانحطَّ: رَخُصَ»، و«الحَطُّ: الحَدْرُ من عُلْو»، و«الفعل اللّازم الانحطاط»، و«الحِطَّةُ: نقصان المرتبة». ومن ذلك كان في استخدامنا الحديث أنّ كلَّ دركٍ (أو مقام أو مستوى) خالفَ المأمولَ فكأن أدنى من الرجاءِ فهو منحطٌّ.

***

ليس المجتمع المنحط، في تصوّر هذا الكتاب، مجرّد شكل من أشكال المدينة الفاسدة، أو صورة من صور الديستوبيا، البائس منها أو الباذخ (إذا أمكن تصوّر مجتمع ديستوبي باذخ).

إذا كنت تعيش في ديستوبيا، فأنت لا تشعر بالحياة، مهما حاولت، ولن تشعر بها إلا إذا كنت إنساناً مفكّراً غير ممتثل. وإذا كنت تعيش في مجتمع منحط، فأنت لا تستطيع الصبر على الحياة فيه، مهما حاولت، ولن تتحرّر منه، إلا إذا كنت إنساناً مفكّراً غير ممتثل.

رفضُ الديستوبيا -إذا وُجدت- يتطلّب فعلاً ثورياً، لا أقلّ (قد يعني ذلك مظاهرة احتجاج أو احتلال شارع ما، أو ممارسة العنف)، رفضُ المجتمع المنحط من ناحية أخرى يتطلّب مقدرة ذهنية على الامتناع ورفض القبول بآليات الاستجابة والامتثال الضرورية للاستفادة من الاستحقاقات المتاحة رسمياً، أي رفض خصائص المواطنة (قد يعني ذلك تأليف كتاب استفزازي، ومرِحٌ أيضاً).

إن المجتمع المنحط هو الذي يتشكّل على نمط المدينة الفاسدة دون أن يعي ذلك. الوعي بالفساد (الأخلاقي، السياسي، الاقتصادي، وحتى الابتكاري) شرط أساسي في نشأة الديستوبيا، أما الانحطاط فهو العملية الفعلية التي ينجرّ

إليها مجتمعٌ يلاحظ سقوطه ولا يفعل شيئاً، ثم هي تبتلعه دون أن يشعر بذلك لأنه يظنّ أنه ما زال سادراً في سقوط لم يكتمل بعد، وأنه بالإمكان إنقاذ المجتمع في أي لحظة من لحظات القدر الرهيبة.

هذا فرقٌ بين الديستوبيا والمجتمع المنحط. تبدأ نهاية الأولى إذا واجهها فعل ثوريّ مباشر يسعى إلى تغييرها، وينتهي الثاني عندما تمتنع مكوّناته عن الاستجابة له فيعمل على استبدال آلياته لكي يحقّق قدراً أكبر من تلبية الحاجات. ولكن ما هي الحدود التي تفصل بين فعل الثورة وفكرة الامتناع؟ الأول عنيف غالباً وقد لا يكون مؤثّراً فعلاً، والثانية سلميّة في ظاهرها ولكنها شديدة التأثير. الأول قد يكون من خارج الكيان نفسه، أما الثانية فلا تكون إلا من داخله. الأول طَمُوح متطلّع، والثانية قنوعة راضية. ما الذي يجمعها إذن مع كل هذه الاختلافات؟ الإجابة: عدم الامتثال.

عدم الامتثال يمكّن كل امرئ من استخدام إمكانية مهمّة يستطيع بها إثبات أحقيته بالوجود. لا يجب أن يرضى، حتى وإن لم يقدّم حلاً مؤكّداً أو حلاً يقبل التعزيز من الآخرين (الممثلين بحكم وجودهم الاجتماعي). إن الانحطاط «يبدأ عندما يَقبلُ الناس العبثَ واللاجدوى كأن ذلك هو الوضع المألوف»، كما يقول برزون، على الناس إذن ألا يمتثلوا أكثر من ذلك، عليهم أن يمتنعوا عن القبول بما هو متاح وأن يبحثوا عمّا هو ضروري. هذه إحدى الدروس المستفادة من كتاب «المجتمع المنحط»، ولا يتّصل الأمر بكونك مواطناً أمريكياً، أو غير ذلك، أو حتى إذا لم تكن مواطناً على الإطلاق (هذا التصنيف الأخير يشمل قلّةً في العالم ولكنها مؤثّرة حقاً). إن داوثت يبثّ الوعي بحالة الانحطاط في المجتمع ويقرّبه من صورة الديستوبيا المريحة وربما الراقية، ولكنها تظلّ مدينة فاسدة، ولا بد من تغييرها.

***

يرتبط الانحطاط على مستوى العالم بتقسيماته الأممية المتداخلة. الموضوعات التي تثير انتباه العالم مثل التخطيط لاستغلال الموارد ومستقبل الطاقة وضرورة إحداث توازن ديمغرافي... إلخ، لا يمكن فصلها عن العلاقة بين مَن يملك ومَن ينتفع بما يملكه الآخرون، وعن الرغبة الجادّة في تقدّم العالم، وعن ضرورة استئثار الأمم الأكثر تقدّماً بثروات العالم من أجل خير العالم المشترك، إذ لا يكفي أمّةً ما أن تكون غنيّةً لكي تكون متقدّمةً أو تكون منحطّةً.

مثل هذا التصوّر يستند إلى تراث قديم من الحروب والسطو والإبادة، ولكنّ «المجتمع المنحط» لا يتحدّث بصراحة عن ذلك، بل يضمّنه رؤيته «المركّبة»، بما يعني أننا نلمس فيهِ نوعاً من إعادة تشكيل العالم، أو من الإنطلاق من صورة ما عن العالم مختلفة عما نعرفه.

لنتحدث إذن عن داوئت العميق، أو الرائي (وهو لن يحبّ هذا الوصف). في «جوهر» هذا الكتاب –دون أن يقول المؤلف ذلك- يبدو العالم عالمَين: العالم والعالم–الظّل.

إن الثاني يعيش في عتمة الشرق، أما الأول فهو الذي تشرق عليه الشمس من الغرب! العالم في نظرهِ، أو لبّ العالم الذي يبثّ في الأمم شعورها بالحياة ويعزّز إرادتها ويلهمها رغبة الاستمرار وإنجاز الوعد (إلى هذا الحد يصبح داوئت كهنوتياً صوفياً في بعض الأحيان)، هو أمريكا الشمالية (باستثناء المكسيك)، وأوروبا الغربية (غير الشرقية، أي مع عدم الاعتراف الضمنيّ بالسياسة التوسّعية–الاستحواذية التي ينتهجها الإتحاد الأوروبي)، أما العالم–الظّل فهو تاريخ ضروري لا بد منه على مستوى الذاكرة، ولكنه لا يعني شيئاً على مستوى صنع المستقبل وابتكار الحلول. هذه رسالة ضمنيّة تتخلّل معظم فصول الكتاب، وهو يعود بين حين وآخر إلى الصين التي يكره أن يعدّها جزءاً من حقيقة «العالم» الحي، دون أن يجرؤ على أن يحشرها في «العالم–الظل» السّاكن. إنه يعود إلى

الصين، وبدون تمهيد غالباً، بوصفها «خللاً» في بنية العالم المتقدم، أكثر من كونها فاعلاً حقيقياً وضرورياً، هكذا يراها. إنها الروح الشريرة التي تخرج من العالم السفلي وتزعج العالم الخارجي، لا شيء يستهويها غير أن تظهر فجأة وهي ترتدي قناع التنين لتخيف الجيل الأمريكي الصّاعد الذي يعمل بكل طاقته على إنقاذ العالم! يريد أن يقول، دون أن ينتبه إلى أثر جيناته البيضاء النشطة: الصين أشباحٌ معتمة في «هالوين» العالم، أمريكا هي القديس الذي يمتطي حصانه الأبيض ليصرع التنين. داوثت يدق نواقيس الخطر تحسباً لكابوس الغرب الكبير: أن تَرِثَ الحضارةُ الصينية الأرضَ بعد صراع خفيّ وغير عنيف مع الولايات المتحدة!

***

يرتبط الانحطاط على مستوى العالم بتقسيماته الأممية المتداخلة، وفي الخلفية، أو «وراء الكواليس» كما يفضّل داوثت أن يقول، أي في عمق ثقافات العالم الأممية (العالم الذي ما زلنا نعيشه ونقلق من أجله ونسعى إلى أن يكون أفضل، نحن الشعوب الهامشية، ولكن الأساسية)، هناك الأقل انحطاطاً والمنحط والأكثر انحطاطاً، وبهذا المعنى الذي يكمن في عمق «رسالته»، من وجهة نظري، هناك أمم تنحو إلى العيش على نمط تقليدي واحد وتدافع عنه، وهي مكتفية بذاتها وساكنة، ونفترض أنها الأقل درجةً بمقياس الانحطاط بما هو حركة. وأمم تقاوم العيش بما لديها من أنماط ولكنها لا تستطيع الاكتفاء بذاتها، لأنها متطلّبة، ونفترض أنه منحطّة، ودائمة البحث. وأمم فقدت كل أمل في العيش بمفردها دون أن تتطفّل على غيرها، لأنها تفتقد إلى نمط خاص، ونفترض أنها الأكثر انحطاطاً.

ربما نفكّر أيضاً في تصنيف آخر يعيد تسمية وترتيب هذه الخريطة:

- أمم منغلقة (أو شبه منغلقة)، لا خطر منها على العالم، وهي مفيدة على مستوى الاستقرار ومشاركة الموارد (معظم دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية،

وكذلك «الدول الواقعة إلى الجنوب من أوروبا والدول القادمة من الشرق»، كما يسميها الكتاب، وتعني هذه العبارة الطويلة: الدول العربية).

- أمم منغلقة-منفتحة (بحسب ضرورتها الخاصة)، لا خطر مباشر منها على العالم، ولكنها تهدّد استقراره إذا تنمّرت، والأفضل المحافظة على هدوئها، (بعض الدول الآسيوية والأوروبية).

- أمم منفتحة (دون قيود)، تدّعي ألّا خطر يأتي منها، أو تدّعي أنها تحمي العالم من الخطر (الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أوروبا الغربية).

تبدو جميع هذه الأمم «لا خطر منها على العالم»، حقيقةً أو ادّعاءً، عمّا يأتي كل هذا الخطر إذن؟ لنُعِد ترتيب هذه الخريط مرةً أخرى:

- الدول المتقدمة الرأسمالية، وهي ثرية جداً، ويعدّها منحطّةً Decadent جميعاً، وبعضها أكثر انحطاطاً Most-decadent من بعضها الآخر.

- الدول المتقدمة شبه الرأسمالية (وأحياناً غير الرأسمالية)، وهي ثريةٌ، ويعدّها شبهَ منحطّة Semi-decadent.

- الدول النامية، متوسطة الثراء (وأحيان دون مستوى الثراء، ولكنها ليست فقيرة)، ولا يهمه كثيراً أن يسميها غيرَ منحطة Non-decadent، ولكنها تبدو في طريقها إلى أن تكون شبه منحطة، ثم تواصل طريقها إلى الانحطاط الكامل.

لكي تكون منحطّاً لا بد لك أن تكون ثرياً، أو بالأحرى على مستوى «متقدّم» من الثراء!

نستطيع أن نستنتج هذا الترتيب الثلاثي الأبعاد دون أن نضفي عليه طابعاً تاريخياً أو حضارياً، أو أن نحتسب معدّل الهيمنة الفعلية على صنع مادة العالم من فعاليات وأدوار معاصرة، بل بالعودة إلى الطابع الأساسي الذي يسم دور كل كتلة على حدة بدالّة الثراء والانتفاع والحضور، لا بدالّة الملكية. إن هذه التركيبة قد

تمكّننا من إعادة ترتيب العالم ضمن مسارات كبرى محدّدة ومعدودة، محدّدة لأن الوسوم التي تصنّفها قليلة، ومعدودة لأن كلاً منها يكاد ينحصر في قارّة دون أخرى، مع التّيقن بالطبع من أنَّ الحدود الفاصلة بينها تعدّ افتراضيةً إلى حدّ كبير، حيث يمكننا أن ننسب الكثير من دول العالم بقدر أو بآخر إلى اثنين من هذه الحدود الثلاثة. لكن هناك على الدوام حيثيات المركز والأطراف.

لن أطيل، الولايات المتحدة في عمق أطروحة روس داوثت أمّة منفتحة دون قيود، دولة رأسمالية متقدمة، منحطّة وثرية جداً، وهي كيان متطلّب يتطفّل على العالم بحجّة قوية هي القدرة على تجديد العالم وتخليصه من كوارثه الحالية أو المتوقّعة قريباً!

***

في إعادة تشكيل العالم هذه، يحدث أن ينعطف داوثت إلى موضوع غريب لا ينتمي فعلاً إلى محاججاته، وهو «قومية إسرائيل»! أو «الدولة الوحيدة غير المنحطّة في العالم الغربي»، إنه يمنح التسميات جزافاً: «جمهورية غربية» ولكنها لا تقع في الغرب، «ثيوقراطية» ولكنها «علمانية-ديمقراطية جداً»، ويستعين في هذه الانعطافة بالمفكر الإسرائيلي خازوني لتزكية بناء نوع من التقاليد القومية «اليهودية-البروتستانتية-الأنجلوأمريكية»، هكذا، ضد الإمبريالية الكاثوليكية.

يرى داوثت القومية مظهرًا من مظاهر الانحطاط، إلا إذا تعلّق الأمر بإسرائيل. لقد كان يمقت القومية على امتداد فصول الكتاب، ويعدّها جزءاً من تاريخ الاستبداد، ولكنه عندما يصل إلى الفصل العاشر، لا يملك وهو يتحدث عن إسرائيل إلا أن يمجّد القومية بوصفها الجدار الأخير الذي يحمي تلك التقاليد «اليهودية-البروتستانتية-الأنجلوأمريكية»، كما يقول. إن منهجيته تتلاشى بحركة واحدة سريعة غيرَ آبهٍ بواقعية ما يقول.

***

إلى جانب المتابعات السياسية والاقتصادية، ومعرفة المسارات الرئيسية الراهنة، وإلى جانب العمق الثقافي الذي يرتبط أيضًا بمتابعة وتصنيف التحولات الاجتماعية العميقة في التاريخ الأمريكي الحديث، وإلى جانب منهجيّات التعليم والتعلّم الراسخة التي تتطوّر ببطء، وإلى جانب الكتب وأسماء المؤلفين من مفكرين ومحلّلين وأساتذة جامعيين، والتي يحيل إليها المؤلف، دون أن يناقشها، بل لكي يعطي تحليلاته ما تحتاج إليه من مرجعيّة وتأصيل، ثمة نغمةٌ مدمَجَة ترافق التّحليلات التي يعتمدها في هذا الكتاب وتتطلّب من قارئه أن يكون مطّلعاً إلى حد ما على ما يحدث فعلياً في الحياة اليومية الأمريكية، أي على ما يعطي المدينة الأمريكية الحديثة وقْعها الخاص، سياسياً وثقافياً، لا عن طريق تخصّص أكاديمي معين أو اهتمام علمي شغوف، أو تدقيق معلوماتي، بل -ببساطة- عن طريق متابعة تحوّلات ثقافة البوب الشعبية.

يذكر المؤلف عشرات من عناوين الأفلام (كان ناقداً سينمائياً في جزء مهم من حياته العملية)، ويذكر إلى جانب الأفلام: أغان، وعبارات دارجة، وأدوية، وعقاقير، وأزياء وموضات، وأذواق، وصرعات تفضيلية، وهويّات اختيارية عابرة، يذكر باختصار أسلوب حياة محدَّدًا، ليجعل من الممكن ملامسة النبض اليومي في الشارع الأمريكي (الغربي عموماً) وإدماجه في تحليل عصر الانحطاط، وفق رؤيته وبما يشكّل وجهاً آخر، ظلاً أو صدًى، أو ربما هو الوجه الأصلي الذي ينتج بدوره شكلاً خارجياً رسمياً أو شبه رسمي، أو بعبارته: «من الأعالي الأكاديمية إلى أكثر الكتب الشعبية مبيعاً، ومن اللاهوت المسيحي إلى الموضة العلمانية، ومن النظرية السياسية إلى موسيقى البوب، يوجد نطاق واسع من الأشكال الثقافية والمساعي الفكرية التي ظلت عالقة لمدة عقود في نمط واحد من التكرار وإعادة الظهور... حيث يتعاقب التكرار والاحباط، والسأم والتعب»، أما على مستوى الثقافة الشعبية المباشر، الإيقاع اليومي الذي يصنع توجهات الناس ويعيدون صنعهُ، هناك بالطبع الأثر الانحطاطي الذي يرافق هذا المستوى:

الشعبوية، وجنون التحشّد على الإنترنت، وعودة أشكال مبتذلة من التطرف السياسي، وانتشار نظريات المؤامرة، والأكاذيب والدعايات الموجّهة، وانتشار الأخبار الزائفة بجميع أشكالها... كلّ ما يحجب القدرة على الاختيار العقلاني، وكلّ ما يجعل الانحطاط «الطبيعي» منحطاً وأحمق، وقحاً وهمجياً، بطريقة «ليست طبيعية» ولا يمكن احتمالها أو التغاضي عنها.

***

«الانحطاط يدافع عن نفسه» فيكون قادراً على الاستمرار، دلالةً على مرونته الممكنة، وديمومته المحتملة على مدى عقود قادمة، وهذا ما يجعله مختلفاً عن الركود. إن العبث واللاجدوى والتكرار من سمات الركود، لكن الاختمار سمة رئيسية في الانحطاط. نهاية الاختمار تعني التشكّل من جديد، وتعني أن الكيان (المجتمع والدولة) مقبل على مرحلة جديدة.

ربّما أراد المؤلِّفُ أن يخرج من الجدلية التناوبيّة المعتادة نمو-ركود، والتي نجد أمثلتها التاريخية والحضارية في كل مكان من قارات العالم تقريباً، وأن يثبّت بدلاً عن ذلك الثلاثية التي يقترحها: «نمو-ركود-انحطاط» مستعيناً بأمثلة عالمية أخرى في أوروبا وآسيا، مع الحرص على إبراز ذلك الفارق الدقيق بين مرحلتي الانحطاط والركود- حيث يسبق الثاني الأولَ الذي يسعى إلى استعادة أو تجديد مظاهر النمو وتوظيفها حتّى يتمكّن من الخروج من حالة التدهور العامة التي استسلمت أمام واقع الركود وعدم النمو، فالانحطاط بهذا المعنى هو «ركود مزدهر»، كما يسميه داوثت، أي أنه لحظة التلاقي بين ما تبقى من مظاهر النمو، أو ما تمت استعادته وإعادة تفعيله بنسبة معينة، وبين ما يستجدّ من مظاهر الركود التي صارت تطغى على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في وقت واحد، اللحظة التي تبدو فيها الديستوبيا مقبلةً على أن تخرج من معقل التخيّلات وتعيش على الأرض، اللحظة التي تتحوّل فيها المكونات (السياسية، الاقتصادية،

الاجتماعية) إلى حالة من العطالة، غير قادرة على مواصلة العمل بطريقة يفترض أنها طبيعية، اللحظة التي يؤول فيها الازدهار إلى «حالة دراسية» أكثر من كونه واقعاً معاشاً لا يكاد يفكّر فيه المواطن.

***

لا يخبرنا المؤلف كيف سينتهي الانحطاط في الولايات المتحدة بقدر ما يخبرنا كيف سينتهي في العالم، ثم الولايات المتحدة ضمناً. أو بالأحرى: كيف أن الانحطاط (الأمريكي) سيُنهي العالم «القديم» (غير الأمريكي) فتتمكن أمريكا بذلك من إنقاذ نفسها! وكيف أن وأن الولايات المتحدة التي تحميها المحيطات سوف تنجو في الأثناء، ثم ستعيد ترتيب أولوياتها ورؤيتها للعالم الذي لم يعد موجودًا كما كان. فلنهدم كل شيء ولنحتفظ لأنفسنا بمخرج غير مرئي من تحت الأنقاض! نحن نتعرّف في معظم فصول الكتاب على الانحطاط في الولايات المتحدة بشكل أساسي (وفي الغرب إلى حدّ ما)، حتى نصل إلى الفصول الأخيرة حيث يسحب المؤلف رؤيته على العالم بأسره، وحيث يبدو أكثر ابتعاداً عن التحليل والتمهيد المنطقي، وأكثر تعجّلاً في طرح استنتاجاته، التي تأتي أشبه بالتنبّؤات، دون أن يهتمّ كثيراً بالتّأثيث لها بما تتطلبه من أسباب ومعطيات. إنه سيناريو ممتع، ولكن لا تبحثوا له عن تفسيرات محدَّدة، باستثناء إمكانيّة تعميم الانحطاط عالمياً، ثم مراقبة ما يحدث.

سوف يدخل العالم حقبة جديدة هي أشبه بالقروسطيّة المستقبليّة، بسبب تغيرات المناخ التي لا ترحم، وسيترتب على ذلك أن ينفرط عقد الاتحاد الأوروبي تدريجياً، ثم تزداد القارة العجوز انقساماً على نفسها، ليس هذا فقط، بل تنشأ فيها دويلات أورو-عربية Eurabic وأورو-أفريقية Eurafrican تحيط بالمدن الكبرى التي كانت قد استقلّت هي الأخرى قبل ذلك. وهكذا قد تتشكّل بمرور الوقت «دول قومية جديدة، أو قديمة-جديدة، أو إمبراطورية أوروبية جديدة» تغيّر

خريطة العالم. إن داونت متعجّلاً صورة المستقبل القادم الذي تقود إليه كارثة المناخ (لا أحد يدري متى أو كيف) والهجرة الجماعية والاختلالات السكانية، أي الظواهر التي تحفّز الهجرات المليونيّة الزاحفة من الجنوب والشرق الملتهبيْن باتجاه أوروبا الباردة! لا يتردّد في عرض هذا السيناريو الغريب، دون أن يضع احتمالاً بسيطاً واحداً وهو أن الاتحاد الأوروبي قويّ بما يكفي لكي يستبدل سياسة الهجرة واللجوء إليه في أي وقت إذا ما استشعر خطراً صغيراً قد يكلّفه الكثير مستقبلاً.

في هذا الاحتمال القروسطيّ الجديد الذي يتأجّج حماسةً صليبية لا تعدم نبوءات داونت حلاً سريعاً، بغض النظر عن المعطيات التي تؤسّسه، ويتمثّل في أن «القوة الوحيدة القادرة على توحيد أوروبا المفككة... قد تكون قوى الشركات، شركات التكنولوجيا قبل كل شيء، والتي ستكون مقراتها في الولايات المتحدة»، وحتى لا يفقد الحل عالميّته فإنه يضيف الصين إلى الولايات المتحدة، حيث تقوم هذه الشركات بمراقبة المواطنين والمهاجرين على السواء، عن طريق الأقمار الصناعية والمشروعات المماثلة التي تتغذّى على ما سيدفعه المراقَبون أنفسهم في أمم العالم شكل ضرائب ورسوم! المنقذُ تكنولوجيٌّ لا جدل. لا بد من ثورات تقنيّة حاسمة: ثورة في إنتاج الطاقة، ثورة في الروبوتات والميكنة، ثورة في الطب والتكنولوجيا الحيوية، ثورة في ارتياد الفضاء، ثورة في الذكاء الاصطناعي.

أما الولايات المتحدة (التي تصنع تلك الثورات التقنية الحاسمة) فسوف تجد بحلول ذلك المستقبل المضطرب رجلها القوي الذي سيتولى مقاليد الحكم ويشرف على كل شي، سوف تجد نوعاً من «الأخ الأكبر» المستنير، أو تعمد بدلاً من ذلك إلى حلّ الأحزاب والاعتماد على مكتب سياسي يدمج أهم قوتين أمريكيتين لم يُصبْهما الانحطاط وهما وادي السيليكون والجيش «في نظام واحد يكون قد احتفظ بالأشكال الجمهورية بالطريقة التي تحافظ بها الصين حالياً على الأشكال الماركسية، أي كأوهام مغرية وإيماءات بلاغية لا يصدقها أحد» هذه إحدى لحظات داونت الأكثر مرحاً في الكتاب، ربما تشفياً من ثِقَل «المجتمع المنحط»

ونكايةً به، رغبةً منه في وضع أسوأ السيناريوهات احتمالاً.

ليس علينا أن نبحث عن الاحتمالات المنطقية في هذه «النبوءة الرؤيويّة» (نسبةً إلى سفر الرّؤيا)، والتي تذكرنا حماستها الضمنية على نحو ما بخطاب ترمب الاستنهاضي الذي كان «بياناً يجسّد البارانويا العرقية والدينية» في بولندا سنة 2017 (انظر الفصل العاشر)، فلنكتف بها إذن على أنها البوق الصدّاح الذي ينفخه داوثت في وجوه النخب الحمقاء في أمريكا وأوروبا مستفزّاً طرقهم في التفكير والتطلّع إلى المستقبل. أنا شخصياً أشعر بأنه يتعاطف مع أسطورة كاساندرا ابنة ملك طروادة، التي مُنحت موهبة التنبؤ، ولكن قُدّر عليها ألا يصدقها أحد. وهو على كل حال، يختم بالعودة إلى الدور الأخلاقي الذي يلعبه التاريخ، ما يجعله كما يقول «متشككاً في أن الكارثة ستحلّ»، ولكنني أعتقد أن المسألة لا علاقة لها بهذا الدور الافتراضي (أي الوازع الأخلاقي) قدر علاقتها بالسياقات التاريخية العمليّة واللاأخلاقية التي صنعت خريطة العالم بما تكتنفه من جيوب، وهي لن تغيرها الآن إلا إذا جدّت أسباب أخرى أكثر أهميّة من الاحتباس الحراري في حسابات الدول العظمى.

***

في حالات كثيرة تشهدها قارات العالم (أوروبا ليست استثناءً بالطبع) حيث تكون «الدولة البوليسية الورديّة» أو «الاستبداد الناعم» قَدَراً سهلاً إلى حدّ ما ويمكن «ابتلاعه» بالمقارنة مع أنظمة ديستوبيّة تحتكر كل شيء، بما في ذلك السلام الشخصي والشعور بالحياة، وحيث لا معنى للخير الأسمى سوى القناعة والرضى والصمت، يبدو الانحطاط حلقةً مفتقدة لم يحن زمنها بعد، لأنها –ببساطة– هي الجزء الذي يجب فيه على الدولة القويّة أن تعمد إلى إعادة ضبط الإعدادات العاملة بناء على استجابة محتملة يشترطها المستقبل، إنها حقاً جدليّة التسامي: الصعود ثم الصعود. تلك الدولة مضطرة –تقنياً– إلى التكيّف مع

التناوب والمداومة، لا التكرار، حيث تتطلب قاعدة «تحقيق الخير الأسمى من أجل الجميع» -بعبارة داوثت: «أن نحافظ على تشغيل النظام الحالي ونسعى إلى استقراره في مواجهة أوهام اليوتوبيا».

تكمن فعالية الاستقرار في القدرة على موازنة الاحتياجات المادية مع الاستمرار دون تكرار، أي مع المحافظة على النمو، أو على حدّ أدنى من عدم التراجع عن نسبة العمل بنمط متوازن. تلك هي الحياة، وهذه إحدى «القواعد الطبيعية» التي لا تحتاج إلى تنظير أو تعميق أو تطوير، ولكن مثل هذه القواعد البديهية في التاريخ الإنساني تكادُ تكون معدودة، لأن المجتمع الإنساني نادراً ما كان «طبيعياً» كما يجب، أما في المجتمع المنحط فإن «النمو من أجل النمو» يصبح هو القاعدة، دون أن يتحقّق الحدّ الأدنى من نسبة النمو، أي على العكس من المجتمع الطبيعي حيث «قاعدة» الانحطاط هذه ليست سوى نوع من التجديف المتخيّل الذي لا يفكّر فيه سوى الديستوبيّون، وهم كُثْر، وخاصةً السياسيّون الحالمون الحمقى، مطاردو أوهام التفوق.

ولكن، أيجب أن تكونَ على حق دائما؟ ليس مهماً أن تكون على حق فتحدُثَ الكارثة التي تنبّأتَ بها، ولكن من المهم أن تقنع الآخرين بمعالجة الأسباب قبل أن تصل النهاية التي حذّرتَ منها.

***

أخيراً..

يبدو روس داوثت شمشونيًّا جديدًا مزوّدًا بما يكفي من الحجج الكفيلة بإقناع قرّائه إذا كانوا أمريكيين أو أوروبيين. ولكن ماذا عن غير الغربيين؟ يكاد يقول في هذا الكتاب: حسناً، سوف نفكّر في ذلك لاحقاً.

قد تعتقد أنك تقرأ في كل فصل جديد شيئاً جديدًا عن أمريكياً (أو غربياً)

مختلفاً عمّا سبقه، وتظنّ أنك غير قادر على الربط بين آراء المؤلف المبعثرة، ولكنك تعثر ولابد، كلما تقدّمت في القراءة، على ذلك الخيط الذي يربط هذا التنوّع ويجعله نسيجاً واحداً: الانحطاط. لذا، أعتقد أن هذا الكتاب لا يقرأ بالاختيار والتفضيل بين أجزائه وفصوله، بل لا بد من قراءته على التتالي، بدءاً بالتقديم، لكي يقف القارئ على الأسباب التي جعلت المؤلف يخلع إزاره الأمريكي بالتدريج وينحو إلى تلك الخاتمة المعولة، تلبيةً لرغبته القاتلة في إنقاذ أمريكا المنحطّة... ولكن كيف؟ عن طريق الاستمرار في "استهلاك العالم"، أو كما يقول جاك برزون: عن طريق "الاقتراض من العالم على نطاق واسع"، ذلك العالم شبه المنحط و/ أو غير المنحط بعد..

ع. المحجوب

مقدمة

إغلاق الحدود

عندما غادر ثلاثة من البشر سطح الأرض في أواخر يوليو من عام 1969 ليقفوا ويمشوا ويقفزوا على سطح القمر، تاركين وراءهم الجنس البشريّ الهشّ المكلّل بالأخطاء والذي أمضى آلافاً من السنين الطويلة من التاريخ الواعي، إنما كانوا يمثّلون ذروةَ الإنجاز البشري وجرأته. إنه أعظم انتصار متفرّد اشترك في إنجازه العلمُ الحديث والحكومة والصناعة معاً، وهو المسعى الأكثر استثنائية الذي حقّقه العصر الأمريكي في التاريخ الحديث.

كتب نورمان ميلر[2] عن تلك المرحلة التي تبدأ من وعد جون كنيدي بغزو القمر إلى حقبة نيكسون، قائلاً: «أربعة اغتيالات تلت ذلك، وحربٌ في فيتنام لاحقًا، ثم حرق أحياء السود، والهيبيّون والمخدرات والعديد من الانتفاضات الطلابية في وقت لاحق، ثم انعقاد المؤتمر الديمقراطي في شيكاغو بعد سبع سنوات، ويلي ذلك الإضراب المدرسي في نيويورك، وظهور ثورة الحريات الجنسية. نعم، كانت ثمانية أعوام صنعت عقداً دراميا مخيفاً وشبه كارثي. لقد كنّا مستعدّين لغزو القمر». كنّا مستعدّين، على الرغم من أن تلك القفزة في الفضاء كانت مرتبطة على نحو ما بثورة الحقوق المدنية، وطفرة المواليد الجدد[3]، والتحوّل في الموسيقى والأخلاق والأعراف، وآمال اليوتوبيا التي استعرت في

(2). نورمان ميلر Norman Mailer (1923- 2007): روائي ومسرحي وصحفي وناشط سياسي أمريكي.

(3). طفرة المواليد Baby boomers: وصف لمعدّل المواليد المتنامي في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية.

مدن باريس وودستوك وسان فرانسيسكو.

كان ميلر ذا نظرة صوفية للتاريخ، ولكنها نظرة تبدو مناسبة تماماً لتلك الفترة، ففي المجتمع الذي حقّق ذلك الإنجاز، كان هبوط أبولو متناقضاً مع الفوضى الاجتماعية في الستينيات مثلما كان تتويجاً للوعد الثوري في ذلك العقد، وقد أثبت أن ما تشهده أمريكا من كفاءة ومن تفاؤل تقني يميّز عصر أيزنهاور يمكن أن يثبت جدارته حتى مع ما يحدث من اضطرابات ثقافية مضادّة[4]، ويمثل في حدّ ذاته جزءاً من لحظات «**عصر الدلو**»[5] الغامضة والمشوشة. ومثل أي شيء آخر حدث على الأرض، فقد ساعد غزو القمر على جعل صيف عام 69 يبدو وكأنه بداية حقبة جديدة، لا ذروتها، حيث لن تكون الحدود مغلقة بعد الآن، ولن تكتظّ الخريطة الأرضية، وسوف يكون بوسع البشر أن يزيدوا من اكتشافاتهم، وأن يوسّعوا إمبراطورياتهم وحججهم وتخيلاتهم وطموحاتهم حتى تصل إلى النجوم ذاتها.

كان هذا هو عصر الفضاء، الذي استمر حوالي ثلاثين عاماً، من سبوتنيك[6] في1957 إلى انفجار مكوك الفضاء **تشالنجر**[7] عام 1986. وقد نسينا، نحن الذين نعيش عواقب هذا العصر، كيف كان من المتوقّع أن يستمر. في كتابه

---

(4). الثقافة المضادة Counterculture: أنماط ثقافية تختلف عن الثقافة الاجتماعية السائدة أو تتناقض معها. وقد ظهرت الثورة الثقافية في الولايات المتحدة (والدول الغربية) بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات من القرن الماضي مناهضةً الحروب والتدخلات العسكرية، ومتزامنة مع حركة الحقوق المدنية وحقوق المرأة، وكان لها انعكاس مباشر على الفنون والآداب وأسلوب الحياة والسلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية.

(5). عصر الدلو Age of Aquarius: تعبير يدلّ في الثقافة الشعبية على ذروة حركات اجتماعية مختلفة مثل حركة الهيبيين في الستينات والسبعينيات وعلى المناداة بإحلال ثقافة السلام ونبذ الحروب، أو ما يعرف بالعصر الجديد.

(6). سبوتنيك Sputnik: أول قمر صناعي يدور حول الأرض، أطلقه الاتحاد السوفييتي في 4 أكتوبر 1957.

(7). تشالنجر Challenger: مكوك فضائي أمريكي انفجر بعد 73 ثانية من انطلاقه، وقُتل أعضاء طاقمه السبعة في 28 يناير 1986.

السردي عن هذه المرحلة «السموات والأرض: تاريخ سياسي لعصر الفضاء»[8]، يعرض والتر مكدوغال توقعات الخبراء في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي: عمّا قريب سوف نرى المركبات الفضائية التي يمكن إعادة استخدامها باستمرار وهي «تصعد وتهبط مثل الملائكة على سلّم يعقوب»[9]، وسوف يكون لكلتا القوتين العظميين مستعمرات قمرية بحلول عام 2000، كما أن الإرساليات البشرية إلى المريخ ستبدأ في غضون عقد من الهبوط على سطح القمر، وقريباً سيصبح هذا الفضاء مصدراً لثورات إنتاج الطاقة والتحكم في الطقس وغير ذلك. وبالمثل مع الثقافة الشعبية في عصر أبولو فإننا نجد أن «أوديسا الفضاء 2001»[10] قد وعد ببعثة مأهولة تتوجّه إلى كوكب المشتري في السنة المشار إليها (أي 2001)، في حين أن الجدول الزمني للمستقبل في «رحلة النجوم» (ستار تريك) [11] يفترض أن استكشاف الفضاء واستيطانه سيتبع برنامج أبولو بشكل طبيعي على نحو أشبه ما يكون برحلات البحارة والمستوطنين في اكتشافات كولومبوس.

لم يمت هذا الحلم مع انفجار تشالنجر تماماً، لكنه فقد أتباعه مع السبعينيات المخيبة للآمال على الأرض، ثم أصبح منذ حقبة ريغان فصاعداً أملاً خيالياً يبعث على الشغف إلى حدّ ما، وقُدّمَ بوصفه علامة على الازدهار الذي يغذيه رؤساءُ يسعون إلى إلهام وتحفيز ذلك النوع من الأثرياء غريبي الأطوار الذين يستمرون

(8). السموات والأرض.. تاريخ سياسي لعصر الفضاء The Heavens and the Earth: A Political History of the Space Age كتاب للمؤرخ الأمريكي والتر مكدوغال Walter McDougall صدر عام 1985. خصّص جزءاً كبيراً منه لسباق غزو الفضاء بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.

(9). سلّم يعقوب: سلم رآه النبي يعقوب في المنام يمتدّ من الأرض إلى السماء، تهبط عليه الملائكة وتصعد.

(10). أوديسا الفضاء A Space Odyssey 2001 : فيلم من أفلام الخيال العلمي تم أنتاجه عام 1969.

(11). ستار تريك Star Trek: تعود السلسلة التلفزيونية الأصلية إلى عام 1966 وهي من إخراج جين رودنبيري، ثم تحولت إلى سلسلة سينمائية بدأت عام 1979 من إخراج روبرت وايز

أموالهم في تقنية التجميد[12]. ثم أصبح من الواضح أننا لن نسيطر على شساعة الفضاء بنفس السهولة التي عَبَرَ بها المستكشفون المحيط الأطلسي، وهكذا تضاءل انتباه الجمهور وحماسه، كما تضاءل الدعم السياسي، وفقد الخيال العلمي شغفه وصار بائساً.

بدأت الأفلام بشكل خاص تتعامل مع الفضاءات اللانهائية على نحو مختلف، كأنها منطقة من الرعب لا يسمع أحد فيها صراخك (كما في فيلم «الكائن الفضائي»[13] ومقلّديه من الأفلام)، أو كأنها مصدر للغزوات الشريرة، وموطنٌ لأنصاف الآلهة الخبيثة (جنون «الأجسام الطائرة»[14]، وسلسة أفلام «ملفات مجهولة»[15])، أو كبرزخ يمكن الهروب عبره والعودة إلى الأرض بأمان («أبولو 13»[16]، «الجاذبية»[17]، «المرّيخي»[18]، «آد آسترا»[19]). عندما مزج فيلم «تريك» Trek بكل ثقة ليبرالية الستينيات مع روح ارتياد الحدود في فيلم «القافلة»[20]، لم تستطع الأفلام التي تلته، مثل «حرب النجوم»[21] و«حرب المجرّة»[22]، أن تقدّم ولو مجرّد رؤية عن المستقبل البشري على الإطلاق، فلقد كانت أشبه بإرساليات قادمة من عصور ما قبل التاريخ النّجمي، كأنها رؤية بعيدة

---

(12). تقنية التجميد Cryonics: تقنية تقوم على تبريد الخلايا الحيّة وحفظها مجمّدةً على أمل إعادة إحيائها في المستقبل.

(13). الكائن الفضائي Alien: فيلم خيال علمي أُنتج عام 1979 من إخراج ريدلي سكوت، وما زال هذا الموضوع يتكرّر بحبكات مختلفة.

(14). الأطباق الطائرة UFO: كانت الأطباق الطائرة موضوع العشرات من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، مثل مسلسل UFO الذي تم إنتاجه عام 1970.

(15). ملفات مجهولة X-Files: سلسلة أفلام (بدأت عام 1998) من إخراج روب بومان، بالاقتباس من سلسلة تلفزيونية بالعنوان نفسه من إخراج كريس كارتر (11 موسماً بدأت عام 1993).

(16). أبولو 13 Apollo: فيلم درامي-وثائقي أنتج عام 1995 من إخراج رون هوارد.

(17). الجاذبية Gravity: فيلم تم إنتاجه عام 2013 من إخراج ألفونسو كوارون.

(18). المريخي Martian: فيلم تم إنتاجه عام 2015 من إخراج ريدلي سكوت.

(19). أد أسترا (إلى النجوم) Ad Astra: فيلم تم إنتاجه عام 2019 من إخراج جيمس غراي.

(20). القافلة Wagon Train: فيلم تم إنتاجه عام 1940، من إخراج إدوارد كيلي.

(21). حرب النجوم Star Wars: سلسلة أفلام بدأت عام 1977 من إخراج جورج لوكاس.

(22). حرب المجرة Battlestar Galactica: فيلم تم إنتاجه عام 2007 من إخراج غلين لارسون.

أو سحيقة. في هذه الأثناء، توسعت رحلات الفضاء غير المأهولة، ووصلت الروبوتات إلى عوالم نائية، واكتشف علماء الفلك كواكب قد تكون شبيهة بالأرض، ولكن أياً منها لم يؤجّج الخيال الشعبي كما فعلت تلك القفزة العملاقة التي أقدمت عليها البشرية في المرة الأولى. كأن الإنسانية قرّرت بشكل عام أنه مهما كان «الشيء» الذي ربما يوجد هناك، فمن المحتمل أن يظلّ بعيد المنال إلى أجل غير مسمّى.

***

لقد صار هذا التراجع يتلبّس حضارتنا الحالية. إذ لا ريب في أن المجتمعات الأكثر ديناميكية وابتكاراً كانت عبر تاريخ البشرية ذات طابع توسّعيّ على الأغلب، خارجةً بذلك عن نطاق القبائل والمدن والأمم لتضع بصماتها على عالم أكبر. كان هذا يعني الاستيطان في بعض الأحيان، ويعني الغزو في أحيان أخرى، أو حماساً تبشيرياً في غيرها، أو ربما كان مجرّد استكشاف من أجل التجارة وإشباع الفضول، ولكن ذلك كان يعني في حالة الغرب الحديث، أي الحضارة العالمية الأولى: الرّب والذهب والمجد، والمجتمعات الاستيطانية، وبسط السيطرة الإمبراطورية على نطاق واسع، والتسابق نحو القطبين الشمالي والجنوبي، وصعود القمم، ومدّ الطرق والسكك الحديدية ومسارات البواخر والخطوط الجوية وشبكات الاتصالات التي تربط أطراف العالم بنسيج كوني واحد.

كتبَ المؤرخ الأمريكي فريدريك جاكسون تورنر[23] الكلمات التالية في عام 1893، موضحاً كيف أن فكرة الحدود الغربية وواقعها قد شكّلا التاريخ الأمريكي، قائلاً: «وراء المؤسسات، ووراء الأشكال والتعديلات الدستورية، تكمن القوى الحيوية التي تدعو هذه الأجهزة إلى الحياة وتشكّلها لتستجيب

(23). فريدريك جاكسون تورنر Frederick Jackson (1861- 1932): مؤرخ أمريكي عرف بنظرية الحدود Frontier Thesis وأثرها على تكوين الديمقراطية وبناء الشخصية الأمريكية.

للظروف المتغيرة». ثمة مغزى يمكن من خلاله تطبيق أطروحة تورنر الحدوديّة بشكل مفيد على المشروع الحديث بأكمله، بمؤسساته وأشكاله وافتراضاته الأساسية التي تمكننا من إدراك المهمة التاريخية وتوقعات التقدّم الدائم، من حيث أنها رُتّبت جميعاً حول مبدأ استمرارية الارتياد والتوسّع والاكتشاف.

في الواقع، ونظراً لأن قوى التاريخ الحديث العميقة، مثل التصنيع والمركزية السياسية والعلمنة، غالباً ما عطّلت إيقاعات الحياة المعاشة باستقرار وديمومة في مكان ثابت، فإن أيديولوجية الارتياد والاكتشاف كانت ضرورية أكثر بكثير ممّا كانت عليه في العديد من الحضارات السابقة، وهي تقدّم شكلاً جديداً من العزاء لاستبدال ما قدّمه الإيمان والقبيلة والعائلة والتسلسل الهرمي. ففي الحداثة، يتلاشى العالم السابق باستمرار، وتذوب صلابة الماضي كأنها لم تكن، لكن وعداً آخر بالمقابل يخبرنا بأن الغد سوف يأتي بشيء جديد، وأن الحياة الأفضل هي مجرد رحلة بحرية طويلة أو قافلة تواصل ترحالها بعيداً، وأن عصرنا هو عصر العجائب التي تتكشف على التوالي وهو أكثر من كونه مجرّد تعويض عمّا كنا قد فقدناه.

وكما تشهد الجرائم التي أسرفت الإمبراطوريات الغربية في ارتكابها، كانت هذه طريقة غامضة أخلاقياً لبناء الحضارة، ولدى الشعوب التي اكتشفت ثمّ هُجرت، بل وأبيدت في بعض الأحيان، أسبابٌ وجيهة للشكّ في أن هذه الحضارة تمثّل أي نوع من الكمال النموذجي. لكن النظام الذي يفعّله حلم التقّدم هو الآن النظام الذي يعيش فيه معظم البشر ويتحرّكون ويحافظون على كيانهم، وهو الوجهة التي يبدو أن جميع المجتمعات البشرية تتقدّم نحوها، بما في ذلك سكان المجتمعات التي كانت ذات يوم ضحية منطق «الحضارة» الفظيع (لا يوجد مجتمع أكثر حداثة، يقف على حافة التاريخ، أكثر من الأمة اليابانية، التي أُجبرت على أن تجثو على ركبتيها قبل خمسة وسبعين عاماً فقط باستخدام سلاح كان بمثابة مثالٍ يجسّد روح الحداثة والاكتشاف مثله مثل الهبوط على سطح القمر). لقد انتشرت الموجة

الحديثة الكبرى عبر الثقافات والأقاليم، من أيرلندا إلى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ومن الأمازون إلى الصين، وفي المجتمعات التي بدا أنها تحافظ على شيء ينتمي إلى ما قبل الحداثة أو تحمل في أعماقها شيئاً غير مكتشف بعد، أما في الأمم الغربيّة حيث بدأ كل شيء، فيظلّ هناك افتراض ثقافي مركزي يقول بأن الحدود غير المستكشفة والعوالم الجديدة التي يجب غزوها ليست مرغوبة فحسب، بل هي مصدر من مصادر الحياة في حدّ ذاتها.

ثمة إذن عامل مهم يكمن في هواجس عصرنا ومخاوفه، أعني الانجراف والركود وعدم اليقين الذي يهتم به هذا الكتاب بشكل أساسي، فالحدود المادية الفعلية قد أُغلقت على مدى جيل أو أكثر، وقد وجدنا للمرة الأولى منذ عام 1491 أن المسافات شاسعة للغاية وأن التكنولوجيا محدودة جداً لا تمكّننا من الانتقال إلى مكان ما غير مكتشف حقاً، أو إلى مكان جديد فعلاً. ليس من قبيل المصادفة أن نهاية عصر الفضاء قد تزامنت مع التحوّل إلى الداخل في العالم المتقدم الذي يعيش أزمة في الثقة وانحساراً في التفاؤل، وفقدانَ الإيمان بأداء المؤسسات، وتحولاً إلى الفلسفات العلاجية وتقنيات المحاكاة، وتخلياً عن الطموح الأيديولوجي والأمل الديني في الوقت نفسه.

بالطبع، ربما حدث هذا التحول على أي حال، حتى لو كان المريخ أقرب وأكثر ملاءمة للاستيطان أو كان السفر بسرعة الضوء احتمالاً أكثر واقعية. إن وجود التخوم لا يضمن أنها ستكون هدفاً، وقد تخلّت الحضارات السابقة عن الاستكشاف لأسباب داخلية أساساً، حتى عندما كانت هناك آفاق جديدة في المتناول (لنلاحظ أن تخلّي أسرة مينغ الصينية عن الرحلات البحرية الكبرى، في عصر كولومبوس نفسه لم يحدث بسبب شساعة محيطات العالم واتّساع آفاقها، بل بسبب التغيرات التي ألّمت بأوضاع الإمبراطورية وأعادت ترتيب أولوياتها

السياسية)، وعندما خطا نيل أرمسترونغ[24] خطوته الصغيرة الأولى، برزت العديد من الأصوات التي تشنّع بالتبذير في رحلات ناسا NASA، وعدم جدوى هبوط رجل «أبيض على القمر»[25]، وظهر بعض الإنصراف إلى نزعة التشاؤم التي سبقت إدراك أننا لن نتمكّن من إرسال رواد فضاء إلى كوكب المشتري بحلول العام 2001. إن قدراً كبيراً من أفكار ما بعد الستينيات (ما بعد الكولونيالية، ودعاة حماية البيئة) تقوم على فكرة أن التوسع الغربي كان سرطانياً في الغالب، وقد امتدّ هذا النقد ليشمل فكرة غزو المجرات، مع تطبيق نفس النمط من اللغة الأيديولوجية. عندما كتب محبّ الفضاء التسعيني فريمان دايسون[26] عن استكشاف نجوم المجرّة في عدد صدر عام 2016 من مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس»[27]، انتقده ثلاثة من كتّاب الرسائل لعدم احتساب التكلفة البيئية محذّرين من أن القول بأن «الفضاء الخارجي المصمّم بشرياً human-designed الذي يعجّ بالحياة والحيوية، يبدو وكأنه كابوس من كوابيس جوزيف كونراد»[28].

ومع ذلك، يبدو في بعض الأحيان أن تطبيق الأفكار المناهضة للتوسع الإمبريالي وأفكار أنصار البيئة في مجالات السفر إلى الفضاء، كأنه نوع من اصطناع الأعذار، مثل الثعلب في حكاية إيسوب، فنحن نستمتع بإخبار أنفسنا أننا لا نريد أكل العنب على أي حال، أو أن أكله سيكون عملاً غير أخلاقي، وهذا يدعو إلى تخفيف وطأة الألم الذي تسببه معرفة أن شيئاً ما يوجد هناك، ولكنه بعيد المنال.

---

(24). نيل أرمسترونغ Neil Armstrong (1930- 2012): رائد الفضاء الأمريكي وهو أول من مشى على القمر.

(25). رجل أبيض على القمر Whitey on the Moon، هي في الأصل قصيدة كتبها جيل-سكوت هيرون عام 1970 تنتقد الإنفاق على برنامج الفضاء بينما كان الأمريكيون السود يعانون من الفقر والتهميش. وتم في 2018 إنتاج فيلم عن أرمسترونغ يحمل العنوان نفسه.

(26). فريمان دايسون Freeman Dyson: (1923- 2020): رياضي وفيزيائي أمريكي من أصل بريطاني.

(27). نيويورك ريفيو أوف بوكس The New York Review of Books مجلة أمريكية تصدر كل أسبوعين تناقش إصدارات الكتب الجديدة في الفكر والثقافة والأدب والسياسة

(28). جوزيف كونراد Joseph Conrad (1857- 1924): روائي انجليزي من أصل بولندي.

في كلتا الحالتين، وسواء تسبب إغلاق الحدود النجميّة- stellar frontiers بطريقة ما في تحوّل غرب ما بعد الستينيات إلى التشاؤم، أو أنه تفاعلَ ببساطة مع الاتجاهات السائدة بالفعل، فإنه يظلّ نقطة تحوّل في تاريخ العالم الحديث. قبل أبولو، كان من السهل أن تتخيل أن كلمة «متأخر» كانت تسمية خاطئة لمرحلة الحداثة، ذلك أن قصة حضارتنا كانت حقاً في أيامها الأولى، وأن الإمبراطوريات المهيمنة على الأرض في أوروبا وأمريكا كانت مجرد فعل أول في دراما مستمرة من التوسع والتنمية، ولكننا كنّا قد شرعنا في الانحطاط منذ أبولو.

***

تُستخدم كلمة الانحطاط- Decadence في ثقافتنا بطريقة متداخلة، ولكن نادراً ما يتم استخدامها بدقة، وفي ذلك بالطبع جزء من جاذبيتها وسحرها. إن القاموس يربطها بدلالة «انتشار الأخلاق المتدنية وحب المتعة والمال والشهرة حباً جمّاً، وما إلى ذلك»، وتبدو هذه دلالة فضفاضة غير دقيقة. كان إيبنزر سكروج[29] غير أخلاقي ومحبّاً للمال، ولكن لا أحد يستطيع وصفه بأنه منحط، وإن كنا نقول من الناحية الثقافية أنه «يوصف بالانحلال أو الانحطاط»، مما يجعلنا أقرب قليلاً إلى التعريف به، ولكنه يترك أيضاً قدراً كبيراً من عدم التحديد. ويشبه ذلك ما في المناظرات السياسية، فغالباً ما يكون الأمر مرتبطاً بنقص الدقة والتصميم في مواجهة التهديدات الخارجية (كما في اتفاقية ميونيخ التي وقعها نيفيل تشامبرلين[30]، وفي موقف دبليو بي ييتس[31] حول ما يُعدُّ الأفضل ولكنه يفتقر

(29). إيبنزر سكروج Ebenezer Scrooge: الشخصية الرئيسية في رواية تشارلز ديكنز «أنشودة عيدالميلاد» (1843م). وهو أناني وطمّاع وماكر وقاسي القلب.

(30). نيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain (1869- 1940): سياسي بريطاني شغل منصب رئيس وزراء المملكة المتحدة. وقع اتفاقية ميونخ التي تم التنازل بموجبها عن منطقة سوديتنلاند الناطقة بالألمانية في تشيكوسلوفاكيا لصالح ألمانيا. ولكنه أعلن في السنة التالية الحرب على ألمانيا عندما اجتاحت بولند في بداية الحرب العالمية الثانية.

(31). دبليو بي ييتس W. B. Yeats (1865- 1939): شاعر وكاتب إيرلندي شغل منصب عضو في مجلس الشيوخ عن الدولة الإيرلندية الحرة. عرف بدعوته إلى القومية الإيرلندية. وكان معجباً بظهور

إلى أي درجة من الإقناع).

غالباً ما يكون تعريف الانحطاط مرتبطاً في الخيال الشعبي بالجنس والشراهة، فإذا كنت تتسوّق مثلاً لشراء شيء «منحطّ» على أمازون[32]، فإن خوارزمية البحث ستقدم لك في الغالب رومانسيات إباحية وشوكولاتة الفراولة. وهذه الكلمة يمكن أن تكون أيضاً مصطلح استحسان، بمعنى الانحلال[33]، أو قد تكون مصطلح انتقاص يحطُّ من قدر الشيء، ويمكن كذلك أن تشير من الناحية الوصفيّة إلى جماليّة ما أو فلسفة معينة في القرن التاسع عشر، كما يمكن أن تشير بشكل حكمي إلى أي أسلوب قد يرى الناقد أنه يمثل تراجعاً عن مستوى جماليّ عالٍ كان سائداً في السابق، وهي أخيراً قد تلمّح إلى الإرهاق والكمال، أو بتعبير الشاعر الروسي فيتشيسلاف إيفانوف[34]: «الشعور بالقمع والكبرياء في آن واحد، كأن تكون آخر حلقة في سلسلة ما»، ولكنه الكمال النهائي الذي لم يتحقّق بعد، فلماذا إذن لا تأكل وتشرب وتكون سعيداً في هذه الاثناء؟

في محاولة استخلاص تعريف مفيد من كل هذه الدلالات المتداخلة والمترابطة، هناك ميلٌ إلى استخلاص ما يمكن أن نطلق عليه فهم «أعلى» و«أدنى» لمصطلح الانحطاط. إن التعريف الأدنى، وهو الشائع في الإعلانات والنقد الثقافي الكسول، يعرّف المصطلح بشكل أساسي على أنه يعني «الإفراط في التمتّع بتجارب الطعام والجنس والأزياء»، من الأكثر تطرّفاً (كاللهو والعربدة، وحانات

النزعات الاستبدادية المناهضة للديمقراطية في أوروبا.

(32). أمازون Amazon: شركة تجارة ألكترونية أمريكية متعددة الجنسيات مقرها في سياتل، تأسّست عام 1994.

(33). تفيد decadent دلالة الانحلال أيضاً. ومن الممكن استخدامها تعبيراً عن الاستحسان. ويقدم المؤلف هنا مثالاً، كأن تقول: «أحب هذه الكعكة، إنها منحلّة تماماً»، وتعني «سائغة تماماً». وهو استخدام دارج. إلا أننا نحافظ في جميع أجزاء الكتاب بالطبع على المعنى الأصلي الذي يفيد الانحطاط، باعتباره تدهوراً، أو بالأحرى «عملية مستمرّة من الابتعاد عن تصوّر (واقعي أو متخيل) تقود إلى الانحدار بالمعنى السلبي وفقدان المستوى المرغوب». راجع التمهيد.

(34). فيتشيسلاف إيفانوف Vyacheslav Ivanov (1866- 1949): شاعر وفيلسوف وأديب روسي.

الاسترقاق، وأوكار الأفيون)، إلى الأقل ميلاً إلى المغامرة (كالوجبات الفاخرة، وعطلات نهاية الأسبوع في فيغاس)، ولكن هذا التعريف بالطبع يفرّغ المصطلح من عناصرها الأخلاقية والسياسية تماماً.

يسعى التعريف الحالي، من ناحية أخرى، إلى أن يُدرج الجمالي والأخلاقي والسياسي معاً في لائحة اتهام حضارية شاملة، حيث يسير الانحلال الأخلاقي جنباً إلى جنب مع الجمالية المفرطة والمتعة غير المتحكّم بها، وهو ما يرتبط أيضاً بالعجز والجبن وعدم تقديم التضحيات المطلوبة لحماية الحضارة من أعدائها. إن هذا النوع من الانحطاط هو مقدمةُ كارثةٍ يكتسحنا فيها البرابرة، ويُلغى اللهو والعربدة، وتلتهم فيها النيران جميع القصور المزخرفة بإفراط!

تكمن مشكلة هذا التعريف في أن التاريخ لا يعمل بتلك الدقّة، حيث لا يخضع مسار الأخلاق، ولا الجماليات، لروايات مبسّطة عن الصعود والانحدار، كما أن ارتباط هذه الروايات بالقوة السياسية عرضيٌّ بدرجة كبيرة. إن الإمبراطوريات يمكن أن تسقط وهي في ذروة نشاطها السياسي والثقافي إذا واجهت عدوّاً قوياً بما يكفي ويتمكّن من إسقاطها، كما يمكن أن تستسلم الثقافات لما يطرأ من تجاوزات إذا وقعَ الإغراء بها وتحسين صورتها دون أن ترى بالضرورة تحلّلَ الاستقرار السياسي وانهياره (لقد مرّ أكثر من أربعمائة عام منذ عهد نيرون إلى سقوط روما الفعلي).

بالرغم من ذلك، قد يكون هناك حلّ وسط ذو جدوى، وهو تعريف الانحطاط بوصفه لا يخلو من أي حكم، ودون أن يكون حتمياً إلى حد بعيد، ومثل هذا التعريف يقتفي أثر الناقد الثقافي الكبير جاك برزون[35] الذي قام

(35) جاك بارزون Jacques Barzun: مؤرخ وفيلسوف وناقد فرنسي-أمريكي. له عدة أطروحات حول تاريخ الأفكار والتاريخ الثقافي، كتب عن العديدي من الموضوعات في حقول مختلفة، مثل التربية والإعلام والأدب والنقد والفن. نشر سنة 2000 كتابه المعروف «من البزوغ إلى الانحطاط: 500 سنة من الحياة الثقافية الغربية». ومن مؤلفاته: «العرق، دراسة في خرافة حديثة»، و«ملذات الموسيقى»، و«الجامعة الأمريكية، إلى أين تسير؟». وإليه يعود روس داوثت مراراً في هذا الكتاب.

بمسح شامل وهائل للتاريخ الثقافي الغربي بعنوان: «من البزوغ إلى الانحطاط»، وأصدر حكماً إكلينيكياً على عصرنا:

«بالاقتراض على نطاق واسع من الأراضي الأخرى، والنمو على أساس الاختلاف والابتكار، صار الغرب حضارة هجينة بامتياز، وعلى الرغم من «الترقيع» والتنازع، فإنها سعت إلى تحقيق غايات مميزة- وتلك هي وحدتها- إلا أن هذه الغايات التي استهلكت إمكاناتها إلى أقصى الحدود، هي التي تؤدي الآن إلى زوال هذه الحضارة».

ويستطرد برزون قائلاً: إن هذا الإحساس بالنهاية لا يعني بالضرورة «توقفاً أو دماراً كاملاً» (وسيكون هذا الرأي حاسماً في ما سأقدمه من حجج في هذا الكتاب)، إذ على الرغم من ارتباطه بالتدهور والانحطاط، فإن المجتمع يستطيع أن يكون منحطاً دون أن يكون بالضرورة مقبلاً على أي نوع من الانهيار.

«إن كل ما يعنيه الانحطاط هو «السقوط». إنه يدلّ على أولئك الذين يعيشون في مثل هذا الوقت عدمَ فقدان الطاقة أو الموهبة أو الحس الأخلاقي، لأنه -على العكس من ذلك- وقتٌ نشطٌ للغاية، ومليءٌ بالهواجس العميقة، وهو لا يهدأ تماماً، لأنه لا يتبيّن أي أفق يمكنه التقدّم نحوه. إن أشكال الفن، مثلما هي أشكال الحياة، تبدو منهَكة ومستنزفَة، لأن مراحل التطوّر قد استُهلكت، أما المؤسسات فهي تؤدي وظائفها بشكل مؤلم، وقد أصبح ما يحدث من تكرار وإحباط نتيجةً لا تُطاق. إن الملل والإرهاق قوّى تاريخية عظيمة.

قد يسأل المرء: كيف يعرف المؤرخ متى يبدأ الانحطاط؟ من خلال اعترافات علنية تصدر عن الضيق والإنزعاج... عندما يَقبلُ الناس العبثَ واللاجدوى كأن ذلك وضع مألوف، تكون الثقافة في طور انحطاط. إن هذا المصطلح ليس مجرد افتراء، إنها تسمية فنيّة (تقنيّة)».

مع مجازفتي بأن أكون مشتطاً، اسمحوا لي أن أحاول تنقيح تعريف برزون

قليلاً. إن الانحطاط الذي يتم استخدامه بشكل مُجدٍ يشير إلى «الركود الاقتصادي والتدهور المؤسسي والإرهاق الثقافي والفكري على مستوى عالٍ من الازدهار المادي والتطور التكنولوجي»، إنه يصف الوضع الذي يكون فيه التكرار (لا الابتكار) هو القاعدة، حيث يصيب التصلّب المؤسسات العامة والمشروعات الخاصة على حد سواء، وحيث تبدو الحياة الفكرية كأنها تدور في دوائر، وحيث تكون التطورات الجديدة في العلوم، والمشاريع الابتكارية الجديدة، أقل من المتوقع مقارنةً بما توقعه الناس منها، والأكثر حسماً من كل ذلك هو أن الركود والانحطاط غالباً ما يكونان نتيجة مباشرة للتطورات السابقة. إن المجتمع المنحط، بحكم هذا التعريف، هو ضحية نجاحه الباهر.

والآن، قد يبدو كل هذا -أي تأملات برزون ومحاولتي لتنقيح التعريف- غامضاً بشكل غير مقبول: ألا يكمن «التصلّب» في عين الناظر نفسه؟ مَن الذي يقرّر ما الذي يؤدي إلى«العبث» ويؤسّسه؟

لكن ذلك في الحقيقة يحصر النظر إلى الأشياء بطريقة مفيدة للغاية. أولاً، التّيقن من أن العنصر الاقتصادي يحدُّ من نطاق الانحطاط أمام المجتمعات التي هي في الواقع راكدة بطريقة قابلة للقياس، ويحرّرنا من عادة ربط الانحطاط بأي شيء نكرهه في المجتمعات الغنية أو بأي عصر من الترف والفساد والإفراط (مثل العصر المذهّب[36] وعصر الجاز[37])، وبالمثل فإن التأكيد على تدهور المؤسسات يحرّرنا كذلك من فخ ملاحظة أي حالة فردية -سواء كانت نيرو، أو بيل كلينتون، أو دونالد ترمب- باعتبارها مجازاً مرسلاً synecdoche يدلّ على الحضارة ككل. إن التركيز على التكرار في المجال الثقافي والفكري يحرّرنا -حسناً، ولو قليلاً- من

(36). العصر المذهّب Gilded age: أواخر القرن التاسع عشر حيث شهد الاقتصاد نمواً سريعاً، خاصة في شمال وغرب الولايات المتحدة. فتوسّع التصنيع وزادات أجور القوة العاملة. ولكنه كان أيضاً عصراً من الفقر المدقع وعدم المساواة بالنسبة إلى أغلبية السكان.

(37). عصر الجاز Jazz Age: عشرينيات وثلاثينات القرن العشرين. وقد سادت فيها أنماط موسيقية وفنية شعبية لعبت دوراً كبيراً في تغيير الذائقة الفنية والأدبية في الولايات المتحدة.

مشاكل الذائقة الفكرية والجمالية الفردية ويخفّف من إكراهات تحديد الأسلوب الأدبي أو الإزاحة الفكرية التي تؤسّس نقطةَ التحوّل باتجاه الانحطاط.

كان الهدف، في كل حالة من هذه الحالات التي ذكرتها، هو تعريف الانحطاط بوصف شيئاً أكثر تحديداً من مجرد أيّ اتجاه اجتماعي أو أخلاقي لا ينال الإعجاب. فالمجتمع الذي ينتج الكثير من الأفلام السيئة -مثلاً- لا يجب أن يكون منحطّاً، بينما مجتمع يصنع الأفلام نفسها مراراً وتكراراً قد يكون كذلك. والمجتمع الذي يديره شخص قاسٍ ومتغطرس قد لا يكون منحطاً، بينما مجتمع آخر لا يستطيع حتى الحكماء والخيّرون فيه أن يشرّعوا له قد يكون كذلك، والمجتمع الفقير المثقل بالجريمة ليس بالضرورة مجتمعاً منحطّاً، بينما مجتمع غنيّ ومسالم ولكنه منهكٌ ومكتئبٌ ومحاصر بعبثية العنف وعدميّته يبدو أقرب إلى تعريفنا.

الأكثر أهمية ممّا مرّ بنا، هو أن التركيز على الركود يعني أنه يمكننا الحديث عن الانحطاط دون الإشارة إلى أن نوعاً من الانهيار يلوح في الأفق بالضرورة، وهذا ما يجعل الكلمة متّفقةً مع واقع الحضارات غير المنحطّة nondecadent التي سقطت في لحظة تاريخية بينما استمرت الحضارات المنحطّة وحافظت على وجودها. إن هذا يحرّرنا من الافتراض بأن هناك بعض المنطق الحديدي الذي يربط العربدة في المدن الرئيسية بغزوات البرابرة المتربّصين بالحدود، ويربط القادة الذين خارت قواهم بالمدن التي تعرّضت للقصف، ويربط الفساد في المناصب العالية بالحروب التي أجهزت على تلك المناصب! إنه يجعل الانحطاط يصير انحطاطاً دون أن يعني ضمناً أن «السقوط» يؤدي حتماً إلى انهيار كارثي بالفعل. وحتى إذا كانت بعض سمات الانحطاط تزيد من احتمالية الوصول إلى نوع «الحرب القدريّة»[38]، فإنها تترك الباب مفتوحاً أمام أكثر الاحتمالات تفاؤلاً،

[38] بالألمانية في الأصل: Götterdämmerung، وتعني «شفق الألهة»، وهي الحرب التي تدمر فيه الألهة قوى الشر، في الميثولوجيا الجرمانية.

وهو ما يخلص إليه هذا الكتاب: إن عصر الانحطاط يمكن أن يفسح المجال بدلاً عن ذلك للعمل على استعادة النمو وتحفيز الإبداع وتحقيق الأهداف.

***

إن هدفي الأول في هذه الصفحات هو إقناعكم بأن مجتمعنا منحطّ حقّاً، وأن تعريفي ينطبق واقعياً على الغرب المعاصر على مدى الجيلين الماضيين وربما ينطبق قريباً على جميع المجتمعات التي تلحق حالياً بأوروبا وأمريكا الشمالية وشرق آسيا.

يبدو هذا الجدل في نظر العديد من القرّاء، جدلاً غير منطقي من حيثُ أنَّ تعريف الانحطاط يرتبط فقط بالإفراط والرفاهية وبمختلف الأشكال المختلفة من التصلّب السياسي بما يناسب عصرنا، لكن فكرة الركود العام أو التكرار في الحضارة الحديثة المتأخرة -بوصفها طاحونةً أكثر مما هي عبء وتهوّر- لا تتناسب تماماً مع العديد من قراءات العصر الذي نعيش فيه، إذ يبدو أنها تتعارض مع الإحساس بالتسارع المستمر والتغيّر المتقلّب اللذين يتخلّلان الكثير من جوانب الحياة في مطلع القرن الحادي والعشرين، وكذلك الأمر مع الرطانة الاصطلاحية المستخدمة في عصرنا التي تحافظ (من دافوس، إلى وادي السيليكون، إلى «تيد» خيمة الإحياء) [39] على إيمان لا يكاد يستردّ أنفاسه يجعلنا نرى العالم يتغير بوتيرة متسارعة من شأنها أن ترمي توماس إديسون وصموئيل مورس في ركن مشين من التاريخ.

إن السؤال، مع ذلك، هو ما إذا كانت هذه الرطانة الاصطلاحية ما زالت

---

(39). تيد TED اختصار Technology, Entertainment, Design (تكنولوجيا، ترفيه، تصميم)، منظمة إعلامية أمريكية ذات اهتمامات موسعة تشمل الموضوعات العلمية والثقافية والسياسية والإنسانية والأكاديمية. ويربطها المؤلف بخيمة الإحياء tent-revivalism للإشارة إلى تجمّع مسيحي ترمز له خيمة تقام خصيصاً لتجديد ذكرى القيم المسيحية. وسوف يعود في فصول قادمة إلى العلاقة بين العلم والدين.

تتوافق مع الواقع حتى الآن، أو ما إذا كان إحساسنا بالتسارع المستمر هو الآن إلى حدّ ما مجرّد وهم خلقته شبكة الإنترنت، وهي مجال للتقدم التكنولوجي الواضح في عصرنا، ولكنها أيضًا عاملُ تصفيةٍ مشوّه يغطّي العالم خارج شاشات الكمبيوتر. إن عصر «الأونلاين» يسرّع الاتصالات بطرق تجعل الأحداث تبدو كأنها تقع على نحو أسرع مما كانت عليه في الماضي، وتجعل التغييرات الاجتماعية تبدو متتالية باستمرار، وتجعل العالم كله يبدو كأنه موجود بجوارك، حتى أن التاريخ الحالي يبدو كأنه تسلسل حوادث سيارات على طريق عام[40] في كل مرة تقوم فيها بالاطلاع على الموجز الذي يقدّمه لك الفيسبوك أو تويتر. إن هذا التفاعل المتسلسل يشجع مزاجاً عامّا يتّسم بالقلق الدائم من عمليات الإرهاب والكوارث البيئية والحروب، ولكنه كذلك ركح مسرحي مثاليّ يمكن أن يعرض جميع أنواع التعزيز التقني: الوعد بأن الذكاء الاصطناعي أو الهندسة الوراثية واسعة النطاق أو حتى الخلود أشياءٌ قد أصبحت على وشك أن تحدث، فهي قاب قوسين أو أدنى، وتبدو أكثر واقعية عندما تظهر في شريط إخباري عاجل، أو على فيديو تم بثّه على هاتفك المستقبليّ الناعم.

ولكن عندما تنظر إلى البيانات بدلاً من مجرد الاكتفاء بالانطباع، ستجد أن هناك حالة تثير الانتباه بقوة، مفادها أنه بينما تزيد السرعة التي نختبر بها الأحداث، فإن سرعة التغيير الفعلي لا تتبدّل، أو على الأقل إنها ليست كذلك عندما يتعلق الأمر بنوع التغيير المؤثّر حقاً، كما في النمو والابتكار، والإصلاح والثورة، والتجديد الجمالي أو التطرّف الديني. إن مثل هذه الأمور لا تنتهي ولا تتوقف، أما في البلدان النامية على وجه الخصوص، فإن تعريفي للانحطاط لا يتناسب مع التشنّجات الحالية في الشرق الأوسط، ولا مع نمو الصين المتفجّر بعد مرحلة الثمانينيات، لكن يمكننا، في العالم المتقدّم، ملاحظة أن هذه التغيرات قد

(40) استخدم المؤلف عبارة multicar pileup وتعني وقوع حادث تتسبب فيه سيارة أو اثنتان ثم سرعان ما يؤدي إلى سلسلة من الحوادث على طريق عام، ويعني هنا نوعاً من التفاعل المتسلسل.

تباطأت إلى وتيرة تبدو أشبه بالركود كلما ابتعدتَ عن جهازكَ الآي فون، وكلما اقتربت أكثر من الواقع، كما أن زَعْماً كهذا مخالفاً للحدس ليس زعماً أصلياً، فتشخيصي للحالة التي نعرضها الآن هو تشخيصُ صحفيّ، وهو على هذا النحو مدين للعديد من المفكرين الخبراء الذين سيتم ذكرهم بإسهاب في الصفحات القادمة.

منذ «الركود الكبير» والأزمة المالية عام 2008 كشفَ ما يقرب من عقد من السنوات عن نمو العالم الغربي بوصفه مجرد وهم، وقد بدأت مجموعة متنوّعة من الاقتصاديين وعلماء السياسة وشخصيات أخرى من اليسار واليمين في الحديث عن الركود والتكرار والرضا الذاتي عن النفس وعن حالات التصلّب بوصفها من السمات المميّزة لهذا العصر الغربي، مثل **تايلر كاوِن**[41] **وروبرت غوردون**[42] **وتوماس بيكيتي**[43] **وفرانسيس فوكوياما**[44] **وديفيد غرايبر**[45] **وبيتر ثيل**[46] وغيرهم كُثر.

إن هذا الكتاب –جزئياً– هو محاولة للتّوليف بين وجهات نظرهم المختلفة في سياق واحد مقنع في ما يتعلّقُ بالوضع الذي نناقشه، لكنه أيضاً ينسج العلومَ الاجتماعية جنباً إلى جنب بمعاينات تتصل بمناخنا الفكري، وثقافتنا الشعبية،

(41). تايلر كاوِن Tyler Cowen: تايلر كاوِن Tyler Cowen: اقتصادي أمريكي ولد عام 1962، أستاذ الاقتصاد بجامعة جورج ماسون. من مؤلفاته: «الركود العظيم» (2011)، والطبقة القنوعة (2017).

(42). روبرت غوردون Robert Gordon: اقتصادي أمريكي، أستاذ العلوم الاجتماعية بجامعة نورث ويسترن. من مؤلفاته: «صعود وسقوط النمو الأمريكي»، و«تطورات نظرية التضخّم».

(43). توماس بيكيتي Thomas Piketty (ولد 1971): أستاذ الاقتصاد بكلية الدراسات المتقدمة في العلوم الاجتماعية. مؤلف كتاب: رأس المال في القرن الحادي والعشرين (2013).

(44). فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama: مفكر سياسي وأستاذ جامعي أمريكي، من مؤلفاته: «نهاية التاريخ»، و«مستقبلنا بعد البشري: عواقب ثورة التقنية الحيوية»، و«أصول النظام السياسي».

(45). ديفيد غرايبر David Graeber: مفكر يساري أمريكي، وناشط أناركي، من مؤلفاته: «الدَّين، أول 5000 سنة»، و«المشروع الديمقراطي».

(46). بيتر ثيل Peter Thiel: مليونير ورائد أعمال أمريكي-ألماني، أحد مؤسسي باي بال PayPal وعضو مجلس مدراء شركة فيسبوك.

ولحظتنا الدينية، وتساليا التكنولوجية، على أمل رسم صورة كاملة لانحطاطنا أكثر ممّا يمكنك تصوّره بمجرد إلقاء نظرة على أوراق العلوم السياسية التي تتناول الاضمحلال المؤسساتي أو التحليل الاقتصادي لمعدل النمو المتناقص، وهو يتطلّع أيضاً إلى الأمام ويحاول تقييم استقرار واستدامة مستوى الانحطاط الذي نمرّ به، وهل يعني ذلك قياسًا بمجتمعنا أن عليه أن يستمر، وكيف يمكن أن يبدو في نهاية المطاف.

***

إن ما أوردته آنفًا يعني أن تأليف الكتاب ظل على نحو إلزامي متأثراً بظلال ظاهرة دونالد ترمب الغريبة، والخروقات الشعبويّة الكبيرة في أوروبا والولايات المتحدة. لقد كان ترمب، بوصفه قائدَ عصرٍ منحطّ، يستطيع احتواء الجموع. إنه في الوقت نفسه تجسيد للرذائل التي تميز مجتمعنا، ومتمرّد محتمَل يقف ضد خمولنا وتكرار أوضاعنا وخيبات الأمل التي أصابتنا. إنه شخصية صعدت إلى السلطة من خلال مهاجمة النظام بسبب تصلّبه، مع استثمار الانحطاط نفسه إلى أقصى حد ممكن. «لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى»، كان هذا بياناً محسوبَ النتائج بدقة، لما يمكن أن تسمّيه **المستقبلية الرجعية**- Reactionary Futurism، كان ضرباً من العواء أو العويل ضد الحاضر الذي لم يكن أبداً على صورة المستقبل الذي وُعِدنا به، كان مزيجاً من الحنين إلى الماضي والطموح الذي قد تتوقّع أن يستدعيه عصر منحطّ.

إن السؤال هو ما إذا كان استدعاء ترمب لتمثيل سياستنا قد كشف أيضاً عن عدم الاستقرار الكامن وراء انحطاطنا، وعن احتمال أن نظامنا بدلاً من أن يكون راكداً (وإن كان مستداماً) يمكن أن ينحطّ ويتحلّل سريعاً إلى الاستبداد والتسلّط أو إلى الانهيار في الفوضى! أو ما إذا كان ترمب بدلاً من ذلك أكثر هزلية في الأساس من قدرته على التهديد، وأنه منحطّ تماماً لدرجة أنه لا يشكل تهديداً

حقيقياً للنظام، وأنه مثال على «العبث واللاجدوى» اللذين أشار لهما جاك برزون وقد بُعثت فيهما الحياة من جديد بطريقة معينة.

على هذا النحو أيضاً، ومع اللحظة الشعبوية الأكبر في الغرب، وهواجس المركز، وإغراء الأطراف غير الليبرالية، نسأل: هل يمثل هذا أزمة أيديولوجية حقيقية، أو يمثل لحظة ثورية حقاً، أم أنه مجرد نوع من تمثيل العصر الرقمي حيث يتظاهر الشباب غير الراضين عن الانحطاط وهم يدّعون بأنهم فاشيون وماركسيون على الإنترنت، ويعيدون تمثيل ثلاثينيات وستينيات القرن العشرين مع عدد أقل من معارك الشوارع والمزيد من «الميمات»[47]؟

إن الكثير مما نطرحه هنا يعتمد على إجابة هذه الأسئلة، فلا توجد مرحلة منحطّة تدوم إلى الأبد، كما لا يوجد مجتمع منحطّ يستطيع التخلص من الانحطاط ونسيانه بنفس الطريقة أيضاً، ولكننا إذا أردنا الهروب من هيئتنا هذه دون وقوع كارثة، وإذا أردنا أن نحقّق النهضة دون أن نلج عصراً مظلماً، فنحن بحاجة إلى الوضوح بشأن وضعنا الأساسي، أي أن نضع نهاية لكل من التظاهر المتفائل وللهستيريا معاً.

إن حقيقة أمريكا والغرب في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين، وهي الحقيقة التي ساعدت على جعل ترمب يتبوأ الرئاسة، كما ستظل حقيقة مهمّة بعدما يرحل، هي أننا لم نكن مندفعين في أي مكان (ربما باستثناء دائرة واحدة)، وبدلاً من ذلك، ها نحن نتقدّم في العمر، مرتاحين وعالقين، ومنقطعين عن الماضي، وغير متفائلين بالمستقبل أكثر مما كنّا، بينما نحتقر الذاكرة والطموح معاً، وننتظر بعض ماينقذنا من الابتكار أو الإلهام، محتمينَ بشرانق لا يُتوقّع أن ينبثق منها أي شيء، ونحن نكبر وننمو تعساءَ في الضوء المتوّهج الذي يصدر عن

(47). الميمات memes: مقاطع فيديو أو صور أو عبارات تُنسخ وتُنشر. وتعمّ بسرعة تعبيراً عن آراء ومواقف جديدة أو تم تجديدها.

الشاشات الصغيرة.

كتب و. ه. أودن[48] عن الإمبراطورية العالمية الأخيرة في خريفها اللامتناهي يقول: «ما يثير إعجابنا ويخيفنا بشأن الإمبراطورية الرومانية ليس أنها تفتّتت في نهاية المطاف»، بل الأحرى أنها: «تمكّنت من الاستمرار لمدة أربعة قرون دون إبداع أو دفء أو أمل».

وعن الموضوع نفسه كتب غ. ك. تشيسترتون[49]: «لم يكن قد بقي شيء يمكنه غزو روما، ولكن لم يكن قد بقي شيء يمكنه أن ينقذها أيضاً... كانت نهاية العالم، وأسوأ ما في الأمر أنه لم يكن في حاجة إلى نهاية أبداً».

سواء كنّا في انتظار مسيحيين أو برابرة، نهضة أو تفرّد[50]، فإن المعضلة التي وصفها أودن وتشيستيرتون لا صلة لها بروما الآن، بل هي معضلتنا.

---

(48). و. هـ. أودن W. H. Auden: (1907- 1973) شاعر إنجليزي-أمريكي.

(49). غ. ك. تشيسترتون G.K. Chesterton: (1874- 1936) فيلسوف ولاهوتي وناقد أدبي وفني بريطاني.

(50). جعلنا «تفرّد» مقابلاً لمصطلح Singularity الذي أطلق دلالته الحديثة فيرنر فينج Vernor Vinge عام 1993 ليشير إلى التفرّد التكنولوجي القادم، القادر على تغيير مسارات الحضارة الإنسانية في زمن سريع.

الجزء الأول

الفرسان الأربعة

1

الركود

«هل يعتقد الناس على ساحلكم أنّ كلّ هذا حقيقي فعلًا؟».

بدا المدير التقني فضولياً وفخوراً وقلقاً بعض الشيء. كنا نتحدّث في سان فرنسيسكو في مكتب شركة من شركات رأس المال المغامر[51]، تحت فضاء مقبَّب تغسله شمس كاليفورنيا في وقت متأخر من بعد الظهر، وقد أحاطت إيماءته بكلّ اقتصاد الإنترنت، وبوادي السيليكون، وبالعالم المذَهّب حول الخليج.

كان ذلك في عام 2015، وإليكم ثلاث قصص[52] تعود إلى السنوات الخمس التي تلت ذلك.

■ أتى شاب إلى مدينة نيويورك، وكان مكافحاً ومثابراً يعمل على حدود هامشية بين ريادة الأعمال وبين الخداع الذي تتيحه المهارات الفنية، وجمع الاستثمارات لمشروعه دون أن يكون صادقاً تماماً بشأن إمكانياته المالية. التقى شخصاً طموحاً كان مغني «راب» ورجل أعمال في الوقت نفسه، وصارا يخططان معاً لإنشاء شركة جديدة عمادها نوع من السمسرة عبر الإنترنت، من خلال

(51): Venture capital firm شركة تضم مجموعة مستثمرين يدعمها خواص أثرياء للقيام باستثمارات لا تخلو من عنصر المجازفة قد لا تدعمها البنوك التقليدية.

(52). قمنا باختصار القصص الثلاث بما يناسب جعلها أمثلةً واضحة عن الركود الضمني في المشاريع الاقتصادية الجوفاء.

استضافة مهرجان موسيقيّ كبير، وتقديمه كحدث حصريّ باهض الثمن في جزيرة كاريبية، بحيث تصبح تذكرته شيئاً ضرورياً يسعى المهووسون بالمهرجانات والشباب الموسرين من جيل الألفية[53] إلى الحصول عليه.

حقّق الإعلان عن المهرجان عبر الإنترنت نجاحاً كبيراً جعله يندرج في ما يعرف باقتصاد المشاهير[54]، وظهر مقطع فيديو واسع الانتشار لعارضات الأزياء ومشاهير الإنستغرام وهم يمرحون على شاطئ مهجور، مع تخصيص موقع ويب ناعم للعملاء والفضوليين، وسرعان ما دفع الناس مبالغ هائلة، إلى درجة البذخ أحياناً، لحجز باقات المهرجانات الفاخرة. وفي النهاية، اشتري حوالي ثمانية آلاف شخص تذاكر المهرجان، بمتوسط تكلفة يتراوح بين 2500 و4000 دولار.

وهكذا فإن عشرات الملايين من الدولارات -هذا الفائض الذي يقدّمه المجتمع الثري- يمكن أن تصبح ملكاً لكَ مقابل عرض المبيعات والإعلان عنها بشكل صحيح. لكن ذلك المهرجان لم يوجد كما أُعلن عنه، وبدلاً من ذلك، انهارت خطط متعهّد الأعمال الكبيرة واحدة تلو الأخرى، فلا الجزيرة الخاصة أمكنها استيعاب الحشود، ولا الحكومة المحلية تعاونت، بل إن المال الذي تم الحصول عليه تبخّر ولم يعد موجوداً بالرغم من كلّ مبيعات التذاكر. وكان على ذلك الشاب أن يواصل التحدّث مع مستثمرين جُدد بكفالة المستثمرين القدامى، وأن يبتكر وسائل جديدة يتمكّن بها من بيع التذاكر لمشترين جدد يدفعون ثمن ما قاموا بشرائه سلفاً.

ما تم عرضه في النهاية وبشكل غامض لم يكن أكثر من بحر من خيام «وكالة

---

(53). جيل الألفية الموسر Affluent millennials : جيل الأمريكيين الذين ولدوا بين 1980 و2000. وبلغوا سن الرشد في فترة الركود، تسوده ثقافة العمل الحر. ويضم الأثرياء في مجالات التقنية والإعلام.

(54). اقتصاد المشاهير Celebrity economy: هو بشكل عام اقتصاد أثرياء الإنترنت، ويعتمد على تحليل البيانات لتحديد الأسواق الإلكترونية التي تعتبر مورده الأساسي حيث المتابعون والمعجبون هم القوة الشرائية الأولى.

الطوارئ»[55] التي نُصبت قبالة الشاطئ، ومسرح لا يعمل، وسندويشات دبقة وكثير من التكيلا[56] الرخيصة. من المثير للدهشة أن الشباب أتوا بالفعل، ولكن مدينة الخيام تلك دمرتها عاصفة ممطرة غير متوقعة، وانتهى المشروع إلى فوضى ثملة، أما متعهّد الأعمال الفاشل فكان يحاول الحفاظ على النظام باستخدام مكبرات الصوت قبل أن يهرب إلى نيويورك، حيث أُستقبل هناك دون احترام وأُعتقل وُسجن.

هذه هي قصة بيلي مكفارلاند ومهرجان «فاير»[57]. إنها قصة صغيرة، أما القصة التالية فهي أكبر.

■ نشأت فتاة في ولاية تكساس، وتم قبولها في جامعة ستانفورد، وكانت تريد أن تصبح ستيف جوبز جديد[58]. كان لديها فكرة لإطلاق تكنولوجيا ثورية، فكرة من شأنها أن تغير عالم هذه الصناعة التي لم تتغير منذ سنوات والمتمثلة في أجهزة اختبار الدم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصحة العامة.

تخيّلت الفتاة آلةً، أطلقت عليها اسم المخترع الأمريكي أديسون، تستطيع باستخدامها اختبار الأمراض تماماً كما تفعل التقنيات المتداولة، ولا تحتاج إلى أكثر من القيام بوخزة واحدة لفحص الدم. ومثل جوبز، تخلّت هي الأخرى عن دراستها الجامعية متفرّغة للتفكير في كيفية بناء هذه الشركة.

بعد عشر سنوات، أصبحت الفتاة مليارديرة رائدة في عصر الإنترنت، وظهرت

---

(55). هي وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية Federal Emergency Management Agency (FEMA) وتقوم بالاستجابة للكوارث والحوادث وانقاذ المواطنين والتخفيف من وطأة مصابهم.

(56). التكيلا Tequila: مشروب روحي.

(57). وبليام مكفارلاند William McFarland: محتال أمريكي شارك مع آخرين في تأسيس مهرجان Fyre الموسيقي وجمع من المستثمرين مبلغ 27.4 مليون دولار، وقد أوقف المهرجان لأسباب تتعلق بالأمن والغذاء والإقامة والإدارة واللوجستيات. تمت مقاضاة مكفارلاند وحكم عليه بالسجن لست سنوات.

(58). ستيف جوبز Steve Jobs: رائد صناعة وبرمجة الكمبيوتر، منذ سبعينيات القرن الماضي، مؤسس شركة «ماك» ورئيسها التنفيذي.

على غلاف إحدى المجلات مراراً، وقُيِّمت شركتها بأربعة مليارات دولار، ثم عَقَدت صفقة مربحة مع شركة «والغرينز»[59] لاستخدام أجهزتها في كلّ صيدلية، مع رأس مال ضخم لا يبدو أنه قد ينضب لتمويل المشروعات غير المؤكدة. لكن صندوق أديسون، بالرغم من ساعات العمل الطويلة، والجهود اللانهائية، ووجود أفضل فريق تقني يمكن أن يشتريه رأس المال المغامر، كان - بكل بساطة - لا يعمل.

بمرور الوقت، وبينما كانت الشركة مستمرة في التوسّع، حدث أن توقفت الفتاة عن كونها مبتكرةً لتصبح بدلاً من ذلك مجرد محتالة، حيث زوّرت نتائج الاختبارات العادية التي لا تتطلب أكثر من «وخزة واحدة»، وأخفتها أو تلاعبت بها، واستخدمت كل أموالها ونفوذها وداعميها الكبار لطمأنة المتشكّكين وتشويه سمعة المبلّغين عن مخالفاتها. عند هذه النقطة تتبخر الشركة بكل بساطة، ويذهب المشروع الذي قُدّر بأربعة مليارات دولار مع رأس المال المغامر أدراج الرياح.

تلك هي قصة إليزابيث هولمز وشركة ثيرانوس[60]. إنها قصة كبيرة بكل تأكيد، ومع ذلك فإن قصتنا الثالثة ما زالت أكبر، وهي لم تنته بعد.

■ قررت شركة إنترنت إحداث ثورة في صناعة النقل الشخصي وسوق سيارات الأجرة والليموزين، وتجديد المدرسة القديمة في التعاون بين إدارة الأعمال والحكومة، مع كل ما يصاحب ذلك من بيروقراطية وعدم كفاءة وخدمة غير مرضية. كانت الشركة تبيع نفسها للمستثمرين مع وعد بأنها تستطيع فرض أسلوبها في الهيمنة على السوق في هذا المجال المتصلّب واستخدام تقنيتها المتطورة لكسر الروتين والعثور على كفاءات غير ملحوظة، وعلى أساس هذا الوعد قامت هذه الشركة بجمع مليارات ومليارات من الدولارات على مدى عشر سنوات من

(59). والغرينز Walgreens : شركة أمريكية تملك ثاني أكبر سلسلة صيدليات في الولايات المتحدة.
(60). بادّعاء هذا الاختراع أصبحت إليزابيث هولمز أصغر ملياردير عصامي في العالم. ولكنها لوحقت بعد ذلك وتم حلّ شركة Theranos التي أسستها.

صعودها كمؤسسة جديدة، وأصبحت في تلك الفترة بالحجم الذي وعدت به في الأسواق الغربية، وقدّمت مثالاً عن النجاح في عصر الإنترنت يستشهد به الداعمون والمنافسون على حد سواء كنموذج عن كيفية تعطيل صناعة قائمة، وعن «التحرك السريع والإنجاز الحاسم»، كما يقول شعار وادي السيليكون. وبحلول الوقت الذي تم فيه طرح اسم الشركة للاكتتاب العام في 2019 صار لديها 11 مليار دولار من العائدات السنوية... كانت أموالًا حقيقيّة تم استبدالها بخدمات حقيقية، لا شيء هنا من قبيل الاحتيال يتعلّق بهذه الشركة حتّى الآن.

بعد عشر سنوات من النمو، حطّمت هذه الشركة نموذج العمل القديم في صناعة النقل الشخصي، وأضعفت المنافسين التقليديين، وخلقت للمستهلكين قدراً كبيراً من القيمة، لكنها فعلت كل هذا دون أي انضباط بقوى السوق، بل باستخدام القوة الهائلة للأموال المجانية لبناء شركة من شأنها أن تنهار إلى قاع الإفلاس إذا سُحِبت تلك الأموال، ولم يكن لديها مزايا تنافسية واضحة إلى جانب الدعم المالي الضخم من المستثمرين، كما أن التكنولوجيا التي استخدمتها ليست من ابتكارها، ومع استمرار اللاعبين التقليديين في هذا المجال في ممارسة عملهم بانتظام، فإن كل مساراتها لتقليل خسائرها، مثل فرض أسعار أعلى ودفع أجور أقل لعمالها، سوف تقضي على ما بنته من مزايا.

هذه هي قصة شركة «أوبر»[61] حتى الآن. إنه ليس خيالاً إنستغرامياً محضاً، مثل مهرجان «فاير»، وليس احتيالاً عارياً مثل «ثيرانوس»، فهي قد تمكّنت من طرح أسهمها للاكتتاب العام والحفاظ على تقييمها الضخم، على عكس زميلتها شركة «وي-وورك»[62] التي خسرت أموالها، وأدّت محاولتها الأخيرة للاكتتاب العام إلى دخولها في أزمة. ولكن هاتين الشركتين، في الوقت الحالي، مثالٌ على

(61). أوبر Uber: شركة أمريكية عالمية من شركات اقتصاد الوظائف المؤقتة، مختصة بنقل الركاب والبضائع وتأجير السيارات والدراجات الكهربائية والخدمات البريدية، تأسست عام 2009.

(62). وي-وورك WeWork: شركة عقارات تجارية أمريكية، تأسست عام 2010. أعلنت في مايو 2021 عن خسارة جديدة بقيمة 2 مليار دولار، ولم تُكمل مشروع الاكتتاب العام حتى هذا التاريخ.

شركة كبرى في القرن الحادي والعشرين وقع اختراعها بالكامل من الفائض، وهيَ أقلّ كفاءة اقتصادية حتى الآن من منافسيها الذين يفترض أن تتجاوزهم، كما أن الذين يدعمونها مستثمرون يعتقدون أن وعودها تتحدّى الأدلة الموجودة، مأخوذين بالأمل في أنه مع وجود ما يكفي من المال ومن حصة السوق يمكنك إنشاء شركة رابحة تضفي عليها هويّتها بوصفها «شركة إنترنت» غطاءً ذهبياً يحجب ضعف الأسس التي تقف عليها في العالم الحقيقي.

ربما لن تنهار هذه الشركة مثل الأخريات، وربما لن تضيع عشرات المليارات من رأس مال المستثمرين، لكن مسار أوبر ينتهي عند هذه النقطة، فلاواقعية نجاحها الاستثنائي الغريبة، يجعلها مكاناً ملائماً لبدء مناقشة الانحطاط والتدهور الاقتصادي، باعتبارها حالة تستحق الدراسة لما يبدو عليه الوضع عندما لا يجد مجتمع ثري بشكل استثنائي أفكاراً جديدة كافية يبرّر بها استثمار كل ثروته المكتنزة، وينتهي به الأمر إلى الاختيار بين ادخار النقود في المراتب والحشايا أو اللعب بنوع الافتراضات من قبيل «ماذ لو...» و«لنزعم أن...». في اقتصاد الانحطاط، يتم تحديد نهاية التطورات المفترضة في الرأسمالية بشكل متزايد من خلال «ماذا لو...»، أو «لنزعم أن ...»، باستخدام تقنيات تم الوصول إليها وإنجازها تقريباً، أو باستخدام نماذج الأعمال التي تمضي في طريقها إلى تحقيق الربحيّة عبر خطط وبرامج تمتدّ وتتواصل دون القيام فعلاً بأي عمل حقيقي على الإطلاق.

«هل يعتقد الناس على ساحلكم أن كل هذا حقيقي؟».

عندما سألني المسؤول التنفيذي التقني ذلك، أخبرته أننا نعتقد هذا، نعتقد أن وعود وادي السيليكون كانت على القدر نفسه من الإيمان بالنسبة إلينا نحن الذين نشاهده من الخارج كما هو الحال بالنسبة إلى المطلعين عليه من الداخل، ذلك أننا كنا معاً نحسد العالم الرقمي ونأمل أن يظلّ هو الاستثناء الأكبر من خيبة الأمل

الاقتصادية، فهو المكان الذي ظل على الدوام يمثّل التعافي البطيء من الانهيار الذي وقع عام 2008، حيث كان وعد الابتكار الأمريكي لا يزال على قيد الحياة آنذاك.

ربما سأقول الشيء نفسه الآن، بغض النظر عن القصص التي رويتها للتو، فعلى الرغم من بيلي مكفارلاند وإليزابيث هولمز، والمسار الغريب لشركة أوبر، إلا أن العديد من مؤسسات وادي السيليكون تستحق ما عليه من نجاح، والعديد من شركات التقنية هناك لديها عملاء حقيقيون وإيرادات حقيقية، وهيكل متين تعتمد عليه، واقتصاد إنترنت حقيقيّ مثله مثل النمو والابتكار في القرن الحادي والعشرين.

لكن ما يخبرنا به كل هذا، لسوء الحظ، هو أن النمو والابتكار في القرن الحادي والعشرين ليسا على الإطلاق كما وُعدنا بهما.

عصر التباطؤ

في 2017، وبعد عام من قيام اشتراكيّ[63] بالتحدي كمرشّح عن الحزب الديمقراطي، ثم انتخاب رئيس شعبويّ عن الحزب الجمهوري، اجتاز الاقتصاد الأمريكي مرحلة بارزة. فللمرة الأولى، أصبحت الأسرة الأمريكية المتوسطة (العائلة النموذجية، والمعادل الحديث للمزارع الصغير في القرن التاسع عشر أو سكّان الضواحي في الخمسينيات) تكسب أكثر من 60 ألف دولار في السنة، قياساً بالدولار المعدّل بالتضخم.

قد يبدو إجراء انتخابات تغرق في وحل الشعبويّة وسط مثل هذه الوفرة الواضحة أمراً غير معتاد، ولكن بعضاً من هذا السياق العام يمكن أن يوضح

(63). هو بيرنارد ساندرز Bernie Sanders الذي ترشح للرئاسة في الولايات المتحدة عام 2016 عن الحزب الديمقراطي.

أكثر، ذلك أن ذروة الدخل لعام 2017 لم تكن قمةَ صعودٍ طويل، بقدر ما كانت مجرّد عودةٍ إلى مستوى أعلى تم اختباره سابقاً، فمتوسط الدخل البالغ 60 ألف دولار كان بالكاد قد تجاوز متوسط ذروة الدخل السابقة لعام 2007، والذي كان بالكاد قد تجاوز بدوره ذروة عام 1999. وبعبارة أخرى، ففي ستة عشر من أصل ثمانية عشر عاماً بين مطلع الألفية ورئاسة ترمب، كان متوسط دخل الأسرة الأمريكية أقل (وهو أقل كثيراً في السنوات السيئة) ممّا كان عليه في العام الأخير من رئاسة كليتون. وبحد أدنى من الدخل في ثروة الأسرة التي من المفترض أن يكوّنها الدخل نجد أن الركود كان مؤثراً بقوة أيضاً. وفي عام 2017، بعد عشر سنوات من تراكم الثروة بسبب طفرة الإسكان، تبين أن ذلك كان مجرد تقدير وهمي، وأن متوسّط الأسرة الأمريكية كان يُقيّم بحوالي 97 ألف دولار، أي أدنى قليلاً من مستويات أواخر التسعينيات.

عام 2017، تجاوز معدّل البطالة مستوى بارزاً أيضاً، حيث انخفض إلى 4 في المائة، متحدياً تقديرات المتشائمين بعد «الركود الكبير»[64] الذين كانوا يخشون أن يظل مرتفعاً بشكل دائم، ولكن مثل اتجاه دخل الأسرة، كان هذا المستوى أقل إثارة للإعجاب في السياق العام، فقد استغرق الأمر سبعة عشر عاماً للعودة إلى معدل البطالة الذي ساد عام 1999، ولم يعد نمو الأجور أو نمو الإنتاجية إلى وتيرة التسعينيات، وكان معدل مشاركة القوة العاملة، التي تعدّ بملايين الأمريكيين البالغين الذين لم يعودوا يبحثون عن عمل بعد، أقلّ بنحو 4 نقاط مئوية مما كان عليه في مطلع الألفية، وقد مثّلت فجوة الوظائف هذه، ذات العلاقة بعهد كلينتون، ما يقرب من عشرة ملايين أمريكي إضافي عاطلين من العمل، وكانت الفجوة مهولة بين العاملين من الرجال على نحو واضح، لأن نسبة 11 في المائة ممن كانوا في مقتبل العمر من غير العاملين عام 2018 تعتبر أعلى نسبة

(64). الركود الكبير Great Recession: التدهور الاقتصادي العام الذي حدث بين 2007 و2009.

سُجّلت منذ «الكساد الكبير»[65]

إن جميع المؤشرات الاقتصادية عرضة لبعض الانتقادات، وكلّ نقطة بيانات قائمة يمكن التنبّه لها وإعادة تقديرها، والمؤشرات التي استشهدت بها للتو ليست استثناءً. يؤثر بعض الانخفاض في مشاركة القوى العاملة على عدد متزايد من البالغين الذين ينتمون إلى نوع ما من المدارس، ويفسر الانخفاض في عدد الأسر المكونة من والدين جزءاً من سبب ركود دخل الأسرة، كما يعامل الناس كأفراد عازبين بدلاً من اعتبارهم أسراً، وهكذا تبدو الصورة أفضل. إن أرقام متوسط الدخل الراكدة لا تشمل الزيادة التي توفرها برامج التحويل المختلفة ومزايا الرعاية الاجتماعية، من خلال المزايا التي يقدمها إنفاقنا الذي يؤدي إلى عجز هائل، ولكن من الواضح أن دخل الأسرة قد ارتفع منذ عام 1999.

هذه التعقيدات تعني أنه يجب أن تكون حذراً من أي شخص حاملاً قصة كارثية عن الاقتصاد الأمريكي، مثل حكاية البؤس الاقتصادي والانهيار. فالولايات المتحدة لا تزال، في الواقع، دولة غنية على نحو غير عادي، ولا تزال طبقتها الوسطى مزدهرة بشكل أبعد من أحلام القرون الماضية، ولا تزال «دولة الرفاهية»[66] فيها فعّالة في تخفيف آلام فترات الركود وإغاثة الفقراء.

ولكن إذا كانت روايات الانحدار الصارخ خاطئة، فمن المنطقي تماماً أن ننظر إلى الخمسين عاماً الماضية من التاريخ الاقتصادي في العالم المتقدم، والعصر الحديث المتأخر بأكمله، لنرى تلك الحقبة من التباطؤ التي يتبعها الركود.

بدأ التباطؤ في وقت قريب من الهبوط على سطح القمر، حيث بلغت الأجور

(65) الكساد الكبير Great Depression: الكساد الاقتصادي الذي ألم بالعالم بدءا من الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين.

(66) دولة الرفاهية Welfare state في التعريف السياسي الأمريكي هي الدولة التي تحمي الرفاهية الاقتصادية للمواطنين على أساس تكافؤ الفرص والتوزيع العادل للثروة وتعزّز المواطنين غير القادرين على الاستفادة من الحدّ الأدنى من الأحكام والقوانين الاقتصادية المعمول بها.

المقدّرة بالساعة في الولايات المتحدة ذروتها في أوائل السبعينيات وانخفضت بعد ذلك، وبدأ نمو دخل الأسرة في التباطؤ، وشهد الاقتصاد الأكبر ما يسمّى **بالركود التضخّمي**[67] في ثلاثة مراحل حادة من الركود في عهد كلّ من ريتشارد نيكسون وجيمي كارتر ورونالد ريغان، على الرغم من أن نقطة الانعطاف ربما وصلت بالفعل في وقت أبكر قليلاً.

كان أحد الأنماط المؤثرة في العصر الحديث هو النمو الاقتصادي اللوغاريتمي، بحيث صار الوقت الذي استغرقه الاقتصاد العالمي لمضاعفة حجمه أقصر فأقصر فأقصر كل قرن بعد عام 1492، وهو ما دفعنا، من الناحية النظرية، نحو نمو لا نهاية له يعلن عنه الطوباويّون بوصفه نمطاً من **اقتصاد التفرّد**[68]. لكن هذا النمط قد انكسر في الوقت الذي كان فيه جون كينيدي يَعِدُ العالم بغزو القمر، وتباطأ الوقت الذي كان يُتوقّع فيه مضاعفة حجم الاقتصاد العالمي منذ ذلك الحين، وبهذا المعنى، فقد كان عام 1960، على حد تعبير سكوت ألكساندر[69]: «العام الذي أُلغي فيه التفرّد».

ورداً على خيبات الأمل الاقتصادية هذه في فترة ما بعد جون كنيدي، تبنّى صانعو السياسة من كلا الحزبين [الجمهوري والديمقراطي] مزيجاً من السياسات يُطلق عليه الآن اسم «الليبرالية الجديدة»[70]، يتم فيه فرض الضرائب بنسبة أقل، وإلغاء قيود اللوائح التنظيمية، والتجارة الحرة، والسياسة النقدية المضادة

---

(67). الركود التضخّمي stagflation: وضع اقتصادي يعاني من الركود والتضخم معاً. حيث يكون فيه معدّل التضخّم مرتفعاً، ومعدّل النمو متباطأً، مع بطالة تزيد بشكل مطّرد، وقد تؤدي إجراءات خفض التضخّم إلى تفاقم البطالة.

(68). «تفرّد» أو «نمط التفرّد» يقابل مصطلح Singularity الذي أطلق دلالته الحديثة فيرنر فينج Vernor Vinge عام 1993 ليشير إلى التفرّد التكنولوجي القادم، القادر على تغيير مسارات الحضارة الإنسانية في زمن سريع.

(69). سكوت ألكساندر Scott Alexander:

(70). الليبرالية الجديدة Neoliberalism: سياسة اقتصادية تتبنى نقل السيطرة على الاقتصاد من الدولة إلى القطاع الخاص، وتتبنى سياسات إصلاح محددة موجهة نحو السوق، مثل إلغاء ضوابط الأسعار، وتحرير أسواق رأس المال، وخفض الحواجز التجارية.

للتضخّم. وبحلول أواخر التسعينيات، بدت هذه الاستجابة فعّالة إلى حد ما، حيث كانت الثروات الأسرية تنمو، وارتفعت مشاركة القوة العاملة مع انضمام المزيد والمزيد من النساء إلى قوى العمل، وارتفعت معدلات النمو الإجمالية نحو 4 في المائة، وزادت الأجور والإنتاجية. ولكن بعد ذلك انفجرت فقاعة الـ«دوت.كوم»[71]، وأصبح الركود المباشر بالتالي هو النظام اليومي، مع حالات انتعاش ضعيفة، ونمو ضعيف لدخل الأسرة، وتراجع الإنتاجية والثروات الأسرية، وتزايد عدد المنسحبين من القوى العاملة أكثر من ذي قبل.

إن هذه التجربة المخيبة للآمال والتي دامت خمسين عاماً لم تكن مقتصرة على أمريكا وحدها، تماماً كما تزامن الازدهار الطويل في مرحلة مابعد الحرب في الولايات المتحدة مع «**الثلاثين المجيدة**»[72] في فرنسا، والعديد من جيرانها الأوروبيين، فقد تم تقاسم الانحدار نحو الركود منذ سبعينيات القرن الماضي عبر العالم المتقدم، وإن كان ذلك مع اختلافات إقليمية في التفاصيل.

كان متوسط نمو الدخل في أوروبا أفضل قليلاً، وكانت مشاركة القوى العاملة أعلى إلى حدّ ما ممّا كانت عليه في الولايات المتحدة، ولكن النمو الإجمالي كان مخيباً للآمال بدرجة أكبر، فقد مرّ «**التصلّب الأوروبي**»[73] في السبعينيات والثمانينيات، بانتعاش أبطأ من أمريكا إبان الأزمة المالية بدءاً بعام 2017، أما الانحدار المطّرد بنسبة ثابتة في نمو الإنتاجية، والذي بلغ متوسطه 0.5 في المائة فقط في منطقة اليورو على مدى العقد الماضي، فكان نصف معدّل الولايات المتحدة المتواضع بالفعل. وفي اليابان، كان النمو أكثر إثارة للإعجاب خلال السبعينيات

---

(71). فقاعة دوت.كوم dot-com: أي الدخول في عصر اقتصاديات الإنترنت.

(72). الثلاثون المجيدة Trente Glorieuses: ثلاثون سنة أعقبت الحرب العالمية الثانية (من 1945 إلى 1975) وفيها اتبعت فرنسا سياسة اقتصادية «موجهّة» أدت إلى نمو متصاعد باضطراد وحقق اقتصادها إنتاجية عالية غير مسبوقة.

(73). التصلب الأوروبي Eurosclerosis: وضع الركود الاقتصادي الذي مرّت به أوروبا في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. وكان ناتجاً عن الإفراط في التنظيم الحكومي وسياسات المنافع الاجتماعية ذات التكلفة الباهضة.

والثمانينيات، وهو ما أدّى بعد الحرب الباردة إلى فترة قصيرة من الذعر بسبب الهيمنة اليابانية التي بدأت أصداؤها تنتشر آنذاك، ولكن التباطؤ بعد ذلك، سار بشكل مفاجئ أكثر، حيث دخل الاقتصاد الآسيوي الأكثر تطوراً عقوداً ضائعة من السنوات بعد أوائل التسعينيات، وهي التي تمكّنت السياسة النقدية الفضفاضة وإصلاحات سوق العمل التي قام بها رئيس الوزراء **شينزو آبي**[74] من الهروب منها على نحو جزئي.

إن الاختلافات بين أوروبا وأمريكا وشرق آسيا حقيقية فعلاً، ولكن أكثر ما يلفت الانتباه هو أوجه التشابه الأساسية بين هذه المناطق الثلاث الأكثر تقدماً في العالم. قبل عشرين عاماً، كان من الشائع لدى الأميركيين (المحافظين منهم خاصّة) أن يعدّوا الرّكود مشكلة أوروبية أكثر من كونها مشكلة أمريكية، وأن يعتقدوا أن سياسات السوق الحرة في الولايات المتحدة وثقافتها التجارية تحافظ على قوة غائبة بشكل متزايد في فرنسا ذات الاقتصاد الموجّه، وفي اليابان ذات الطابع التضامني. لكن أمريكا تبدو أقل تميزاً اليوم وأقل ديناميكيةً وأقل استثنائيةً، كما تبدو الفوارق بين اقتصادات العالم المتقدم أشبه بطغيان النرجسية مع اختلافات صغيرة.

لكي نصوغ ذلك بشكل أكثر وضوحاً، لا يزال هناك ديناميّة اقتصادية في الولايات المتحدة أكثر -لنقل- من إيطاليا أو اليونان على سبيل المثال، ولكن ذلك ليس بقدر ما توحي به وسوم أو كليشيهات «الاستثنائية» الأمريكية. لقد ظلت ريادة الأعمال الأمريكية تتراجع بشكل مطّرد إلى حد ما منذ السبعينيات خلال فترة كارتر الرئاسية التي لا نكاد نجزم بأنها كانت وقتاً مثالياً للاقتصاد الأمريكي، وكان ما نسبته 15 في المائة من جميع الشركات الأمريكية قد تأسس في العام الذي

---

(74). شينزو آبي Shinzo Abe: رئيس وزراء اليابان الأسبق، قاد إصلاحات اقتصادية، ودعا إلى خفض الإنفاق وزيادة الضرائب، وقدم عدة برامج تتصل بإعادة النظر في السياسات اليابانية السابقة، ولكنه لم ينجح كما كان متوقعاً.

سبق ذلك [1976]، أما اليوم فإن معدلها يصل إلى حوالي 8 بالمائة، وقد أصبح من الصعب عليها أن تحافظ على موطئ قدم ثابت لها، مع نسبة الشركات الناشئة التي فشلت في العام الأول بعد أن ارتفعت من حوالي 20 في المائة في منتصف الثمانينيات إلى ما يقرب من 30 في المائة اليوم. وفي عام 1990، كان عمر 65 في المائة من الشركات الأمريكية أقل من عشر سنوات، وهي تبلغ اليوم حوالي 52 بالمائة، كما انخفض إجمالي «معدل تأسيس الشركات»، كنسبة مئوية من عدد الشركات بشكل عام، بمقدار الثلث على مدار الثلاثين عاماً الماضية، وهذه الشركات تعتمد بشكل متزايد على النقد أو تعيده إلى المساهمين بدلاً من استثماره في مشاريع جديدة. ووفقاً لتقرير صدر حديثًا عن مكتب السناتور ماركو روبيو[75]، فقد بلغ متوسط الاستثمار المحلي الخاص 8 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي بين عامي 1947 و1990، وفي عام 2019، على الرغم من التعافي الطويل وخفض ضرائب الشركات بهدف إخراج الأموال من الهامش، كانت نسبة الاستثمار إلى الناتج المحلي الإجمالي 4 في المائة فقط.

تشير هذه البيانات إلى أن الأشخاص الذين يتمتعون بقدر أكبر من الخبرة في بدء الأعمال التجارية وتحقيق الثراء يتابعون فرص الاستثمار المتاحة ويرون العديد من الشركات الناشئة التي تشبه «ثيرانوس» ومهرجان «فاير» أكثر من تلك التي تشبه «أمازون» و«آبل»، ناهيك عن عمالقة ما قبل اقتصاد الإنترنت. كما أن ندرة استثمارات الشركات في الابتكارات الجديدة تعني أيضاً أن الصعود المطرد لسوق الأسهم قد عزّز ثروة الطبقة الريعيّة بشكل أساسي، حيث يحصل المستثمرون الأثرياء بالفعل على حصص ربحيّة أكثر، عوضاً عمن المساهمة في زيادة الرخاء والازدهار العام، وقد اصدر ثلاثة خبراء اقتصاديين عام 2019 ورقة بحثية

(75). ماركو روبيو Marco Rubio: سيناتور ومحامي شغل منصب كبير أعضاء مجلس الشيوخ عن ولاية فلوريدا. وشغل سابقاً منصب رئيس مجلس النواب في فلوريدا.

بعنوان «كيف كُسِبت الثروة»[76] أكّدوا فيها على أن 54 في المائة من نمو قيمة سوق الأوراق المالية للشركات الأمريكية عكسَ «إعادة تخصيص الإيجارات لحاملي الأسهم في اقتصاد متباطئ»، بينما بلغ النمو الاقتصادي الفعلي 24 في المائة، كما أشار الباحثون إلى أنه «من عام 1952 إلى عام 1988، تم تكوين أقل من نصف الثروة» في سوق الأسهم، «لكن النمو الاقتصادي كان يمثل 92 في المائة منها».

إن تراجع الاستثمار وصعود حملة الأسهم بصفتهم الريعيّة وسط عصر جديد من دمج الشركات، يحدث أيضاً مع موجة تلو الأخرى من الاندماجات والاستحواذات في الصناعات التقليدية والاندماج السريع حتى في «الاقتصاد الحدودي»[77] المفترض في شبكة الإنترنت، حيث تتحكم الآن مجموعة صغيرة من العمالقة في كل نقرة للمستخدم العادي، ولكن عمالقة الإنترنت هؤلاء يختلفون عن الشركات الكبيرة في الماضي، حيث تحوز الشركات الكبرى في عصر الإنترنت، من فيسبوك إلى تويتر، على إمكانية وصول خارقة ولكنها تحقّق أرباحاً محدودة، ولديها حاجة محدودة أكثر للعمالة لإبقائها تعمل باستمرار، وعلى العكس من مدن المصانع القديمة لشركة فورد موترز وجنرال موترز[78]، مع قواها العاملة الضخمة، فإن جغرافية وادي السيليكون يهيمن عليها مزيج من نخبة خرّيجي الجامعات، وعمال الخدمات، مع القليل من العمالة الجماعيّة من الطبقة الوسطى.

ضمن حالة التراجع هذه أيضاً، ربما لأن العمالقة الجدد لا يقومون بالتوظيف

---

(76). هي الورقة البحثية التي أصدرها كل من دانيال غرينوالد Daniel Greenwald ومارتن ليتاو Martin Lettau وسيدني لودفيغسون Sydney Ludvigson عن المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية.

(77). الاقتصاد الحدودي Frontier economy: اقتصاد يتسم بالندرة النسبية وارتفاع الأسعار في ما يتعلق بالتجهيزات والعمالة، وبالوفرة النسبية وانخفاض الأسعار في ما يتعلّق بالموارد.

(78). شركتا فورد Ford Motor Company وجنرال General Motors من كبريات شركات تصنيع السيارات وقطع الغيار وغير ذلك من الخدمات الإنتاجية والمالية في الولايات المتحدة.

على النحو الذي كان يعمل به القدامى، نفترض أن أكثر صفات الأمريكيين وهي التنقل بحثاً عن الثروة، قد تغيّرت، فالأمريكيون لم يعودوا «يذهبون إلى الغرب»[79] (أو الشرق أو الشمال أو الجنوب) بحثاً عن فرص سانحة كما فعلوا قبل خمسين عاماً. لقد انخفض معدل تنقّل الناس بين الولايات من 3.5 في المائة في أوائل السبعينيات إلى 1.4 في المائة في عام 2010، والأمريكيون لا يغيّرون وظائفهم كثيراً كما كانوا يفعلون في السابق، وعلى الرغم من كل الحديث المسلّم به عن إعادة التدريب والتوظيف الذاتي، وجميع المخاوف من نظام التوظيف غير المستقر بشكل متزايد، فإن الأمريكيين أقل عرضة لتغيير أصحاب العمل عما كانوا عليه قبل جيل مضى، أما الصعود المفترض في «اقتصاد التوظيف المؤقت»[80]، المتصل بالإنترنت، فهو شيء ما يشبه الأسطورة. (أظهرت دراسة أصدرها مكتب إحصاءات العمل أن الزيادة في العمل الفردي الذي تقوده شركات مثل أوبر بين عامي 2005 و2018 قد تجاوزها الانخفاض في أنواع أخرى من العمل الحر أو التوظيف المؤقت)، كما أنهم لا يستثمرون في المستقبل حرفياً. لقد كان معدل المواليد في الولايات المتحدة لفترة طويلة من بين جميع الدول الغربية أعلى بكثير من معدل أوروبا واليابان معاً، ولكنه انخفض بسرعة منذ «الركود الكبير» [من ديسمبر 2007 إلى يونيو 2009]، متقارباً في ذلك مع المعايير العامة في العالم.

بهذا المعنى، ليس من المستغرب أن أمريكا وأوروبا الغربية قد عانتا من أزمات سياسية مماثلة على مدى السنوات القليلة الماضية، مثل الطفرات الشعبوية نفسها،

(79). يعتبر «الذهاب إلى الغرب» أحد التقاليد التي بنت الإيثوس الأمريكي، حيث مكنتهم من الاستحواذ على الأراضي وبناء السكك الحديدية والبحث عن الذهب والفضة وتربية المواشي. بعد إزاحة السكان الأصليين أو القضاء عليهم. إنه أحد العوامل التوسعية المبكرة التي كوّنت شخصية المجتمع ثقافياً واقتصادياً. وقد استمر التوجّه إلى الغرب مصدراً للبحث عن الثراء والعثور على فرص اقتصادية جديدة ومبتكرة حتى منتصف القرن العشرين. لعل آخرها كان وادي السيليكون. وهو ما يشير إليه المؤلف هنا.

(80). اقتصاد التوظيف المؤقت Gig economy: سوق عمل يعتمد على عقود قصيرة الأجل، أو التعاقد مع أفراد مستقلين دون اشتراط وظيفة دائمة.

وكذلك الثورات اليمينية ضد النّخب والمهاجرين، وعودة التوجّه الاشتراكي مجدّداً. لكن تبقى تجربتنا الاقتصادية الأساسية، قياساً بجميع الفوارق المختلفة عبر الأطلسي، هي نفسها، وتتمثل في الركود مستمر، وخيبة الأمل المزمنة، والصراع المتزايد بين الوعد بالتقدم والواقع المعاش، حيث يبدو أن كل شيء -ويا للدهشة- مصاب بالإحباط، وأنه سيبقى على هذه الحال دون أن يتغير.

حدود الليبرالية الجديدة

باستعارة عبارة من أحد المنظّرين وهو تايلر كاوِن، أستاذ الاقتصاد في جامعة جورج ميسون، يمكننا القول بأنه لا يوجد نقص في نظريات تفسير هذا «الركود الكبير»، ولا داعي أيضاً للاختيار بينها ببساطة، إذ كما في مثل معظم الاتجاهات العامة، فإن الانحطاط الاقتصادي في العالم المتقدّم يبدو محدَّداً بشكل مفرط، حتى أن كل محاولة جادة للتفسير ستحتوي في الغالب على بعض عناصر الحقيقة.

تميل النظريات الأكثر جاذبية من الناحية السياسية، تلك التي تحرك تمرداتنا الشعبويّة والاشتراكية، إلى إلقاء اللوم على الليبرالية الجديدة نفسها، مدّعية أن دواء التضخم المصحوب بالركود في السبعينيات قد ثبتَ بأنه سامّ إذا كان بجرعات كبيرة، ويذهب الجدل حول هذا الموضوع إلى أن الدفع باتجاه تجارة أكثر تحرّراً قد أدى إلى إفراغ الاقتصادات الغربية، بحيث نُقلت الصناعات الإنتاجية إلى الخارج وحُجبت الوظائف اللائقة، ما جعل المموّلين و«عمّال المعرفة» [81] أغنياء بينما كانت الطبقة الوسطى تتقلص بشكل مطّرد. وفي الأثناء، فإن معدلات الضرائب المنخفضة، التي تهدف إلى تحفيز الاستثمار، مكّنت الأغنياء من الاحتفاظ بمزيد من مكاسبهم بينما يتم «تجويع» البرامج المطلوبة لحماية الفقراء وتعزيز الطبقة العاملة. لقد أصبحت سياسة مكافحة الاحتكار شديدة التركيز

---

(81). عمّال المعرفة Knowledge workers: الأشخاص الذين يعتمد توظيفهم على خبراتهم في التعامل مع المعلومات واستخدامها في تسيير المؤسسة التي توظّفهم وتطوير أدائها.

على الفوائد المفترضة للدمج، مثل انخفاض الأسعار بالنسبة إلى المستهلكين، حتى أنها تجاهلت جميع الطرق التي يمكن للشركات المهيمنة في السوق من خلالها تعديل السياسات والتضييق على محاولات الابتكار. إن السياسات المناهضة للتضخم، والتي تمت صياغتها لمواجهة الأزمة، قد جرى تبنّيها باعتبارها عقيدةً من قبل النخبة المالية والسياسية في الغرب، وهي تتطلب التقشّف المالي تحت كل الظروف وتحرم الاقتصادات المتعثرة من النقود التي تحتاجها للنمو.

لا يتعين عليك قبول كل جانب من جوانب هذا الجدل (الشعبويّون من اليسار واليمين معاً، يختلفون حقاً حول الجوانب التي يجب التأكيد عليها والأخذ بها)، وذلك حتى تتبيّن أن هذا الجدل يصف ظاهرة حقيقية فعلاً، مدركاً أن السبب قد لا يكون فشل الليبرالية الجديدة التام، بل تراجعها عن بعض سياساتها المفضلة بسبب تناقص العائدات، ثم تلك الثقة المفرطة بين أعضاء الطبقة القيادية بأن الحلول التي اقتُرحت في السبعينيات تظلّ قابلة للتطبيق بشكل دائم.

في ما يتعلق بالتجارة، على سبيل المثال، فإن المبدأ العام القائل بأن الأسواق المفتوحة لديها عدد من الفائزين أكثر من الخاسرين قد أدى بصانعي السياسات إلى افتراض أن هذا المبدأ سيتحقّق بالضرورة، مثلما أدى إلى المبالغة في تقدير مدى سرعة تعافي المجتمعات المحلية المتأثرة بالاستعانة بمصادر خارجية ومدى سرعة تعويض القطاعات الاقتصادية الأخرى. على وجه التخصيص، كان ديفيد أوتور[82]، الاقتصادي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، قد طرح بشكل مقنع فرضية أن «صدمة الصين»[83]، وما حدث من نقل درامي حوّلت به الشركات خدماتها وتعاملاتها إلى الخارج [للاستفادة من انخفاض التكاليف]،

(82). ديفيد أوتور David Autor: اقتصادي أمريكي ولد عام 1967، أستاذ الاقتصاد في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

(83). صدمة الصين China shock: ردود الفعل عن زيادة الصادرات الصينية إلى الولايات المتحدة بعد انضمامها إلى منظمة التجارة العالمية عام 2001. وعلى رأسها القول بأن ذلك قلّل من فرص العمل بين الأمريكيين بنسبة ملحوظة.

وهو ما أعقب انخراط بكين في منظمة التجارة العالمية عام 2001، قد ألحق أضراراً اقتصادية بالطبقة العاملة في الولايات المتحدة بأكثر مما توقّع خبراء كثيرون، دون تحقيق النمو التعويضي أو خلق فرص العمل التي كانت متوقّعة في أماكن أخرى.

إن هذه القضية ليست نوعاً من «الضربة الحاسمة» التي تلقّتها التجارة الحرة، بل هي مجرد موقف ضد الثقة المفرطة في التطبيقات المتعجلة، والحجّة نفسها تنطبق أيضاً على السمات الأخرى للبرنامج الليبرالي الجديد، فمن المحتمل تماماً أن تحفّز معدلاتُ الضرائب المنخفضة النموَّ والابتكار عندما يتم خفض المعدلات من 70 في المائة، ولكن أيضاً لن ينتج عن برنامج القطع الضريبي الدائم وفق برنامج «الأقواس الضريبية»[84]، كما مارسه الحزب الجمهوري الأمريكي، آثاراً أخرى مأمولة قد يستمر نفعها في المستوى الأدنى من نسبة الـ95 في المائة. من المحتمل أن الرؤية الاقتصادية الأولية التي تفيد بأن بعض عمليات دمج الشركات ذات الأثر الجيّد في تقدير المستهلكين كانت مفيدة على مستوى اتخاذ قرارات مكافحة الاحتكار في السبعينيات والثمانينيات، ولكنها تحتاج بالفعل إلى التصحيح بينما يعاد تجميع الاحتكارات. من المحتمل أيضاً أن برنامج الحدّ من العجز و«المال الشحيح»[85] الذي يكون منطقياً عندما يكون يقفز التضخم سريعاً سيكونان غير واقعيّين عندما نكون أقرب إلى حدوث الانكماش، وأن البلدان في بعض الأحيان تحتاج إلى سياسة نقدية فضفاضة لمكافحة الركود، كما أن وجود «فئة مالية متميزة»[86] ثابتة تماماً قادرة على السيطرة على مخاطر التضخم الوهمي

(84). الأقواس الضريبية Tax brackets: هي الأقسام التي تتغير فيها معدلات الضرائب في نظام ضريبي تصاعدي (أو نظام ضريبي تنازلي صريح، على الرغم من ندرة ذلك). وتعتبر الأقواس الضريبية هي القيم المقطوعة للدخل الذي يخضع للضريبة بعد نقطة معينة بمعدل أعلى.

(85). المال الشحيح Tight money: سياسة نقدية تجعل الحصول على المال أو الائتمان أو كليهما صعباً على العديد من المقترضين ويتم بحالة واحدة وهي احتساب معدلات فائدة مرتفعة نسبياً.

(86). الفئة المتميزة Overclass: شريحة صغيرة من أصحاب رؤوس الأموال تتميز بثرائها وقوة تأثيرها. ويستخدم هذا الاصطلاح بطريقة قدحيّة إشارة إلى ما يقوم به هؤلاء من تدخّل في الشأن العام

هو وصفة ملائمة لانخفاض النمو بشكل دائم.

بالإضافة إلى هذا الموجز ضد الليبرالية الجديدة المفرطة في التوسّع، هناك جدل أكثر براعةً يدفع به نوع من الليبراليين الأكثر جديّة، وهو أن البرنامج الليبرالي الجديد لم يتم الدفع به كثيراً إلا في اتجاه خاطئ. ولسنا هنا في حاجة إلى التخفيف من ذلك بل إلى نوع مختلف عمّا هو أمامنا، لأن أصحاب المناصب والمطّلعون على بواطن الأمور في الغرب يسيطرون في الواقع على أجهزة الدولة ومؤسساتها ويستخدمونها لتجميد أي منافسة محتملة.

إن عصر الركود، في هذه النظرية، هو ثمرة ما يصفه برينك ليندسي[87] من معهد نيسكانن، وستيفن تيليس[88] من جامعة جونز هوبكنز، بـ**«الاقتصاد المأسور»**، حيث كل شيء من قواعد استخدام الأراضي[89]، إلى التقسيم الإستثنائي[90]، إلى لوائح الترخيص المهني[91]، إلى حماية الملكية الفكرية[92] المتزايدة باستمرار، إلى

واستغلال الآخرين لمصلحتهم.

(87). برينك ليندسي Brink Lindsey: نائب الرئيس في مركز نيسكانن Niskanen Center البحثي ومدير مشروع المجتمع المفتوح في هذا المركز الذي يختص بحماية البيئة والهجرة والحريات المدنية وتعزيز التأمين الاجتماعي.

(88). ستيفن تيليس Steven Teles: أستاذ العلوم السياسية بجامعة جونز هوبكنز وباحث أول في مركز نيسكانن. من مؤلفاته الاقتصاد المأسور The Captured Economy الذي اشترك مع برينك ليندسي في تأليفه. وعنوانه الكامل: «الاقتصاد المأسور: كيف يُثري الأقوياء أنفسهم، ويبطئون النمو، ويزيدون من عدم المساواة».

(89). قواعد استخدام الأراضي Land-use rules: لوائح قانونية تنظّم استخدام وتطوير الأراضي والعقارات العامة والخاصة في الولايات المتحدة.

(90). التقسيم الاستثنائي Exclusionary zoning: قوانين تقسيم المناطق بطريقة تستثني الأشخاص الذين يحميهم القانون من التمييز العرقي أو الجنسي أو غيره. وقد تم اعتماد هذه القوانين في أوائل القرن العشرين. واعتباراً من 2010 تعدّ مراسم تقسيم المناطق قياسيّةً بحيث لا تكاد تستثني إلا بعض المناطق المحضورة، وهي نادرة.

(91). الترخيص المهني Occupational licensing: لوائح تنظيمية حكومية لمنح تراخيص ممارسة مهن أو حرف معينة ترتبط بنظام التعويضات في الولايات المتحدة. كما تنظّم شروط الإغلاق المهني أو تعليق التسيير.

(92). حماية الملكية الفكرية intellectual-property protections: القوانين المنظّمة لحقوق الملكية الفكرية وتشمل حماية الإنتاج غير المادي: الفكري، الأدبي، العلمي، الإبداعي، وما يتصل بها من حقوق نشر، وبراءات اختراع، وعلامات تجارية.

إعانات الشركات[93] والإعفاءات الضريبية[94] تلتقي كلها وتتركّز لمصلحة إنشاء نظام يعتمد في الأساس على أسوأ ما في الاشتراكية وأسوأ ما في الرأسمالية معاً، إنه توجّه بلوتوقراطي متصلّب، مفرط التنظيم خاضع للضريبة [دون المستوى المتعارف عليه]، مع طبقة عليا تثري نفسها من عوائد الإيجارات بدلاً من الابتكار، أو مع فئة خدميّة لا يمكنها أن تذهب إلى أبعد مما يُتوقّع منها.

إن هذا التداخل بين هذه الدعوى الأكثر تحرّراً وبين النقد اليساري الذي تقول به الليبرالية الجديدة يظهر هنا في إحدى النسخ الأصلية من يسار ما بعد الأزمة المالية، أعني الكتاب الضخم الذي نشره الاقتصادي الفرنسي توماس بيكيتي «الرأسمال في القرن الحادي والعشرين» الصادر عام 2013، وقد تفحّص فيه إحصاءات قيمة لعدّة قرون، محاججاً بأن الرأسمالية بطبيعتها تجعل الأغنياء أكثر غنًى (لأن عوائد رأس المال ستكون دائماً أعلى من النمو الاقتصادي البسيط) ما لم تتدخل بعض القوى المؤثرة والفاعلة. لقد كانت القوى التي تدخّلت في القرن العشرين هي الكساد الكبير والحربان العالميتان، وهي لم توفر قوة دافعة تحفّز التدخلات الحكومية الهائلة في الاقتصاد فحسب، بل دمرت أيضاً قدراً كبيراً من الثروة الرأسمالية، وأدّى ذلك إلى نشوء عصر ذهبي مؤقت للطبقات الوسطى في الغرب، ولكننا الآن، وفقاً لبيكيتي، نعود إلى المعايير التاريخية، أي إلى معدل نموّ أبطأ مما جعلنا ازدهار منتصف القرن العشرين نتوقعه، وإلى «رأسمالية موروثة»[95] تصبح فيها طبقة من أصحاب الدخل [الريعيّ] ثريّة بشكل سلبي أو

(93). إعانات الشركات Corporate subsidies : حوافز حكومية على شكل دعم يتم بالمنح أو الإقراض أو التأمين أو الحسم تستفيد منه الشركات بهدف تعزيز السياسات الاقتصادية أو لتحفيز آثارها الاجتماعية الإيجابية. كما يمكن للمنظمات غير الحكومية دون إلزام قانوني أن تقدّم مثل هذه الحوافز لأسباب تتعلق بأهدافها.

(94). الإعفاء الضريبي Tax break: اللوائح المنظمة لتجنّب أداء الضرائب. وتشمل عدة أشكال، مثل: الإعفاء التام، والخصم، والائتمان. كما يشير هذا المصطلح في الولايات المتحدة إلى المعاملة الضريبية التفضيلية بناء على التصنيف المهني أو الوظيفي.

(95). الرأسمالية الموروثة Patrimonial Capitalism: مصطلح ابتكره بيكيتي للتعبير عن نظام تهيمن فيه الثروة الموروثة على جزء كبير من الاقتصاد. لأن هذه الثروة تخلق طبقة متزايدة تهدّد بإقامة

غير فاعل من خلال الاستثمار والميراث بينما يتخلّف الآخرون أكثر فأكثر.

كانت نظرية بيكيتي حول الانجراف الحتمي للرأسمالية مثيرة للجدل تماماً، ونشأ نقاش معقّد وتقنيّ للغاية حول هذا الجانب من كتابه، ولكن لغرض أطروحتنا في هذا الكتاب، يكفي أن نقول بأن «أشرار» بيكيتي هؤلاء، أي أصحاب الدخل الكبار (فائقو الثراء في العالم) وأصحاب المداخيل الصغيرة (الطبقة العليا المتضخمة التي شكّلها حُكم الكفاءة)، [96] يمكن التعرف عليهم فوراً، ووصف بيكيتي لكيف تمكّنت الطبقة العليا الحديثة من تعزيز موقعها سوف يتكرّر أيضاً في تحليلات كل من ليندسي وتيليس الأكثر تحرّراً.

إن اليسار البيكيتوي Pikettian left ويمين الوسط التحرّري يختلفان حول أي نوع من أصحاب الدخل الريعي يتوقان إلى توجيه التّهم إليهم، فبيكيتي ومعجبوه هم الأكثر تشدّداً أمام الأثرياء، مفرطي الثراء، وهم يلومون نفوذهم السياسي وأنانيتهم الأساسية في إحباط محاولة إعادة التوزيع الثروة على نطاق واسع، بينما الليبراليون الذين يعارضون أصحاب الدخل الريعي هم أكثر تشبثاً بالقول بأن أغنى الأغنياء لا يزالون يرتقون عموماً بالاعتماد على جدارتهم الخاصة (لنفكّر في جيف بيزوس[97] أو وارن بافيت[98])، في حين أنها الطبقة العليا المتضخمة هي المذنبة حقاً بما يسميه الباحث في معهد بروكينغز ريتشارد ريفز[99] «اكتناز الأحلام»: آثار الثروة الموروثة، والمتطلبات التعليمية، وأسعار العقارات،

نظام أوليغارشي. وقد استشهد على ذلك بالبنية الطبقية الثابتة القائمة على رأس المال المتراكم الذي سيطر على إنجلترا وفرنسا في أوائل القرن التاسع عشر.

(96). نظام نخبة من ذوي الكفاءة أو حُكم الكفاءة Meritocracy: نظام حكم سياسي يسيطر فيه ذوو الكفاءة أو الجدارة الاقتصادية وقدرتهم على إدارة الموارد، دون أي اعتبار للثروات الموروثة أو المكانة الاجتماعية.

(97). جيف بيزوس Jeff Bezos: مؤسس شركة «أمازون» ورئيسها التنفيذي.

(98). وارن بافيت Warren Buffett: رئيس مجلس إدارة شركة «بيركشاير هاثاواي» ومديرها التنفيذي، وهو سابع أغنى شخص في العالم عام 2021.

(99). ريتشارد ريفز Richard Reeves: مؤرخ وفيلسوف وسياسي بريطاني، عضو معهد بروكينغز. من مؤلفاته: «جون ستيوارت ميل: القبس الفيكتوري»، و«أيام أثنين سعيدة: عن الرضا الوظيفي».

والإعفاءات الضريبية التي تعيد إنتاج الامتياز من جيل إلى الجيل الذي يليه.

ثمة أرضية أساسية مشتركة هنا، وفيها نجد أن هناك نقد يساري وتحرّري مشترك من التوحيد والتعامل الذاتي يصف بشكل واضح بعض السمات الأساسية لتباطؤنا الاقتصادي الطويل. فمن نيويورك إلى لندن، ومن باريس إلى سان فرانسيسكو، ليست الطبقة العليا التي نعاصرها هي أغنى وأكبر فحسب، بل هي أكثر انعزالاً ذاتياً أيضاً، وتتمتع بحماية جيدة أكثر مما كانت عليه قبل خمسين عاماً. وهي تتدفّق إلى القائمة الثابتة نفسها من مدارس النخبة المتضخمة، وتزرع نفسها في تلك المجموعة الصغيرة من المدن «العالمية» نفسها، وتركّز على عائلاتها المتميزة في أحياء حصرية محميّة بقواعد تقسيم المناطق الصارمة، وتدافع عن نفوذها عن طريق تسعير الجميع باستثناء فئة الخدمات الضرورية، والتي تتكون إلى حد كبير من المهاجرين الذين يتم الترحيب بهم لأنهم سيعملون بجد أكبر مقابل أموال أقل من أبناء الطبقة العليا من أبناء البلد. لا عجب إذن في أن التنقّل وريادة الأعمال آخذان في التدهور. إذا كنتَ من خارج وادي السيليكون، على سبيل المثال، فأنت لا تستطيع «الذهاب إلى الغرب» للحاق بما يوفره لك من فرص إذا كنت لا تستطيع تحمّل تكاليف العيش والعمل هناك.

وفي الأثناء، تبدو أحياناً حقيقة أن هذه النخبة الجديدة أكثر كفاءة وجدارة، على نحو رسمي، من الطبقات الحاكمة السابقة (مهما كان هذا قابلاً للنقاش) كأنها تبرّر المبدأ القائل «اخطفْ ما تقدر عليه»، وإذا كانت الرأسمالية الموروثة قد ألزمت بعض النبلاء على الأقل، بل وخلقت أيضاً بعض الذين خانوا طبقة الثقة الفاشلة هذه، فإن النوع الأحدث يبدو أكثر تبريراً في تعامله مع الذات، وأكثر استقامة في أنانيته، ويبدو أن تكلفة امتيازه هذا هي خيبة أمل اقتصادية لأي شخص آخر.

حدود النمو

هذه القصة محبطة ولكنها، بمعنى ما، مشجّعة على نحو متواضع، طالما أنها

تتضمن حلولاً للركود، مهما بدت ثقيلةً سياسياً. إن إفشال أو إضعاف الاحتكارات الجديدة، ودحر امتيازات النخبة المختلفة، والثروة الضريبية، تزيل القيود عن خفض الرفاهية ولكن بشكل مختلف، لأنها تتعلق بالأثرياء هذه المرة، وتؤدي إلى حماية وتعزيز الطبقة الوسطى، وهي تفعل كل هذا بل أكثر، وقد تفي اقتصادات العالم المتقدم مرة أخرى بوعدها القديم للنمو المتسارع والمشترك على نطاق واسع.

لكن مثل هذه النزعة في إيجاد الحلول قد تكون غير كافية قياساً بحجم المشكلة. تشير نظرة سريعة إلى السجل التاريخي إلى أن شيئاً أكثر من مجرد عدم المساواة والتقشّف والاستعانة بمصادر خارجية هو الذي يساهم في التباطؤ والركود. فإذا كان المجتمع غير المتكافئ والطبقة الحاكمة الراسخة كُفُؤين لخنق النمو، فإن الثورة الصناعية لم تكن لتخرج على أرض الواقع في المقام الأول. إذا كانت الثروات المتصاعدة قد جاءت بالضرورة على حساب مداخيل الطبقة الوسطى، لكان من الممكن أن تكون التسعينيات، وهي العقد الأخير من النمو القوي، أسوأ حقبة حديثة في ازدهار الطبقة الوسطى وليس أفضلها. وإذا كان تصحيح الليبرالية الجديدة بسياسات حمائية هو الطريق للعودة إلى أمجاد «ثلاثينيّة»* أخرى، فإن فرنسا ستكون أقوى اقتصاد في أوروبا. وإذا كان تصحيح الليبرالية الجديدة بالاشتراكية هو البطاقة الذهبية، فإن فنزويلا ستكون نمر أمريكا اللاتينية بدلاً من كونها حالة مأزومة يجب إنقاذها[100]. وإذا كان التقشف قد أضعف الاقتصادات الغربية، فإنه غالباً هو ذلك النوع من التقشف الذي يُعتقد أنه مصدر الإسراف منذ ما قبل خمسين عاماً، مع زيادة الإنفاق على الرفاهية، وعجز أعلى بكثير، وتكاليف الاقتراض مقابل السداد في المستقبل، على نحو أكبر مما كان عليه ازدهار الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، حتى عندما كانت عجوزات مثل هذه

(100). يستخدم المؤلف عبار basket case للدلالة على المعاناة من أزمة راهنة، والأصل في هذا التعبير يشير إلى الجنود الذين فقدوا أطرافهم في الحرب ويضطر الجنود الآخرين إلى حملهم في سلال.

ضروريةً، وتشير إلى أن شيئاً درامياً ومؤسفاً قد تغيّر بين تلك الحقبة والحقبة المعاصرة.

إن الذي تغيّر، وفقًا لأقلّ الحلول وأكثرها تشاؤماً، هو أننا دخلنا عصراً من القيود الاقتصادية، عصر «الركود العلماني» كما عبّر عنه الليبرالي الجديد المغضوب عليه لاري سمرز[101] عام 2013، عندما قال: «إن الافتراض بأن الظروف الاقتصادية والسياسية العادية ستعود عند نقطة معينة هو افتراض لا يمكن التيقن منه». ففي ما يتعلّقُ بالمتشائمين، نجد أن السمات غير العادية لمشهد ما بعد عام 2007، مثل نسب الفائدة المنخفضة باستمرار، ومعدل التضخم المنخفض، ومعدل النمو المخيب للآمال، والثروات الكبيرة العالقة في البحث عن الريع بدلاً من المخاطرة، هي في الواقع حتميّة الحدوث في عالم متقدم حيث لا يوجد عدد كافٍ من المشاريع التي تستحوذ على إقبال الآخرين وإعجابهم لكي يستثمروا في برامجها، عالم متقدم يضخّم الفقاعات ثم يفرقعها (أو يستثمر في ثيرانوس* ثم يندم على ذلك) لأن هذا هو كل ما يمكن لرأس المال أن يفعله، أي عالم متقدّم ينمو ببطء متوافقاً مع حدود غير متوقّعة من إمكانياته المستقبلية.

يُعتبر تايلر كاوِن من بين أكثر منظّري الحدود إقناعاً، في كتابه الصادر عام 2011: «الركود الكبير: كيف أكلت أمريكا كلّ ثمار التاريخ الحديث المتدلية، ثم مرضت، وهي ستشعر بتحسن في النهاية»، ومثلهُ زميله الاقتصادي روبرت غوردون[102]، في عمله الرائع الصادر عام 2016: «صعود النمو الأمريكي وانحداره: مستوى المعيشة في الولايات المتحدة منذ الحرب الأهلية»، حيث يتفق كلا المؤلفَيْن على أجزاء من الحجج التي ذكرتها للتو حول دفع الليبرالية الجديدة إلى أبعد مما يجب، أو إساءة تطبيقها، وحول الاقتصاد المتعثر بسبب عدم المساواة،

---

(101). لاري سمرز Larry Summers: المدير السابق للمجلس الاقتصادي الوطني في عهد أوباما.

(102). روبرت غوردون Robert Gordon: اقتصادي أمريكي ولد عام 1940، وأحد الخبراء الدوليين في تحليل التضخّم والبطالة والنمو طويل الأجل. من مؤلفاته: صعود النمو الأمريكي وانحداره.

أو الاستيلاء عليه من قبل طبقة عليا ذاتية الإدارة، لكن كلاهما يعرض رؤيةً أوسع عن الركود في العالم المتقدّم، وقائمةً أطول من القوى التي تعمل على إبطاء النمو. إن الاثنين يفضّلان استخدام استعارات مختلفة، فكاون يتحدث عن أشكال ثلاثة من «الفاكهة المتدلية» التي قضى الغرب، وخاصة أمريكا، توسّعه الاقتصادي الطويل في قطفها، ليعثر فقط على الفروع والأغصان القريبة خلواً من الثمار، ويجد المصادر المحتملة للنمو الجديد بعيدة عن المتناول، أما غوردون من جهته فيفضل الحديث عن «الرياح العكسيّة» الستّ التي تعوق التقدم الاقتصادي، ولكن تحليلاتهما يمكن أن تُدمّج بشكل فعال في قائمة تضم خمس قوى بنيوية رئيسة تجعل العودة إلى معدّلات النمو قبل السبعينيات أمراً مستبعداً.

■ **الأولى**: ثقل التركيبة السكانية، حيث تلتقي شيخوخة المجتمعات الغنية مع انهيار معدلات المواليد في غرب وشرق آسيا، في جعل برامج الرفاهية الحالية أكثر تكلفة، وفي جعل نمو الناتج المحلي الإجمالي المستقبلي أكثر محدودية، وجعل ثقافة العالم المتقدم أكثر حذراً ورضًا عن الذات وتجنباً للمخاطرة. (ستتم مناقشة أسباب وعواقب هذا الاتجاه بمزيد من التفصيل في الفصل الثاني).

■ **الثانية**: عبء الديون، وهو سيزداد سوءاً مع تقدّم عمر المواليد واستحقاق فواتير الرعاية الصحية المتوقعة. إن الديون والعجز ليسا بالضرورة قيداً قصير الأجل يتخيّله جمهوريّو حزب الشاي أو مبرمجو المغالاة المالية[103]، وتشير دلائل من العقد الماضي إلى أن أزمة الديون (على طريقة الحالة اليونانية) أو دوامة التضخّم، غير مرجّحة بين الاقتصادات الغربية الكبرى، ولكن العجز لا يزال

(103). يتندّر الاقتصاديون في الولايات المتحدة عن الديمقراطيين والجمهوريين عندما يكون أحدهما في البيت الأبيض. فالحزب الأول عادة ما يركّز على تفادي العجز لإثبات أهليته. بينما يعمد الحزب الثاني إلى المغالاة المالية لإثبات سلطته. حيث تشير السياسة المالية إلى استخدام الإنفاق الحكومي والسياسات الضريبية للتأثير على الظروف الاقتصادية. خاصة ظروف الاقتصاد الكلي. بما في ذلك إجمالي الطلب على السلع والخدمات والتوظيف والتضخم والنمو الاقتصادي. ولكن «مرجعية» استخدام كل حزب للمصطلح نفسه تختلف عن الآخر لأسباب سياسية. وليست اقتصادية.

قيداً طويل الأجل، سواء على الاستثمار العام في الأوقات الجيدة أو الإنفاق المعاكس للدورة الاقتصادية في الأوقات السيئة، وهو ما لم يكن موجوداً في عالم 1955. وبالمثل، فإن حقيقة أن معدل النمو اليوم أبطأ من معدل خمسينيات القرن الماضي يعتمد على العجز المرتفع تاريخياً وعلى أسعار الفائدة المنخفضة تاريخياً، وذلك لا يعني أن النمو الحالي وهميّ ومقدَّر له أن يتبخر، كما يفترض بعض المتشائمين أصحاب الأموال الصعبة. لكنه يشير إلى أننا نستخدم ثروتنا غير العادية، بطريقة واقعية، في دعم اقتصاد القطاع الخاص الضعيف بشكل دائم بدلاً من التمتع باقتصاد قطاع خاص قوي يزيد ثروتنا غير العادية.

■ **الثالثة**: القيود المفروضة على التعليم، والتي لم تكن موجودة بالمثل قبل مائة عام عندما كانت نسبة «6.4 بالمائة فقط من الأمريكيين الذين ينتمون إلى الفئة العمرية المناسبة» (كما يشير كاون) «قد تخرجوا من المدرسة الثانوية». كان انتقال معدل التخرج من 6 بالمائة إلى 70 بالمائة بعد ثلاثة أجيال ذا أثر كبير على الإنتاجية الاقتصادية، كما فعلت الزيادة المماثلة في الالتحاق بالكلية والتخرّج عنها. لكن هذا النوع من التغيير، من مجتمع غير مُمدرَس إلى مجتمع متعلّم، يمكن أن يحدث مرة واحدة فقط. إن المزيد من التحسينات التي تطرأ على التحصيل التعليمي ممكنة بكل تأكيد (الركود في التحصيل التعليمي أسوأ إلى حد ما في الولايات المتحدة منه في أوروبا)، ولكن ليس على مقياس شبيه بما حدث في القرن العشرين. من المرجح أن يكون أي تحسين في المستقبل عملية جدّ عنيفة، ويكون مقيّداً لا بفشل السياسات والتقسيم السوسيو-اقتصادي فحسب، ولكن أيضاً بالقدرات البشرية الفطرية، وحتى مع التقدّم في مستوى المصداقية، فإن هناك بعض الأدلة على أن العالم الغربي يتراجع إلى الوراء في سياقات أكثر جوهرية مثل معدلات القدرة على القراءة والكتابة ومعدل الذكاء. لقد توقّف تأثير فلين[104] الشهير،

(104). تأثير فلين Flynn effect: معدل الزيادة المتنامي في أنحاء العالم حول ما يعرف باختبارات الذكاء السائل والذكاء المتبلور، وعمليات تحليل معامل الذكاء العام.

الذي تزيد فيه درجات معدّل الذكاء جيلاً بعد جيل، في أجزاء من شمال أوروبا، أما في الولايات المتحدة فقد بلغت معدلات معرفة القراءة والكتابة للطلاب البيض ذروتها في السبعينيات ثم أخذت في التراجع منذ ذلك الحين.

■ الرابعة: القيود التي تفرضها البيئة. إن النمو الذي حققته أمريكا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال ترويض البرية وتهيئة الأراضي البور لن يتكرّر أبداً، ومقدار النمو من الآن فصاعداً مقيّد بالحاجة إلى التكيّف مع تغير المناخ، وهو كما يلاحظ غوردون، تكيّف تمثّل تكاليفه «مردوداً» خاصاً بالقرن الحادي والعشرين بسبب معدلات النمو التي حقّقها الغرب في الثورة الصناعية عندما «لم تكن البيئة أولويةً، وكان رمز المدينة المزدهرة رسْمُ مصنع ينفث دخاناً أسود خالصاً من مداخنه».

قد يحدث بشكل نظري أن يتم تخفيف هذه التكاليف من خلال ابتكارات الطاقة المتجددة التي تجعل لوائح الوقود الأحفوري وضرائب الكربون باليةً وغير ضرورية، ولكن حتى ذلك الحين، كما يشير كاوِن، فإن الابتكارات المعنية ستكون «دفاعية» بشكل عام، من أجل الحفاظ على العادات والتوقعات الحالية، ومستوى المعيشة الحالي. قد يكون عالم السيارات الكهربائية أمراً يعودُ بالنّفع على الأرض، وهو أمر جيد لاستدامة حضارتنا، ولكن السيارة الكهربائية ليست ابتكاراً يغيّر العالم كما فعلت الباخرة أو الطائرة أو السيارة التي تعمل بالغاز، فلا يمكن أن تطمح لتحل محلّ هذه المواصلات، وينطبق الأمر نفسه على العديد من المشاريع الخضراء، على العكس من ابتكارات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ذلك أن هدف الابتكارات الحالية هو إيجاد تقنيات جديدة تسمح لمجتمعنا في الغالب بالبقاء على حاله بشكل أساسي.

■ الخامسة: الحقيقة القائلة بأن مجتمعنا المهووس بالتكنولوجيا والابتكار قد انزلق، منذ سبعينيات القرن الماضي، دون أن يدرك ذلك تماماً، إلى فترة من الركود

التكنولوجي. إن الجهود السابق ذكرها تعرقلها هذه القوة الخامسة التي تمنع العودة إلى معدلات النمو السابقة.

إلى أين ذهبت يا توماس أديسون؟

إذا كانت العديد من الاتجاهات التي ناقشتها للتو تبدو في الغالب معروفة أو واضحة بشكل مؤلم، فإن الادعاء بأن عصرنا هو عصر الركود التكنولوجي الأكثر إثارة للجدل، يلغي بالتالي أثر الدعاية العامة. وهذا هو سبب تقديمه بشكل أفضل من خلال الانطباعات والتجارب الفكرية في الأساس، لأنها من المرجح أن تحدّ من موجة الحماس لعصر التكنولوجيا.

لنبدأ بفكرة تخصّ اثنين من المؤرخين الأمريكيين المهمّين، بيري ميلر[105] وديفيد ناي[106]، اللذين يقولان بمفهوم «**التسامي التكنولوجي**»[107]. يشير هذا إلى اللحظات الثقافية المشتركة التي تثير فيها بعض أعمال الإتقان التكنولوجي الفذّة نفسَ النوع من رد الفعل الروحاني مثل عظمة الطبيعة أو مجد كاتدرائية شارتر الفرنسية[108]. منذ أوائل القرن التاسع عشر فصاعداً، أصبح تكرار مثل هذه اللحظات في أمريكا والغرب يحدث بطريقة شعائرية تقريباً، مع كل اختراق تكنولوجي جديد يقدّم نوعاً من السعي إلى الحجّ أو إقامة مهرجان. إن هذه «**الجلالة التكنولوجية**» Technological majesty (بتعبير ميلر) التي يضفيها كل إنجاز جديد، مثل الباخرة، والسكك حديدية، ودينامو هنري آدامز، وخط تجميع فورديان، وسدّ هوفر، وجسر غولدن غيت، وناطحات السحاب الحضرية،

---

(105). بيري ميلر Perry Miller: مؤرخ أمريكي تخصّص في تاريخ أمريكا المبكر. من مؤلفاته: «الفكر الأمريكي، من الحرب الأهلية إلى الحرب العالمية الأولى».

(106). ديفيد ناي David Nye: مؤرخ أمريكي، من مؤلفاته: «التسامي التكنولوجي الأمريكي». (1994)، و«التكنولوجيا وبناء الثقافة الأمريكية» (1997).

(107). يضمّن المؤلف كلمة «التسامي» إحالةً إيمانيّة كما في عبارة «التسامي الديني». وهو في المسيحية أساس صوفي في العلاقة بين الإنسان وربه.

(108). كاتدرائية شارتر الفرنسية Chartres Cathedral: كنيسة رومانية كاثوليكية في شارتر، جنوب غرب باريس، تم تشييدها بين عامي 1194 و1220.

والطائرة النفاثة، والقنبلة الذرية، والهبوط على سطح القمر، كانت متّحدة في «السماء المرصّعة بالنجوم في الأعالي وفي القانون الأخلاقي في الداخل لتشكيل ثالوث سموّ أميركيّ متميّز».

ولكن هل حدث أي شيء يناسب هذا الوصف منذ غزو القمر؟ كانت هناك لحظات مشتركة، مثل غرق «تيتانيك» وكارثة «هيندنبورغ»[109] في الماضي، حيث فشلت بعض «الأعاجيب» أو دُمّرت، أو كما في انفجار مكوكي الفضاء «تشالنجر»* و«كولومبيا»[110]، وسقوط البرجين التوأمين، وهو ما كان نوعاً ما من «الكتلة السوداء»[111] التي رافقت السموّ التكنولوجي. لقد كانت هناك عمليات محاكاة سامية، تم استحضارها على شاشات الأفلام وفي أعماق الواقع الافتراضي مؤخراً، وكان هناك نموّ في ما يسميه ديفيد ناي «تسامي المستهلك»[112] في ديزني لاند ولاس فيغاس. كانت هناك أشياء تكنولوجية راقية، مثل هواتف آيفون، التي كان إصدارها الأصلي هو أقرب تجربة مشتركة في ما يمكن أن يمتلكه جيلي من أعاجيب التكنولوجيا. من المؤكد أنه كان هناك رجال ونساء اشتهروا ببيع وعود التسامي، وتعتبر أنابيب إيلون ماسك الفائقة السرعة[113]، أو «الهايبرلووب» أشهر مثال على ذلك، ولكن كانت هناك أيضاً لحظات من الحنين إلى الماضي، مثل الرحلة الأخيرة لمكوك الفضاء

---

(109). كارثة هيندنبورغ Hindenburg: وقعت حادثة منطاد هيندنبورغ عام 1937 في مانشستر بنيوجيرسي، حيث انفجر هذا المنطاد الألماني، ومات 36 من 97 راكباً.

(110). كولومبيا Columbia: وقعت حادثة مكوك الفضاء كولومبيا عام 2003 عندما تفكّك وعاد إلى الغلاف الجوي، وقتل أفراد طاقمه السبعة.

(111). الكتلة السوداء Black mass : تعبير يُشار به عادةً إلى طقوس زائفة ترافق عبادة الشيطان وهي تتشبه بشعائر القدّاس الكاثوليكي.

(112). يشير ديفيد ناي إلى نزعة اللاجدوى في ثقافة الاستهلاك، وهو يدينها.

(113). أنابيب إيلون ماسك فائقة السرعة (هايبرلووب) Elon Musk's hyperloops: أنظمة نقل عالية السرعة تنقل الركاب عبر أنابيب يلفها حقل مغناطيسي ولا تحتك بجدران المسارات التي تمر عبرها، ابتكر مشروعها إيلون ماسك، وهو مؤسس ورئيس شركة SpaceX المتخصصة في تصنيع مركبات الفضاء.

«ديسكفري»[114] الذي نُقل على متن طائرة خاصة من طراز بوينج 747، وقد سجّل التاريخ رحلته بينما كان الناس يمدّون أعناقهم متطلّعين إلى المركبة الفضائية تُنقل من فلوريدا إلى سميثسونيان في واشنطن العاصمة محالةً إلى التقاعد.

لكن «المايبرلوب» كان مجرد مخطّط أو برنامج عمل، وكانت لاس فيغاس هيئةَ محاكاةٍ، بينما الواقع الافتراضي ليس كذلك، وكما قال كاتب الخيال العلمي نيل ستيفنسون[115] بعد مشاهدة مكوك ديسكفري يعبر فوق رؤوس المتطلّعين إليه، فإن الحنين السامي إلى الماضي في رحلة هذا المكوك الأخيرة أظهر لنا في الغالب تلك الاحتمالات التي كنا قد تخلّينا عنها:

يشمل العمر الذي عشته حقبةً كانت الولايات المتحدة الأمريكية قادرة فيها على إرسال البشر إلى الفضاء. كان من بعض ذكرياتي المبكّرة أن أجلس على سجادة مضفورة أمام تلفزيون ضخم يبثّ صوره بالأبيض والأسود، وأنا أشاهد بعثات الجوزاء[116] المبكرة. في هذا الصيف، وأنا في الواحدة والخمسين من العمر لا أكثر، شاهدت على شاشة مسطّحة آخر مكوك فضاء[117] ينطلق من المنصّة.

هذه الصورة، أي كاتب خيال علمي يستخدم أعجوبة صغيرة تتمثّل في تلفزيون شاشة مسطّحة لمشاهدة أعجوبة أكبر تعود إلى الماضي، هي صورة آسرة لا يمكن التغاضي عنها في عصرنا هذا الذي فقدَ، مع كل عجائبه الرقمية، تجربةَ

---

(114). قضى مكوك الفضاء ديسكوفري Discovery 27 عاماً من عمله الذي انتهى عام 2011 بعد أن أنجز 39 مهمّة.

(115) نيل ستيفنسون Neal Stephenson: من كتّاب الخيال العلمي والروايات التاريخية المركّبة حقولا متنوعة في أعماله مثل الرياضيات والتشفير واللغويات والفلسفة. من أعماله: «انهيار ثلجي».

(116). بعثات الجوزاء Gemini missions: يشير ستيفنسون إلى مشروع الجوزاء Project Gemini وهو من برامج ناسا المبكرة، وكان مكوك الجوزاء (جيميني) يحمل رائدين فضائيين، وقد طار في عشر بعثات. بدأ عام 1961 وانتهى عام 1966.

(117). مكوك الفضاء Space Shuttle: نظام من المركبات الفضائية يمكن إعادة استخدامها في مهام لاحقة بعد رحلتها الأولى، قامت ناسا بتشغيل هذا البرنامج منذ 1981 حتى 2011.

رهبة التقدم التكنولوجي الذي أصبحت الأجيال الحديثة السابقة تعتبره أمراً مفروغاً منه. إن السموّ التكنولوجي، على عكس النمطين الطبيعي أو الديني، لا يجدّد نفسه في كل جيل، وعلى الرغم من أننا اعتدنا على هذا الواقع، كما يوحي الرثاء الذي ذكره ستيفنسون، فإنه لم يكن على الإطلاق ما كان متوقعاً قبل خمسين عاماً، وها هو ديفيد غرايبر[118]، يكتب في مجلة «بافلر»[119] اليسارية جداً قبل عدة سنوات، مشدّداً على هذه النقطة:

باعتباري شخصاً كان يبلغ الثامنة من عمره عندما هبط أبولو على سطح القمر، أتذكر وأنا أحسب أنني سأكون تسعة وثلاثين عاماً في عام 2000 السحري، متسائلاً كيف سيكون شكل العالم آنذاك... بدا لي أنه من غير المحتمل أن أعيش حتى أرى كل الأشياء التي كنت أقرأ عنها في قصص الخيال العلمي، ولكن لم يخطر ببالي على الإطلاق أنني لن أرى أياً منها.

إن الطريقة الشائعة للتعامل مع الشعور المضطرب هي تنحيته جانباً... «أوه، تقصد كل ما يتعلق بآل جيتسون[120]؟». سُئلت ذات مرة، كما لو أنني كنت سأجيب، لكن ذلك كان خاصاً بالأطفال لا غير! فحتى في السبعينيات والثمانينيات... كانت مصادر رصينة مثل «ناشيونال جيوغرافيك»[121] و«سميثسونيان»[122] تخبر الأطفال عن محطات الفضاء والبعثات الوشيكة إلى المريخ. في عام 1968، شعر ستانلي كوبريك[123] أن جمهور السينما قد يجد أنه من

---

(118). ديفيد غرايبر David Graeber:

(119). بافلر Baffler: مجلة ثقافية يسارية أمريكية تصدر كل شهرين.

(120). آل جيتسون Jetsons: مسلسل رسوم متحركة من 24 حلقة، عن عائلة تعيش في المستقبل. تم البدء في بثّه عام 1962. ولكنه لم ينجح فاضطرت الشركة المنتجة إلى إيقافه.

(121). ناشيونال جيوغرافيك National Geographic: المجلة الشهرية الصادرة عن جمعية ناشيونال جيوغرافيك منذ عام 1888.

(122). سميثسونيان Smithsonian: مجلة تصدرها في واشنطن منذ 1970 مؤسسة سميثسونيان التي تتكون من مجموعة متاحف ومراكز بحثية (تشمل 19 متحفاً، 21 مكتبة، 9 مراكز بحثية).

(123). ستانلي كوبريك Stanley Kubrick (1928- 1999): المخرج والمنتج وكاتب السيناريو الأمريكي. ويعتبر أحد أعظم صانعي الأفلام في التاريخ. من أعماله «أوديسا الفضاء» (1968).

الطبيعي تماماً الافتراض أنه بعد ثلاثة وثلاثين عاماً فحسب، أي في عام 2001، سيكون لدينا رحلات تجارية تتجه إلى القمر، ومحطات فضائية أشبه بالمدن، وأجهزة كمبيوتر بشخوص بشرية تحمي رواد الفضاء أثناء السفر إلى كوكب المشتري... لقد تم إطلاق أسطوريّات «رحلة النجوم» (ستار تريك) في الستينيات أيضاً، لكن العرض استمر في الانتعاش، تاركاً المشاهدين أمام «رحلة النجوم: الرحّالة»[124] محاولين اكتشاف ما الذي يمكن استنتاجه -وفقاً لمنطق العرض- من حقيقة أن العالم كان من المفترض أن يتعافى من محاربة حُكْم الرجال الخارقين المعدّلين وراثياً في حروب تحسين النسل التي جرت في التسعينيات.

والآن فإن غياب الرجال الخارقين والسيارات الطائرة ومستوطنات المريخ لا يعني بالطبع أن التقدم قد توقّف. ربما يحدث ذلك على نطاق إنساني أوسع، ولكن بعد أن أخذنا التسامي في تقديرنا، فلننتقل إلى مستوى ما هو عادي ولنرى، لنستعر هذا الرأي من مارك ستاين[125]، الكاتب المحافظ الذي تتعارض سياسته مع سياسة غرايبر على نحو كبير:

تخيّلْ... رجلاً من أواخر القرن التاسع عشر، وربما كان جدّاً لك، جالساً في منزل أمريكي عادي عام 1890. والآن ادفع به إلى المستقبل باستخدام «آلة ويلز»[126] حيث المنزل الأمريكي العادي نفسه الذي وُجد حوالي عام 1950. سيدهش الرجل الفقير الذي كان يعيش في عام 1890... هناك آلة ضخمة في ركن من المطبخ، مليئة بالطعام وتحافظ على الحليب طازجاً وبارداً! وهناك جهاز آخر لامع يدور دون توقّف ويبدو أنه يغسل الثياب دون أي مساعدة بشرية على الإطلاق! والأكثر إثارة للدهشة أن هناك أوركسترا كاملة تنبعث من صندوق

---

(124). رحلة النجوم Star Trek: Voyager مسلسل الخيال العلمي الشهير الذي تدور أحداثه في القرن الرابع والعشرين. وقد استمر بثه 172 حلقة، من 1995 حتى 2001.

(125). مارك ستاين Mark Steyn: كاتب كندي محافظ، من مؤلفات: «أمريكا وحدها: نهاية العالم كما نعرفه».

(126). آلة ويلز Wells machine: آلة السفر عبر الأزمنة في رواية هربرت جورج ويلز.

صغير على سطح الطاولة! تنزعج الموسيقى لفترة وجيزة بسبب قعقعة منخفضة من الفناء الأمامي تصدرها عربة نقل معدنية تصعد الشارع بسرعة لا تصدق، مع عدم وجود حصان في مرمى البصر... ثمة ثلج على الأرض، ومع ذلك فإن المنزل دافئ بشكل ممتع دون أن تكون النار مشتعلةً، ولا يبدو أن هناك موقد في الجوار. يجلجلُ جرسٌ من آلة سوداء صغيرة على طاولة الصالة. يا إلهي! هل هذا «هاتف»؟ يلتقط الجدّ «أنبوب التحدّث»[127]، يقول له صوت من الطرف الآخر أن هناك مكالمة من مكان بعيد، وعلى الفور يسمع سيدةً من كاليفورنيا تتحدّث معه كما لو أنها تقف بجانبه، دون حاجة إلى أن تصرخ، أو حتى ترفع صوتها! وتقول إنها ستراه غداً! أوه، مضحك جداً. لديهم عربات لا تقودها الأحصنة وهي تخترف السماء الآن، أليس كذلك؟ يا للعجب! أذلك في ستين سنة فحسب!

لكنه بعد ذلك يلمح آلة الزمن **الفيكتورية**[128] الخاصة به في ركن من الردهة... ويحدث أن يضبط الانتقال على زمننا الحالي، وعندما يترجّل، يتعجّب ويسأل نفسه ما إذا كان قد ارتكب خطأ، فهو بغض النظر عن بعض التعديلات في تصميم الآلة، يرى كل شيء كما لو كان في عام 1950 إلى حد كبير: تصميم المطبخ، الغسّالة، الهاتف... أوه، انتظر، إنه يحتوي على أزرار بدلاً من قرص، والسيارة المخصّصة للسفر الواقفة في الفناء الأمامي لم تعد ذات مظهر خشبي وهي في هيئة الصندوق على أكثر مما كانت تبدو عليه، كما أن الناس الذين يخرجون منها يبدون أكبر، وهم في ملابسهم هذه كأنهم أطفال مفرطو النمّو.

بخلاف كل ذلك، ربما بقي الرجل الذي جاء من أواخر القرن التاسع عشر في عام 1950، فدعنا نوقف هذا التصوّر قليلاً هنا، ونعترف باستثناء وحيد في

(127). أنبوب التحدّث Speaking Tube: أنبوب كان يُستخدم قديماً لنقل الصوت من غرفة إلى أخرى.

(128). يعود وصف آلة الزمن بالفيكتورية إلى رواية «آلة الزمن» لهربرت ويلز، والتي اخترعها عالم إنجليزي عاش في العصر الفيكتوري، وهو عصر الملكة فيكتوريا (1837- 1901).

السيناريو الذي ذكرناه، وبدلاً من الاضطرار إلى مشاهدة ميلتون بيرلي[129] في ذلك الشيء الذي يشبه الكرسي المنزلي المركون في الزاوية، يمكنك الآن مشاهدة العم ميلتي على مقاطع يوتيوب من جهازك الآي فون، لكن كن صادقاً، بغض النظر عن كل ذلك، ما هو الجديد؟

من الإنصاف الآن أن نقول أن مارك ستاين يستهين بروائع الإنترنت إلى حد ما، تماماً مثلما بإمكانك أن تأخذ أمثلة ديفيد غرايبر وتشير إلى أن الخيال العلمي في الستينيات كان على الأغلب متشائماً جداً في ما يتعلق بمدى السرعة التي تتقدم بها تقنيات الكمبيوتر. لتتخيّل محرّكات البيانات على أنها أشياء مُصَنْدَقَة، ضخمة ومرهقة، بدلاً من أدوات جيب كما هو الحال الآن. يمكنك إعادة كتابة قصة ستاين وجعل الإنترنت تبدو أكثر روعة مما يفعله، أي موسوعة كاملة في جيبك! وإمكانية الوصول الفوري إلى أي أغنية أو فيلم أو برنامج تلفزيوني أو رواية! وعوالم افتراضية يمكنك الولوج إليها باستخدام سمّاعة ونظّارة! ومتجر يستطيع أن يسلمك كلّ ما تحتاج إليه في غضون يوم واحد، وربما يتم ذلك قريباً عبر طائرة مسيّرة بدون طيّار!

ولكن كيف تتراكم كل هذه الروائع التي تلبي الرغبات مع الابتكارات السابقة؟ إلى أي مدى استطاعت تغيير عالمنا وحياتنا؟ دون أن ننسى طريقة روبرت غوردون في المقابلة بين تقدّم العصر الرقمي الحديث وبين الاختراعات الكبرى في القرن التاسع عشر:

تجربة فكرية... مطلوب منك الاختيار بين خيار (أ) وخيار (ب). مع خيار (أ) يُسمح لك بالاحتفاظ بالتقنية الإلكترونية لعام 2002، بما في ذلك الكمبيوتر المحمول الذي يعمل بنظام ويندوز 98، للوصول إلى موقع «أمازون»*، ويمكنك الاحتفاظ بكل وسائل الراحة المتاحة، ولكن لا يمكنك استخدام أي شيء تم

(129). ميلتون بيرلي Milton Berle، أو العم ميلتي (1908- 2002): مذيع وممثل أمريكي.

اختراعه بعد عام 2002. أما الخيار (ب) فيمكنك من الحصول على كل ما تم اختراعه في العقد الماضي على فيسبوك وتويتر وآيباد، ولكن عليك التخلي عن وسائل الراحة المتاحة، كأن يتوجّب عليك مثلاً نقل المياه إلى مسكنك والقيام بالتخلص من النفايات، وتضطر مثلاً إلى الذهاب إلى المرحاض الوحيد لديك حتى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل في ليلة ممطرة، بالمشي على أرضية وحلة إلى مبنى خارج بيتك. أي خيار تختار إذن؟

لقد طرحت هذا الخيار المتخيَّل على عدة أشخاص من الجمهور الذي استمع إلى محاضراتي، وكان ردّ الفعل المعتاد عبارة عن قهقهة عالية، أو ضحكة مكتومة، لأن تفضيل الخيار (أ) واضح جداً، فالجمهور يدرك أنه قد وقع في شرك الاعتراف بأن واحداً فقط من الاختراعات العديدة في أواخر القرن التاسع عشر هو أكثر أهمية من الأجهزة الإلكترونية المحمولة في العقد الماضي والتي أصبحوا يعتمدون عليها كثيراً.

أكرّر القول بأن ما أطرحه الآن لا يشي بأن الإنترنت غير مهمّ. ففي الواقع، ومن وجهة نظر غوردون، الإنترنت هي أهم شيء حدث على مدار الخمسين عاماً الماضية، وهي مصدر زيادة الإنتاجية الرئيسية الوحيدة بعد الستينيات. (كان ثيرانوس* سرداً خيالياً ممتعاً، لكن تأثير أمازون حقيقيٌّ فعلاً) ومع هذا الصعود المفاجئ وتأثيره على حياتنا اليومية، لا يزال مجرد صورة عابرة مقارنةً بسلسلة التغييرات بين عامي 1870 و1970، وبخيبة الأمل مقارنةً بما كنا نحلم به منذ وقت ليس ببعيد.

يحبّ بيتر ثيل*، وهو من أقطاب وادي السليكون، ومن دعاة الركود البارزين، أن يقول: «لقد وُعدنا بسيارات طائرة، ولدينا الآن 140 شكلاً». وحتى الأشخاص الذين قد يوضحون لك، بجدية صارمة، بأنه لا أحد يريد حقاً سيارة طائرة لا يمكنهم الالتفاف على النقاط الأساسية التي يتوصل إليها هو وغرايبر*

وستاين* وغوردون*. إن الكثير من الاختراعات التي كانت متوقَّعة بكلّ ثقة قبل خمسين عاماً، مرفوضة الآن تماما لكونها مجرّد تخيّلات أو «بضاعة جتسونيّة»[130].

لقد تغيرت الحياة اليومية حقاً وبشكل جذري، بسبب الاختراقات التكنولوجية المبكرة، وعلى مدار الجيلين الماضيين، حدث تغيير جذري حقيقي وحيد في الأجهزة التي نستخدمها للتواصل والترفيه، بحيث لا يزال أحد الاختراعات العظيمة في القرن التاسع عشر يلوح لنا في حياتنا اليومية بأكثر من الأشياء التي نعتقد أنها أصبحت جزءاً من الطفرات التكنولوجية في وقتنا الحاضر.

عندما تفكّر في مدى تغيّر العالم بين عامي 1850 و1970، أو بين عامي 1900 و1950، أو حتى بين شطْرِ الذرّة والهبوط على سطح القمر، يمكنك أن تفهم كيف توقع الكثير من المراقبين في السنوات الأولى والوسطى من القرن العشرين تلك التطورات التي تبدو لنا الآن يوتوبيّة على نحو لا يكاد يُصدّق، مثل رؤية الاقتصادي البريطاني جون ماينارد كينز[131] التي تقول أن «أسبوع عمل» واحد يستغرق خمسة عشر ساعة، سيكون مناسباً لـ«آدم القديم»[132] الكامن فينا بمجرّد أن نصل إلى مدينة الوفرة المتخيّلة، أو رؤية الخبير الاقتصادي الفرنسي جان-جاك سيرفان شرايبر[133]، الذي يحبّ بيتر ثيل أن يقتبس من كتابه «التحدي الأمريكي» الذي حقّق مبيعات هائلة عام 1967، وتوقّع فيه أن يكون النمو الأمريكي استثنائياً تماماً حتى أن «العام الواحد سوف يتألف من 39

---

(130). بضاعة جتسونية Jetsons stuff: نسبة إلى عائلة جتسون The Jetsons وهو مسلسل رسوم متحركة كوميدي أمريكي تم بثه في بداية ستينيات القرن الماضي، عن عائلة تعيش في المستقبل تستخدم الروبوتات ومبتكرات غريبة في حياتها اليومية. وقد أعيد إنتاج هذه السلسلة في شكل فيلم عام 2017.

(131). جون ماينارد كينز John Maynard Keynes: الاقتصادي البريطاني الذي يعتبر أحد أكثر منظّري علم الاقتصاد تأثيراً في القرن العشرين.

(132). آدم القديم The Old Adam تعبير يدلّ على الإنسان العاصي والطائش الذي لا يحسن التصرف.

(133). جان-جاك سيرفان شرايبر Jean-Jacques Servan-Schreiber: صحفي وسياسي فرنسي. مؤسّس مشارك في مجلة ليكسبريس L'Express، ورئيس الحزب الراديكالي عام 1971.

أسبوعاً من العمل، و13 أسبوعاً من الإجازة... كلّ هذا سيتحقق في جيل واحد».

وكما يشير ثيل، فإن هذا يبدو سخيفًا اليوم، ولكنه لم يكن كذلك في نظر الأشخاص الذين عاشوا قبل خمسين أو ستين أو سبعين عاماً، بسبب وتيرة التغيير التي شاهدوها بأنفسهم، لا بسبب سرعتها فحسب، ولطبيعة النطاق أيضاً، وكما يقول غوردون، فقد شهد الغرب في العصور الماضية نمواً كبيراً وابتكاراً غير مسبوق في مجالات متعددة، مثل الطاقة والنقل والطب والزراعة والاتصالات والبيئة المصطنعة، في حين أن قصة الجيلين الأخيرين من العالم المتقدّم هي قصة مجتمع صار فيه التقدم أحاديّ البُعد بشكل متزايد، بحيث تركّز في التكنولوجيا ولا شيء آخر. إنه يخبرنا حقاً أنه حتى في مشهد وادي السيليكون غالباً ما تكون قصص النجاح الأكثر ثباتاً هي «أنقى» شركات الكمبيوتر والإنترنت، مثل شركات وسائل التواصل الاجتماعي، ومصنّعي الأجهزة، وشركات البرمجيّات، بينما تميل عمليات الاحتيال والفشل وخسارة الأموال الكبيرة والكوارث المحتملة إلى إشراك الجهود المبذولة لاستخدام التكنولوجيا بغرض تحويل بعض الصناعات الأخرى، من المهرجانات الموسيقية إلى تأجير المساحات المكتبية إلى خدمات توصيل الطعام إلى اختبارات الدم.[134]

على هذا النحو، يبدو أن حالة الركود الأساسية ومحاذيرها وما يتصل بذلك، كأنها تمرّ بتغيير حقيقي. لقد اعتدنا أن نسافر بطريقة أسرع، وأن نبني بشكل أكبر، وأن نعيش زمناً أطول، ونحن الآن نتواصل بشكل أسرع، ونتحدث أكثر، ونلتقط المزيد من صور السيلفي. لقد اعتدنا الذهاب إلى القمر، ونحن نصنع الآن أفلاماً مذهلة عن الفضاء بتأثيرات خاصة مقنعة تماماً، ننفق عليها ثروات صغيرة لجعل الأمر يبدو كأننا تركنا الأرض وراءنا. نحن نضخّم الطابع الثوريّ لأجهزة

(134). هذه «الصناعات» هي ما كان المؤلف قد ذكرها سابقاً وتحدّث عما داخلها من نصب واحتيال كبيرين.

الاتصالات التي لدينا من أجل إقناع أنفسنا بأن توقعاتنا السابقة واسعة النطاق كانت دائماً غير معقولة، وأن هذا التقدّم هو التقدّم الوحيد الذي يمكن أن نتوقّعه بشكل معقول!

في الأثناء، نحن نقوم أيضاً بترويج التغييرات التي من المفترض أن تكون قاب قوسين أو أدنى، مثل ثورة الطاقة البديلة التي تستعدّ دائماً للانطلاق، والاختراق الذي تحدثه الهندسة الوراثية التي نترقّب الآن أنها ستولّد أطفالاً مصمَّمين مسبقاً، ومثل القفزة الدراميّة التي يقوم بها الذكاء الاصطناعي إلى الأمام، وهي إما أن تقودنا إلى المدينة الفاضلة أو تنتهي بإبادتنا على يد نوع من «سكاينت»[135] كاره للبشر، ومثل الاختراق الجذري لتمديد الحياة الذي قد يضيف خمسين عاماً إلى أعمارنا أو يمكّننا من إحالة أنفسنا إلى خلود افتراضي، و«الدراسة الجديدة» التي تقدّم لنا أملاً في علاج مرض الزهايمر أو مرض باركنسون أو السرطان، والروبوتات التي من المفترض أن تتولّى جميع وظائفنا. حتى النجوم تعود! إنني أكتب هذه الفقرة وبجانبي نسخة من مجلة «بلومبيرغ» الأسبوعية للأعمال[136] التي تروّج لسباق فضاء جديد يموّله «وادي السيليكون».

إن الانحطاط ليس شاملاً، فهذه الوعود تعكس أحياناً بعض الاختراقات الحقيقية، والأبحاث المثيرة للاهتمام، والتطورات الواعدة حقاً، لكن روحها الجذّابة هذه لا تزال على خلاف دائم مع نمط التباطؤ العام الذي وَسَمَ الأجيال القليلة الماضية. نعم، كانت هناك خطوات واسعة في مجالات الطاقة الشمسية وطاقة الرياح ومصادر الطاقة المتجددة الأخرى، لكن أسعار الطاقة الحقيقية

---

(135). سكاينت Skynet : قصة خيالية حول سيطرة شبكة عصبية ذات ذكاء خارق وقدرة على التطور الذاتي تعمل على إفناء البشر لتحل الروبوتات محلهم. وهي في الأصل مجموعة روائية في ثلاثة أجزاء من تأليف ستيرلنغ S. M. Stirling صدرت بين 2001 و2004، وحوّلا لاحقاً إلى سلسلة أفلام Terminator.

(136). أسبوعية بلومبيرغ للأعمال Bloomberg Businessweek : مجلة أسبوعية إنجليزية، تنشرها شركة بلومبيرغ، تصدر منذ 1929 في الولايات المتحدة.

مرتفعة كما كانت في أجواء الأزمة في سبعينيات القرن الماضي، والحصة «البديلة» من فطيرة الطاقة بالكاد أعلى مما كانت عليه في ذلك الوقت. نعم، لقد جعلت الثورة الخضراء في سبعينيات القرن الماضي سيناريوهات الأسى والكآبة التي وضعها **بول إيرليش**[137]، مؤلف كتاب «القنبلة السكانية»، وغيره من المنادين بالويل والثبور، المتشابهين في رؤاهم، تبدو سخيفةً، ومكّنت خبير الاقتصاد **جوليان سيمون**[138] من الفوز برهان مشهور، مع إيرليش، في حقبة الثمانينيات، حول ما إذا كان أسعار السلع سترتفع أو تنخفض. لكن هذه الأسعار نفسها ارتفعت منذ التسعينيات، بينما انخفضت عائدات المحاصيل الزراعية التي حققتها الثورة الخضراء. وفي الأثناء، انخفضت سرعات وسائل السفر وتأخرت ابتكارات النقل شيئاً فشيئاً، وبينما قد نحصل على سيارات بدون سائق بشكل ما في نهاية المطاف (على الرغم من أنها قد لا تكون قادرة على القيادة في المطر أو الثلج)، فإن القيود الأكثر صعوبة على ذكاء الآلة لم يتم التغلب عليها بعد. وفي الواقع، فإن هناك الكثير من الأدلة وراء الضجيج المفتعل حول الذكاء الاصطناعي والترهيب منه، على أننا نتّجه بالفعل إلى «شتاء الذكاء الاصطناعي»[139]، حيث ينضب تمويل الأبحاث ويتراجع الاهتمام العام بها، كما لو أننا سنكون جميعاً في حالة من الذكاء الخارق بما يكفي في الوقت القريب. من الواضح أن الروبوتات قد استحوذت على بعض الوظائف، مع عواقب مدمّرة بشكل خاص في بعض الصناعات، كما لا يوجد شك في أنها ستستحوذ على

---

(137). بول إيرليش Paul Ehrlich: عالم أحياء أمريكي، أستاذ فخري للدراسات السكانية بجامعة ستانفورد. صدر كتابه «القنبلة السكانية» The Population Bomb عام 1968، وحذّر فيه من خطر اكتظاظ في العالم داعياً إلى اتخاذ إجراءات حاسمة للتخفيف من النمو تجنّباً لوقوع الكوارث البيئية والاجتماعية مستقبلاً.

(138). جوليان سيمون Julian Simon: أستاذ إدارة الأعمال في جامعة إلينوي ثم ميريلاند.

(139). شتاء الذكاء الاصطناعي AI winter : وصف ظهر عام 1984 على القياس بما عرف بـ«الشتاء النووي»، ويعبر عن فترة من التشكيك والنقد المتشائم لبرامج الذكاء الاصطناعي أسفر عنها فقدان الثقة وانخفاض التمويلات المخصصة لهذه البرامج. ولكنها استعادت فعاليتها بعد سنوات وحضيت بالمزيد من الاهتمام.

المزيد، ولكن المجتمع الذي يتم تحويله بشكل أساسي باستخدام الأتمتة سيكون مجتمعاً يتّسم بمستوى من نمو الإنتاجية الحاد، من ذلك النوع الذي اعتدنا التمتّع به لفترة وجيزة في أول ازدهار شهدته الإنترنت، عوضاً عن ركود الإنتاجية الذي تعاني منه الولايات المتحدة وأوروبا.

وعلى الرغم كذلك من كل الحديث المثير عن إطالة العمر الجذرية، فقد شهد الطبّ في الآونة الأخيرة تقدّماً في مكافحة الحالات النادرة التي تؤثر على المجموعات السكانية الصغيرة، بدلاً من الأمراض الفتاكة الكبيرة مثل السرطان وأمراض القلب ومرض الزهايمر. ومن الواضح أنك إذا كنت والدَ طفلٍ مصابٍ **بالتليّف الكيسي**[140]، وهو مرض تم التوصّل مؤخراً إلى علاجه الذي طال انتظاره، أو كنت أمّاً تم إنقاذ طفلها للتو من عيب خلقي عن طريق الجراحة في الرحم، أو كنت أحد قدامى المحاربين في حرب العراق بأطراف صناعية تشبه المعجزات، فإن التقدّم الذي شهدناه في هذه الحالات مذهل حقاً، كما أن المجالات التي تولّدها ليست «منحطّة» بشكل واضح. لكن المعجزات تحدث في الحالات المتطرّفة والهامشية أكثر من الحالات المنتشرة، حيث لم يتم تطوير أي نوع رئيسي جديد من المضادات الحيويّة منذ ثمانينيات القرن الماضي، ويبدو أن عصر الأدوية الرائجة قد انتهى. لقد أنفقت شركات الأدوية خلال تسعينيات القرن الماضي والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين أموالاً أكثر على الأبحاث، ولكنها أجازت عدداً أقل فأقل من الأدوية الجديدة، مع نتيجة يمكن التنبؤ بها تقول بأن تلك الأبحاث والإنفاق على التنمية قد انخفضا خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. ويتزايد في معظم البلدان المتقدمة متوسط العمر المتوقّع بشكل أبطأ مما كان عليه قبل خمسين عاماً، علماً أنه كان ثابتاً في ألمانيا وفرنسا،

---

(140). التليف الكيسي Cystic fibrosis: اضطراب جيني وراثي يؤدي إلى عجز في عمل الغدد. ويؤثر على وظائف الأعضاء مثل الرئتين والبنكرياس والكبد والأمعاء، ينتشر بين الأطفال والشباب، ويؤدي غالباً إلى الوفاة.

ولكن الأمور سارت مؤخراً في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، في الاتجاه المعاكس.

إن هذا النمط يتكرّر على نطاق أوسع في صناعة المستحضرات الصيدلانية في أماكن أخرى، حيث حقّق عدد متزايد من الباحثين إنجازات أقل، وقد تساءلت ورقة بحثية نشرها عام 2017 مجموعة من الاقتصاديين في جامعة ستانفورد بعنوان: «هل صار من الصعب العثور على أفكار جديدة؟»[141]. وكانت الإجابة بكل وضوح: نعم. فـ«نحن نقدّم مجموعة واسعة من الأدلة من مختلف الصناعات والمنتجات والشركات التي تظهر أن الجهود البحثية تتزايد بشكل كبير بينما تنخفض إنتاجية البحث بشكل حاد». وبالمثل، يستشهد تايلر كاوِن في كتابه «الركود الكبير»، بتحليل تاريخ الأفكار الابتكارية الذي قدّمه الباحث في البنتاغون **جوناثان هوبنر**[142]، والذي يُظهر نموذجه عن نسبة الابتكارات، قياساً بعدد السكان خلال الستمائة عام الماضية من التاريخ الغربي، ارتفاعاً طويل المدى وانهياراً في زمن أسرع، بحيث يتحرّك القوس التصاعدي ببطء في أواخر القرن التاسع عشر، عندما كان من السهل تصوّر وتبنّي الاختراعات الكبرى، ثم يحدث تراجع حادّ منذ ذلك الحين، حيث صارت الدول الغنية تنفق المزيد والمزيد على الأبحاث نتيجة تقلُّص العائدات.

يشير نمط الصعود والهبوط في مقياس هوبنر إلى أننا وصلنا إلى بعض الحدود الضمنيّة للأفكار الابتكارية المحتملة، وهو يقترح بجرأة أننا قد وصلنا الآن إلى ما يقارب 85 بالمائة من تلك الحدود، وسنصل إلى 95 بالمائة بحلول أواخر 2030،

---

(141). بحث أعدّه أربعة خبراء اقتصاديين من جامعة ستانفورد هم: ن. بلوم Nicholas Bloom، وج. فان-رينن John Van Reenen، وتشارلز جونز Charles I. Jones، ومايكل وبب Michael Webb. عالجوا فيه نماذج النمو الاقتصادي من خلال ابتكار الأفكار وعلاقة عدد الباحثين بالفعالية الإنتاجية، وذهبوا إلى أن الجهود البحثية المبذولة تتناسب عكسياً مع مستوى الإنتاجية بشكل حاد.

(142). أثارت ورقة جوناثان هوبنر Jonathan Huebner البحثية التي قدمها عام 2005 جدلاً كبيراً بين الخبراء قلب التصوّر العام عن ضرورة تبنّي البحث العلمي بشكل واسع.

لنصبح بعد ذلك في 100 بالمائة من هذا المقياس.

يبدو أن ثمة ثقة مبالغ فيها في هذا التشاؤم، إذ لا يوجد سبب يجعلنا نفترض أن تراجع الأفكار الابتكارية يثبت وجود قانون من النفاد الحتمي، بينما يوجد العديد من الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأن فترة من الركود يمكن أن يتبعها عصر اكتشاف مفاجئ عندما تتفتّق فجأة شرارة جديدة. ومثل هذه الشرارات قد تكون في المتناول حقاً، فربما كانت هناك حقبة لا تنعكس فيها وتيرة الابتكار بالكامل في مقاييس مثل الإنتاجية ومتوسط العمر المتوقّع، كما أن بعض الابتكارات الرئيسية اليوم، من العمليات الجراحية المتخصصة التي ذكرتها سابقاً إلى الاختراقات غير المعزّزة للناتج المحلي الإجمالي مثل رسم خرائط الحمض النووي القديم، قد يكون لها آثار مستقبلية على حياة الإنسان اليومية التي تعتبر أكثر دراميّةً بكثير ممّا ندركه الآن. وباستخدام استعارة كاوِن المفضلة، فإننا إذا التقطنا معظم الفاكهة المتدليّة التي أتاحت لنا الثورة الصناعية الوصول إليها، فربما لا يزال هناك سلّم يمكن أن يخترعه شخص ما يجعل الوصول إلى الفروع العليا أسهل على نحو مفاجئ، وبالنسبة إلى كل ما يندرج ضمن معارفنا فإن ذلك السلم قد تتمّ إطالته الآن، وفي مثل هذه الحالة، فإننا سننظر إلى انحطاطنا الحالي على أنه مجرد فترة خمول عابر، وهي فترة تباطأ فيها الابتكار مؤقتاً قبل أن تقوم السيارات ذاتية القيادة وتقنية النانو وتقنيات الحمض النووي ورحلات الفضاء الخاصة بدفعه صعداً إلى الأمام مرة أخرى.

سوف نأخذ هذه الإمكانية بعين الاعتبار وعلى نحو تفصيلي لاحقاً، لكن فترة الخمول التي ذكرناها الآن لا تزال واقعاً متعدّد الأجيال في الوقت الحالي، ولا يقدم التاريخ البشري أي ضمانات بأنه سينتهي بالضرورة، كما لاحظ غوردون وكاوِن، لأن الطفرة الكبيرة للابتكار في التاريخ الغربي الحديث إنما هي من قبيل الشذوذ التاريخي، وليست السنوات المخيبة للآمال التي مررنا بها منذ القفزة العظيمة التي هبطنا بها على سطح القمر. لقد توقّف كل مجمع متقدّم عن تقدّمه في

مرحلة ما، كما لا يوجد سبب لافتراض أن العالم الحديث محصّن بطبيعته من التّبات الذي أصاب العثمانيين والصين الإمبراطورية في الماضي غير البعيد.

هناك تشابك قويّ، على نحو خاص، بين جميع الاتجاهات التي تمت مناقشتها في هذا الفصل. فالابتكار البطيء والنمو البطيء يخلقان نوعاً من حلقات التغذية الارتجاعيّة حيث تكون هناك أموال أقل للبحث، وتكون هناك من ثم إنجازات أقلّ لتعزيز الإنتاجية والثروة. من المرجّح أن نرى الاقتصاد الذي تهيمن عليه الاحتكارات القريبة يقاوم الابتكارَ أو يسحقه، ومن المرجّح أن يرغب اقتصاد أصحاب الدخل في تجميد النظام الحالي ومقاومة الدمار الذي تجلبه الديناميكية بشكل حتمي، كما أن الاقتصاد المعوَّم بالإنفاق على العجز والالتزام باستحقاقات الشيخوخة الهائلة قد يكون لديه أموال أقل للبحث على المدى الطويل، أما الاقتصاد الذي تميزه مرتبة عالية من التطور فقد يجد صعوبة في تجديد بنيته التحتية الأساسية لاستيعاب الاختراعات الجديدة أو منحها مساحة سياسية ليتم تبنيها.

إن هذا التشابك يمتدّ إلى تأثيرات الاتجاه الاجتماعي الأكثر لفتاً للانتباه في أواخر العالم الحديث، وهو ما سيتناوله الفصل التالي: إلى أي مدى، لأسباب معقّدة وغامضة، قرّر أغنى المجتمعات في تاريخ البشرية وبشكل جماعيّ عدمَ إعادة الإنتاج.

2

العقم

إن أقوى عملين من أعمال «الديستوبيا»[143] الأدبية في التاريخ الغربي في العصر الحالي روايتان من تأليف امرأتين، الأولى رواية الكندية مارغريت آتوود[144]: «حكاية الخادمة»[145]، والثانية هي رواية الإنجليزية بي. دي. جيمس[146]: «أبناء الرجال»[147]، وهما الروايتان اللتان لا يتم دائماً ذكرهما معاً، لأن شهرة كلّ مؤلّفة مختلفة عن الأخرى، فآتوود -بغض النظر عن عدد أعمال الخيال العلمي التي كتبتها- تُقدَّم عادةً وبشكل محدَّد، بوصفها أديبةً وروائيّة، على الرغم من تنصلها بين حين وآخر من هذا التصنيف، ثم بوصفها

(143). أدب المدينة الفاسدة dystopia، على النقيض من أدب المدينة الفاضلة (يوتوبيا utopia)، وهي مسبوقة بالبادئة اليونانية dys بمعنى سيء، أو فاسد، أو مريض. للتعبير عن بيئة لا إنسانية تحيا وضعاً كارثياً قمعياً أو ملوّثاً أو فاسداً. وما إلى ذلك. وقد حافظنا في ترجمة هذا الكتاب على تعريب الكلمة (ديستوبيا) مع تضمينها أينما وردت جميع الدلالات التي تشير إليها. الأدبية منها والاجتماعية، وللإحالة دائماً إلى نقيضها، أي اليوتوبيا.

(144). مارغريت آتوود Margaret Atwood: روائية وشاعرة وناقدة وناشطة بيئية كندية، من أعمالها السردية: حكاية الخادمة، عينا القط، القاتل الأعمى. حازت على جائزة بوكر وجائزة فرانز كافكا. واقتُبست بعض مؤلفاتها في أعمال تلفزيونية وسينمائية.

(145). حكاية الخادمة The Handmaid's Tale: صدرت هذه الديستوبيا الروائية عام 1985، وتدور أحداثها في دولة لاهوتية استبدادية متخيلة.

(146). بي. دي. جيمس P. D. James: روائية وسياسية بريطانية، ألّفت 20 رواية، واقتبست العديد من رواياتها وقصصها في أعمال تلفزيونية وسينمائية.

(147). أبناء الرجال Children of Men: صدرت هذه الديستوبيا الروائية عام 1992، وتدور أحداثها انجلترا عام 2021، وتعدّ اللاإضل من بين أعمال ب.د. جيمس.

كاتبة نسويّة كذلك. أما جيمس في الوقت نفسه، فقد كتبت غالباً نوعاً من القصص البوليسية على النّمط الإنجليزي تمامًا، بقدر من التشويق والعنف أكثر مما لدى أغاثا كريستي، ولكن بالحساسية الأنجليكانية نفسها على نحو خاص. وخلاصة القول أن ما كتبتاه في أدب الديستوبيا قد تم تلقّيه بشكل مختلف، حيث اعتبر كتاب آتوود محاولة شخصية أدبية كبرى لصياغة قصة نسوية تعود إلى عام 1984، بينما عُدَّت رواية جيمس نوعاً من الرحيل الذي يثير الاهتمام قامت به الكاتبة، مع رسالة سياسية ثقافية تميل إلى المسيحية والنزعة المحافظة. والكتابان مختلفان حقاً، فرواية آتوود التي كُتبت أثناء عودة المحافظين الدينيين في عهد ريغان، كانت عن الولايات المتحدة في المستقبل القريب وقد تم الاستيلاء عليها من قبل حركة ثيوقراطية عنيفة بدأت تتراجع لا عن النسوية في موجتها الثالثة، ولكن أيضاً عن حقوق المرأة في الملكيّة، وحرية الحركة، والتعلّم. إن **«جمهورية جلعاد»**[148] الشموليّة في هذه الرواية تشبه حلماً نسويّاً محموماً عمّا رغب فيه «كبراء» اليمين الديني مثل **بات روبرتسون**[149] **وجيري فالويل**[150]، أي مجتمع لا يتمتع بامتياز ذكوريّ عادي فحسب، بل يمنح امتيازاً كاملاً لهيمنة الذكور، مع قصر دور النساء على أدوار خاضعة أو قصر دورهن (كما في حالة الراوية) على العيش كعبيد في وفقاً لنظام مسبق[151]، وحمل وإنجاب وتربية الأطفال من أجل رجال أقوياء لهم زوجات عاقرات، ويتخذن أسماء شخصية تشير إلى وضعهن باعتبارهن ملكيّةً صريحة. في الوقت نفسه، في ديستوبيا جيمس، وبدلاً من إخضاع الأنثى، هناك نوع من التحرّر المرعب وغير المرغوب فيه تفرضه الطبيعة،

---

(148). جمهورية جلعاد The Republic of Gilead: هي الدولة المتخيلة التي تدور فيها أحداث رواية «حكاية الخادمة»، وهي جمهورية ثيوقراطية أبوية تحكم معظم أنحاء الولايات المتحدة.

(149). بات روبرتسون Pat Robertson: قس معمداني أمريكي، ومرشح رئاسي جمهوري سابق.

(150). جيري فالويل Jerry Falwell: قس معمداني، وناشط إعلامي محافظ.

(151). يستخدم الكاتب كلمة nomenklatura وهي كلمة روسية ساد استخدامها في الاتحاد السوفييتي السابق وتعني بشكل عام نظاماً من التعيينات وتحديد الوظائف الخاضعة لسلطة أعلى لا يجوز تجنّب لوائحها التشغيلية.

أو الطبيعة كما فرضها الله، بدءاً من المطالبة بالتكاثر وإمكانياته. ففي رواية «أبناء الرجال» نرى الجنس البشري بأسره، أو بالأحرى النصف الذكريّ من الجنس البشري، يصبح عقيماً بين عشية وضحاها، حتى أنه لم يولد طفل واحد في أي مكان على الأرض منذ عام 1995 فصاعداً، وحيث تسابقت الحكومات مع بعضها بعضاً للبحث عن علاج مناسب، لكن ما يبدو أنه أمر مؤقت يتحوّل إلى مصير دائم وغير قابل للشفاء، ويهيمن نوع من السّبات على العالم الذي يستسلم للانقراض. وتصبح بريطانيا في هذه الراوية دولة بوليسية هرِمة، يشيع فيها الانتحار، وتُستَغل العمالة المهاجرة إليها من مجتمعات أصغر، مع الاعتياد على وضع القطط في عربات الأطفال، وانتشار الأماكن المخصصة للعبادة في كل زاوية، والعصابات المسلّحة، والانتفاضات في المناطق الريفية، إلى أن يحدث حَمْلٌ لم يكن متوقَّعاً.

إن «ديستوبيا» جيمس، تُقرأ بشكل طبيعي إلى حد ما، بوصفها نقداً ثقافياً محافظاً موجهاً إلى الانحطاط الغربي، مع موضوعات وعناصر مسيحية تنشأ باعتبارها تؤدي إلى حدوث خصوبة جديدة. بينما رواية آتوود التي لا تناهض المسيحية بالضرورة (لا ننسى أن جمهورية جلعاد تحكم بإعدام المعمدانيين والكاثوليك مع المثليين والمخربين العلمانيين)، فتُقرأ في المقام الأول بوصفها تحذيراً من مخاطر ردّات الفعل الدينية والحاجة إلى الدفاع عن النظام الليبرالي الحديث ضد أولئك الذين يقودهم تعطشهم للمعنى إلى إغراءات شموليّة [استبدادية]. ليس من المستغرب أن العديد من أكبر المعجبين برواية «أبناء الرجال» (الفيلم المستوحى منه موضع آخر مختلف) كانوا مثقفين تقليديين ودينيين. وفي الوقت نفسه، فإن حقيقة أن دونالد ترمب ليس مسيحياً على نحو دقيق، لم تمنع رواية «حكاية الخادمة» الحائزة على جائزة تعود إلى عهد ترمب نفسه، من استدعائها عن طريق الليبراليين بوصفها قصةً عن عصرنا الحالي. إنها شمعة أُوقدت ضد صعود الاستبداد الذي يكره النساء ويحتقرهن، ولكن إذا كانت الكتب مختلفةً، فإن لديها

أيضاً وحدةً لا تقدَّر قيمتها، لأن مسار حبكة «أبناء الرجال»، أي غياب الأطفال الصارخ، هو موضوع حاسمٌ أيضاً في حبكة «حكاية الخادمة»، ليس باعتباره سيناريو للديستوبيا في حدّ ذاتها، أو ليس على هذا النحو الدقيق على الأقل، ولكن بوصفه سبباً لاختراع «جمهورية جلعاد»، أو التطور الذي يحرّك منطق التثنية[152] القاسي. إن آتوود، بصفتها ناقدة اجتماعية بارعة لا تتصوّر ثيوقراطية ما تتشكّل بالكامل من عقول الجناح اليميني لـ1985، وبدلاً من ذلك، فإنها تتخيّل مجموعة سرية من الثوريين المسيحيين اليمينيين الذين يستجيبون ثيوقراطياً إلى نسخة أقل جذرية من السيناريو الذي وضعته جيمس ليوم القيامة، أي أزمة الخصوبة الهائلة، والمرتبطة على ما يبدو بالتلوث وأمراض الجنس المتفشية، والتي تترك معظم النساء الأميركيات غير قادرات على الحمل. إن دور الخادمة أساسي بالنسبة إلى النظام الجلعادي، ليس فقط لأنه يخدم النظام الأبوي ولكن أيضاً بسبب شيء فضيع قد حدث جعل الإنجاب حدثاً نادراً، أي لجعل السيطرة السياسية على تكاثر الإناث تبدو ضرورية للغاية في تبرير شمولية الاستبداد.

بهذا المعنى، اخترعت كل من آتوود وجيمس ديستوبيا تظهر في مرايا متشقّقة، مع مواضيعهما الرئيسية والثانوية معكوسةً. في كلتا القصتين هناك أزمة خصوبة، وفي كليهما تشمل العواقبُ التحولَ إلى الديكتاتورية في الغرب. إن الاختلاف هو أن جيمس هي الأكثر اهتماماً بالأزمة نفسها، بينما ينصبّ أغلب اهتمام آتوود على تخيّل رد فعل الاستبداد الشمولي المرعب. لكن كلا الروايتين استمدتا قوتهما من المصدر العميق نفسه وشرعتا في عملية استقراء تنطلق من الحقائق التي تميز العالم الغربي في العصر الحديث، أي حقيقة أنه في خضم كل الوفرة المادية المتاحة لمجتمعنا هناك مورد واحد نادر بشكل واضح، وهذا المورد هو الأطفال.

المهد الفارغ

(152). نسبة إلى كتاب التثنية العبري. وهو الكتاب الخامس في التوراة اليهودية.

من المؤكد أن مجتمعنا لا يواجه أزمة الخصوبة المنذرة بالفناء، أو الشبيهة بذلك، كالتي التي تصورتها روايتا جيمس وآتوود. لقد انخفض عدد الحيوانات المنوية عند الذكور بوتيرة مخيفة إلى حدّ ما، لكن الكارثة في رواية «أبناء الرجال» لم تحلّ بنا (حتى الآن). إن تأخّر النساء في الإنجاب لا يشبه الانهيار الكلي في خصوبة الإناث المتصور في «حكاية الخادمة»، لكن كلا الروائيّتين تتعاملان مع كوارثهما باعتبارها، جزئياً، امتداداً للتنازل الثقافي عن الجنس الإنجابي الذي أعقب الثورات الجنسيّة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، واستمر هذا التنازل وانتشر منذ ظهور كتابيهما للمرة الأولى. هناك تباين من بلد إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ولكن تحت مستوى الخصوبة المنخفض هذا تكمن الحقيقة الأساسية للحياة المتحضرة في أوائل القرن الحادي والعشرين.

لكي يعوّض المجتمع نفسه يحتاج من جيل إلى جيل إلى متوسّط ولادة يبلغ 2.1 لكل امرأة. في جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي في عام 2016، كان المتوسط 1.6 طفل لكل امرأة، وفي اليابان 1.41، وفي كوريا الجنوبية 1.25، وفي الصين 1.6، وفي سنغافورة 0.82، وفي كندا 1.6، وفي أستراليا 1.77. ووفقاً لهذه المعايير كان معدل الخصوبة الأمريكي قوياً نسبياً حيث بلغ 1.87. لكنه مع ذلك كان لا يزال منخفضاً للغاية بحيث لا يمكنه الحفاظ على السكان الحاليين بهذه النسبة، كما أنه -على الرغم من النمو الاقتصادي- قد تراجع بشكل أسرع ممّا توقعه معظم علماء الديموغرافيا، ثم انخفض بحلول عام 2018 إلى 1.7، وهو أدنى مستوى تم تسجيله على الإطلاق، وما زال يتجه نحو الانخفاض بشكل مستمر.

هذه هي معدلات الخصوبة الإجمالية، ويميل المهاجرون الجدد إلى البلدان المتقدمة إلى تحقيق معدّل خصوبة أعلى من المتوسط (تتقارب خصوبة النسل بسرعة إلى حد ما مع معدلها في البلدان الأصلية)، لذا فإن معدلات الخصوبة لدى النساء المولودات في البلد المهاجَر إليه هي تقريباً دون استثناء أقل من هذه الأرقام. وباستثناء إسرائيل، فإنه لا توجد دولة غنية في العالم لن يكون عدد

سكانها، مع غياب الهجرة، على هذا النحو من الانخفاض والتقلّص.

لماذا يحدث هذا؟ يمكننا القول بشكل عام أن الاتجاه التنازلي قديم ومبالغ في تحديده، وقد أدى انخفاض معدلات وفيات الرضّع إلى بقاء المزيد من الأطفال على قيد الحياة حتى سن الرشد، ما قلّل من الحافز على تكوين أكبر أسرة ممكنة، كما أدت التحولات من الزراعة إلى الصناعة ثم إلى اقتصاد المعلومات إلى جعل الأطفال أقل قيمة كعمال منزليين إضافيين، بالإضافة إلى أن الاستثمار التعليمي المكثف في كل طفل أدى إلى تفهّم اقتصادي متزايد، ما أدّى بدوره إلى زيادة تكاليف تربية الأطفال في نظر الطموحين والناجحين. لقد أدّت حبوب منع الحمل إلى تقليل احتمالية حدوث الحمل العرضي وتأخير الأبوة والأمومة، وخلقت الثورة النسوية حوافز اقتصادية قوية للنساء لتأخير الولادة لأطول فترة ممكنة، وأشارت ثورةُ التشريع الخاصة بالطلاق وتراجعُ معدّل الزواج إلى أن عدداً أقل من الأشخاص كانوا يقضون سنوات الإنجاب في شراكة مستقرة وأحاديّة مقارنةً بالماضي، كما أصبحت العلمنة تعني أن عدداً أقل من الناس شعروا بأنه من الواجب الأخلاقي أن يكونوا «مثمرين» ويتضاعف عددهم!

لقد قدمت «**دولة الرفاهية**»* ضماناً للشيخوخة قلّل من الحاجة إلى الأطفال كمصدر للدعم المالي عندما لا يمكن للمرء العمل أكثر ممّا فعل في السابق، أما بركات المجتمع الاستهلاكي الغني فقد وفرت عدداً كبيراً من السلع والخدمات والتجارب حتى يرغب من هو دون سن الخامسة والأربعين في تزجية الوقت وصرف الطاقة واستهلاك المال، وساعة بعد ساعة ظلّت أعباء تربية الأطفال أساسية ومخفّفةً بشكل متواضع (في أفضل الأحوال) من خلال التقدم التكنولوجي والأجهزة المخصّصة للتقليص من العمالة.

على هذا النحو، يبدو نوعٌ ما من انخفاض الخصوبة على نطاق واسع كأنه نتيجة طبيعية وحتمية للحداثة الرأسمالية الليبرالية، ولكن في الوقت نفسه، هناك الكثير

مما لا نفهمه عن هذه الظاهرة، وعن التفسيرات والمتغيرات المختلفة التي يبدو أنها تتعارض مع بعضها بعضاً. فعلى سبيل المثال، تشير حقيقة انخفاض معدلات المواليد خلال فترات الركود -كما حدث بشكل حاد خلال فترة «الركود الكبير»- إلى أن الموارد المالية الشخصية تلعب دوراً رئيسياً في قرارات الخصوبة. ومن هنا إمكانية أن يفسّر الركودُ الاقتصادي (الذي نوقش في الفصل الأخير، وخاصة الركود الذي أصاب مداخيل الطبقة العاملة) بعضَ الانخفاض الحالي في معدل المواليد. لكن يبدو أن فرضية الركود تتعارض مع التجربة التاريخية الأوسع للغرب الحديث، حيث اعتاد الناس أن يكون لديهم أسر كبيرة بينما يعيشون في ما يبدو أمام المعاصرين كأن ظروفهم هي الأكثر قذارةً وأن الوضع لا يطاق، وحيث رافقت مستويات الانخفاض العامة في الخصوبة عقوداً وقروناً من النمو الاقتصادي، بما في ذلك الانتعاشَ الحالي في الولايات المتحدة. بعبارة أخرى، إن ثروتنا العظيمة قياساً بالماضي تعمل على تثبيط الخصوبة، لكن ما يحدث من انتكاسات وخيبة أمل في سياق الثراء هذا إنما تثبّطها أكثر.

ليس من الواضح تماماً، من ناحية أخرى، كيف تتفاعل «دول الرفاهية» والإنفاق العام مع معدلات المواليد. لقد اقترح عدد من الدراسات أن أكثر شبكات الأمان[153] الأوروبية سخاءً تُثني الناس بشكل ما عن تكوين أسر كبيرة لأن دول الرفاهية الأكبر تتطلب ضرائب أعلى على الآباء المحتملين وتقلّل من الحافز على إنجاب العديد من الأطفال حتى تتمكّن من رعاية المواطنين في سن الشيخوخة. قبل نحو خمسة عشر أو عشرين عاماً، تم الاستشهاد بهذا الدليل لشرح سبب استمرار معدلات المواليد في الولايات المتحدة بنسبة أعلى من فرنسا أو ألمانيا، والحجّة هنا هي أن العبء الضريبي الخفيف ودولة الرفاهية الأقل

(153). شبكة الأمان safety net: مؤسسات عامة تقوم على الاشتراكات لتحسين حياة الأسر الضعيفة والفقراء، وتقدم معاشات اجتماعية، ومساعدات عينية وغذائية ونقدية وإعفاءات من الرسوم، لتوفر حد أدنى من الرفاهية تسعى الدولة إلى تثبيته وعدم الانحدار إلى ما دونه.

سخاءً بشكل نسبي يجب أن تحفّز الإنجاب. ولكن في الآونة الأخيرة، دون حدوث تغيير جذريّ في ما ننوء به من أعباء ضريبية، أو في حجم الإنفاق العام، تقاربت معدلات المواليد الأمريكية مع مثيلاتها في العديد من دول شمال أوروبا، وبعض هذه البلدان لديها معدلات مواليد أعلى من الدول الأوروبية مع حالات أضعف من الرفاهية.

إن الحقيقة التي تقول بأن دول الرفاهية في شمال أوروبا مثل فرنسا والسويد وأيرلندا، على نحو خاص، غالباً ما تحتوي على مكوّنات قوية للإنجاب، تشير إلى طريقة محتملة للتوفيق بين أدلة متضاربة، حيث ربما تقلّل شبكة أمان الشيخوخة من معدلات المواليد، لكن حالة الرفاهية الأسرية يمكن أن ترفع نسبتهم. ثم أن هناك عدد من الدراسات الأخرى، لا سيما في شرق آسيا، تُظهر أنه لا يبدو أن لسياسات الإنجاب تأثير واضح على معدلات المواليد، وقد استخدمت دول مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة السياسة والدعاية في الوقت نفسه بجدوى ضئيلة جداً، حيث انخفضت معدلات الخصوبة إلى نصف مستوى الإحلال[154] النمطي أو أقل من ذلك. وحتى في فرنسا والسويد، فإن معدل المواليد المرتفع هو جزئياً أحد آثار الانفتاح النسبي لتلك البلدان على الهجرة، و على النقيض من ذلك، تعتمد فنلندا الديمقراطية الاجتماعية، برنامجاً قوياً لدعم العائلات، يكتمل بـ«صندوق الأطفال»[155] الشهير الذي يتم إرساله إلى كل أم تنتظر مولوداً، ولكن هذا الإجراء لم يفعل الكثير لمنع عدد المواليد الفنلنديين من الانخفاض الحاد الذي لم تشهد له البلاد مثيلاً منذ المجاعة المروعة التي حدثت في ستينيات القرن التاسع عشر.

(154). مستوى الإحلال replacement level: هو معدّل الخصوبة الي يعني أن الجيل الجديد من السكّان مماثل في كثافته للجيل الذي سبقه.

(155). المهد (صندوق الطفل) baby box ويعرف أيضاً باسم Maternity package: ملابس أطفال ومعدات تُمنح للمرأة الحامل في فنلندا قبل الولادة. وقد بدأت هذه التجربة تنتشر في دول أوروبية أخرى.

يقدّم الدور الذي يقوم به الدِّين والنزعة المحافظة الاجتماعية حالةً شبيهة من هذه الشكوك، لأن الممارسة الدينية ترتبط بارتفاع الخصوبة في معظم المجتمعات، وتؤكّد ذلك الممارسة الدينية الأكثر محافظةً بشكل خاص، فالمورمون واليهود الأرثوذكس لديهم أطفال أكثر من نظرائهم العلمانيين، والمسيحيون الإنجيليون لديهم أطفال أكثر من الملحدين ومن البروتستانت الأكثر ليبراليةً، كما أن المهاجرين المسلمين الجدد إلى الغرب لديهم الكثير من الأطفال، ثم تنخفض خصوبتهم بعد ذلك مع الاندماج وتضاؤل الممارسة الدينية. ومن الملاحظ أن معظم المدن الخالية من الأطفال في الغرب هي عموماً أماكن مرتبطة بالليبرالية الاجتماعية المتطرفة، مثل سان فرانسيسكو وستوكهولم وسياتل.

لكن هذا النمط لا يسري دائماً عبر المجتمعات، فالسويد علمانية أكثر بكثير من بولندا، لكن السويديين عموماً لديهم أطفال أكثر من البولنديين، وشمال أوروبا علمانيّ أكثر من جنوب أوروبا، لكن معدلات المواليد في إسبانيا واليونان أقل منها في بريطانيا العظمى أو العديد من الدول الاسكندنافية. وقد هذا التباينُ البعضَ إلى اقتراح أن **«النسويّة هي الإنجابية الجديدة»**[156]، وهو أمر مبالغ فيه. ونقول مرة أخرى، أن انفتاح المجتمعات الأكثر ليبرالية على الهجرة يفسّر بعض الاختلافات هنا، ويمكننا اعتبار انخفاض معدل المواليد في فنلندا المساوية بين الجنسين مثالاً مضاداً وواضحاً للإدعاء بأن النسويّة تماثل الإنجابيّة، ولكن قد يكون هناك نوع من الفخ يتربّص بالمجتمعات، مثل إيطاليا واليابان، والتي تحافظ على بعض المعايير التقليدية بين الجنسين مع الترحيب (أو الدفع) بالنساء في صفوف القوى العاملة، كما لو كان من المتوقع أن يلعب النساء أدوار ربات البيوت التقليديات وأن يعملن أيضاً بدوام كامل في الوقت نفسه. لا شك في أنهن

(156): الإنجابية Natalism: الموقف الاجتماعي المشجّع على زيادة معدّل تكاثر الولادات، واتخاذه سياسةً عامة في الدولة. وهي تتناقض مع دعوة مناهضة الإنجابية Antinatalism التي تنادي بخفض معدلات التكاثر.

على هذا النحو سوف يقمن بنوع من الإضراب عن التناسل!

إن السؤال الأكبر في الأثناء هو: لماذا استقرت الخصوبة على هذا المستوى المتدنّي؟ كان من المنطقي أن تنخفض بشكل حادّ عمّا وصلت إليه في فترة ما قبل الحداثة، ولكن لماذا انتهى بها الأمر إلى إحلال ثانوي[157]؟ أشارت التوقعات في ستينيات القرن العشرين إلى أن الخصوبة في العالم المتقدم ستستقر على ما يقرب من 2.2 طفل لكل امرأة، وبدلاً عن ذلك، يبدو أنه يستقر على نسبة 1.7، وحتى هذا المستوى قد يكون متفائلاً أيضاً. ومع ذلك، فإن حجم الأسرة المطلوب في العالم الغربي لا يزال قريباً من 2.5 طفل، ولا يعني هذا أن كل شخص يريد بشكل مفاجئ إنجاب طفل واحد فقط. إن النساء يردن عدداً كبيراً من الأطفال مثلهن في ذلك مثل الرجال، لذا فالمسألة ليست مجرد مسألة تفضيلات أنثوية تملي على المجتمع ما يردنه النساء بعد أن مكّنهن تيار النسوية من التعبير عن أنفسهن. كانت هناك فترات، وأذكر هنا طفرة المواليد قبل كل شيء، توقف فيها الاتجاه العام فجأة، أي عندما تم تحديث المجتمع بسرعة، وازدهرت معدلات المواليد. لقد حافظت الولايات المتحدة، وهي أكبر وأغنى دولة في الغرب، على معدل الخصوبة الذي يقارب مستوى الإحلال النمطي لفترة طويلة، أي لعدة عقود، بعد الانخفاض إلى ما دون ذلك في السبعينيات، وهي فترة كافية حتى أن الكثير منّا اعتبر أن معدلات المواليد الأمريكية كانت استثنائية إلى حدّ ما، لكننا تراجعنا الآن إلى مستوى الإحلال الثانوي، فلماذا؟

إذا كان الاستثناء قادراً على مساعدتنا في تفسير القاعدة، فإن مثال إسرائيل يبدو مثيراً للاهتمام. إنها الدولة الوحيدة الغنية وذات المستوى التعليمي العالي التي كانت فيها معدلات المواليد أعلى بكثير من مستوى الإحلال النمطي بدلاً من مستوى الإحلال الثانوي، ثم ارتفعت فعلياً مرة أخرى، حيث بلغَ معدل

(157). الإحلال الثانوي subreplacement: معدّل خصوبة إجمالي، وهو غير مستوى الإحلال النمطي. ويعني استمراره أن الجيل الجديد من السكّان يكون أقل كثافة من الجيل الذي سبقه في منطقة ما

الخصوبة في إسرائيل عام 1985 مستوى 2.7 مولوداً لكل امرأة، ويقف المعدّل اليوم، في هذا البلد الذي لا يزال غنياً، عند 3.1. ويمكن تفسير جزء من هذا الوضع وهو حالة تستحق الدراسة بوصفه يتعلّق بدور التديّن والكيفية التي يحفّز بها الخصوبة، وذلك بالنظر إلى قوة المجتمع المتشدّد في إسرائيل وحقيقة أنها رحّبت منذ السبعينيات فصاعداً بنوع من المهاجرين أكثر ورعاً ومحافظةً من معظم الدول الغربية. ولكن معدّل المواليد في إسرائيل يظل مرتفعاً، بل إنه يرتفع إلى نسبة أعلى بين الإسرائيليين العلمانيين أيضاً. لذا، وبدلاً من الاعتماد على الدين وحده لتفسير استثنائية الدولة اليهودية، قد يكون من المنطقي التكهّن بأن معدل التكاثر يزداد في وجود مخاطر محسوسة تهدّد الحياة العادية، وأن هوية إسرائيل المميزة وتاريخها وموقعها الجغرافي السياسي، أي كونها مهدّدة ومعبّأة على الدوام، تخلق مواقف مختلفة تماماً من التضحية بالنفس المرتبطة بمفهوم الأبوة عمّا تخلقه الثقافات الأقل ارتباطاً بالدفاع عن الوجود في المجتمعات الغنية الأخرى.

يمكن لهذه الحجّة أن تمتد إلى استثناء رئيسيّ آخر وأكبر بكثير يتعلق بانخفاض الخصوبة الحديث، أي عالم طفرة المواليد بعد الحرب [العالمية الثانية] والذي تشكّل لا من خلال الإحياء الديني المؤقت في أواخر أربعينيات القرن الماضي فحسب، بل وأيضاً من خلال التضامن الذي نشأ في زمن الحرب، وحاجة أوروبا إلى إعادة بناء حضارة مدمَّرة، والتهديد المنذر بالفناء الذي مثّله التهديد بحرب نووية. لكن نهاية تلك الفترة الاستثنائية، وانهيار الخصوبة الذي تلي ذلك في أواخر الستينيات والسبعينيات، يقترحان كذلك تفسيراً آخر معقولاً يكشف لماذا تنخفض الخصوبة في الغرب، إذ يبدو منذ الثورة الجنسية أن الرجال والنساء يواجهون المزيد والمزيد من المشاكل في الاقتران بنجاح وبشكل دائم.

إن مشكلة العلاقات هذه لها تفسيرات «ليبرالية» و«محافظة» في آن واحد، فالليبراليون يؤكّدون على كيف أن الإرث السّام الذي خلفه النظام الأبوي يجعل من الصعب على الرجال التكيّف مع تمكين المرأة وما يتطلبه من تغيير في الأدوار،

بينما يشدّد المحافظون على كيف أن الثقافة المتساهلة جنسياً تفصل الجنس عن الحب، وتمزق الأعراف الاجتماعية التي تجمع الجنسين معاً بسعادة. الحقائق في حد ذاتها لا غبار عليها، فقد استجاب الناس للثورات الاجتماعية في الستينيات بالميل أولاً إلى الزواج بنسب أقل، وإلى الطلاق بنسب أكبر، وإلى إنجاب عدد أقل من الأطفال، كما أن كثيراً من الأطفال ولدوا خارج إطار الزواج، وفي نهاية المطاف صار الإقبال على الزواج أقل فأقل، مع انخفاض عدد الأطفال أكثر فأكثر، بل إن العقدين الماضيين شهدا أقل نسبة من ممارسة الجنس، ولعل الأكثر إثارة للدهشة أن هذا الاتجاه الأخير يظهر في الدراسات في جميع أنحاء العالم المتقدم، من بريطانيا وألمانيا، إلى شرق آسيا، إلى الولايات المتحدة، حيث يرتبط الانخفاض بانتشار الإنترنت والآي فون، وجميع البدائل الافتراضية عن الاقتران الجنسي التقليدي. في اليابان وهي بلد يشهد نسبة خصوبة منخفضة، وجدت دراسة حديثة من وكالة تنظيم الأسرة أن 45 في المائة من النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين 16 و24 عاماً، و25 في المائة من الرجال: «لا يهتمون بالاتصال الجنسي، أو يزدرونه»، وفي فنلندا ذات النسبة المنخفضة من المواليد، أظهرت دراسة أجريت عام 2015 كيف «ينتشر نقص الرغبة الجنسية، ويتقلّص عدد مرات الجماع»، وكيف انخفض عدد مرات هزّات الجماع لدى الإناث منذ سبعينيات وتسعينيات القرن الماضي.

ربما يؤدي تراجع الجنس وإنجاب الأطفال، وكذلك الزواج، والاستعاضة بالعادة السرية عن الجماع، وانتشار اللاجنسية[158]، إلى التأثير على الاختيارات الحرّة لشعب حرّ! إذ يجب الاحتفاء بها بدلاً من ازدرائها، لكن هذا التقييم المبهج يتجاهل الفجوة الآخذة في الاتساع بين ما يقوله معظم الناس إنهم يريدونه، أي العلاقات والزواج والأطفال، وانعدامُ قدرتهم المتزايدة على العثور على هؤلاء الشركاء وإنجاب أولئك الأطفال. إن العالم المتقدّم الذي تحققت فيه هذه التفضيلات ما زال بإمكانه أن يكون ذا معدلات مواليد أقل، وزيجات أقل، ممّا

(158). اللاجنسيّة Asexuality : تضاؤل أو غياب الانجذاب الجنسي.

كان عليه في الماضي، لكنه سيظل يمارس الجنس، ويُقبل على الزواج، وينجب عدداً من الأطفال أكبر من العالم كما هو الآن. إنه عالم جرى تعقيمه وتشتيته بطريقة ما، ضد رغبات سكانه المعلنة.

مرحبًا بكم في مدينة الشفق

لهذا «العقم» عواقب اقتصادية مهمة تكمن وراء التعاسة التي تأتي مع الآمال والتوقّعات التي لم تتحقق. إن معدل المواليد المنخفض يحوّل المجتمعات الغنية بسرعة إلى مجتمعات مُسنّة، مع عدد أقل من العمال والمتقاعدين، الأمر الذي يؤدي أولاً، وبطريقة مباشرة للغاية، إلى إبطاء نمو الناتج المحلي الإجمالي ثم إلى البدء في الانكماش، كما هو الحال في اليابان فعلاً، وربما في أجزاء من أوروبا أيضاً. لكن التأثير غير المباشر لا يقل أهمية عن ذلك، فالمجتمعات المسنّة، والمجتمعات التي يقل فيها عدد الشباب عن كل المواطنين المسنّين، هي ببساطة أقل احتمالاً من أن تكون ديناميكية، وأقل اهتماماً بالمخاطرة، من المجتمعات ذات الملامح الديموغرافية الأصغر سناً.

ها هي **ميغان مكاردل**[159]، تتحدث عن مستقبل أوروبا الاقتصادي الصعب في مقال نشر بمجلة «اطلنطيك» في العقد الماضي وتشرح طبيعة هذا الوضع:

«... تصور بلدتين متجاورتين تشتركان في البنية التحتية والفرص الاقتصادية نفسها، مع اختلاف رئيسي واحد هو متوسط العمر. في البلدة الأولى، التي سأسميها «مدينة الصباح» يبلغ متوسط أعمار السكان 28 سنة. في المدينة الثانية، التي سأسميها «مدينة الشفق» يبلغ متوسط أعمار أرباب الأسر 58 سنة.

تشير الأبحاث إلى أن هاتين المدينتين، حتى مع وجود جميع الموارد تحت تصرفهما، تبدوان مختلفتين تماماً، ففي مدينة الصباح، يتّسم العمال الشباب بالسرعة وهم متعلّمون مرِنون، يتوقون إلى تجربة طرق جديدة لإنجاز المهام المطلوبة، نظراً لأنهم ما

(159). ميغان مكاردل Megan McArdle: كاتبة أمريكية ولدت عام 1973.

زالوا يأملون تحقيق ذواتهم وربما يصبحون أثرياء، ولهذا فإنهم كثيراً ما يخاطرون. إنهم يدفعون مديريهم إلى التوسّع في أسواق جديدة، ويقترحون خطوط إنتاج غير مناسبة ولكنها مبتكرة، وربما يشرعون في تأسيس شركتهم الخاصة إذا لم يسمح لهم المدير بالتقّدم بالسرعة التي يسيرون بها، وللحصول على الفرصة المناسبة فإنهم يخصصون 18 ساعة من العمل يومياً لمدة عام أو أكثر.

في مدينة الشفق، تكون الآفاق الزمنية أقصر، حيث لا يبحث الأشخاص عن مشاريع تجعلهم أغنياء أو مشهورين بعد 20 عاماً من زمنهم الحاضر. إنهم مهتمون بالحفاظ على ما لديهم، وهذا في الغالب أمر عقلاني، بالنظر إلى المرحلة العمرية التي يعيشونها، لكن الدراسات تشير إلى أن كبار السن يقلقون أكثر من الأصغر سناً بشأن الخسائر، وبالتالي فإنهم يكرهون المخاطرة بشكل خاص. يتعب مواطنوا مدينة الشفق أيضاً بسهولة أكبر ويحتاجون إلى مزيد من الوقت للتعافي من المرض، لذلك تنخفض ساعات العمل ببطء كل عام. ومع ذلك، تظل الأجور ثابتة كما هي، لأن سكان مدينة الشفق، مثل معظم الناس، يغضبون إذا حاولت خفض رواتبهم...».

هذه ليست وصفة للنمو وخلق فرص العمل والابتكار على النطاق الذي يميل فيه المجتمع أكثر إلى الشباب القادرين على الإنتاج. إن ثقل التركيبة السكانية يفسر الكثير من الركود الاقتصادي الذي نوقش في الفصل السابق، وهو عامل كبير يفسّر لماذا عانت الأجور من الركود على مدى جيل كامل، ولماذا كان النمو الاقتصادي بطيئاً في معظم أرجاء الغرب، وربما حتى لماذا أصيب التقدم التكنولوجي بخيبة أمل منذ الستينيات. إن الاقتصاديين الذين يدقّقون أسباب الانحدار الديموغرافي يواصلون البحث عن الآثار الواضحة لتلك الظواهر، وقد وجد تحليل أُجري عام 2016 في الولايات الأمريكية أن زيادة بنسبة 10 في المائة في نسبة السكان فوق الستين أدّت إلى انخفاض معدل نمو نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 5.5 في المائة، كما وجدت ورقة بحثية عام نشرت 2017 أن الشركات في أسواق العمل الشابة تعتبر أكثر ابتكاراً، ووجد تقرير صدر عام 2018 أن شيخوخة المجتمع ساعدت في تفسير نمو الاحتكارات وانخفاض

معدل الشركات الناشئة، ووجدت ورقة أخرى في نفس العام أن هناك «علاقة واضحة بين القوى العاملة الأكبر سناً والإنتاجية المنخفضة»، وجميع هذه الأبحاث تشير إلى تفسير ديموغرافي للانخفاض المستمر في نمو الإنتاجية.

يساعد **«المهد الفارغ»** على تفسير نمو عدم المساواة أيضاً، وكما يرى توماس بيكيتي في كتابه: «رأس المال في القرن الحادي والعشرين»، فإن الانتصار الدائم لنسبة الواحد في المائة يعتمد بشكل كبير على افتراض أن النمو السكاني البطيء سيؤدي حتماً إلى تباطؤ النمو الاقتصادي بشكل عام، ويعتمد -بشكل أكثر دقة- على حقيقة أن عدد الأطفال الأقل يعني ورثةً أقل يتقاسمون ثروة الأسرة، فتسلسل أشجار العائلة يضمن أن الثروات ستزداد تركّزاً أكثر من أي وقت مضى بدلاً من الاختلاف بين الأفراد في كل جيل متعاقب، كما هو الحال في المجتمع الذي ينجب فيه الأثرياء أكثر من طفلين.

إنه أمر حتمي، إذن، أن يكون المجتمع الذي يحتوي على عدد أقل من الأطفال أقلّ ديناميكية وأكثر طبقيةً، وهو ما يجعل انخفاض عدد السكان حالة تستوجب الدراسة لمعرفة كيف يهيمن الانحطاط على حضارة ما، لأنه مثال على كيف يمكن للنمو والتنمية أن يخلقا الشروط المسبقة الضرورية لتنظيم التوجهات الثقافية (وهي في هذه الحالة: الفردانية الجنسيّة، وما بعد الأسروية[160]، والإنجاب المؤجّل)، وهذا بدوره يجعل المزيد من التطور مسألة مشكوكاً فيها من خلال تقويض القوى المرتبطة به والتي يشترطها النمو الدائم (الشباب والمخاطرة والديناميّة).

إنها علامة على تطور الحضارة، بحكم التعريف غالباً، حيث يكون لدى البالغين نطاق أوسع من الهويات الممكنة ممّا هو متاح للآباء والأمهات، وغالباً ما

(160). مابعد الأسروية Postfamilialism : توجّه فكري تنهض أدبياته على تحفيز مستقبل الأسروية أي أيديولوجيا منح الأولوية للأسرة وتثبيت أنظمة الرعاية الاجتماعية بحيث يتزايد دور الأسر ويتقلّص دور الحكومة في الاضطلاع بالمسؤولية على أفراد المجتمع.

يعكس المسار التدريجي لمعدلات المواليد في العصر الحديث مكاسب رفاهية الإنسان، كما في إيقاف وفيات الأطفال، والحد من الإنجاب المستمر كشرط مسبق للاقترانات الزواجيّة، واستبدال الاقتصادات الزراعية غير المجدية. ولكن عندما يعبر هذا المسار إلى منطقة «مستوى الإحلال الثانوي»* فإن آفاق الفرد يمكنها أن تتّسع أكثر في المستقبل العام في نهاية المطاف، ما يعني أنه بقدر ما تكون الفردانية* ثمرة النمو والثروة والازدهار والإنجاز في عصرنا فإنها تبدو أيضاً كأنها تمهّد للركود.

تقليم شجرة العائلة

يبدو ما مرّ آنفًا أنه بذرة محتملة للتشاؤم واليأس أيضًا. ربما تكون خيبات الأمل الشخصية التي تأتي مع تطلعات الإنجاب غير المحققّة شكلاً منبوذاً من أشكال تعاسة أواخر منتصف العمر اليوم، ولكن هناك أيضًا عواقب اجتماعية ونفسية عامة لانخفاض معدلات المواليد، وتأثير عام من حجم الأسرة الأصغر على كيفية تجربة الناس للحياة اليومية، وعائلاتهم وصداقاتهم ومجتمعاتهم، وربما قبل كل شيء على طريقة تفكيرهم في مستقبلهم الاجتماعي.

لأبدأ بعائلتي على سبيل التوضيح: إن آل داوثِت Douthats من جهة والدي، وآل سنو Snows من جهة أمي، مثالان لما يمكن أن نسمّيهم الأمريكيين «القدامى»، أي البروتستانت البيض، في الغالب الأعم، والذين خالطهم عدد قليل من الوافدين الأيرلنديين الجدد. كان لدى جدي الأكبر لأمي، وهو أكاديمي من نيو إنغلاند، خمسة أطفال، عاش أربعة منهم ليكوّنوا أسرهم الخاصة. ابنه، أي جدي، كان لديه أيضاً خمسة أطفال، ولدين وثلاث بنات، نشأوا جميعاً باعتبارهم جزءاً من شبكة كثيفة تتكون من أبناء عمومتهم.

من جهة والدي، في الفرع العائلي الذي انتهى به المطاف إلى جنوب كاليفورنيا مروراً بأركنساس، كانت العائلات أصغر قليلاً، ولم تكن عائلة داوثِت هي

المجموعة الأكثر خصوبة أبداً، ولعلهم كانوا قلقين من فرض اسم العائلة الذي يصعب نطقه على العديد من الورثة. لكن والدي كان واحداً من ثلاثة أشقاء، ولدان وابنة، وُلِدوا لمندوب مبيعات ينتمي إلى الطبقة المتوسطة في خمسينيات القرن الماضي في سانتا مونيكا، ما يعني أنه كان لدي ست عمات وأعمام بشكل عام.

ثم جاءت الثورات الاجتماعية في السبعينيات بما حملته معها من حالات الطلاق والزواج المتأخر والأبوة الأحادية والإجهاض. وفي النهاية، فإن كل هؤلاء العمات والأعمام، وأزواجهم وزوجاتهم، أي اثنا عشر شخصاً من القادرين على الإنجاب، ووالديّ أيضاً، صار لديهم سبعة أطفال فقط: أنا وأختي وخمسة من أبناء عمومتي. فبدلاً من التوسع إذن، ضاقت شجرة عائلتي وخفّت أغصانها، وهي قد تزداد تخفّفاً مرة أخرى، فأبناء العمومة السبعة في جيلي حتى الآن، جميعهم بالغون، ولديهم أربعة أطفال فقط، ثلاثة منهم لي أنا.

هذا تاريخٌ عائليّ غربي طبيعي جداً. إن انخفاض معدلات المواليد في كل مكان في جميع أنحاء العالم المتقدم، يعني أن الأسر أصبحت أكثر وهناً، ما يعني أن هناك عدد أقل من الزيجات شيئاً فشيئاً، وعدد أقل من الإخوة والأخوات وأبناء العم، والمزيد من الأشخاص الذين يعيشون لفترات أطول فأطول بمفردهم. أي أن نزعة «ما بعد الأسرويّة»* هذه ترتبط بالعزوبية الخالية من الهموم، وبتمديد فترة البلوغ. ولكن أهم آثارها على مجتمع مسنّ سوف تظهر بين الأمريكيين الأكبر سناً، وقد بدأنا للتو في تجربة معنى **«ما بعد الأسرويّة»** بالنسبة إلى الأشخاص عبر دورة الحياة، حيث يتحول الشباب (من الجنسين) إلى عزاب ومطلّقين في منتصف العمر، ثم إلى متقاعدين منعزلين.

عاش جدي لأمي، على سبيل المثال، في منزله إلى أن بلغ أربعة وتسعين عاماً

حتى وفاته. كان يتجوّل حول منزله الريفي في مزرعته بـ«مين»[161]، محافظاً على قدر كبير من البهجة والاستقلالية التي يمكن أن يأملها شخص تسعينيّ مثله يعاني من التهاب المفاصل. كان ذلك ممكناً بالطبع لأنه جزء من عائلة كبيرة، وقد انتقل ثلاثة من أبنائه إلى ولايات بعيدة، لكن ظل معه اثنان يعيشان بالقرب منه على مسافة عشر دقائق بالسيارة، وكان الأبناء الذين يعيشون بعيداً عنه يأتون لزيارتهم بشكل متكرر، كما كان شقيقه الأصغر يقوم بزيارته، وكانت كلّ هذه العلاقات المباشرة جزءاً من شبكة أكبر كوّنتها إمكانية الوصول إليه، والحديث معه، والاعتناء به، وجعلت استقلاليته بشكل عام مستمرّة حتى النهاية.

أكان ذلك أمراً حقيقياً في نظرِ أبنائه، والداي وعمّاتي وأعمامي، ونظرِ الجيل الذي بعدهم؟ في عام 2017 نشرت صحيفة نيويورك تايمز قصة عن الشكل الذي يمكن أن تبدو عليه الشيخوخة في اليابان، الدولة التي تقع على المنحنى ما بعد الأسروي بدرجة أكبر من الولايات المتحدة، وهي تبدو أكثر عمقاً على هذا المستوى من الترّدي الديموغرافي. لقد انتهى هذا البلد إلى صورة قاتمة، بدءًا من موجة الدفء التي تتموّج في «مبانٍ بيضاء متماثلة» إلى مجتمع التقاعد الواسع «حيث أمضى الكثير من المستأجرين المسنّين أسابيع أو شهوراً وهم في شرنقة شققهم الصغيرة، مع عدم وجود عائلات أو زوار يمكن الحديث معهم، وهو أمر لا يعطي سوى تلميحاً بسيطاً عن وجودهم يمكن أن يراه العالم خارج أبوابهم، حيث يموت بعضهم كل عام دون أن يعلم أحد، حتى يكتشف الجيران ذلك بعد أن تنتشر روائح جثثهم».

إن مشاكل أخرى تبدأ في وقت أبكر من ذلك بكثير، أي قبل أن تتجاوز الوفيّات مداها، فالأطفال الذين يولدون في عالم منخفض الخصوبة يتمتعون ببعض المزايا الواضحة، لأن تأخر الخصوبة يعني أن آباءهم لديهم موارد أكثر،

---

(161). مين Maine: منطقة ساحلية زراعية تقع شمال شرق الولايات المتحدة. على المحيط الأطلسي.

والأسر الأصغر تعني أن كل طفل يحصل على مزيد من اهتمام الوالدين، ولكن في الوقت نفسه، عندما يولدون لآباء وأمهات أكبر سناً (وخاصة الآباء المسنّين الذين تتدهور جودة الحيوانات المنوية لديهم بشكل ملحوظ) يكون هؤلاء الأطفال أكثر عرضة للإصابة باضطرابات في النمو والتعرّض للإعاقات في مهارات التعلّم، حيث سيكون لديهم عدد أقل من الأقران الحميمين، وعدد أقل من الأشقاء وأبناء العم، وشبكة أضعف من الحلفاء والمتعاطفين الطبيعيين أثناء خوضهم تجارب المراهقة. سيكون آباؤهم أكبر سنّاً عندما يواجهون تحديات سن الرشد المبكرة، ومن المرجح أن يصبحوا عبئاً على الآخرين بينما لا تزال ذرّيتهم تحاول إثبات وجودها، أما كأجداد فسيكونون أقل نشاطاً وقدرة على المساعدة، هذا إذا أصبحوا أجداداً في الأساس، بل ربما صاروا عرضة للموت قبل أن يبلغ نسلهم منتصف العمر. وبما أن كل شخص لابد له من أن يمرّ بكل مرحلة من مراحل الحياة هذه، فإنه في مجتمعنا الذي يعاني من ضعف الخصوبة حالياً يتعيّن على جميع الأطفال الذين حملت بهن أمهات مسنّات، أن ينتظروا لفترة أطول بكثير مما اعتاد آباؤهم وأجدادهم لكي يروا أحفادهم. كما تقول الناقدة الثقافية جوديث شوليفيتز[162] في دراسة تجريبية موسعة أجريت على عدد كبير من السكان.

يبدو في هذا المشهد أن نهاية منتصف العمر بشكل محدّد هي نقطة حدوث الأزمة، إنها اللحظة التي يمكن أن تتبخّر فيها مزايا العيش الفردي، عندما يصبح الوعد بالاستقلال لعنة، وعندما يلغي غياب الأحفاد أو تأجيلهم أسباب التفاؤل والشعور بتحقيق الهدف. إن المؤشرات الاجتماعية القاتمة في العشرين عاماً الماضية في أمريكا، ومعدلات الانتحار المتزايدة، ومستويات الإدمان و«وفيّات اليأس»[163]، غالبًا ما تكون أسوأ بين الذين بلغوا أواخر منتصف العمر وبداية

---

(162). جوديث شوليفيتز Judith Shulevitz: صحفية أمريكية تعمل الآن في صحيفة نيويورك تايم.

(163) وفيات اليأس deaths of despair: حالات الوفاة التي ترتبط بأمراض سن اليأس، وقد سجلت نسبة مرتفعة بين متوسطي العمر وكبار السن في الولايات المتحدة وهي ذات معدّل تصاعدي.

الشيخوخة، خاصة بين الرجال الأكبر سناً والمطلّقين الذين يبدون غير قادرين على مواجهة عبء البقاء خارج نطاق الأسرة التقليدي.

إن البشر كائنات علائقية. نحن نعتمد على المجتمع لكي نعيش بسعادة، ونتخيّل المستقبل ونتصدّى له بشكل مكثّف عن طريق من ننجبهم من ذرّية، أي بلحمنا ودمنا. ولكن في عالم يحتوي على عدد أقل من الأطفال، ويعاني من انخفاض معدلات المواليد وارتفاع سنّ الزواج، لا يزال عدد الأحفاد أقل أو إنهم لا يوجدون على الإطلاق. وعندما يتطلّع الناس متسائلين عن مستقبل بلدانهم، فإنهم سيرون حتماً عدداً أقل من الأجيال السابقة يمكنهم أن يتعرّفوا فيهم على أنفسهم، كما أن هذا الاغتراب يزداد عندما يبدو الخلف في وضع أسوأ مما كان عليه حال السلف، كما هو الوضع في مجتمعات الطبقة العاملة البيضاء حيث أصبح الإدمان والبطالة والانهيار أكثر انتشاراً.

هذا الخليط من العائلات الصغيرة والفوضى الاجتماعية يغذي رؤية المستقبل بصورة قاتمة، فبعد وفاتك سيكون أطفالك القلائل، وأحفادك الأقل عدداً، محاصرين ومعزولين ووحيدين. إن الأزمات المفاجئة يمكن أن تكون أعمق أثراً، وإذا كان لديك ابن واحد أو حفيد واحد (أو كان لديك جار أو صديق واحد فقط)، وتوفي أو أصيب في حرب خارجية، أو تعرّض للإفلاس أو رهن عقاره بسبب الركود، أو انتهي به الأمر إلى الإدمان، أو السجن، أو الموت بسبب تعاطي المخدرات، فإن منظورك للمستقبل سوف يتغيّر بطريقة دراميّة أكثر بكثير مما يفعل شخص يستند إلى شبكة اجتماعية أكبر يستطيع من خلالها توسيع آفاق مستقبله بدلاً من أن تضيق عليه.

هناك قصة أخرى من التايمز نشرت عام 2017 تُظهر روجر وينميلر R. Winemiller، وهو مزارع فقد طفلين بالغين بسبب الإفراط في تعاطي المخدرات في غضون تسعة أشهر. ركّزت المقالة على الميراث والخسارة، وأوضحت شكوك

المزارع في أن ابنه المتبقي الذي يعاني هو الآخر من الإدمان، يمكنه أن يرث المزرعة التي ورثها وينيميلر من عمه قبل عشرين عاماً.

إنها قصة حزينة، وستكون أكثر حزناً وقتامة إذا كان لديه طفلان فقط وحَدَثَ أن تركاه بموتهما رجلاً مسناً ووحيداً.

سياسات الخصوبة المنخفضة

إن فهم الاغتراب النفسي أساسيّ لفهم المناظرات السياسية المعاصرة. منذ أن تلاشت طفرة المواليد بعد الحرب العالمية الثانية، تبنّت النخب في كل من الولايات المتحدة وأوروبا الهجرةَ الجماعية حلًّا للمشاكل الاقتصادية المرتبطة بالعقم، فالهجرة توفر نموّاً سكانيّاً جديداً، وأناساً جدداً، وعمّالاً جدداً، وأفكاراً جديدة لمواجهة الركود الذي تسبّب فيه انخفاض حجم الأسرة. ويتم التشديد على الدوام في الخطاب العام الذي يتبنّاه قادة الغرب، على الصلة بين الهجرة والديناميكية، لأسباب مفهومة: «نحن الذين ليس لدينا عدد كافٍ من الأطفال يفعّلون المجتمع، نلجأ إلى الأمل في أن يتمكن أطفال الآخرين من توفير العمالة والإبداع وتغطية ساعات العمل وتأسيس الشركات الناشئة ودفع ضرائب الضمان الاجتماعي والعناية بالمتقاعدين». أي كل المتطلبات التي تحافظ على استمرار النظام بأكمله، والتي تثير الشكوك حول الخصوبة ومستوى الإحلال الثانوي في عدد السكان، وبما أن الهجرة إلى دولة غنية يمكن أن تكون نعمة إنسانية واقتصادية للمهاجر، فإن الصفقة بأكملها تبدو مربحةً للطرفين حيث يربح الجميع، لا يخسر أحد، اقتصادياً ومعنوياً على حد سواء.

إن هذا منطقيّ إلى حدّ ما، فالاقتصادات التي رحّبت بالمهاجرين تميل إلى حدّ ما (أيضاً) إلى النمو بشكل أسرع من تلك التي رفضت استقبالهم، كما أن الهجرة ترتبط في بعض أشكالها بـ«أنواع معينة» من الإبداع الثقافي والابتكار.

لكن الهجرة الجماعية تصبح سيفاً ذا حدّين إذا اعتُمِدت حلًّا تكنوقراطياً للمشاكل الاقتصادية التي خلقتها حركة ما بعد الأسرويّة*. إنها تستبدل بعض العمال المفقودين ولكنها تؤدي إلى تفاقم الاغتراب بين الأجيال والاحتكاك بالمهاجرين لأنها تزيد على وجه التحديد من القلق بشأن الميراث والخسارة الذي تفاقم فعلاً بسبب معدلات الخصوبة التي لم تبلغ مستوى الإحلال. إنها تعطي وعداً محتملاً بمستقبل أكثر ديناميكية من المستقبل الذي وعدت به معدلات المواليد المنخفضة، ولكن بالنسبة إلى المهاجرين الذين يتقدمون في السّن والذين لا تزدهر تجمعاتهم السكانية، فإنها تشير أيضاً إلى أن فوائد ذلك المستقبل المتخيّل تعود بشكل متزايد إلى الأشخاص الذين يبدون من الناحية الثقافية مجرّد غرباء، إلى الورثة وهم ليسوا ورثة طبيعيين للمواطنين الأصليين، أو بالنسبة إلى أبناء المهاجرين وأحفادهم، الذين حلّوا محلّ الأعداد المتضائلة من أبناء المواطنين.

إن الكثير من الشعبوية التي كانت في طريقها إلى الولايات المتحدة وأوروبا (ولم تكن كذلك في ما يتعلّقُ باليابان وكوريا الجنوبية اللتين كانتا -وليس هذا من قبيل الصدفة- تتطلعان إلى الروبوتات أكثر من المهاجرين لمعالجة المشاكل الديموغرافية) يبدو متجذّراً في الطريقة التي تتشابك بها هذه المشاعر: مزيج من العنصرية ورهاب الأجانب والميل الإنساني الذي لا يبعث على الأسى في ما يخصّ الآخرين، متضافراً مع القلق الناجم عن الركود الاقتصادي والتشرذم الاجتماعي. ونادراً ما أدرك الجدل الدائم حول ما إذا كانت «العنصرية» أو «القلق الاقتصادي» يفسران التصويت لترمب أو «للبريكست» (خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي) حجمَ هذه التشابكات، أي مدى خيبة الأمل الاقتصادية التي يعاني منها الناس، والأشخاص الذين صار تطلّعهم الطبيعي إلى المستقبل يتلاشى عندما أضعفت الأزمات الاجتماعية روابطهم الأسرية الضعيفة أصلاً، فتمردوا على الحلول التي اقترحتها النخبة لمشاكلها، لأنهم شعروا بأنها تنطوي على تسليم المستقبل إلى شخص آخر غيرهم، وردّوا على هذه الحلول بغضب هو أكثر تعقيداً

من أن يتم اختزاله في الاقتصاد أو الثقافة أو التزمّت البسيط فقط.

يمكن القول بالطبع أن أولئك الناخبين القلقين والمحرومين الذين يعانون من الاستلاب هم ضحايا خياراتهم الجماعيّة. لو كان لدى الأجيال الأكبر سناً من الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين طفل واحد إضافي في كل عائلة، لكانوا يتمتعون اليوم باقتصاد أكبر، وآفاق نمو أفضل، وتفاوت أقل، ومزيد من الأبناء المحيطين بهم عندما يبلغون سن الشيخوخة، ولكان لديهم رابط أقوى يشدّهم إلى المستقبل كلما تقدّم بهم العمر. وفي مثل هذا النظام البديل سوف يحتاج الغرب إلى عدد أقل من المهاجرين، ولكنه ربما يجد أن الأسهل هو الترحيب بهم، لأن احتمال استيعاب اللاجئين والمهاجرين قد يبدو أقل تحدياً لهوية البلاد الأساسية، كما يبدو أن المجتمع الأصغر سناً يتمتع بقدر أكبر من الديناميكية والثروة للمضي قدماً. من غير المرجح أن يخاطب أي سياسيّ ناخبي ترمب أو مؤيدي «البريكست» أو الشعبويين الفرنسيين المغتربين عن مستقبل بلادهم ويقول: «كان يجب أن تنجب المزيد من الأطفال عندما سنحت لك الفرصة»، ومع ذلك فإن هناك حقيقة أخرى في حُكمٍ مثل هذا.

يحقّ لأولئك البائسين أيضاً، في هذه الأثناء، أن يتساءلوا حتى دون أن يصدر عنهم أيّ ردّ فعل عنيف عمّا إذا كان حلّ معدلات الولادة المنخفضة عن طريق السماح بالهجرة الجماعية يمكن أن ينجح كما اعتقد التكنوقراط المسؤولون عنه، وهل أن حشود المهاجرين الشباب الذين تم قبولهم في ألمانيا من قبل المستشارة أنجيلا ميركل عام 2015 بوصفهم لاجئين، سينجحون في الاقتصادات ذات التقنية العالية في الغرب الحالي، ناهيك عن المستقبل الذي سيكون إما راكداً أو مستبدلاً بالآلات أو كليهما؟ هل سكان الضواحي الفرنسية الذين لم يتم استيعابهم في المجتمع بعد، ونصف الراديكاليين، سكان الضواحي المعتمة التي تطوق المراكز الحضرية الغنية والسياحية، هم حقاً العمال الذين يحتاجهم المجتمع المتدهور، المتقدّم في السن، الذي يشكّك في نفسه؟ هل تستحق الفوائد الاقتصادية

للهجرة المخاطر الاجتماعية والسياسية المرتبطة باستيراد العديد من الأشخاص من ثقافات غريبة جداً عن الغرب الحديث؟ أليس من الممكن، بدلاً من ذلك، أن ينتهي الأمر بالتكنوقراط إلى الفوز بأسوأ ما في العالميْن، لأن الهجرة الجماعية لم تمنع الركود والتصلّب الاقتصاديين فعلياً، لكنها خلقت أقلية مضطربة من السكان وردَّ فعل عنيف بين أعضائها بينما هي تدفع النظام بأكمله إلى عمق الأزمة أكثر فأكثر؟

ولكن إذا كان انخفاض الخصوبة يؤدي إلى تفاقم الاستقطاب السياسي، فقد يؤدي أيضاً بشكل جزئي إلى نزع فتيل الأزمات التي يثيرها، فحتى عندما تبدو سياسات ردّ الفعل العنيف الصادر عن البيض الأكبر سناً مدمّرةً بشكل دراميّ حالياً، فإن جوانب أخرى من «العقم» قد تميل إلى إبقاء النظام في حالة ركود رماديّة. وهنا يجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار النقطة الرئيسية للكاتبة الأمريكية **ميغان مكاردل*** حول «مدينة الشفق»: إنه مكان يكون فيه الناس أكبر سناً، ويتسمون بالتالي بطابع مزاجي خاص فيخافون من التغيير. لذلك من السهل جداً تخيّل سياسات انخفاض معدلات المواليد في مجتمعهم والتي تؤدي إلى دعم نوع من النزعة السلطوية الناعمة، في ظل دولة تفعل المزيد لحمايتك أثناء دورة الحياة وفي الشيخوخة، مع وجود اقتصاد أكثر تنظيماً، بالإضافة إلى تأكيد قويّ على هويّة وطنية واحدة تكون بديلاً عن الهويات العائلية الهزيلة، على أن يحدث كل هذا بدون اضطرابات سياسية وعنف صريح، كالذي رأيناه عندما كان المجتمع أصغر سناً وأكثر نشاطاً وتناغماً. قد تُبنى مثل هذه السلطوية الناعمة، في شكلها الأكثر فاعلية، على الاتجاهات والميول التي تشاهد في سياسات أوروبا الشرقية، وحتى في السياسات الاسكندنافية. أما في شكل أكثر فوضوية، فقد تحذو حذو إدارة ترمب، فتقدم شكلاً من أشكال الترفيه الإخباري عبر قنوات الكابل لمن يؤيدونها، وتتحوّل إلى ردود قاسية وغير كفؤة، ولكنها في الغالب أقرب إلى أداء العروض الفنية، وأشبه بالأداء والاستجابة في العالم الافتراضي لا غير، بينما

يواصل الناس في العالم الحقيقي حياتهم العادية بوهن وضعف.

إن أشكال الديستوبيا الأدبيّة التي نوقشت في بداية الفصل تقدّم مجموعة من السيناريوهات المحتملة للسياسة في عالم مصاب بالعقم والشيخوخة. سيناريو رواية «حكاية الخادمة» هو الحالة الدراميّة التي يصبح فيها المجتمع المحتضر ثورياً، مع قدر من الانحطاط يفسح المجال أمام الصراع الأيديولوجي ثم الاستبداد الشمولي، أما بالنسبة إلى ما هو أكثر اعتدالاً، ولكنه لا يزال فوضوياً واستبدادياً في الوقت نفسه، فهناك فيلم ألفونسو كوارون[164] المقتبس عن رواية «أطفال الرجال»[165]، حيث تستورد بريطانيا التي تُحتضر ببطء مهاجرين أصغر سناً لسدّ احتياجاتها من اليد العاملة ثم تحبسهم وتسيء معاملتهم، ما يثير وضعاً عاماً من العنف والإرهاب، وأعمال الشغب في المدن، حيث تعمّ الفوضى في الشوارع بشكل يذكّر بالأحداث التي انتشرت في ستينيات القرن العشرين.

لكن الفوضى في الرواية الأصلية للكاتبة ب. د. جيمس كانت أقل مما تم عرضه بكثير. إنها شكل ينذر بالفناء التام، أي نهاية العالم حرفياً، ومع ذلك فإن المجتمع في الرواية مسنّ ويحتضر بهدوء، ولم يكن ثورياً، وهو يتحوّل من الديمقراطية إلى ديكتاتورية غير إيديولوجية، ويعاني من نوبات من العنف العشوائية وغير السياسية، ويقبل القتل الرحيم والانتحار دون شكوى. هناك خلية ثورية محتملة في الرواية، تتكوّن من بعض أعضاء المجتمع الأصغر سناً، لكنها تتميّز بشكل أساسي بعبثيتها وعدم قدرتها على جذب أي شخص إلى تبنّي برنامجها. إن مجتمع «أطفال الرجال» لا ينهار في الفوضى، إنه يستكين للرضى بحالة متكررة من الخَرَف، وبالعيش في يأس، ولكن بسلام، وهو يدفع أخيراً رأس ماله المتراكم لاستعادة ماضيه النشط الذي تلاشى على مدى العقود القليلة الماضية.

---

(164). ألفونسو كوارون Alfonso Cuarón: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو مكسيكي المولد.

(165). فيلم أطفال الرجال Children of Men: النسخة السينمائية من رواية الكاتبة الأمريكية ب. د. جيمس، أنتج عام 2006.

قد تكون هذه الصورة، من الناحية السياسية، أقرب إلى ما نتوقّعه، وإن بدت على شكل أقل «ديستوبيّةً» في مجتمع مُقدر له أن ينمو بشكل ثابت ليصبح رماديّاً أكثر فأكثر على مدى فترة طويلة دون قدرة على التجدّد. قد نتوقّع جموداً وتصلّباً، على أقل تقدير، بدلاً من أزمة أو كارثة مفاجئة، مثل 1914 أو 1968، ومن الممكن تماماً، كما سيقول الفصل التالي، أن يكون الجمود هو ما يكمن تحت سطح سياساتنا العاصف لا غير.

3

التصلّب [166]

قمتُ بواحدة من زياراتي النادرة إلى البيت الأبيض في عهد باراك أوباما بعد ظهيرة يوم ربيعي مشرق عام 2009، عندما قام رام إيمانويل[167]، وكان ما يزال آنذاك يشغل منصب رئيس موظفي البيت الأبيض ويبدو حازماً ومؤثراً، بدعوة عدد من كتّاب الأعمدة في الصحف للجلوس خارج مكتبه في الجناح الغربي، في هواء العاصمة الذي لم يصبح رطباً بعد، وقد تحدّث لنا عن كل الأشياء التي تنوي إدارته إنجازها. ثم ظهر الرئيس شخصياً بشكل غير متوقّع في منتصف الاجتماع، ولم يكن وجهه الوسيم قد ظهرت عليه علامات الكِبَر بسبب الأعباء الرئاسية بعد، وكان يرمي كرةً أهداها له الفائزون ببطولة الرابطة الوطنية لكرة القدم (سوبر باول Super Bowl)، وبدت على ملامحه مظاهر الثقة التي تميّز الرجل المختار الذي أفرزته حملة الانتخابات عام 2008.

كانت لدى أوباما أسباب وجيهة تجعله يبدو واثقاً، فحزمة التحفيز التي تبلغ

(166). التصلّب Sclerosis مصطلح طبّي أساساً يعني تصلّب الأنسجة. ويُستخدم في التحليل الاقتصادي لوصف البلدان التي تعاني من أوضاع اقتصادية غير مرنة ترتفع فيها معدلات البطالة بحيث لا يؤثر فيها الارتفاع المقابل في معدلات النمو العام.

(167). رام إيمانويل Rahm Emanuel: رئيس موظفي البيت الأبيض (2009- 2010)، ثم رئيس بلدية شيكاغو (2011- 2019).

تقارب قيمتها تريليوناً من الدولارات، والمكتنزة بالمال المخصص لأولويات ليبرالية طويلة الأمد، قد تم إقرارها قبل بضعة أشهر، وكان آرلين سبيكتر[168] آنذاك، وهو جمهوري معتدل من ولاية بنسلفانيا، قد قفز مؤخراً من السفينة للانضمام إلى الديمقراطيين، فمنحهم أغلبية ساحقة في مجلس الشيوخ تتكون من ستين مقعداً، وقد أشار إيمانويل، دون ذكر الأسماء، إلى أن الجمهوريين المعتدلين الآخرين قد يحذون حذوه قريباً. كانت نسبة تأييد أوباما تقترب من 60 بالمئة، وكان وجه الحزب الجمهوري العبوس هو راش ليمبو[169]، وكان المحافظون يتحدّثون كأنهم سيواجهون عصراً ليبرالياً جديداً، أما الليبراليون فقد عدّوا هذا السيناريو أمرًا مسلّمًا به.

لم يتكرّر مثل هذا الإحساس بالثقة مرة أخرى. ففي غضون ستة أشهر، أثبت فوز سكوت براون[170] في انتخابات ولاية ماساتشوستس أن ردّ الفعل المقابل أخذ يزداد ويتفاقم، وفي غضون ثمانية عشر شهراً، كان مجلس النواب قد خسر أمام الجمهوريين، ثم سقطت رئاسة أوباما بعد ذلك في حالة من الجمود والشعور بالمرارة وخيبة الأمل، فتوقفت أموال التحفيز عن التدفّق، وأُهملت الأجندة الليبرالية الطموحة وهي غير مكتملة، وتبخّر الحلم بصفقة كبرى لتخفيض العجز. أمّا ما نجا كأنه نصب تذكاري للتفاؤل المبكر فقد كان أحد التشريعات الرئيسية، وهو قانون الرعاية الصحية الملقب باسم الرئيس (أوباما كير[171])، وقد تبيّن أن ذلك لم يكن «صفقة كبيرة» كما تخيّلها أعداؤها ومؤيدوها على

---

(168). آرلين سبيكتر Arlen Specter: عضو مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية بنسلفانيا (1981 - 2011). كان ديمقراطياً (حتى 1965)، ثم جمهورياً (حتى 2009)، ثم عاد إلى الحزب الديمقراطي.

(169). راش ليمبو Rush Limbaugh: كاتب وإعلامي أمريكي محافظ، دعم التدخل العسكري في الشرق الأوسط، ومنحه ترمب وسام الحرية.

(170). سكوت براون Scott Brown: دبلوماسي ومحام وعقيد وسفير سابق إلى نيوزيلندا، عضو الحزب الجمهوري.

(171). أوباما كير Obama Care: مصطلح غير رسمي لقانون حماية المرضى والرعاية الميسرة، وهو قانون فيدرالي يتيح تسهيل الوصول إلى التأمين الصحي للمواطنين.

السواء. ولم يكن ثورة على النظام، بقدر ما هي إضافة زائفة غير مؤثرة تضاف إلى الفوضى المكتظّة والمنبوذة التي يجب الدفاع عنها عن طريق مثل هذا النوع بالضبط من الأحادية التنفيذيّة التي ندّد أوباما بها يعتورها من مزايدات وتعهّد بالتنكّر لها وتجاوزها.

لقد حدث ما حدث بعد فوات الأوان، وكان المزاج السائد في البيت الأبيض بعد ظهر ذلك اليوم الربيعي من عام 2009 غارقاً في الوهم، ولكنه كان وهماً مهماً على أي حال، لأنه عكس اعتقاداً يمكن فهمه، فالسياسة الأمريكية تحديداً كانت آنذاك ما تزال تعمل بالطريقة التي كانت تعمل بها في عهود رؤساء مختلفين مثل فرانكلين روزفلت ورونالد ريغان. إن الرئاسة الفاشلة (كما في عهود هوفر، وكارتر، وبوش) من شأنها أن تؤدي إلى انهيار ساحق لحزب المعارضة، وهو ما يتم تفسيره على أنه تفويض بالحكم، ويؤدي إلى تحوّل جذريّ في السياسات، ويستمر حتى يتكيّف حزب المعارضة مع الواقع السياسي الجديد وينتج دوايت أيزنهاور أو بيل كلينتون. وفي غضون ذلك، سيكون هناك مجال للشراكة بين الحزبين أيضاً إذا تطلّب المشهد ذلك، للرد على التحديات المفاجئة أو ببساطة لتحقيق الاستقرار في الميزانية العامة.

هذه صورة مبسطة للغاية عن الماضي الأمريكي بالطبع، ولكن حقائق «الصفقة الجديدة»[172] و«ثورة ريغان»[173] لم تكونا على هذه البساطة مطلقاً، كما توحي الأساطير الخاصة بكل منهما، وكان صنع السياسة في الجمهورية الأمريكية مقيّداً دائماً من خلال مصمّميه، بالجمود والتسوية والتأجيل. لكن **الأوباماين** Obamanauts الواثقين من أنفسهم لم يكونوا مخطئين حتى يروا في أمثلة الأسلاف

(172). الصفقة الجديدة New Deal: سلسلة من البرامج ومشاريع العمل العام والإصلاحات المالية واللوائح التي سنّها الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت بين عامي 1933 و1939.

(173). تطلق عبارة «ثورة ريغان» Reagan Revolution بشكل أساسي على عودته إلى قيم المحافظة والإلتزام بالتقاليد الأمريكية. ودعوته إلى «الإيمان» بالحرية الفردية. وتفعيل الروح المعنوية للمواطنين.

الرئاسيين حالات لابد من دراستها لمعرفة كيفية تأسيس أغلبية سياسية ناجحة، ومن ثم حُكمها وتحمُّل ثقلها بعد الفوز بالانتخابات. كما أنهم لم يكونوا مخطئين في الاعتقاد بأن التحالف الجمهوري بين ريغان وبوش كان منهكاً وفاسداً ومحروماً من قيادة قويّة، وأنه في نظام سياسي صحّي يظهر شيء ما آخر جديد سوف ينهض ثانيةً ليتبوأ مكانه بقوة، فإما نزعتهم الليبرالية التي بُعثت ثانيةً وإما بعض نزعة المحافظين التي جُدّدت للتو.

قلت أن مثل هذا التجديد يظهر «في نظام سياسي صحّي»، ولكن في مثل هذا النظام لم يظهر شيء جديد من هذا القبيل، لأن فريق أوباما كان مخطئاً ليس فقط بشأن ما لديه من قدرات، ولكن أيضاً بشأن قدرة النظام الأوسع على السماح بصنع سياسات عادية ونوع عادي من الائتلاف الحاكم. لقد بدأت تجربة أوباما بطموح كبير، وانتهت بتوضيح أحد خطوط **جاك برزون*** حول هذا العصر المنحط، يقول: إن «المؤسسات تعمل بشكل مؤلم» بغض النظر عمّن هو المسؤول، وبينما لم تكن إخفاقات إدارة أوباما كوارث استثنائية في عناوين الصفحات الأولى، مثل غزو العراق أو الأزمة المالية، إلا أن طبيعتها العادية للغاية هي التي أكّدت حقيقة التصلّب، لتثبت أنه حتى بدون حدوث انهيار اقتصادي عالمي أو ظهور الأخطاء الاستخباراتية الفادحة، وحتى مع وجود فريق من التكنوقراط الرائعين الذين يُفترض أن يسيطروا على عقلية رعاة البقر ويعيدوا نشر التنوّر والتعقّل، فإن عدم الفاعلية سمة ثابتة في عمق الحكم الأمريكي وهي الطريقة التي تسير بها الأمور لا غير.

على هذا النحو كان من المعتاد أن يوجد التكنوقراط في البيت الأبيض في عهد أوباما، الذين انتُخِبوا في أعقاب كارثة أوجدتها مصالح خاصة متشابكة تماماً مع المصلحة العامة، وترأسوا مزيداً من عمليات الدمج بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة، وجعلوا التكافل بين واشنطن و«وول ستريت»، حيث تُحمى البنوك والشركات، يبدو أقوى من ذي قبل... ولكن أصحاب المنازل أُهملوا وتُركوا

لمعاناتهم، بينما لم يحدث أن سُجن أي شخص مهم بسبب ذلك.

كان من العاديّ أن يخفق المدقّقون المتحمّسون في البيت الأبيض في توقّع أعماق الركود، وأن يتوجهوا نحو الرعاية الصحيّة متحدّين بذلك أهم أولويات الاقتصاد العام. من العادي أن يصمّموا مشروعاً للرعاية الصحية يتم بيعه بكذبة صارخة حول كيفية الحفاظ على خطّتك الشخصية مهما حدث، من العادي أن يتم تمرير مشروع هذا القانون بطريقة معقّدة من الناحية التشريعية بحيث كانت أحكامه عرضة لتحديات متتالية في المحاكم، من العادي أن طرحه على الإنترنت كان فاشلاً فقادت معاناة الخاسرين بالمقابل إلى ردّ فعل سياسيّ عنيف جعل أي تشريع جديد يبدو أكثر صعوبة.

كان من العادي بعد توسيع العجز بشكل دفاعي، لغرض محاربة الركود، أن يفشل أوباما آنذاك في التوصل إلى اتفاق من الحزبين حول كبح نموّ الدين العام على المدى الطويل، ولكن لم يتم التوصل إلى ذلك، ولم تتحقق حتى الآن تلك الصفقة الكبيرة التي تجمع بين خفض الإنفاق والزيادات الضريبية منذ عام 1991، أي قبل ثمانية وعشرين عاماً، ولا زال الوضع مستمراً.

كان من العاديّ بالمثل ألا يكون هناك أي إصلاح جديد لضريبة الدخل المحايدة[174] (حدث آخر إصلاح عام 1985)، وألا يكون هناك أيضاً أي اتفاق بشأن إصلاح الهجرة (كان آخر الإصلاحات عام 1986)، وذلك بعد الإعلان عنه بوصفه ينتقد الأحادية الرئاسية، ثم سينتهي الأمر بأوباما إلى المطالبة بسلطات جديدة في محاولة منه لتقرير سياسة الهجرة بمفرده، وكان من العادي كذلك أن يفعل الشيء نفسه في ما يتعلق بالرعاية الصحيّة وسياسات المناخ، كما كان من العادي أيضاً أن يعتمد أسلوب المتابعة اليومية في النظام الفيدرالي على سياسات

---

(174). ضريبة الدخل المحايدة Revenue-neutral tax: ضريبة لا تحتفظ معها الحكومة بأي من أموال الضريبة المحصّلة، بل تعيد توزيعها بالكامل من خلال إعادتها إلى دافعي الضرائب في شكل تخفيضات ضريبية جديدة.

الحافّة[175] مع مواجهة سقف الديون[176] والمنحدرات المالية[177] والشروط المسبقة لعمليات الإغلاق الحكومي[178] الضرورية حتى بالنسبة إلى الصفقات المتواضعة.

وهكذا، كان من العاديّ أيضاً في السياسة الخارجية أن تطيل إدارة أوباما مدى الحرب في أفغانستان إلى عقدها الثاني دون أي خطة استراتيجية لتحقيق النصر، وبعد أن فتحت محاولة الانسحاب الباب أمام صعود «الدولة الإسلامية»، زادت الإدارة جهودها في العراق كذلك. بعد كل هذا، صار الجيش الأمريكي، منذ ستينيات القرن العشرين، عاجزاً عن كسب الحروب، وتحوّل بكل بساطة إلى إدارتها لتنتهي بالهزيمة، كما في حالة كارثة فيتنام التي دامت خمسة عشر عاماً، أو بالجمود الدائم، كما في حالة الحرب في أفغانستان التي دامت ما يقرب من عشرين عاماً، أو بالاحتلال الدائم، كما في حالة تورطنا في العراق منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً.

كان من العادي أيضاً أن الحرب، حيث تجنَّب البيت الأبيض في عهد أوباما بشكل رسمي كلاً من الجمود والاحتلال، كما في تدخلنا الصغير الرائع في ليبيا، أصبحت بالفعل كارثةً أكبر بصورة شاملة، بالإضافة إلى ما حدث من فراغ في القوة في شمال إفريقيا، وتفاقم أزمة الهجرة التي تهزّ أوروبا باعتبار ذلك الإقليم ميراثها الرئيسي.

---

(175). سياسات الحافة Brinksmanship: الوضع السياسي الذي يتجاذب فيه الحزبان لكسب موقع تفاوضي أفضل ما يدفع أحدهما، أو كلاهما، إلى الإقدام على مجازفات غير مأمونة العواقب.

(176). سقف الديون Debt-ceiling: الحدّ الأعلى للأموال التي قد تقترضها الحكومة.

(177). المنحدرات المالية Fiscal cliffs: انتهاء صلاحية مجموعة من الاقتطاعات الضريبية مع خفض الإنفاق الحكومي الشامل، ما قد يؤدي إلى إحداث خلل في الميزانية الفيدرالية ما لم يتم تصحيح الوضع.

(178). الإغلاق (أو التعطيل) الحكومي Government shutdown: هو الوضع الذي تفشل فيه الحكومة في تمرير تشريع تمويل الحكومة الخاص بالسنة المالية التالية، بحيث تضطر إلى تعطيل الصرف على الخدمات العامة باستثناء الأساسيّ منها.

وكان من العاديّ تماماً أن التدخل في ليبيا، مثل عودتنا بعد «داعش» إلى العراق، ومحاولاتنا المتعثرة للتأثير على مسار الحرب الأهلية السورية، كان يفتقر إلى أي تفويض رسميّ محدَّد من الكونغرس، ومثّل استمراراً لنمط تنازل الكونغرس في السياسات الخارجية والمحليّة على السواء.

كان من العادي تماماً أن تفتقر الإنجازات الدبلوماسية الرئيسية التي حققها البيت الأبيض، مثل الاتفاق النووي الإيراني، واتفاقات المناخ في باريس، إلى تفويض رسمي من الكونغرس، ما يعني أنه يمكن التراجع عنها (وهكذا كان) بجرّة قلم من الرئيس التالي. وأخيراً، كان من الطبيعي تماماً أن كل مبادرات أوباما الأخرى، مثل إعادة ترتيب الوضع مع روسيا، والدفع بالمسار الإسرائيلي الفلسطيني المتوقع، و«التحول إلى آسيا»، إنها أصبحت تركةً بالية يرثى لها عندما غادر البيت الأبيض.

في وقت متأخر من ولاية أوباما الثانية، شرع باحث في معهد بروكينغز في تحليل «الإخفاقات الكبرى» في الإدارات الرئاسية الأخيرة (مع أمثلة واضحة تتعلّق بالعراق، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتعامل مع إعصار كاترينا، وفضيحة مساعدة الضحايا كنموذج محليّ)، ووجد أن «الحكومة مرّت بأربع إخفاقات خلال العامين ونصف العام الأخيرين من عهد ريغان (1.6 في السنة)، وخمسة إخفاقات خلال الأعوام الأربعة من عهد جورج بوش الأب (1.2 في السنة)، وأربعة عشر إخفاقاً خلال الأعوام الثمانية من عهد كلينتون (1.8 في السنة)، وخمسة وعشرون إخفاقاً خلال الأعوام الثمانية من عهد جورج بوش الابن (3.1 في السنة)، وستة عشر إخفاقاً خلال الأعوام الخمس والنصف الأولى من حكم أوباما (2.9 في السنة)».

إن مثل هذا التحليل انطباعيٌّ أساساً، وهو يجمع بين أمثلة كبيرة وصغيرة، وبين تعريفات مختلفة من شأنها أن تعبّر عن معدلات مختلفة. ولكن مع استمرار

التقييمات الانطباعية، يبدو الأمر كأنه كان صحيحاً، ويمكن للمرء هنا أن يفترض أن وتيرة إدارة ترمب (مع بورتوريكو بعد إعصار ماريا، وكارثة فصل الأطفال على الحدود المكسيكية، والفشل الكردي-التركي، كحالات بارزة يمكن دراستها) ربما تتطابق مع المعدّل الذي يمكن معرفته عن عهد أوباما، ومع التخفيضات الضريبية المسلّم بها لإطالة العجز وتقديمها كإنجاز تشريعي ذي مغزى، ومع حماقة ترمب الأوكرانية التي أدت إلى ثالث محاولة لعزله في الخمسين عاماً الماضية، مقارنةً بحالة واحدة في التاريخ السابق للجمهورية بأكمله.

هذا أيضاً هو ما تعنيه الحالة الطبيعية في عصر الانحطاط الحكومي، إنها ليست كوارث ملحمية، على الرغم من أن هذه مثل الكوارث تحدث بكل تأكيد، ولكنه -ببساطة- توقّع أن تفشل الحكومة أكثر ممّا فعلت قبل ذلك، وأن تنهار الرئاسات فعلياً بشكل أكثر تواتراً، في الوقت الذي يمكن فيه أن يؤثر تغيير الأحزاب أو الرؤساء التنفيذيين على نطاق الإخفاقات ولكن ليس على القدرة على التنبؤ بها ووتيرتها.

مرحبا بكم في «الهَوْجاقراطيّة» [179]

إن وصف الحكومة الأمريكية بهذه المصطلحات ليس مثيراً للجدل على نحو سيء، على الرغم من أن أنصار أوباما قد يشكّكون في بعض انتقاداتي، فحيث يكون هناك خلاف حادّ حول سبب فشل الحكومة في أحيان كثيرة، أو حول السبب في أن واشنطن التي انتصرت ذات مرة في الحروب العالمية وصنعت القنبلة الذرية وأرسلت البشر إلى القمر، لا تستطيع الآن تمرير ميزانية عادية! أو حول

(179). الهَوْجاقراطية Kludgeocracy (أنظمة الحكم الهوجاء) لفظ مركّب بدلالة قدحيّة مكوّن من كلمتي «هوج» Kludge (الأهْوَج: المسرع إلى الأمور كما يتفق). والكلمة اليونانية الأصل «حُكم» Cracy. استخدمت هذه الكلمة للمرة الأولى في معرض الازدراء بسياسات أوباوما المفكّكة وغير المترابطة.

السبب في أن النظام السياسي الذي اعتاد على إنتاج ائتلافات حاكمة دائمة، بشكل عقلاني، يلوّح الآن بانتخابات تضيّق على الأحزاب وتنهكها دون توقّف، سواء كانت في السلطة أو خارجها!

دعونا نبدأ بأكثر التفسيرات محافظة ووداً، والتي تميل إلى التركيز على المشكلات المتأصلة في حجم الحكومة الحديثة ونطاقها، ثم على الانحراف ما بعد الدستوري.

إن النسخة الأكثر تعقيداً من هذا التفسير لا تركز على المشكلات الأساسية المتعلقة بالمركزية والتحكم الخبير، والتي تميل حقوق السوق الحرة إلى التركيز عليها دائماً، إنها تشدّد كذلك على الطريقة التي يفاقم بها مرور الوقت هذه المشكلات ويزيدها سوءاً، بينما تصبح البرامج الشعبية جزءاً من عقد اجتماعي غير رسمي يجعل إصلاحها شبه مستحيل، وتتعرّض الدولة الإدارية للإنهاك من قبل مجموعات المصالح التي يمكنها الشراء وسحق المصلحين المحتملين، وتقيّد كثرةُ اللوائح الإداريين وتحرمهم من إمكانية الاستجابة مع تبدّل الأوقات.

إن هذه الأنماط تفسّر لماذا تميل البرامج الحكومية التي يبدو أنها تعمل بشكل جيد بما فيه الكفاية عند تنفيذها لأول مرة، ومع مرور الوقت، لنقل... لثمانين عاماً، من عصر الليبرالية البطولية في عهد الرئيس روزفلت إلى عصر الإحباط الليبرالي في عهد أوباما، إلى الانحدار نحو ما يصفه **جوناثان راوخ**[180] في كتابه عن عهد كلينتون المعنون «نهاية الحكومة» بأنه: «كتلة كبيرة، وغير متماسكة، وغالباً ما تكون غير مفهومة، حريصةٌ على عملائها، غير خاضعة لأي برنامج إصلاح واسع ومتماسك».

إن دراسة نموذج «أوباما كير»* مفيدة هنا لعدة أسباب، ليس أقلها أنه مثال نادر تمّ فيه تمرير مشروع إصلاح جادّ ومهم، عوضاً عن مجرد التمكن من

(180). جوناثان راوخ Jonathan Rauch: كاتب وصحفي وناشط أمريكي. من مؤلفاته بالإضافة إلى «نهاية الحكومة»: «منحنى السعادة: لماذا تصبح الحياة أفضل بعد الخمسين؟»، و«محققون لطفاء: الهجمات الجديدة على الفكر الحر».

«الخفض الضريبي المموّل من العجز» أو زيادة الإنفاق، وذلك على عكس «كلينتون كير»[181]، أو إصلاح «ضمان بوش الاجتماعي» الفاشل[182]، أو جهود إدارة ترمب لإلغاء واستبدال مشروع «أوباما كير»، أو كل محاولة لإصلاح نظام الهجرة.

كانت معارضة مشروع أوباما للرعاية الصحية عملاً أيديولوجياً بشكل واضح، وقد أدّت إلى حدوث صدام بين المبادئ التحررية **(الليبرتارية)**[183] والديمقراطية الاجتماعية. لكن معظم الأمريكيين ليسوا تحرّريين متمكّنين، وفي الواقع فإنه حتى معظم المنتمين إلى **حركة الشاي**[184] لم يكونوا تحرّريين متعمّقين. لقد كان السبب الحقيقي وراء الشراسة التي ظهرت بها معارضة «أوباما كير»، والنقاش المسموم تماماً حولها، هو أن نظام الرعاية الصحيّة كما هو قائم، وكما وصف جوناثان راوخ الحكومة بأسرها: «امتداد سكاني هائل يتبع الوكلاء ومجموعات المصالح القوية، وجميعهم لديهم حصص مالية قوية في النظام الموجود، وجميعهم أمضوا عقوداً في بناء كيانات الضغط والحلقات الداخلية من أجل إحباط الإصلاح أو إعادة توجيهه».

تبدأ هذه المجموعات بالفاعلين في الشركات التي يميل الإصلاحيون إلى وصفها بـ«المصالح الخاصة»، مثل مصنّعي الأدوية وشركات التأمين، وهذا هو السبب في أنه لم توجد أي طريقة تساهم في تقدّم برنامج إصلاح الرعاية الصحيّة

(181). مشروع الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون للرعاية الصحية.
(182). مشروع الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش للضمان الاجتماعي.
(183). نلاحظ في الفرق بين الليبرالية Liberalism والتحررية (الليبرتارية) Libertarianism أن الثانية تشدّد على الحرية الفردية دون أي تدخّل من الحكومة المركزية، على العكس من الأولى التي تنحو في جزء منها إلى القول باستمرار الحكومة في إدارة جزء كبير من الاقتصاد العام بما لا يتناقض مع الحريات الفردية، ولهذا السبب لا تتعارض الديمقراطية الاجتماعية مع الليبرالية، بينما تخالفها الليبرتارية بوضوح.
(184). توصف حركة حزب الشاي Tea Party movement بأنها حركة دستورية شعبية تتألف من مزيج من النشطاء التحرّريين والشعبويين والمحافظين. بدأت العمل بعد وصول أوباما للبيت الأبيض في يناير 2009.

دون أن يقوم البيت الأبيض في عهد أوباما بشراء شركة «فايزر»[185] واسترضاء شركة «ايتنا»[186]. ولكن وراء نظريات المؤامرة التي تتعلق بمصنّعي الأدوية وشركات التأمين يقف صفّ طويل من المجموعات المتعاطفة التي قد تخسر من مشروع إصلاح الرعاية الصحية، مثل كبار السن الذين يتلقون خدمات برنامج «ميديكير»[187]، والأطباء الذين يغطي البرنامج مستحقاتهم المالية، وقبل المرضى والأطباء هناك شبكات المستشفيات التي يبدو أنها تنفق أكثر من اللازم على الرعاية الصحية، وتتحمل من ثمَّ العبء الأكبر من التحكّم في التكاليف. هناك أيضاً عائلات الطبقة الوسطى غير الغنية التي لا تريد زيادة ضرائبها، وكبار السن من الطبقة الوسطى الذين قد يتعرضون للضغط إذا طُلب منهم شراء تأمين مصنَّف بحسب العمر[188]، والشباب المكافح الذين يتعرضون للضغط إذا طُلب منهم دعم هؤلاء الأشخاص الذين بلغوا الخمسين من العمر أو أكثر قليلاً، وأعضاء النقابات الذين يفضّلون الإبقاء على الخصم الضريبي الحالي للتأمين الصحي كما هو دون تغيير.

إن هذه المجموعة من العملاء وحملة الأسهم ومجموعات المصالح كانت بالكاد موجودة عندما كان فرانكلين روزفلت يمهّد الطريق أمام «الصفقة الجديدة»*. لقد نما بقدر بسيط عما كان عندما أسس ليندون جونسون[189] «ميديكير»*

---

(185). فايزر Pfizer: شركة أدوية أمريكية متعددة الجنسيات مقرها مدينة نيويورك.

(186). ايتنا Aetna: شركة رعاية صحية أمريكية توفّر خدمات التأمين الصحي والخدمات الطبية والصيدلانية.

(187). ميديكير Medicare : برنامج تأمين صحي وطني في الولايات المتحدة. بدأ عام 1965 تحت إدارة الضمان الاجتماعي بعد أن اعتمده الرئيس ليندون جونسون. وتديره الآن مراكز الرعاية والخدمات الطبية.

(188). التأمين المصنّف حسب العمر Age-rated insurance: تقديرات الإنفاق على الرعاية الصحية المتوقعة حسب الفئة العمرية لدى شركات التأمين. وبناء عليها يتم احتساب الأقساط المتوجبة الدفع دورياً.

(189). ليندون جونسون Lyndon Johnson: الرئيس السادس والثلاثون في الولايات المتحدة (1963 - 1969)، تولى الرئاسة بعد اغتيال الرئيس جون كينيدي، وكان آنذاك نائباً له.

و«ميديكيد»[190]، لكن ما أنجزه هؤلاء الرؤساء أدى إلى تخصيب هذه المشاريع وزيادتها، تاركين للمُصلحين المستقبليين خياراً صغيراً لا يزيد عن أن يفعلوا ما فعله أوباما في نهاية المطاف، والاعتماد على الحلول غير الفعّالة والمعقدة تماماً، والزيادات الضريبية المرحّلة أو المؤجّلة، بالإضافة بالطبع إلى بعض الأكاذيب البسيطة. قم بشراء بعض المجموعات، وخبّئ التكاليف عن الآخرين، وعِدْ بعضَ الخاسرين بأنهم لن يخسروا فعلاً.. تصرّف بسرعة، ولا تراعي القواعد البرلمانية عندما يحين موعد مواجهة ردود الفعل العنيفة، ويمكنك الفوز باتباع سياسات لا شعبيّة لها، ولأن الإصلاح يخلق عملاء جدد والنظام يحبط التغيير، فقد يجد نقّادك أنفسهم غير قادرين على التراجع حتى إذا استعادوا السلطة.

إنني أتعامل مع أوباما بقسوة، لذا من المهمّ التأكيد على أن هذا الوضع هو ما يبدو عليه النجاح. لقد قام هذا الرئيس الأمريكي فعلياً بتوسيع تغطية التأمين الصحي، بغض النظر عن أن ذلك تم بشكل غير كفؤ، وبغض النظر عن تكلفته السياسية، وإذا لم يرق قانون الرعاية الصحية لمتطلبات الإدارة، فإنه لم يكن له أي آثار على التسبب بإفلاس الميزانية الذي يخشاه منتقدو هذا القانون، ولكن حقيقة أن قانوناً تشوبه الفوضى في تصميمه ومتواضعاً في آثاره مثل قانون «أوباما كير»* قد يكون أفضل سيناريو للإصلاح في دولة رفاهية* متقدّمة ومعقّدة، إنما هو مثال على مؤشّر أكبر. ففي حجم ونطاق معيّنين من الإنفاق الحكومي والتعقّد الإداري، وبعد مرور فترة زمنيّة كافية من تأسيس النظام في صورته الأوليّة (سواءً تم تأريخه بالعودة إلى «العصر التقدمي»[191]، أو عصر «الصفقة الجديدة»*، أو إلى «المجتمع العظيم»[192])، يصبح التصلّب* حالة ملازمة[193]، حيث مؤامرات

(190). ميديكيد Medicaid: برنامج يساهم فيدرالي يساهم جزئياً في دفع نفقات الرعاية الصحية لذوي الدخل المحدود. ويعطي بعض الجوانب التي لا يغطيها برنامج ميديكير.

(191). العصر التقدمي Progressive era: حقبة من النشاط الاجتماعي والإصلاح السياسي في الولايات المتحدة من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى عشرينيات القرن العشرين.

(192). المجتمع العظيم The Great Society: مجموعة من البرامج المحلية التي أطلقها الرئيس الأمريكي ليندون جونسون في 1964- 1965، وتضمنت أكثر من 60 مخططاً للرفع من مستوى

مجموعات المصالح هي الوضع الملازم للحكم، والاستحواذ التنظيمي[194] هو المصير الملازم للإصلاحات التي يجري تطبيقها، بل إن أي محاولة لتطهير المعبد من الصيارفة ستستمر في أحسن الأحوال، سنةً أو ثلاثة سنوات، قبل أن يجد هؤلاء طريقة ينشطون بها من جديد.

في الأثناء، وبينما يتواطأ جمهور الناخبين مع هذه العملية، يتوقع أيضاً أن تقوم الحكومة بأخذ زمام الأمور، وتُنجز ما يجب، أو أن تلتزم بالوعود التي قطعها السياسيون مؤكّدين حدوثها، أو أن تستجيب للأزمات بمجرد ظهورها. إن هذا يعني أنه لا يزال هناك بالضرورة عمل يجب القيام به في النظام المتصلّب، وذلك أشبه بأن يكون فوق-دستوري[195]، بحيث يتم تنفيذه إما من قبل الرئيس، عن طريق أمر تنفيذي، أو من قبل أطراف من الحكومة معزولين عن مخاطر ردّ الفعل المباشر والقضاء والبيروقراطية الفيدرالية. على هذا النحو يبدو معظم صناعة السياسة الأمريكية الحديثة، كما تنبّأ بذلك بعض النقّاد المحافظين منذ فترة طويلة، كأنه لم يعد يحدث في الفرع الذي يُفترض أنه المسؤول عن سنّ القوانين وصوغها. فبدلاً من ذلك يتنازل الكونغرس برحابة صدر، متى ما أمكنه، عن تحمّل المخاطر وعن المسؤولية، ويترك ذلك للمحاكم والبيت الأبيض والدولة الإدارية[196]، إما عن طريق التقاعس بكل بساطة، إذا ما تمّ تمرير التشريع، أو عن طريق التدقيق

المعيشة والتأمين الصحي ومعادلة الدخول الفردية.

(193). يدلّ كون التصلّب ملازماً default من الناحية الاقتصادية على عدم القدرة على الإيفاء بالالتزام المالي. وخاصة في سداد القروض.

(194). الاستحواذ التنظيمي Regulatory capture نظرية اقتصادية مفادها أن الهيئات التنظيمية قد تهيمن عليها المصالح التي تنظمها. وليس المصلحة العامة بالضرورة. أي أن هذه الهيئات قد تتحوّل إلى خدمة مصالح محدودة لفائدة من يرتبطون بتسييرها. وليست الأهداف العامة التي من المفترض أن تقوم هذه الهيئات على خدمتها.

(195). فوق-دستوري extraconstitutional: قرار أو فعل يتجاوز الأحكام الدستورية. من حيث عدم النصّ عليه. أو عدم التزامه بالصلاحيات الممنوحة. وإجمالاً: ما لا يتفق مع روح الدستور فضلاً عن افتقاده إلى نصّ ثابت يؤيده.

(196). الدولة الإدارية Administrative state: يشير هذا المصطلح إلى الهيئات الإدارية التي تعمل ضمن نطاق السلطة التنفيذية وتقوم بوضع قواعدها الخاصة وإنفاذها.

بقسوة مع صانعي القواعد الإدارية ومقاضاتهم.

هذا الوضع يترك الولايات المتحدة مع حكومة تعمل على نحو فعّال من خلال المفاوضات والصراع على السلطة بين القضاء والمكتب البيضاوي وما يحبّ رئيسنا الحالي أن يسميه «**الدولة العميقة**»، وهو ما ينتج بالطبع سياسات أكثر تعسفاً وإبهاماً وغير مستقرة وعرضة للانتكاسات المفاجئة أكثر من التشريعات المصاغة في المداولات الديمقراطية.

يطلق عالم السياسية ستيفن تيليس* على هذا الاتجاه، بالاستعارة من علوم الكمبيوتر اسم بـ«**هَوْجاقراطية**» kludgeocracy * (**نظام الحكم الأهوج**)، وهو ويعني نظاماً يكون فيه كل حلّ هو في الأساس «رقعة نافرة تمّت إضافتها لحلّ مشكلة غير متوقَّعة ومصمَّمة لتكون متوافقة مع بقية النظام»، كما هو الحال مع إصدارات برمجة الكمبيوتر المرقّمة بالتتابع، حيث يخلق تراكم الإضافات «برنامجاً معقداً للغاية لا يحتوي على مبادئ تنظيمية واضحة، ويكاد يكون من الصعب للغاية معرفته، وهو عرضة للتعطّل»[197]. إن تواتر هذه الانهيارات يغذّي ريبة الجمهور في الحكومة، ما يجعل المشرّعين أكثر تردداً في فعل أي شيء سوى الإعراب عن مواقفهم، فأي عضو من أعضاء الكونجرس يريد وضع يده حقاً على برنامج مثل HealthCare.gov[198]، أو أزمة الحدود التالية [199]، أو الحرب الليبية القادمة[200]؟

---

(197). يعتبر الـ«kludge» في مصطلحات الكمبيوتر أشبه بـ«ترقيع» نظام غير فعّال يساعد على توفير حلّ لإصلاح النظام أو لتجاوز الفشل في البرنامج أو لتجميد ثغرة أمنية بحيث تستمر الخوارزمية في العمل بالرغم من أن إدخال هذا العنصر الجديد ليس من مكونات البرمجة الأصلية وهو معرّض للانهيار في أي لحظة.

(198). يعرف هذا الموقع (HealthCare.gov) أيضاً باسم أوباما كير Obamacare. وهو خاص بالتأمين الصحي ويعمل تحت إشراف الحكومة الفيدرالية بموجب أحكام قانون حماية المريض والرعاية الميسّرة، ويقدّم الإعانات المالية لمن يستحقونها حسب القوانين الأمريكية.

(199). يشير المؤلف إلى أزمة الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك، وما أدت إليه من سياسات بشأن مطالبة المهاجرين من أمريكا الوسطى بحق اللجوء إلى الولايات المتحدة.

(200). يشير المؤلف إلى حرب 2011 التي استهدفت النظام الليبي وشاركت فيها الولايات المتحدة

مع ذلك، فإن الصعوبة أمام المحافظين والليبراليين الذين يدّعون بأن هذا كله إنما هو مجرّد تبرير، تكمن في أن تيار المحافظين السياسي في حدّ ذاته قد خضع للقوى نفسها، واستسلم للإغراءات نفسها، وقبل المقاربة ما بعد التشريعية في صنع السياسات. هناك استثناءات متقدّمة فكرياً بين السياسيين الجمهوريين، ويتبادر إلى أذهاننا اسم من ولاية يوتا، هو مايك لي[201] الذي يرغب في رؤية الكونغرس يستعيد سلطاته ويؤكّد نفسه باعتباره قادراً على تصوّر مستقبل الدستور، لكن الذي حدث في الغالب الأعم هو أن الكونغرس تحت سيطرة الجموريين كان متوافقاً فعلاً ومرتاحاً مع ما قدّمه من تنازل، وسعيداً بأن يرى المحاكم والرؤساء وهم يدّعون وينتحلون المزيد من السلطة لأنفسهم عندما يحكمون، فيفرضون بذلك ما يريده الجمهوريّون. وبالمثل، هناك قضاة محافظون يؤمنون حقاً بالسيطرة القضائية وبالإذعان أمام الفروع المنتخبة في الوقت نفسه، ولكننا بالمقابل نرى في الكثير من الحالات أن الحركة المحافظة أصبحت أكثر ارتياحاً للنشاط القضائي، مع استخدام السلطة القضائية بقوة في القضايا التي انتهت إما هزيمة المشرّعين المحافظين أو أنها (كما في أحيان كثيرة) كانت تخاف – ببساطة- من المضيّ قدماً. وغالبًا ما يصبح النقد المحافظ الصارم للحكومة الكبيرة في أيدي السياسيين الجمهوريين، ذريعةً لحماية مجموعات المصالح الخاصة بالحزب، واعداً بإنقاذ برنامج «ميديكير»* للرعاية الطبية وتخليصه من برنامج «أوباما كير»*، وحماية الإعانات الزراعية أو رفاهية الشركات من الليبراليين الذين يتطلّعون إلى إعادة توزيع الثروة، مع رفض برنامج «حكومتهم»، وحماية برنامج «حكومتنا». أما في عصر ترمب فيبدو أحياناً كأن حماية مجموعة المصالح هذه

بالتدخل عسكرياً للإطاحة بمعمر القذافي، وذلك من خلال توجيه ضربات جويّة مكثّفة ضد الجيش الليبي. وقد أعلن الرئيس الأمريكي أوباما آنذاك أن الولايات المتحدة تتحمل المسؤولية ووعد بالشراكة مع الليبيين في تطوير وبناء دولة ليبية جديدة، وهو ما عجز عن تحقيقه لاحقاً.

(201). مايك لي Mike Lee: سياسي جمهوري محافظ يشغل منصب كبير أعضاء مجلس الشيوخ عن ولاية يوتا.

تتضمّن أجندة الجمهوريين بأكملها.

قد يجادل أي شخص جادّ بالطبع، أكان محافظاً أو ليبرالياً، بأن فساد التيار السياسي المحافظ في حدّ ذاته إنما يعني المزيد من التبرئة لما يقوم به من انتقاد للتوسّع الحكومي. لكن هذا الرأي يميل إلى اختزال النقد الحكومي المحدود إلى مجرّد مشورة يائسة، خاصة وأن كل بلد متقدّم قد تبنّى نسخة ما من دولة الرفاهية*، ونوعاً ما من البيروقراطية الإدارية قادراً على إدارة أعداد كبيرة من السكان والتركيبات المجتمعيّة المعقدة. قد يكون من المستحيل منع التصلّب في مثل هذه الأنظمة، لكن إزالة الحنين إلى ما قبل مفهوم «الصفقة الجديدة»* في الولايات المتحدة ما زال يبدو وكأنه استجابة غير كافية.

الاستقطاب وردود الفعل الساخطة

يشير ما مرّ أعلاه إلى سبب انجذاب غالبية **غير المحافظين** nonconservatives إلى تفسيرات أخرى مختلفة لأوضاعنا، ويمكننا أن نرى بين مراقبي الحزبيْن، وهم وسطيّون يحتكمون إلى وعيهم الذاتي، نوعاً سائداً من التوق إلى الماضي، وهو ليس توقاً إلى عصر حكومة أصغر، بل إلى عصر مفقود من التسويات، عصر يصوّر انتهاز الفرص وكلبيّة[202] كلّ من الجمهوريين والديمقراطيين معاً على أنها ثمرة مسمومة أنتجها الاستقطاب الأيديولوجي للحزبيْن، ويصوّر الآثار الكارثية لهذا الاستقطاب على نظام دستوريّ لم يتخيّل مهندسوه الأوائل أثر الأحزاب في المقام الأول.

يبدو وفقاً لهذه النظرية أن نظام التذمّر بأسره ما زال بإمكانه أن يعمل جيداً على نحو معقول، وأنه ما زال من الممكن التغلب على مشكلة الحكومة التي تهيمن

(202). الكلبيّة Cynicism: بغض النظر عن التعريف الفلسفي، فإن هذه الكلمة تستخدم الآن في الثقافة العامة للتعبير بسخرية عن الاعتقاد بأن المصلحة الذاتية والنفع المباشر هو الدافع الذي يكمن وراء أفعال البشر. وهي ترادف الأنانية ورفض الاعتقاد بوجود الخير في الآخرين، كما تعبّر عن التهكّم منهم وعدم الثقة فيهم.

عليها مجموعات المصالح، إذا استمرت الأحزاب في العمل بالطريقة التي كانت تعمل بها إبان الخمسينيات من القرن الماضي، أي كتحالفات متباينة ذات ميول محافظة وليبرالية متناظرة في ما بينها، ولكن بدون أيديولوجيا منظّمة، ودون إجراءات قائمة على أساس حركة منظّمة أو خط حزبي صارم، ومجموعة من رؤساء الأحزاب الفاسدين إلى حد ما وصانعي الصفقات في الغرف الخلفية الذين يديرون ترشيحات الأحزاب ويسيّرون المفاوضات التشريعية. وفي نهاية المطاف، فإن النظام الأمريكي لا يعتمد فقط على الأطراف التي تتفاوض بفعالية تحت الإكراه لا غير، سواء في زمن الحرب أو لتجنّب حدوث أزمة اقتصادية، بل على تفاوضاتهم اليومية أيضاً، مع استعداد أعضاء الكونغرس لتقديم الأصوات لصالح رئيس الحزب المنافس (كما فعل الجمهوريون مع قانون الحقوق المدنية لعام 1964[203]، أو كما فعل الديموقراطيون لأجزاء من برنامج **ريغان الضريبي**[204])، كما أن الرؤساء قادرون بالفعل على الانفصال عن قاعدتهم (كما فعل نيكسون إزاء بعض برامج «**المجتمع العظيم**»*، أو كما فعل كلينتون مع برنامج «**إصلاح الرفاهية**»[205]). ولكن ما حدث بشكل خاطئ، ويجعل هذا النوع من التفاوض مستحيلاً الآن، هو مزيج من الاستقطاب والعقلنة و...(هذه هي المفارقة) سيطرة الديمقراطيين الحزبية المفرطة التي تتصدّر النظام الدستوري الذي تجعل اعتراضاتُه الكثيرة من شبه المستحيل بالنسبة إلى الأغلبية أن تحكم إذا صوّتت الأقلية ببساطة وبوتيرة واحدة مع قاعدتها.

---

(203). قانون الحقوق المدنية لعام 1964 LBJ's Civil Rights Act: صدر هذا القانون في يوليو 1964 وهو يحمي الحقوق المدنية ويحظر التمييز لأسباب عرقية أو دينية أو جنسية.

(204). برنامج ريغان الضريبي Reagan's tax agenda: برنامج الرئيس الأمريكي رونالد ريغان (1911 - 2004) في تحديد الضرائب، وهو جزء من أجندة اقتصادية شاملة عرفت باسم «ريغانوميكس» Reaganomics ويتضمن أكبر تخفيض ضريبي في تاريخ الولايات المتحدة بالإضافة إلى زيادة الإنفاق الدفاعي كجزء من استراتيجيته لمواجهة الاتحاد السوفييتي.

(205). برنامج إصلاح الرفاهية Welfare Reform Act حزمة إصلاحات قام الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بإدخالها للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة عام 1996 وتتعلق بالمسؤولية الشخصية، وفرص العمل، ومساعدة الأسر المحتاجة، وغير ذلك من أوجه الرعاية الاجتماعية.

إن الجناة المذنبين في هذا الحساب يتضمّنون مصلحي الحزب الديمقراطي في أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن الماضي، وهم الذين أزاحوا سلطة رؤساء الحزب، وعقدوا صفقات وتسويات أكثر صعوبة دون قصد منهم، نذكر على سبيل المثال: **نيوت غينغريتش**[206] الذي حوّل الأقلية الجمهورية في أوائل التسعينيات إلى شيء يشبه حزباً برلمانياً إلى حد بعيد، وكان متحمساً من الناحية الأيديولوجية ومؤمناً بمركزية قيادته. وكذلك وشبكة «فوكس»[207]، التي صادقت على هذا التحول من خلال إلزام السياسيين الجمهوريين بمعايير مستحيلة من النقاء الأيديولوجي، وكذلك صعود قوى أيديولوجية متنفّذة على اليسار، من نشطاء الإنترنت[208] في عهد بوش، إلى قناة «إم.إس.إن.بي.سي»[209]، إلى اليسار الناشط في سنوات أوباما الأخيرة، ومن ثم السياسيين من كلا الحزبين الذين رأوا أفضليتهم في كسر الأعراف غير الرسمية التي أبقت واشنطن تعمل، بدءاً بهزيمة الديمقراطيين في ترشيح **روبرت بورك**[210] للمحكمة العليا في عام 1987، صعوداً إلى معارك الترشيح بعد ذلك، وصولاً إلى **ميتش ماكونيل**[211] **وميريك غارلاند**[212]... الموت البطيء

---

(206). نيوت غينغريتش Newt Gingrich: سياسي أمريكي شغل منصب الرئيس الخمسين لمجلس النواب الأمريكي (بين 1995 و1999). له عدة مؤلفات. منها: «دور الحكومة في حل المشكلات المجتمعية»، و«ترمب ومستقبل أمريكا».

(207). شبكة «فوكس» Fox News and talk radio: شبكة أمريكية تملك أكثر من 500 محطة إذاعية AM وFM.

(208). يستخدم المؤلف كلمة Netroots (وهو مصطلح ظهر للمرة الأولى عام 2002) للدلالة على النشطاء السياسيين الذين يستخدمون المدونات الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي. أو ما يعرف بدعاة الديمقراطية الافتراضية e-democracy. وغالباً ما يقتصر هذا المصطلح على وصف المجموعات ذات التوجهات اليسارية.

(209). قناة MSNBC: قناة تلفزيونية إخبارية أمريكية تأسست بالشراكة بين شركة NBC وشركة ميكروسوفت MS كانت تهتم ببث التقارير والتحليلات السياسية، وفي 2005 انسحبت ميكروسوفت من ملكية القناة، ولكنها حافظت على الشراكة جزئياً وتم إنشاء موقع msnbc.com في 2012.

(210). روبرت بورك Robert Bork: قاض ومسؤول حكومي وباحث قانوني أمريكي. عمل محامياً عاماً للولايات المتحدة بين 1973 و1977، وقاضياً في محكمة الاستئناف الأمريكية بين 1982 و1988.

(211). ميتش ماكونيل Mitch McConnell: سياسي جمهوري، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية كنتاكي منذ عام 1985، ثم زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ منذ 20 يناير 2021 .

للمعوّقين الذين لا مبرّر لهم، وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

إن المشكلة الأعمق، وفق هذا التشخيص، هي أن الدستور الأمريكي، من حيث تكوينه، يميل إلى الانهيار عندما يشتدّ الصراع الأيديولوجي، حيث كل تلك الضوابط والتوازنات **والاعتراضات الماديسونيّة**[213] تتطلّب شكلاً من أشكال التعاون، ولكن مع وجود الأحزاب الأيديولوجية يصبح التعاون مستحيلاً بشكل متزايد، إذ لا يوجد فرع قادر على نقل المسؤولية إلى غيره (كما يحدث في العديد من الأنظمة البرلمانية عن طريق استبدال رئيس الوزراء)، وفي الحالات الأفضل فإن هذا الأمر يؤدي إلى وضع مثل وضعنا، حيث تتوقف الفروع تدريجياً عن العمل بشكل طبيعي مع بعضها بعضاً، وتعتمد الحكومة على «**الهوجاقراطيّة**» بالارتجال وعدم التنظيم. أما في الحالات الأسوأ، كما في بعض دول أمريكا اللاتينية التي مزقتها الانقلابات والتي تبنّت صيغاً مقلّدة من دستورنا فإن فشل النظام وعجزه يؤديان إلى محاولة الانفصال، والصراع الأهلي، ثم يستجيب في نهاية المطاف إلى حكم الرجل الأكثر قوةً.

ما يلفت النظر هنا تماماً هو أن النزعة السياسيّة المحافظة تنجلّي تماماً عن تلك الرذائل التي يصفها المثقفون المحافظون بأنها جزء من السمات السياسيّة في ظل وجود حكومة كبيرة، وهو أيضاً ما يفعله نوع معيّن من دعاة الوسطيّة السياسية[214] مع الافتتان بأكثر الأشخاص قوةً وهو ما ما يشي انتقادنا له بأننا

---

(212). ميريك غارلاند Merrick Garland: محامٍ وقانوني أمريكي يعمل مدعياً عاماً للولايات المتحدة منذ مارس 2021.

(213). إشارة إلى النموذج الذي اقترحه الفيلسوف ورجل الدولة المشارك في وضع الدستور الأمريكي والرئيس الرابع للولايات المتحدة جيمس ماديسون James Madison (1751- 1836) وقد استمدّ هذا النموذج من أفكار الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو حول تنظيم هيكلية الحكومة والفصل بين السلطات الثلاث، التنفيذية والتشريعية والقضائية، بحيث تكون مستقلة عن بعضها بعضاً، ولكنها تتعاون في ما بينها.

(214). الوسطيّة Centrism: أيديولوجيا أو مواقف سياسيّة تدعو إلى دعم التوازن الاجتماعي، مع المحافظة على درجة دنيا من الهيراركية المجتمعية، وتعارض التغيرات السياسية التي يمكن أن تؤثر على التوجّهات العامة فتنحو بالمجتمع إلى اليمين أو اليسار.

نواجهه.

إنني أفكر هنا في هذا النوع من المتخصصين المعتدلين المتّسمين بوعي ذاتي، والذين يقارنون الحكومة الأمريكية بشكل غير ملائم مع الفعالية السلسة التي يوصف بها المكتب السياسي للحزب الشيوعي في بكين... أو ربما أفكر في نوع من المستقلّين «غير المصنّفين» الذين يتخيّلون شكلاً هجيناً من مايك بلومبيرغ[215] وإيلون ماسك، جيمس ماتيس[216] لقيادة أمريكا خارج مبدأ الاستقطاب... أو ربما في نوع من الناخبين غير الأيديولوجيين الذين يتشوّقون لفكرة «رجل الأعمال الرئيس» الذي يستطيع إنجاز الأمور بحزم. إذا انعكس صعود ترمب، جزئياً، وأثّر على أمراض التيار السياسي المحافظ، فإنه كان كذلك قد بادل (مثل روس بيرو[217] من قبله) النسخةَ الشعبويّة من هذه الوسطيّة السياسية، بمعنى أن كلا الحزبيْن [الديمقراطي والجمهوري] فاسدان تماماً إلى درجة أن الديماغوجيَ الذي يقول: «أنا الوحيد القادر على الإصلاح»، هو رجل الأعمال و«القائد» الذي تحتاجه جمهوريتنا العالقة التي توقفت عن الحركة.

لكن الوسطيّين ليسوا وحدهم من يؤكدون على الضعف المصيريّ الذي يعانيه نظامنا الدستوري في عصر الحزبيّة. إن هذا التشخيص عامل أساسي في أدبيات الخطاب الليبرالي واليساري أيضاً، ويكمن الاختلاف في أن اليسار أكثر قابليّةً لأن يتصوّر المزيد من الديمقراطية باعتبار أنها الحلّ، وهو أكثر استعداداً أيضاً للإصرار على أن استقطاب الأحزاب ليس عملاً منتظماً ومتماثلاً، وأن الحزب الجمهوري قد انحرف بالديمقراطية الأمريكية بعيداً عن مركزها بأكثر ممّا فعل

---

(215). مايك بلومبيرغ Mike Bloomberg: عضو الحزب الديمقراطي. عمدة مدينة نيويورك بين 2002 و2013.

(216). جيمس ماتيس James Mattis: جنرال متقاعد، شغل منصب وزير الدفاع الأمريكي بين 2017 و2019. قاد قوات المشاة في حرب العراق، ودول أخرى.

(217). روس بيرو Ross Perot: مؤسس ورئيس أنظمة البيانات الإلكترونية وأنظمة بيرو. أدار حملة رئاسية مستقلة في عام 1992 و1996، وأنشأ حزب الإصلاح، ت. 2019.

الديمقراطيون، وأن مسؤولية الكثير من استيائنا الحالي يجب أن تلقى على عاتق اليمين المعاصر المشوَّش.

وفقاً لهذه الأطروحة، لا يقتصر الأمر على أن الجمهوريين انجرفوا إلى الاستقطاب أكثر من الديمقراطيين، بل في أنه بداية من أواخر ستينيات القرن الماضي وأوائل السبعينيات عقد قادة «الحزب الكبير الأقدم»، أي الحزب الجمهوري، صفقةً شيطانيّة مع الشعبويّة ورهاب الأجانب[218]، ومع مرور الوقت، هيمن الشعبويّون والمتعصبّون ببساطة، جاعلين الحزب نفسه تهديداً للنظام الجمهوري. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الدماثة تماماً أن نقول بأنه ليس لدينا صفقة هجرة «بسبب الاستقطاب»، أو صفقة مالية كبرى «بسبب الاستقطاب»، أو مشروع قانون رعاية صحيّة أفضل «بسبب الاستقطاب». ليس لدينا هذه الأشياء بسبب الجمهوريين، لأنه منذ ما قبل ترمب، بل ومع ترمب الآن بشكل خاص، أصبح المحافظون مجانين بكل ما تعنيه الكلمة، حيث أوغلوا في الانتقامية[219] وردّ الفعل وجنون الارتياب[220] على نحو لا مثيل له في صفوف الديمقراطيين.

من الواضح أن جزءاً من كل هذا صحيحٌ تماماً، بمعنى أن الحزب الذي يرشّح

---

(218). رهاب الأجانب xenophobia: الخوف المرضي من الأجانب والغرباء. ويتمثل في إحساس مجموعة محلية بخطر يتهدّدها من مجموعة أخرى خارجية. فتشتبه في أنشطتها مهما كانت عادية. ويتفاقم ذلك إلى المنادة بطرد المجموعة الغريبة أو القضاء عليها. حتى لا يُمَس نقاء المجموعة المحلية أو تتعرض هويتها للاختلاط. ثم الضياع.

(219). الانتقامية Revanchism : مظهر سياسي يعبّر عن فكرة الانتقام لغرض استرجاع نفوذ سياسي أو لتعويض خسائر إقليمية (تاريخياً. نشأت الانتقامية كتيار اجتماعي سياسي في فرنسا في سبعينيات القرن التاسع عشر عقب الحرب الفرنسية البروسية لاستعادة الأراضي المفقودة في الألزاس واللورين).

(220). يتمثّل جنون الارتياب (البارانويا) paranoia في القلق والخوف المرضيين. وقد يؤدي إلى جنون العظمة. وهو يظهر أولاً في أحاسيس اضطهادية وتصورات تفترض حدوث مؤامرة تهدّد وجود المصاب. ويشير المؤلف هنا إلى نوع من البارانويا الجماعية التي أصابت المحافظين في الولايات المتحدة.

للرئاسة نجماً غريب الأطوار من نجوم «تلفزيون الواقع»[221]، وأحد المؤمنين بنظرية المؤامرة، ربما يقدّم مساهمة خاصّة في ما نشهده من انحطاط، لكن تأطير اليسار يبدو أخلاقياً وحتمياً تماماً في ما يتعلق بالماضي الأكثر عمقاً، ومن الغريب أنه بالمثل لطيفٌ جداً مع قيادة الجمهوريين الحديثة.

لقد استوعب الحزب الجمهوري الكثير من الطاقة الشعبويّة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، بعضها عنصريّ وخبيث، لكن هذا النوع من الاستيعاب يعدّ أمراً طبيعياً في التاريخ الأمريكي، وهو شيء صحي حقاً. تريدون معالجة المخاوف الشعبويّة من خلال نظام الحزب الأكبر، تريدون من القادة الوطنيين أن يكونوا مستجيبين ومسؤولين في آن واحد، ويفصلون المخاوف المشروعة عن التعصب الأعمى ويتعاملون معها من خلال السياسة بدلاً من القبليّة البحتة! لقد طفق ذلك يحدث بشكل عام في الحزب الجمهوري بين عامي 1970 و2000، بينما كانت معدلات الجريمة تنخفض، ويأخذ «إصلاح الرفاهية» طريقه إلى التنفيذ، ويتضاءل أيضاً نباح كلاب العنصرية، وقد بدا أن الحزب آنذاك جلب بشكل فعّال الكثير من الناخبين البيض إلى تيار المحافظين المتمدّد والمصاب بعمى الألوان، والذي تخيّل جورج دبليو بوش نفسه أنه يلاحقه ويسعى وراءه.

لكن ما حدث بعد ذلك هو أن مؤسسة الحزب الجمهوري التي يقودها بوش (وليست قاعدتها الشعبية) قادت إلى كارثتين هما حرب العراق والأزمة المالية، واللتين كانتا أكثر حدّةً من الجمود والفشل «الطبيعيين» في رئاسات الولايات المتحدة الأخيرة، حتى بالقياس إلى ما عرفه التصوّر الريغاني/ النيوليبرالي الذي ترك الاقتصاد في حالة سبات عامة. ثم بدلاً من التعلّم والتكيّف والارعواء،

(221). تلفزيون الواقع Reality television: ظاهرة تلفزيونية ترفيهية تُعرض فيها برامج دون سيناريو مسبق وتصوّر حياة أشخاص غير معروفين (ليسوا ممثّلين) ينصرفون بعفوية وردود فعل غير مدروسة. ويشير المؤلف هنا إلى ترمب الذي كان نجماً من نجوم تلفزيون الواقع.

أمضت مؤسسة الحزب الجمهوري ومجمع الترفيه الإعلامي اليميني سنوات أوباما بالتناوب في إثارة غضب ناخبيهم وتجاهلهم، ولعبا (أي المؤسسة والمجمع) لعبةَ السياسة والترفيه ثم الشكوى حيثما توقّعت القاعدة الحزبية أنهما مقبلان على فعل ذلك. لقد أصبحا فعلاً الجزء الأكثر انحطاطاً في هذا النظام المنحط، ما جعلهما غير قادرين بشكل خاص على التشريع وعقد الصفقات ومهيأين بالفعل لظهور «رجل قوي»، أو ظهور نسخة منه على الأقل، من نجوم تلفزيون الواقع ومغرّدي تويتر.

لقد أكّد نمط السياسة الأمريكية في ظل رئاسة رجل تويتر القوي ذاك على حقيقة التصلّب، بينما اقترح أيضاً أن الديموقراطيين قد يكونون ضحاياه التالية. إن قصة إدارة ترمب حتى الآن هي إحدى قصص الضعف المحاط بالفساد، والاستبداد المحتمل الذي لا يتحقّق بسبب عدم الكفاءة، والتنازل المستمر من قبل الهيئة التشريعية، والتفاوض المستمر حول السياسة بين المحاكم والسلطة التنفيذية، واستمرار الجمود بين الشعبويين غير الأكفاء والمكروهين مع أنهم يظلّون نخباً رخوة.

في الأثناء، تبدو قصة المعارضة الليبرالية لترمب واحدة من قصص التحوّل إلى التشكّل الأيديولوجي، وقد تم إنجاز نصفها حتى الآن وأيقظت النزعة التقدميّة. إنها مرآة تعكس المرحلة المنحطّة للحركة المحافظة في اختباراتها ومطالبها الأيديولوجية، وفي يقينياتها المُصمتة، وفي ازدرائها الذي يتعمَّد الاعتدال. وهو ما يَعِدُ بدوره بإعداد الحزب الديمقراطي حروبَه الأهلية الخاصة، في حال استعادته السلطة، والتي ستقع بين المؤمنين الحقيقيين ومؤسسة تَعِدُ بالكثير دون أن تستطيع تحقيق ذلك. إنها حرب أهلية من شأنها تعميق وضعية أكبر من الجمود بين اليمين واليسار العالقين.

ومع ذلك، فإن الشيء المهمّ الذي يجب التشديد عليه هنا هو أنه (كما كان الحال

مع مناقشتنا لجذور الركود الاقتصادي) لا يتعيّن علينا الاختيار فعلاً بين هذه تفسيرات التصلّب السياسي المختلفة هذه. يمكننا قبول نسخ من جميع تلك التفسيرات، ويمكننا القول بأن النظام الذي يُطعِّمُ دولة إدارية* من القرن العشرين بنظام دستوري من القرن الثامن عشر كان لابد له أن يواجه سلسلة من الصعوبات في نهاية المطاف. فحكومةٌ كبيرة موسّعة وغير فعّالة، وريبةٌ عدميّة إزاء الحكومة يمكن أن يكونا متعاضديْن على نحو خطير مع بعضها بعضاً، وقد ساهم ذلك الاستقطاب الحزبي في تدهور عمليّتنا السياسية، كما أدت إخفاقات الحزب الجمهوري الفريدة وقيادته إلى تسريع هذه العملية. يمكننا أن نقول كذلك أن هذا التدهور يُظهر السمات الدّالة على ما أسميه الانحطاط، بمعنى أنها قصة نجاح (معبّر عنها في قِدم واستمرارية نظام أمريكا الدستوري، وشعبية البرامج التأسيسية لدولة الرفاهية) ولكن بوصفها شرطاً مسبقاً للتصلّب، وهي قصة تنمية (كما في الاتساق الأيديولوجي المتنامي، أو حتى في كفاءة استهداف الناخبين من قبل الأحزاب والحملات الانتخابية) ولكنها تنتهي بالجمود، وهي قصة نظام سياسي كان فاعلاً ذات مرة، وها هو الآن يصبح منيعاً أمام التغيير البنّاء.

إثر ذلك، نستطيع القول أخيراً، أن التركيز المفرط على السمات الأمريكية الخاصة بهذه القصة ربما يكون خطأً، لأنه كما هو الحال في المجالات الاقتصادية والديموغرافية، يمكنك رؤية انحطاط مماثل في وتيرة العمل في دول أوروبا الغربية، وإن كان ذلك باتباع مقياس زمني مختلف.

حالة الجمود الأوروبي

إذا كانت سمات التصلّب الأمريكية الواضحة هي السمات الوحيدة المهمة هنا، فلابد أن تكون القارة القديمة في حال أفضل إذن. إن أوروبا لديها أنظمة برلمانية ذات نقاط نقض (فيتو) أقل، وسياسيات أصغر ذات حكومات أكثر كفاءة (في شمال أوروبا على الأقل)، ولديها مساءلة أكبر للبيروقراطيين، مع خطر أقل في ما

يمكن تسميه توسعاً غير عاديّ في القطاع العام. لدى أوروبا أحزاب وسط يمينية متسلّحة بالشعبويّة تاريخياً، دون أن يعني ذلك أنها تتبنى هذا التوجّه، ولديها نخبة تكنوقراطية قاومتْ تأثير الاستقطاب، ولديها تاريخ حديث قوي، لا من حيث التعاون عبر-الحزبي[222] فقط، بل أيضاً من حيث التعاون متعدد الجنسيات بين مختلف الفصائل والائتلافات السياسية، ويشترك كل هذا في خدمة مشروع حضاري كبير متجذّر في تفاؤليّة فترة ما بعد الحرب، كأنها أحلام المضيّ قدماً بعد الرعب الذي سبّبته الحرب.

لقد أصبح مشروع الاتحاد الأوروبي حالة دراسيّة في الانحطاط نفسه، وهو يبدو كذلك بأكثر مما تبدو المؤسسات الأمريكية المتضررة حقاً، فالوضع الحالي للاتحاد الأوروبي مثال ممتاز على الكيفية التي يمكن أن يؤدي بها السعي لتحقيق التنمية والتقدم في نهاية المطاف إلى طريق مسدود، وهو كذلك مثال آخر على الكيفية التي يستمر بها السعي إلى تحقيق بعض «الخير العظيم» وراء ما هو أبعد من الوضع الحالي بكثير، وعلى الكيفية التي يمكن بها لنفس الجينوم السياسي أن ينتج نمواً وعقماً كبيرين في نهاية المطاف.

إن الخير الذي يحقّقه شكل ما من أشكال الوحدة الأوروبية يبدو واضحاً، ألا وهو الصداقة والتعاون والسلام في قارة عانت من الحرب زمناً طويلاً، والتجارة الحرّة بين الجيران، وسهولة سفر السوّاح والطلاب والمتقاعدين عبر الحدود الوطنية. كان افتراض الرجال والنساء الذين يديرون أوروبا -على مدى الجيلين الماضيين- أنه إذا كانت بعض الوحدة جيدة، فلابد أن المزيد منها سيكون أفضل على الدوام، وإذا نجحت التجارة الحرة فإن الحدود المفتوحة ستعمل بشكل

(222). عبر-الحزبيّة Transpartisanship مصطلح يشير إلى تحالفات حزبية تنشأ عن طريق الحوار والتداول، بين التقدميين والمحافظين بشكل أساسي. تدعم الاتفاق على أرضية مشتركة في السياسة الأمريكية حول القضايا العامة مثل ميزانية الدولة والقيادة العسكرية وقرار الحرب. وتعتبر عبر-الحزبية في أوروبا، بشكل عام، توجهاً مفضّلاً تنخفض فيه حدة النبرة الأيديولوجية بين اليمين واليسار لصالح الاتفاق على رؤية مشتركة ودائمة في إدارة القضايا العامة.

أفضل، وإذا كان التعاون بين الدول فعالاً فإن الحكومة **فوق الوطنية** supranational government هي الخطوة الطبيعية التالية، وإذا كان من الممكن أن يكون للقارة سوقاً مشتركة فمن الطبيعي كذلك أن يكون لها عملة مشتركة أيضاً... ثم عند نقطة معينة لا يعود هناك ما يبرر المزيد من هذا التفاؤل. لقد وجد الأوروقراطيّون أنفسهم يؤسسون لبنية تحتية من التصلّب [السياسي].

إن مركزية السلطة وحدها، أي صعود بيروقراطية بروكسل والطريقة الذكية التي عمل بها «**الأوروقراطيّون**» (البيروقراطيون الأوروبيون)[223] في ما يتعلق بالاستفتاءات الوطنية غير الملائمة من أجل دفع التوحيد السياسي، لم تكن حكيمة بما يكفي، كما يشير فوكوياما، فالعملية التي نظّمت مركزية الاتحاد الأوروبي جعلت أوروبا تضحّي بالكفاءة التي تمتاز بها على الولايات المتحدة (الافتقار إلى نقاط حق النّقض في أنظمتها البرلمانية، والمساءلة الأكبر المتاحة في السياسيات الأقل شأناً) من أجل السعي إلى حلم «الولايات المتحدة الأوروبية»، وهو حلم لم يكن من المتوقّع أن يتجسّد فعلاً. كتب **فوكوياما**: «مع تحوّل صنع السياسات إلى بروكسل بعيداً عن العواصم الوطنية، بدأ النظام الأوروبي ككل يشبه نظام الولايات المتحدة بطريقة تدعو إلى الإحباط»، مع وجود تأثير أكبر لجماعات الضغط والمصالح المتغلغلة، ومع إضعاف الشرعية الحكومية كما يراها المواطنون وقد أسيئت قيادتهم. لقد خلقَ دعاة تمركز الاتحاد الأوروبي الحديث نظاماً في بروكسل قام بتقليد أسوأ ما في واشنطن من عيوب، مع قدر أقل من المساءلة الديمقراطية، والشرعية التاريخية التي لا أسس لها.

وبالإضافة إلى هذا الافتقار للحكمة الأساسية، قرّر البيروقراطيون الأوروبيون إضافة العملة المشتركة التي حوّلت اتحادهم من مجرد بنية فوقية بيروقراطية غير شعبية إلى شيء أكثر قدرة على التدمير، خاصة في ما يتّصلُ بالدول الأكثر فقراً في

---

(223). البيروقراطيون الأوروبيون (الأوروقراطيون) Eurocrats: المسؤولون الإداريون في الاتحاد الأوروبي. مصطلح تم استخدامه منذ 1961

القارة. لقد صنعوا «فندق كاليفورنيا»[224] الخاص بهم حيث تقدَّم الملذات الفوريّة عند الدخول، لكنهم يفرضون بعد ذلك إجراءات مدمّرة تجعل الداخل يعيش أوقاتاً عصيبة دون أن يستطيع المغادرة تقريباً.

كان ينبغي أن يكون هذا الخطر واضحاً منذ البداية، فحقيقة أن الاتحاد النقدي بدون اتحاد مالي ليس أمراً منطقياً بالطبع، وهو ما يستطيع خبراء الاقتصاد في أي مدرسة رؤيته والتّيقن منهُ، لأن الدول الأكثر ثراءً (والألمان على رأسهم) لن يكون لديها أي حافز للسماح للبلدان الأفقر بإضعاف العملة وتضخيم الديون في فترات انكماش النشاط الاقتصادي. لكن من الناحية السياسية حدث وأن جاءت المعارضة الرئيسية الوحيدة لليورو من المنادين بالقومية الذين رُفضت معارضتهم باعتبارها عملاً رجعياً، وهكذا فشلوا في كل مكان تقريباً باستثناء إنجلترا التي تقوقعت قومياً، ثم استمر زخم المشروع الأوروبي، في أمكنة أخرى، ليطال كل شيء، إلى أن وقعت الأزمة المالية وجفّت الأموال السهلة، ووجدت الدول الواقعة على أطراف أوروبا نفسها تواجه اقتصادات منهارة وديوناً مرتفعة، دون أن تكون هناك أي وسيلة لزيادة مجموع النقد المتداول (مثلما فعلت الولايات المتحدة عندما كان بن برنانكي[225] رئيساً للاحتياطي الفيدرالي). وفي هذه المرحلة، كان جواب البيروقراطيين الأوروبيين ببساطة هو استخدام الكارثة لغرض دفع مشروعهم إلى مستوى أبعد، وذلك بتركيز المزيد من سلطة المؤسسات الديمقراطية في المركز، لفرض الشروط المالية الألمانية على اليونان وإسبانيا وإيطاليا وأيرلندا، ومضاعفة سياسة انعدام الاختيار التي أفسدت السيادة الوطنية باسم سلطة مركزية تفتقر إلى الشرعية أصلاً.

(224). يستخدم المؤلف عبارة فندق كاليفورنياHotel California للإشارة إلى المظهر الرفيع الذي يخفي واقعاً سيئاً ومتأزّماً. وقد راج استخدام العبارة في الثقافة الشعبية منذ أن ظهرت أغنية بالعنوان نفسه عام 1977

(225). بن شالوم برنانكي Ben Shalom Bernanke: اقتصادي أمريكي. شغل منصب الرئيس الرابع عشر للاحتياطي الفيدرالي بين 2006 و2014.

لم تكن مضاعفة هذه السياسات من قبيل الصدفة. في تاريخ اليورو ذي الآثار المدمرة الذي كتبه أشوكا مودي[226] بعنوان: «**مأساة اليورو**: دراما في تسعة مشاهد»، عالج هذا الخبير الاقتصادي الهندي في جامعة برينستون جزءاً من قصته بأكملها على أنه لغز وتساءل: «لماذا حاول الأوروبيون إنجاز مثل هذا المشروع الذي لم تكن عوائده واضحة بقدر ما كانت مخاطره كبيرة؟». إحدى الإجابات، كما اقترح الكاتب المحافظ **كريستوفر كالدويل**[227] وآخرون، هي أن المخاطر هنا كان يتم النظر إليها بوصفها فرصاً. ففي الأزمة فقط، كما يُفترض، يمكن حثّ شعوب أوروبا وتحفيزها للمضيّ إلى اتحاد متماسك، وفي مناخ من الذعر فقط يمكن للدول القومية أن تتنازل عن سيادتها الضرورية، كما أن وقوع أزمة في النظام النقدي هو فقط ما يمكن أن ينتج الحوافز المطلوبة التي قد تؤدي بدورها إلى وحدة مالية.

لكن «**نزعة اليورو الكارثية**» في هذه الحالة، لم تؤد إلى النتائج المتوخّاة منها. لقد نجا الاقتصاد الألماني من الأزمة المالية بشكل جيد، لذلك لم تكن هناك من الحوافز السياسية في حكومة أنجيلا ميركل ما يدفع إلى قبول هذا النوع من التحويلات إلى الاقتصادات الأوروبية الأضعف والتي هي طبيعية في نظام فيدرالي حقيقي مثل الولايات المتحدة، حيث تدعم الولايات الغنيّة الولايات الفقيرة بدولارات الضرائب الفيدرالية. أما في تلك الاقتصادات الأضعف، وفي أماكن أخرى من القارة أيضاً، فإن التحفيز الذي أعقب الأزمة من أجل القيام بتقشف مركزي، قد ساعد على إنتاج رد فعل قومي واضح تمثل في إحياء المزيد من البدائل اليمينية واليسارية. كان رد الفعل القومي هذا من ناحية أخرى استجابةً لغياب مبالاة النخبة الأوروبية بشأن الهجرة الجماعية، وهو عدم مبالاة أتاحها ما تعيشه القارة

---

(226). أشوكا مودي Ashoka Mody: خبير اقتصادي وأستاذ السياسات الاقتصادية في الجامعات الأمريكية. من مؤلفاته «مأساة اليورو: دراما في تسعة مشاهد».

(227). كريستوفر كالدويل Christopher Caldwell: صحفي من محرري «الفاينانشل تايمز». و«وول ستريت». من مؤلفاته: «سن الاستحقاق: أمريكا منذ الستينيات».

من عجز ديمقراطي، وقد بلغ ذروته مع استجابة ميركل غير المحدودة لأزمة اللاجئين السوريين. وكانت العواقب سريعة: «البريكست» (خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي)، وظهور حكومة شعبوية في إيطاليا، وتعزيز الحكومات القومية الموجودة مسبقاً في أوروبا الشرقية، واكتساب حزب يميني متطرف في ألمانيا لمكانة متقدمة، وانهيار يسار الوسط المحترم في كل مكان من الدول الاسكندنافية إلى إسبانيا.

بالرغم من ذلك، لم ينتج عن كل هذا الاضطراب أي تغيير جذري في السياسات المتّبعة. ولكنه بدلاً من ذلك، أوصل السياسة الأوروبية إلى طريق مسدود مختلف عن السياسة الأمريكية، من جهة، ومساوٍ لها في ما يعتريها من وهن من جهة أخرى. وبدلاً من وجود حزبين رئيسيين، يوجد في أوروبا أجنحة من يمين الوسط ويسار الوسط لم تعد تتمتع فعلياً بالقوة الكافية لممارسة الحكم، كما تتحداها الشعبوية متمثلةً في أجنحة أخرى يمينية في معظم الحالات، ويسارية في حالات قليلة، وهي (أي الشعبوية) قادرة بما يكفي على إحداث الاضطراب، ولكنها لا تتمتع بشعبية كافية لإدارة الحكومات، حيث تتوفر على نخبة مركزية ولكنها لا تحظى بشعبية كبيرة لفرض إرادتها على المحيط السياسي، حتى عندما يحجم قادة هذا المحيط، مهما كانوا شعبويين، عن اتخاذ أي خطوة قد تؤدي في الواقع إلى تفكيك النظام الكارثي بأكمله.

يريد الجميع في القارة مهاجمة الاتحاد الأوروبي، لكن لا أحد -لا ڤيكتور أوربان[228] في المجر، ولا ماتيو سالفيني[229] في إيطاليا، ولا الحزب اليساري

(228). فيكتور أوربان Viktor Orban: رئيس وزراء المجر منذ عام 2010، وكان رئيساً للوزراء بين 1998 و2002، ورئيس حزب فيدس المحافظ منذ عام 1993.

(229). ماتيو سالفيني Matteo Salvini: نائب رئيس وزراء إيطاليا ووزير الداخلية بين 2018 و2019، وكان السكرتير الفيدرالي لرابطة الشمال منذ ديسمبر 2013، ثم عضو مجلس الشيوخ الإيطالي منذ مارس 2018.

الراديكالي «سيريزا»[230] في اليونان، ولا البولنديين القوميين- مستعدٌّ في الواقع للسكوت على مضض والقبول بتكاليف الخروج من الاتحاد الأوروبي. أما بريطانيا التي ستغادر بالفعل فقد أصبحت بشكل رئيسي غير خاضعة لما يحدث في الاتحاد، أو هي مجرّد صدى بعيد للمعركة الأوروبية المحتدمة بين الوسطيين الضعفاء والبائسين، والشعبويين المتحمسين جدًا للحكم.

لقد تقدّمت أوروبا ككل، في توحّدها إلى درجة لا تستطيع معها المضي قدماً أو العودة إلى الوراء! وشهدت دولها بشكل عام انهيار الإجماع إلى الدرجة التي أصبح فيها المركز جدّ مكروه، لكن منافسيها الشعبويين ما زالوا يخشون تماماً أن يصل إلى الحكم أيّ من المجموعتين. وفي الأثناء، فإن الحكومات الأكثر فاعليةً وشعبيةً في القارة هي تلك الحكومات الموجودة على أطراف المحيط الشعبوي، في بولندا والمجر تحديداً، حيث يُنظر إلى قادتها عموماً على أنهم سلطويون أولاً، وفاشيون من نمط قديم، الأمر الذي يشي باحتمال سيء مفاده أن المسار السياسي الوحيد للخروج من تيار المأزق الغربي الحالي هو الذي يؤدي إلى الخروج من النظام الليبرالي بأسره.

بديل «آبي» الإصلاحي

سوف تتم دراسة هذا الاحتمال بمزيد من التفصيل في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب، أما الآن، فدعونا نفكّر في فرضية أكثر تواضعاً، ألا وهي أن أي استجابة فعالة للتصلّب السياسي سوف تحتاج إلى دمج بعض عناصر الشعبوية والقومية التي تعكر صفو أوروبا وأمريكا حالياً، بدلاً من مجرد التراجع إلى الدفاعات الشعاراتيّة عن «المعايير» و«القيم الليبرالية». التي تبدو كأنها تعبيرات عن المصلحة الذاتية للطبقة الحاكمة أكثر من كونها حلولاً للركود والانحلال.

(230). سيريزا Syriza: تحالف اليسار الراديكالي اليوناني. تأسس عام 2004.

توضّح تجربة اليابان نسخة من هذا المسار، ففي تسعينيات القرن العشرين وأوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، مثّل النظام السياسي الياباني جميع الاختلالات التي نوقشت في هذا الفصل. يمكن القول إن تقارب الركود الاقتصادي مع الجمود التشريعي الذي حدّد تجربة العالم المتقدّم وصل إلى اليابان أولاً. في الثلاثة وعشرين عاماً من عام 1990 حتى عام 2012، كان لليابان أربعة عشر رئيسًا للوزراء، وبدا أن الحقيقة الثابتة هي استحالة تفعيل منظومة العمل الأساسية المرتبطة بمستوى هزيل من النمو المصاب بالأنيميا في هذه الدولة الجزيرة.

ولكن منذ عام 2012 أصبح لليابان رئيس وزراء واحد هو شينزو آبي[231]، ويمكن القول إنه صار الزعيم الأكثر نجاحاً سياسياً في العالم المتقدم خلال تلك الفترة، دون أن يتعرّض لاحتمالات السقوط التي واجهتها الفصائل الأخرى من الوسط التكنوقراطي. لقد تم تحديد ولاية آبي من خلال مقاربتين بدتا مشوبتيْن بالتوتّر ولكنهما من الناحية الفعلية كانتا متجدّدتين بقوة. كان آبي أكثر تحفّظاً من الناحية الثقافية والوطنيّة، مقارنةً بالمعايير اليابانية في أواخر القرن العشرين، مع صيغة خاصة من شعار: «لنجعل اليابان عظيمةً مرةً أخرى» في إيماءاته وخطاباته وتصوراته التاريخية. وكان في الوقت نفسه على استعداد لإجراء تجارب اجتماعية واقتصادية جريئة تتميز بالاستمرارية لكسر قبضة الركود، من السياسة النقدية غير التقليدية والتحفيز المالي، إلى بعث حملة قوية لتوسيع القوة العاملة في اليابان بتوظيف المزيد من النساء والمزيد من المهاجرين، ورفع معدل الزيادة السكانية الذي ارتفع بالفعل مقارنة بدول شرق آسيا الأخرى. ربما تكون سياسته «أبينوميكس» (اقتصاديات آبي)[232] المحاولة الأكثر استدامة وشمولاً لمكافحة

(231). شينزو آبي Shinzo Abe: رئيس وزراء اليابان ورئيس الحزب الليبرالي الديمقراطي بين 2006 و2007. ثم بين 2012 و2020. وكان قبل ذلك كبير أمناء مجلس الوزراء بين 2005 و2006 وزعيم المعارضة عام 2012.

(232). أبينوميكس Abenomics أو اقتصاديات آبي: مجمل السياسات الاقتصادية التي نفّذتها اليابان

الركود في أي دولة متقدمة كبرى. إنها بالتأكيد الحالة الأبرز حيث تم تنفيذ برنامج مستدام من قبل زعيم سياسي منتخب واحد تمت مكافأته بشكل عام نظير ما قام به من تجارب دون أن يتراجع أو يستسلم لردات الفعل المناوئة.

ومع ذلك، فإن شينزو آبي إذا أظهر أن فعالية سياسيّة ما لا تزال ممكنةً في ظل ظروف الانحطاط، كأن يبتكر زعيم شعبوي قومي سياسةً جديدة بدلاً من أن يكون مجرد شخص سلطوي عديم الجدوى، فإن تجربة «أبينوميكس» تُظهر حتى الآن حدود الطاقة التي يمكن أن يتمتع بها زعيم واحد. لقد توقفت الإصلاحات الهيكليّة التي من المفترض أن تكمل حافزه النقدي والمالي القوي، وتوقفت كذلك عملية الدفع باتجاه توسيع القوة العاملة في اليابان، كما أن معدل المواليد أعلى مما هو عليه في كوريا الجنوبية أو سنغافورة، ولكنه لا يزال عالقاً عند نسبة 1.5، على الرغم من أن معدل البطالة منخفض، كما أن معدل النمو أصبح أفضل في عهد آبي ممّا كان عليه في عهد أسلافه، إلا أن هذا «الأفضل» نسبيّ فقط، ولا يزال الاقتصاد الياباني متموّجاً وعرضة للانحراف والانكماش. بل إن البرنامج الإصلاحي الكبير وقائده الشعبي، كما يبدوان، لا يُحدثان سوى بعض الفروق الهامشية، فالتسارع الهائل الذي يهدف إليه مشروع «أبينوميكس»، والعودة إلى معدل النمو الذي شهدته البلاد قبل التسعينيات، لا يزالان بعيدا المنال.[233]

إذا تمكنت اليابان من إظهار بعض الدلائل على إمكانية مقاومة الانحطاط في سياستها الرسمية وسياساتها العامة، فإنها تظهر أيضاً الحدود التي يفرضها الانحطاط حتى على أكثر رجال الدولة نشاطاً. إن الحالة اليابانية مثيرة أيضاً للاهتمام لأنها ذهبت في وقت أبكر من العديد من الدول الأخرى إلى فخّ معدّل الخصوبة المنخفض، وإلى الاغتراب الواضح بين الجنسين عن بعضهما بعضاً،

إبان عهد شينزو آبي منذ 2012 إلى 2020.

(233). نشر المؤلف كتابه هذا أثناء رئاسة شينزو آبي حكومة اليابان. أما وقد استقال آبي عام 2020، فإن مشروع أبينوميكس Abenomics الإصلاحي ما زال مستمراً في عهد خلفه الحالي يوشهيدي سوغا الذي واصل سياسته واعتمد على ما وضعه من برامج وحلول.

و«اللاجنسية» الغريبة (تضاؤل الانجذاب الجنسي بين الذكور والإناث) التي نوقشت في الفصل الأخير. كما تشبّعت اليابان، خلال الفترة نفسها، بوسائل الترفيه الافتراضية وألعاب الفيديو والمواد الإباحية التي تهيمن بشكل متزايد على الإنتاج الثقافي في عصرنا الحالي. من الواضح أن الممارسة الثقافية، وحالة الخيال العامة في المجتمع، والآفاق التي يمكن أن يؤدي لها ذلك، تساهم بدور مباشر في الانحطاط، وهذا ما سوف نوجّه له انتباهنا في الفصل القادم.

4

التكرار

عندما كان المعجبون بفيلم «حرب النجوم»* في خريف عام 2015 يبتهجون مرحّبين بالإعلانات التمهيدية لفيلم «القوّة تنهض»[234]، وعندما كان النقاد السياسيون مثلي لا يزالون يتوقعون بثقة أن دونالد ترمب لن يكون المرشح الجمهوري للرئاسة على الإطلاق، كان هناك احتفال قصير متاح على الإنترنت بعنوان «العودة إلى المستقبل»[235] لإحياء مناسبتين اثنتين هما حلول الذكرى الثلاثين لإطلاق الفيلم الأصلي، وحلول يوم محدّد هو 21 أكتوبر 2015، اليوم الذي قفز فيه مارتي مكفلاي[236] في الجزء الثاني من فيلم «العودة إلى المستقبل» مسافراً عبر الزمن، منطلقاً من فترة الثمانيات في عهد رونالد ريغان.

لقد شجّع ذلك الاحتفال التذكاري السخيف نوعاً ما بعض المحادثات حول مظاهر الحياة في القرن الحادي والعشرين والتي توقّعها الجزء الثاني من «العودة إلى المستقبل» بشكل صحيح، مثل: فوز فريق أشبال شيكاغو[237] ببطولة العالم،

---

(234). القوّة تنهض The Force Awakens: الجزء السابع من حرب النجوم (2015)، من إخراج ج. ج. أبرامز.

(235). العودة إلى المستقبل Back to the Future: فيلم خيال علمي عن السفر عبر الزمن (1985)، من إخراج روبرت زيميكس.

(236). مارتي مكفلاي Marty McFly: الشخصية الرئيسية في فيلم «العودة إلى المستقبل».

(237). أشبال شيكاغو The Chicago Cubs : فريق بيسبول أمريكي محترف.

والشهرة على امتداد البلاد التي حازها بيف تانين، عدو مارتي[238]، الذي جعله كتّاب السيناريو على غرار ملياردير برتقالي الشَّعر [يشبه دونالد ترمب]، والغياب المخيب للآمال لألواح التنقّل[239] والسيارات الطائرة، لكن قلة من المحتفلين باستخدام الإنترنت استوعبوا الأمر الأكثر إثارة للدهشة حول الذكرى السنوية الثلاثين لفيلم «العودة إلى المستقبل»، كأنهم يقولون: نحن الآن بعيدون عن عهد ريغان، مثلما كان مارتي المراهق بعيداً عن أبويه في الخمسينيات، ومع ذلك فإن الزمن الذي يفصلنا عن عام 1985 يبدو أضيق بكثير من الزمن الذي يفصلنا عن عهد أيزنهاور[240] الذي استخدمه الفيلم الأصلي وحقّق به مثل هذا التأثير الكبير.

تعتمد قوة فيلم **«العودة إلى المستقبل»** الأصلي لا على قفز بطلها في الزمن إلى الوراء عابراً فترة عشوائية مدّتها ثلاثون عاماً فحسب، بل وعلى الهوّة الثقافية الراديكالية بين مرحلة شباب مارتي وبين ما حدث بين والديه عندما كانا مراهقين من تودّد ومغازلة في مرحلة بعد الحرب. كان الماضي والمستقبل في فيلم روبرت زيميكيس[241] من بين أشياء كثيرة على جانبين نقيضين من موسيقى الروك أند رول، والحقوق المدنية، وحرب فيتنام، والثورة الجنسية، وثقافة المخدرات، والهبوط على سطح القمر، والنسوية، والسبعينيات المروعة، وكان أخيراً على النقيض من **ثورة ريغان***. لقد حقق الفيلم نجاحاً كبيراً، لا لأنه كان يعتمد على

---

(238). في «هيل فالي» Hill Valley حيث تدور أحداث فيلم «العودة إلى المستقبل» استطاع بيف تانن، عدو مارتي، أن يعود إلى الماضي ليمنح نفسه سجلاً رياضياً بنتائج المباريات ويعود إلى المستقبل ليراهن على المباريات محققاً ثروة خيالية. وفي النهاية يسعى مارتي وصديقه المخترع إلى تقويم مسار الأحداث في الزمكان.

(239). ألواح التنقل hoverboards وسائل للتنقل دون ملامسة سطح الأرض في أفلام الخيال العلمي.

(240). دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower: رئيس الولايات المتحدة الرابع والثلاثين (من 1953 إلى 1961).

(241). روبرت زيميكيس Robert Zemeckis: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي. أخرج فيلم «العودة إلى المستقبل».

الاختلاف بين زمنين، بل على الاختلاف بين عالمين يفصل بينهما ما يزيد عن تاريخ جيل كامل.

إذا أعدتَ إنتاج «العودة إلى المستقبل» في عام 2015 وأرسلت مارتينا مكفلاي مرةً أخرى إلى عام 1985، فسوف تصنع الكثير من اللقطات المرحة حول صدمة الحياة بدون «آيفون»، وبدون وسادات الكتف[242] المذهلة، وربما تقدّم نوعاً من النقد الذي شاع في عهد ريغان بشأن زواج المثليين والتحرّش الجنسي، ولكن لن يكون هناك إحساس بزيارة ماضٍ هو في الواقع بلدٌ آخر، ولن يكون هناك فرق يذكر في مقارنة الهوة التي تفصل بين نسختي وادي هيل[243] الخيالي بكاليفورنيا في حقبتي أيزنهاور وريغان، أو بين ثمانينيات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

لنقم بدراسة صغيرة لهذه الحالة: في فيلم «العودة إلى المستقبل» الأصلي، قام مارتي ماكفلاي في خمسينيات القرن الماضي بـ«غزو» منام والده مرتدياً زيّاً من «دارث فيدر القادم من كوكب فولكان»[244]. النكتة هنا هي أن الثقافة الشعبية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين لم تكن لتستوعب زيارة كهذه يقوم بها كائن فضائي إلى الأرض، فذلك قد يبدو غريباً جداً في نظر مراهق من خمسينيات القرن الماضي، ولكن بعد ثلاثين عاماً من 1985، نجد أن أضخم فيلم في هذا العام هو «حرب النجوم»* الذي تدور قصته حول حفيد «دارث فيدر» نفسه، وهو من إخراج ج. ج. أبرامز[245] الذي كان يعمل على إعادة إنتاج جزء من هذه السلسلة التي كانت بدورها جزءاً من مشهد سينمائي أوسع انبثق عن سلسلة

---

(242). وسادة الكتف Shoulder pad: حشو اسفنجي مغطى بقماش في ملابس الرجال والنساء يجعل مرتديها يشعر بأنه ذو كتفين واسعين منتصبين.

(243). وادي هيل Hill Valley: البلدة المتخيلة في فيلم «العودة إلى المستقبل».

(244). دارث فيدر Darth Vader: شخصية خيالية في رواية وسلسلة أفلام «حرب النجوم».

(245). ج. ج. أبرامز Jeffrey Jacob Abrams: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي ولد عام 1966. اشتهر بإخراج أفلام الخيال العلمي مثل «حرب النجوم» و«هرمجدون».

كتب الرسوم الهزلية بعد أن تطوّرت عندما كان أبناء جيل **«طفرة المواليد»** ما زالوا صغاراً. إن قيام مارتينا ماكفلي بزيارة الماضي في حقبة ريغان، بالعودة من أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لن تكون بطرافة **«فيدر-فولكان»**، لأن ثقافتها الشعبية مثل ثقافة والديها... متماثلتان بشكل يلفت النظر.

ليس في الأفلام فقط، فمن الأعالي الأكاديمية إلى أكثر الكتب الشعبية مبيعاً، ومن اللاهوت المسيحي إلى الموضة العلمانية، ومن النظرية السياسية إلى موسيقى البوب، يوجد نطاق واسع من الأشكال الثقافية والمساعي الفكرية التي ظلت عالقة لمدة عقود في نمط واحد من التكرار وإعادة الظهور، هو نمط جاك برزون* الذي يتعاقب فيه «التكرار والاحباط» و«السأم والتعب».

التكرار الثقافي متلفزاً

مثل الزعم بأن التغيير التكنولوجي تباطأ بدلاً من تسارعه، وقد لا يكون هذا الزعم بديهياً للوهلة الأولى، فإن السجال حول التكرار الثقافي هو أكثر ذاتيةً بطبعه من السجال حول الركود التكنولوجي. على الرغم من أن الأمر ليس كذلك تماماً: يمكنك على سبيل المثال قياس الحصة الكبرى من صناعة السينما القائمة على ما يعرف بـ«البيع المسبق»، أي القصص غير الأصلية القائمة على الملكيات الفكرية التي تتمتع علامتها التجارية بتقدير قوي، ولاحظ تراجع الأصالة هنا بشكل واضح في شباك التذاكر على مدى العقود القليلة الماضية، كما يمكنك بالمثل جدولة المبيعات المتدهورة في الأعمال الأدبية، وحساب اعتماد صناعة النشر المتزايد على الامتيازات التكرارية[246] وأفلام المراهقين والشباب الناجحة، بل يمكنكَ أيضاً تحديد الظاهرة المثيرة التي تميل إلى التكرار في **«موسيقى البوب»**، وقد وجدتْ إحدى الدراسات الحديثة انخفاضاً حاداً في تنوّع التوليفات

(246). الامتياز التكراري Recursive franchise: وكالة أو تصريح رسمي (من حكومة أو شركة) يُمنح لأفراد يتمكنون به من القيام بنشاط تجاري محدود ومتكرّر. كتقديم خدمة إذاعية أو إعلانية مثلاً.

الصوتية[247] في الأغاني الناجحة، وفي عدد المقاطع الانتقالية الجديدة بين التوليفات، بل وفي طباع الأصوات[248] المختلفة التي تنتجها الآلات المستخدمة أيضاً. ووجدت دراسة أخرى أن كلمات أغاني البوب في أفضل 40 أغنية نمت بشكل مضطرد أكثر تكراراً منذ الستينيات، كما كشفت دراسة أجريت حديثًا أن من بين أفضل ثلاثين أغنية من أغاني عيد الميلاد فإن كتابة 22 أغنية منها قد تمت في شباب جيل «طفرة المواليد»، بين عامي 1940 و1970.

ومع ذلك فإن هذه المحاولات التي تبدو صارمة تعتبر استثنائيةً في حد ذاتها، إذ عليك في النهاية أن تقبل فكرة التوجّه الذاتي في تحليل الأشكال الثقافية، وقد ورد أفضل تحليل من هذا القبيل في مقال كتبه كورت أندرسون[249] عام 2011 في مجلة «فانيتي فير»[250]، وعنه سأنقل هذا الاقتباس الطويل:

> إذا عدتَ إلى فترة معينة من القرن العشرين فليس ثمة احتمال بأن تخطئ تمييز صورة أو فيلم عن الأمريكيين أو عن مدينة أمريكية من مدن عام 1972، أو أن تقوم بالخلط بينها وبين صورة أو فيلم من عام 1992، سوف تجد في تلك الفترة سوالف الشّعر الطويلة، والياقات العريضة، والسراويل الواسعة من الأسفل، والبذلات المزركشة، وسيارات جافِلِن وماتادور ودودج ديمونز وبليماوث دستر وسكامب[251]

أما السفر عبر الزمن إلى الوراء 20 عاماً أخرى قبل ذلك، فينقلنا إلى ما قبل

(247). التوليفات الصوتية Cords: توافق نغمتين أو أكثر يتم أداؤها في الوقت نفسه.

(248). طباع الصوت Timbers: خصائص الأصوات الموسيقية التي تعطي كل آلة جرسيّة خاصة وتمنع النغمات وقعها المميز.

(249). كورت أندرسون Kurt Anderson: كاتب أمريكي. من مؤلفاته: «منعطف القرن». و«مؤمنون حقيقيون»، «عباقرة الشر».

(250). فانيتي فير Vanity Fair: مجلة شهرية أمريكية تعنى بالثقافة العامة وأسلوب الحياة.

(251). جافِلِن Javelins وماتادور Matadors ودودج ديمونس Dodge Demons وبليماوث دستر Plymouth Dusters وسكامب Scamps. سيارات أمريكية تم إنتاجها وتسويقها في سبعينيات القرن العشرين.

ظهور موسيقى الروك أند رول، وانتشار حبوب منع الحمل، وتداعيات حرب فيتنام، عندما كان الذكور والإناث يرتدون القبعات، وكانت السيارات كبيرة وعريضة مستديرة الشكل ومبهرجة الألوان مع زعانف على أطرافها. ومرةً أخرى لا مجال للشك أبداً والخلط بين 1952 و1972. يمكنك الاستمرار في فعل ذلك وسترى أن الأسطح والأصوات التي تميز كل لحظة تاريخية تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التي سبقتها قبل 20 عاماً أو جاءت بعدها: الملابس وتسريحات الشَّعر والسيارات وأساليب الإعلان، وغيرها.

تعمّق أكثر وسوف ترى أن 20 عاماً فقط هي التي أحدثت كل ذلك الاختلاف في الإنتاج الثقافي الجاد، فالمباني الجديدة المذهلة في نيويورك في الثلاثينيات (مثل كرايسلر أو إمباير ستيت) لا تبدو مثل المباني الجديدة المذهلة في العقد الأول من القرن العشرين (غراند سنترال أو وولورث) أو الخمسينيات (مثل سيغرام[252] أو مقرّ الأمم المتحدة). يمكن لأي شخص أن يتعرف حالاً على فيلم من خمسينيات القرن الماضي (على الواجهة البحرية[253] أو جسر على نهر كواي[254]) في مقابل فيلم واحد ظهر منذ 20 عاماً قبل ذلك (الفندق الكبير[255] أو حدث في ليلة واحدة[256]) أو بعد 20 عاماً (كلوت[257] أو برتقالة الساعة الآلية[258])، أو يمكنك النظر إلى الفرق بين الأغاني الناجحة من عام 1992

(252). كرايسلر Chrysler، إمباير ستيت Empire State، غراند سنترال Grand Central، وولورث Woolworth، سيغرام Seagram: من الأبراج والمباني المميزة والمعالم المعمارية المعروفة في مانهاتن، الولايات المتحدة.

(253). على الواجهة البحرية On the Waterfront: من أفلام الجرائم (1954)، من إخراج إيليا كازان.

(254). جسر على نهر كواي River Kwai: فيلم حرب ملحمي (1957)، من إخراج ديفيد لين.

(255). الفندق الكبير Grand Hotel: فيلم درامي (1932)، من إخراج إدموند جولدينج.

(256). حدث في ليلة واحدة It Happened One Night: فيلم كوميدي (1934)، من إخراج فرانك كابرا.

(257). كلوت Klute: من أفلام العنف والجريمة (1971)، من إخراج آلان باكولا.

(258). برتقالة الساعة الآلية A Clockwork Orange: من أفلام الديستوبيا والجريمة (1971)، من إخراج ستانلي كوبريك.

(السيد خلطة[259]) و1972 (نيل يونغ[260]) و1952 (باتي بيج[261]) و1932 (ديوك إلينغتون[262]). عندما أعاد جيمس جويس[263] وفيرجينيا وولف[264] وسكوت فيتزجيرالد[265] وإرنست همنغواي[266] تحديد ملامح الأدب الراقي، بدت الروايات العظيمة التي ظهرت قبل 20 عاماً فقط، مثل روايتي هنري جيمس[267] (السفراء) وإديث وارتون[268] (بيت المرح)، كأنها بقايا آثار من عصر آخر، وبالمثل فبعد عشرين عاماً من نشر همنغواي روايته عن الحرب «لمن تقرع الأجراس»، نُشرت رواية جديدة عن الحرب بعنوان «كاتش-22»[269] جعلت الرواية السابقة تبدو عتيقة على نحو غير مستساغ.

والآن حاول تسليط الضوء على الاختلافات الكبيرة والواضحة والمحدّدة بين عامي 2012 و1992. إن الأعمال السينمائية والأدبية والموسيقية لم تتغير أبداً خلال هذه العشرين عاماً. حلّت ليدي غاغا محلّ مادونا، وحلّت أديل محلّ ماريا كاري[270]، وكلاهما متميزتان دون فارق حقيقي بينهما، أما «جاي زي»[271]

(259). السيد خلطة Sir Mix-a-Lot: الاسم المسرحي للمغني وكاتب الأغاني الأمريكي أنطوني راي.

(260). نيل يونغ Neil Young: مغن وكاتب أغان كندي-أمريكي.

(261). باتي بيج Patti Page: مغنية وكاتبة أغان أمريكية. ت. 2013.

(262). ديوك إلينغتون Duke Ellington: ملحن وعازف بيانو. ت 1974.

(263). جيمس جويس James Joyce: الروائي والقاص والشاعر والناقد الإيرلندي، من أشهر أعماله «عوليس».

(264). فيرجينيا وولف Virginia Woolf: الروائية الإنجليزية، وتعتبر من أهم كتاب بدايات القرن العشرين. من أعمالها: «الليل والنهار».

(265). سكوت فيتزجيرالد Scott Fitzgerald: من أهم الروائيين والكتاب الأمريكيين في بدايات القرن العشرين. من اعماله: «حالة بنجامين بوتون المحيّرة».

(266). إرنست همنغواي Ernest Hemingway: من أهم الروائيين وكتاب القصة الأمريكيين. من أعماله: «الشيخ والبحر»، و«وداعاً للسلاح».

(267). هنري جيمس Henry James: روائي إنجليزي يمثّل النقلة الأسلوبية بين الأدب الواقعي وأدب الحداثة. من أعماله: «جناحا الحمامة».

(268). إديث وارتون Edith Wharton: روائية وكاتبة قصة وشاعرة أمريكية (ت. 1937).

(269). كاتش- Catch- 22 : رواية ساخرة عن الحرب نشرت عام 1961 من تأليف الأمريكي جوزيف هيلر.

(270). ليدي غاغا Lady Gaga، مادونا Madonna، أديل Adele، ماريا كاري Mariah Carey: من أشهر المغنيات الأمريكيات.

و«ويلكو»[272] فما زالا هما «جاي زي» و«ويلكو». وباستثناء بعض التفاصيل فإن الأعمال الأدبية الطموحة منذ 20 عاماً (حيث لا توجد إمكانية البحث على غوغل Google، ولا بريد إلكتروني، أو هواتف محمولة) ليست مؤرخة بزمن محدَّد، مثل رواية دوج كوبلاند[273] (الجيل إكس)، أو نيل ستيفنسون* (انهيار ثلجي)، أو مارتن آميس[274] (سهم الزمن)، أما حساسية وأسلوب كتب جوان ديديون[275] منذ عشرين عاماً قبل ذلك فيبدو من المعقول تحديدها بعام 2012 تقريباً.

رأيتُ منذ وقت ليس ببعيد صورة أرشيفية لإيان شراغر وستيف روبيل[276] مع عشرات من موظفيهم الشباب في أحد فنادق مورغان[277] عام 1985. لقد كان يوم عيد الغطاس[278]، لم يكن لقميص شراغر ياقة، وكان بعض موظفيه الذكور بشعر منفوش غير مرتّب، ولم يكن أحد في هذه الصورة يبدو على علاقة بمعايير اليوم. ومع ذلك، إذا كنتَ في عام 1990 أو1980 أو1970 وفحصتَ صورة مماثلة تعود إلى 27 عاماً قبل ذلك، أي من 1963 و1953 و1943، على التوالي، فسوف تلاحظ ملامح عالم مختلف بشكل لا لبس فيه.

ولأنني كنت أعمل ناقداً سينمائياً لبعض الوقت، يمكنني أن أقول بأن هذا النمط هو الآن في أقصى درجاته في صناعة السينما حيث تعتمد اقتصاديات العمل

---

(271). جاي زي Jay-Z: مغني راب وكاتب أغاني ومنتج فني أمريكي.

(272). ويلكو Wilco: فرقة روك أمريكية.

(273). دوج كوبلاند Doug Coupland's: روائي أمريكي نشر عام 1991 أولى رواياته بعنوان «الجيل إكس: حكايات من أجل ثقافة متسارعة» Generation X: Tales for an Accelerated Culture. وهو يحدّد هذا الجيل بين الستينيات والثمانينيات من القرن العشرين.

(274). مارتن أميس Martin Amis: روائي وكاتب انجليزي، من أعماله: «المال». و«حقول لندن».

(275). جوان ديديون Joan Didion: كاتبة أمريكية شغلت موضوعاتها عموم القراء في الستينيا والسبعينيات.

(276). إيان شراغر Ian Schrager وستيف روبيل Steve Rubell: رائدا أعمال ومطوّران عقاريان أمريكيان.

(277). مورغان Morgans سلسلة فنادق أسسها إيان شراغر بدءاً من عام 1984.

(278). عيد الغطاس أو عيد العماد:عيد مسيحي في السادس من يناير من كل عام.

بشكل متزايد على إعادة التدوير المستمر للخصائص المميزة [أي اللازمات الفنيّة المتكررة] التي نشأت كترفيه للعموم بين الثلاثينيات والسبعينيات. إن عدم الأصالة بالطبع ليس أمراً جديداً في هوليوود، ولكن كان هناك اتجاه ذو مغزى لا علاقة له بالتجديد والإبداع على مدى الجيل الماضي، فلطالما تغلّبت أشكال النوع الدرامي على الابتكار الخالص، ويبدو أن نطاق الأنواع قد تقلص مؤخراً، ومن ذلك الكوميديا الرومانسية التي اختفت تماماً، وكذلك الأعمال الهزلية حول حياة المراهقين، ولم يظهر فيلم كوميدي أصلي ناجح بشكل كبير في السوق الأمريكية منذ «دُوَار السُّكْر»[279] الذي عُرِض عام 2009. لقد وصلنا إلى النقطة التي لا يشكّل فيها الحصول على حقوق استخدام كتب الرسوم الهزلية والخيال العلمي «جزءاً كبيراً من صناعة الأفلام»، وفقاً لمقال كتبه مارك هاريس[280] في المجلة الإلكترونية «غرانتلاند»[281] عام 2017:

إن كتب الرسوم الهزلية والخيال العلمي ليست الجزء الأكبر من صناعة السينما، إنها صناعة السينما في حدّ ذاتها. وكل شيء آخر تقريباً يخرج من هوليوود هو إما حادث عرضي، أو هو نوع من «التكفير عن الذنب» يقوم به الأشخاص الذين يديرون الاستوديوهات والذين يحبّون أن يكون لديهم سبب ما للذهاب إلى حفل توزيع جوائز الأوسكار، أو هو جزء ضئيل من الميزانية يتم صرفه لإرضاء جزء من الجمهور مثل السود والنساء والبالغين، أو لاسترضاء بعض نجوم السينما الذين لا يزالون مهمين، ويجب أحياناً تهدئتهم بشيء مثير للاهتمام يقومون به حتى لضمان تعاونهم عندما يأتي دور الأشياء الكبيرة، أو هو من قبيل الضرورة، إذ يحدث في بعض الأحيان للأسف، أن يقوم أحد الأستوديوهات باغتنام فرصة

(279). دُوَار السُّكْر The Hangover: فيلم كوميدي (2009) من إخراج تود فيليبس.
(280). مارك هاريس Mark Harris: كاتب أمريكي يهتم بالإنتاج الفني والسينمائي. خصص مؤلفاته للكتابة عن هوليوود.
(281). غرانتلاند Grantland: مدونة رياضية وثقافية شعبية. تحل اسم كاتب رياضي عاش في أوائل القرن العشرين.

القيام بشيء جديد من أجل الحصول على حقوق الامتياز، ولكن الامتياز الناجح لم يعد مستخدماً بالفعل لتمويل بقية متطلبات الاستوديو، فهذه المتطلبات تنحصر الآن في العلامات التجارية وحقوق الامتياز الممنوحة، هذا كل شيء.

إننا إذا نظرنا إلى استثناءات هذه القاعدة، مثل الأعمال الإبداعية في السينما الشعبية، فإنها غالباً ما تكون مرتبطة بعصر طفرة المواليد. عندما لا يكون الخيال العلمي على الشاشة الكبيرة مجرد فيلم مباشر من الثمانينيات (مثل «حرب النجوم»، أو «ستار تريك»، أو «الكائن الفضائي»، أو «الكائن المفترس»[282]) فإنه عادة ما يكون تمريناً غريباً متعدّد الطبقات وقائماً على التكرار المستمر، مثل فيلمي دينيس فيلنوف[283] (العدّاء: 2049) الذي يسوّق لنوع غريب من النوستالجيا والحنين إلى ديستوبيا، الثمانينيات التي يعتبرها من الناحية التكنولوجية أكثر كفاءة من عصرنا، أو فيلم ستيفن سبيلبرغ[284] (اللاعب الأول)، الذي يدور حول رحلة البطل إلى المستقبل في عالم افتراضي صنعته «ثقافة البوب» الشعبية التي كان سبيلبرغ قد ساعد على خلقها وانتشارها عندما كان شاباً. وبالإضافة إلى ذلك لا تزال هناك حالات غريبة أخرى، مثل نجاح الفيلم «الفضيحة» الذي عرض عام 2019 أي «الجوكر» من إخراج تود فيليب[285]، والذي تعامل معه المعجبون والمتقدون على أنه شيء جديد وجذري، لأنه يقلب كليشيه البطل الخارق رأساً على عقب في خدمة رسالة سياسية تؤدي إلى اليأس أو إلى الثورة. لقد كان الفيلم في الواقع مجرّد مجرد محاكاة متمكنة وبارعة لتصورات سكورسيزي[286] عن

(282). الكائن المفترس Predator: فيلم خيال علمي (1987)، من إخراج جون ماكتيرنان.

(283). دينيس فيلنوف Denis Villeneuve: مخرج ومنتج سينمائي كندي-فرنسي. وفيلمه «العدّاء» Blade Runner: 2049 فيلم خيال علمي تم إنتاجه عام 2017.

(284). ستيفن سبيلبرغ Steven Spielberg: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي معروف. وفيلمه «اللاعب الأول» Ready Player One (2018) فيلم خيال علمي تدور أحداثه عام 2045.

(285). تود فيليب Todd Phillips: مخرج ومنتج وممثل أمريكي. أخرج فيلم «الجوكر» Joker عام 2019.

(286). مارتن سكورسيزي Martin Scorsese: مخرج أمريكي من أصل إيطالي كان له تأثير كبير في تاريخ السينما، وخاصة في أعماله عن الهوية والدين والعدمية والجريمة وغيرها.

سنوات السبعينيات القاسية في نيويورك، بالارتباط بفضاء آخر من الأفلام المقتبسة من سلسلة «الكون المتمدّد»[287] وذلك لجعل هذا الفيلم قابلاً للتسويق، ومرتبطاً في المقام الأول بالمشاكل التي واجهها المجتمع الأمريكي عام 2019، ولو عن طريق التمنّي والتفكير الإيجابي.

إن وتيرة التكرار تكون أبطأ أحياناً في عوالم أخرى، وتكون جودة المواد أكثر إثارة للإعجاب، ولكنكَ سترى التكرار الثقافي المستمر نفسه. وغالبًا ما يكون هناك اليوم قدر من الإبداع في التلفزيون أكبر مما هو في الأفلام، كما تشهد على ذلك الآلاف من البرامج التي تدعو إلى التفكير، لكن تلفزيون الجمهور العريض لا يزال يحاول إحياء برامج مثل «روزان»[288] و«ميرفي براون»[289]، ويواصل مشاهدة «عائلة سيمبسون»[290] و«ساوث بارك»[291]، ويعيد تدوير التنويعات المختلفة التي لا نهاية لها في مسلسل «القانون والنظام»[292]. وفي هذه الأثناء، فإن العصر الذهبي للتلفزيون الذي يتم عرضه حالياً عن طريق الاشتراك (Cable TV) بأبطاله الأشرار[293] غير التقليديين إنما يتبنّى أنواعاً فنيّة أمريكية كلاسيكية (مثل الغرب في مسلسل «ديدوود»[294]، وفيلم العصابات في «آل سوبرانو»[295]

---

(287). الكون المتمدّد Extended Universe: سلسلة أفلام عن أبطال خارقين مقتبسة عن شخصيات الكتب المصورة التي أنتجتها مؤسسة «دي سي كوميكس» DC Comics.

(288). روزان Roseanne: مسلسل تلفزيوني اجتماعي (من 1988 إلى 1997) من إنتاج مات ويليامز وروزان بار.

(289). ميرفي براون Murphy Brown: مسلسل تلفزيوني امريكي بدأ عرضه عام 1988، وأعيد إحياؤه عام 2019.

(290). عائلة سيمبسون The Simpsons: مسلسل رسوم أمريكي يسخر من الحياة الأمريكية بدأ عرضه عام 1989. وما زال متواصلاً.

(291). ساوث بارك South Park: مسلسل رسوم أمريكي تتردّد فيه ألفاظ نابية ودعابات سريالية ساخرة، بدأ عرضه عام 1997.

(292). القانون والنظام Law & Order: مسلسل بوليسي وقانوني بدأ عرضه عام 1990، وانتهى إنتاجه عام 2010.

(293). البطل الشرير antihero: الشخصية المقابلة للشخصية الرئيسية (البطل الخيّر) في العمل الدرامي، وهي تفتقر غالباً إلى صفات البطولة التقليدية مثل الشجاعة والعدل.

(294). ديدوود Deadwood: مسلسل درامي تلفزيوني تدور أحداثه في القرن التاسع عشر، بدأ

والأعمال التي تقلده، وقصة المحقّق والشرطي في «السلك»[296]، والدراما التي تدور في فضاءٍ مكتبي كما في «رجال مجانين»[297]) وهي في الأساس نسخة للشاشة الصغيرة من العصر الذهبي ابتكرها كتّاب هوليوود في سبعينيات القرن العشرين، عصر سكورسيزي* وفرانسيس فورد **كوبولا**[298] **وروبرت ألتمان**[299]، الذين تم تقليد عملهم بشكل مثير للإعجاب دون أن يعني ذلك بالضرورة إعادة اختراع الأصل، وتقدّم العوالم الخيالية وعالم الديستوبيا* في «غالاكتيكا معركة النجوم»[300] و«لعبة العروش»[301] و«حكاية الخادمة»* نفس العلاج لإعادة تفعيل الأنواع الفنية التي راجت وانتشرت منذ أربعين عاماً عندما غزت الديستوبيا والحنين إلى الماضي الأشكال الأكثر نشاطاً وتفاؤلاً من أفلام الخيال العلمي، بل وحتى في أكثر برامجه إبداعاً فإن التلفزيون يناضل للهروب من ظل عصر «طفرة المواليد»، ويعود بالأنماط التي يقدمها إلى ما قبل جيلين.

لا يهدف أيٌّ ممّا ذكرت إلى التقليل من أصالة المخرجين-الكتّاب مثل ديفيد تشيس[302]، وديفيد سيمون[303]، ولينا دنهام[304]، الذين ابتكروا في سرد

عرضه عام 2004.

(295). آل سوبرانو Sopranos: مسلسل أمريكي عن عالم الجريمة بدأ عرضه عام 1999.

(296). السلك The Wire: مسلسل بوليسي أمريكي بدأ عرضه عام 2002، وانتهى إنتاجه عام 2008.

(297). رجال مجانين Mad Men: دراما تلفزيوني في سبعة أجزاء، و92 حلقة، بدأ عرضها عام 2007، وانتهى إنتاجها عام 2015.

(298). فرانسيس فورد كوبولا Francis Ford Coppola: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي أثر في صناعة السينما في الستينيات والسبعينيات.

(299). روبرت ألتمان Robert Altman: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي (ت. 2006)، عمل مستقلاً بمعزل عن هوليوود.

(300). غالاكتيكا معركة النجوم Battlestar Galactica: مسلسل تلفزيوني أولاً، ظهر أولاً عام 1978، وتم تجديده أكثر من مرة، وتحول إلى فيلمين عامي 2007 و2009، ثم أعيد إنتاج المسلسل عام 2010.

(301). لعبة العروش Game of Thrones: مسلسل تلفزيوني بدأ عرضه عام 2011، وانتهى إنتاجه في 73 حلقة عام 2019.

(302). ديفيد تشيس David Chase: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي، من أشهر أعمال «آل سبرانو».

(303). ديفيد سيمون David Simon: كاتب وصحفي ومنتج تلفزيوني أمريكي، من أعماله المسلسل

القصص المتلفزة أسلوباً أكثر ثراءً وجرأة مما كان موجوداً حتى الآن، كما أنه لا ينفي الإمكانية النادرة للعظمة السينمائية حتى في «عصر مارفل»[305] (من الممكن إنتاج تحفة فنية شعبية حتى في مجتمع منحط)، لكن هذا يخبرنا أنه حتى العروض الرائعة في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين غالباً ما كانت تبدو حيويّة ووثيقة الصلة بثقافة ذلك الوقت تحديداً لأنها كانت جيدة جداً في التنبيه على مظاهر الإحباط واللاجدوى والتكرار والتدهور والفساد، أي التنبيه على «الانحطاط»، بكلمة واحدة. لنفكّر في مرثية **توني سوبرانو**[306] الشهيرة: «من الجيد أن تكون مؤسِّساً في البداية، وأعلم أنني جئت متأخراً جداً عن ذلك، وفي الآونة الأخيرة صار ينتابني شعور بأنني قد وصلت إلى النهاية، وأن أفضل الأشياء قد انتهت». يمكن أن يُذكَر هذا الأثر دائماً، كأنها نقش لا يزول، ليس بالنسبة إلى صورة الطبقة الوسطى العليا[307] الأمريكية فحسب، ولكن أيضاً بالنسبة إلى الصور التي تكوّن المدينة الأمريكية الحديثة سياسياً وثقافياً في مسلسل «السلك»، مثل صورة واشنطن العاصمة كما في مسلسل «بيت البطاقات»[308]، وبشكل أقل جدّيةً في مسلسل «نائبة الرئيس»[309]، وغيرهما من الأعمال المعبّرة عن الانحطاط، من «الاختلال»[310]، إلى «محقّق فذ»[311]، إلى «فتيات»[312].

البوليسي «السلك».

(304). لينا دنهام Lena Dunham: مخرجة وكاتبة وممثلة أمريكية، من أشهر الأعمال التي أخرجتها مسلسل «بنات».

(305). عصر مارفل Marvel Age: مجلة بحجم كتاب كوميك مصوّر نُشرت في الفترة من 1983 إلى 1994.

(306). توني سوبرانو Tony Soprano: الشخصية الرئيسية في الدراما التلفزيونية «آل سبرانو».

(307). الطبقة الوسطى العليا Upper middle class: فئة من الطبقة الوسطى في المجتمع الأمريكي تتميز بدخل سنوي أعلى (374 ألف دولار تقريباً)، وعلى النقيض منها الطبقة الوسطى الدنيا (نحو 54 ألف دولار) بينما يتقاضى أفراد الطبقة الوسطى نحو 107 آلاف دولار.

(308). بيت البطاقات House of Cards: مسلسل درامي سياسي من إنتاج بو ويليمون.

(309). نائبة الرئيس Veep: مُسلسل كوميدي سياسي من إخراج أرماندو لانهتشي.

(310). الاختلال Breaking Bad: مسلسل بوليسي درامي من تأليف وإنتاج فينس غيليغان.

(311). محقّق فذ True Detective: مسلسل درامي بوليسي للمنتج والمخرج نك بيزولاتو.

(312). فتيات Girls: مسلسل كوميدي أخرجته وشاركت فيه لينا دينهام.

إن النظرة الموجّهة إلى الركود الاقتصادي والمتشكّكة من الناحية التقنية المنتشرة بين شركات وادي السيليكون والتي مفادها أن الأموال الكثيرة والأنانية والموهبة تطارد الكثير من الأفكار الصغيرة بشكل أساسي، هي وجهة النظر نفسها التي قدمها مايك جَدج[313] في مسلسل «وادي السيليكون»[314] على شبكة «اتش بي أو»[315] التلفزيونية. كأن الصورة التي كان قد رسمها جاك برزون* عن «السقوط» في الحياة الغربية لا تتجسّد بأكبر قدر من الوضوح مثلما نجد في شخصية والتر وايت[316] وطموحاته المحبطة، أو في هانا هورڤاث[317] ورفاقها الطائشين، مع ملاحظة أن شيئاً ما حقيقياً يشبه ذلك نجده في الأعمال الأدبية، فقد تراجعت عملتها الثقافية مع انخفاض مبيعاتها، والاستثناءات المفاجئة غالباً ما تكون روائيةً وقصصية تستبدل حبكة الزواج القديمة التي كانت شائعة في القرن التاسع عشر بحكايات حول الطرق التي يكافح بها الجنسان لكي يتواصلوا، مثل كتابات ميشيل ولبيبك[318]، وقصة «محبّ القطط»[319] القصيرة التي نشرتها مجلة «نيويوركر»، وروايات سالي روني.[320]

قد يكون العصر الذهبي للتلفزيون شيئاً مؤقتاً نجح بسرعة في عصر مختلف

---

(313). مايك جَدج Mike Judge: صحفي وكاتب سيناريو وممثل وصانع رسوم متحركة أمريكي.

(314). وادي السيليكون Silicon Valley: مسلسل كوميدي تدور أحداثه في وادي السيليكون حيث كبرى شركات التقنية، من تأليف مايك جدج.

(315). إتش بي أو HBO: شبكة تلفزيونية أمريكية تقدم خدماتها بالاشتراك المسبق لأكثر من 40 مليون مواطن أمريكي، و150 بلداً حول العالم.

(316). والتر وايت Walter White: من شخصيات مسلسل «الاختلال» Breaking Bad وقد تحول من مدرّس كيمياء إلى مجرم قاس يصنع المخدرات ويبيعها.

(317). هانا هورڤاث Hannah Horvath: من شخصيات مسلسل «فتيات» الكوميدي، كاتبة طموحة ونرجسية تبحث عن فرص الحياة وتعاني من الوسواس القهري.

(318). ميشيل ولبيبك Michel Houellebecq: روائي وكاتب فرنسي، وممثل وصانع أفلام، ومغنّ أيضاً.

(319). محبّ القطط Cat Person: قصة قصيرة من تأليف كريستين روبنيان نشرت في ديسمبر 2017.

(320). سالي روني Sally Rooney: مؤلفة وكاتبة سيناريو أيرلندية، تهتم بتفاصيل الحياة اليومية. تحولت روايتها «أناس عاديون» (2018) إلى سلسلة تلفزيونية عام 2020.

نوعاً ما شهد فيه التلفزيون ذروة انتشاره، بحيث يكون تدفق المحتوى هائلاً ولكنه محسَّنٌ خوارزمياً في أغلب الأحيان، ويميل بشكل متوقّع إلى أشكاله الخاصة من التكرار وعدم الجدوى، والمحاكاة الآمنة لأشكال أخرى أكثر جرأة. يمكن أن يحدث هذا الانتقال إلى الانحطاط حتى منتصف العرض، كما حدث في الموسم الختامي من مسلسل «لعبة العروش»* الذي سارع صانعوه بالاندفاع إلى خط النهاية لأنهم كانوا يأملون التفرّغ لإنجاز جزء جديد من سلسلة أفلام «حرب النجوم»*، خاصة بعد أن جفّت موارد مسلسل «لعبة العروش» عندما أصبح جورج آر. آر. مارتن[321] ثرياً ومشهوراً جداً ويسعى إلى ابتكار عمل ضخم جديد (بعد أن تخلّى عن الاقتباس من العمل الأصلي الكبير الذي ألفه ج. ر. ر. تولكينز[322])، وهكذا صار مسلسل «لعبة العروش» ضحية نجاح مؤلّفه الساحق الذي قضى على إبداعه.

العود الأبدي إلى عام 1975

ينطبق تفسير التكرار والركود الذي قدمه كورت أندرسون* على المجالات الفكرية والأيديولوجية. وبمراجعة النصوص الشهيرة التي تعود إلى حقبة السبعينيات (مثل كتاب كريستوفر لاش[323]: «ثقافة النرجسية»، ومقال توم وولف[324]: «عَقْد «الأنا» والصحوة الكبرى الثالثة»، وكتاب روبرت بيلاه[325]

---

(321). جورج آر. آر. مارتن George R. R. Martin : روائي أمريكي وكاتب سيناريو ومنتج تلفزيوني، وهو مؤلف سلسلة الروايات الملحمية «أغنية الثلج والنار» التي اقتبس عنها المسلسل الشهير «لعبة العروش».

(322). ج.ر.ر. تولكينز J.R.R. Tolkien: كاتب وشاعر وفيلسوف وأكاديمي انجليزي، اشتهر برواياته «سيد الخواتم» و«الهوبيت» التي تحولت إلى أفلام ضخمة الإنتاج وناجحة.

(323). كريستوفر لاش Christopher Lasch: مؤرخ وناقد اجتماعي أمريكي (ت. 1994). من مؤلفاته: «الليبراليون الأمريكيون والثورة الروسية»، «الراديكالية الجديدة في أمريكا: 1889- 1963»، «الثقافة النرجسية: الحياة الأمريكية في عصر التوقعات الضئيلة».

(324). توم وولف Tom Wolfe: كاتب أمريكي طوّر تقنيات وأساليب العمل الصحفي في الستينيات والسبعينيات، (ت. 2018).

(325). روبرت بيلاه Robert Bellah: عالم اجتماع أمريكي، من مؤلفاته: «الدين والتقدّم في آسيا

والمشاركين معه من المتخصصين في سوسيولوجيا الدين: «عادات القلب، الفردية والإلتزام في الحياة الأمريكية» نجد أنها وثيقة الصلة تماماً بالثقافة الأمريكية اليوم، في حين أن نظيراتها من كتب الخمسينيات (مثل «الحشد الوحيد»[326]، أو «الرجل ذو البذلة الرمادية»[327]) تبدو وكأنها قادمة من عالم ضائع. فكتاب تا-نهيسي كوتس[328] «بين العالم وأنا» مثلاً، حصل على مقارنات متتابة مع كتاب جيمس بالدوين[329]: «النار في المرة القادمة»، لأن لائحة الاتهام بالعنصرية الأمريكية التي قدّمها كان من الممكن كتابتها عام 1975 بنفس السهولة التي كُتبت بها عام 2015. والأمر كذلك يتعلق بمقال آن-ماري سلوتر[330] في مجلة «اطلنتيك» عن المسائل الشائعة في الفكر النسوي، وهو بعنوان: «لماذا لم تحصل المرأة على حقوقها كاملةً بعد؟»، فهذا المقال يمكن حشوه بمقتطفات من مراجع ثقافية تعود إلى 1978 أو 1994 دون أن يلاحظ أحد ذلك، بالرغم من أنه نُشر عام 2012.

والأمر نفسه ينطبق على اليمين، حيث لا تكون مقالات جوردان بيترسون[331] الشعبية ضد مخاطر ما بعد الحداثة جديدة وصادمة إلا إذا كنتم لا تتذكرون ثمانينيات القرن الماضي. إذا قمتم بذلك، فهذه المقالات في الغالب هي تذكير بأنه قد مرّ ما يقرب من أربعين عاماً منذ أن كانت ما بعد الحداثة في الواقع راديكاليةً

الحديثة»، و«المجتمع الخيّر».

(326). الحشد الوحيد The Lonely Crowd: تحليل اجتماعي صدر عام 1950. اشترك في تأليفه الباحثون ديفيد ريسمان وناثان جليزر وروبل ديني.

(327). الرجل ذو البذلة الرمادية The Man in the Grey Flannel Suit: رواية عن المسؤولية الفردية والاجتماعية صدرت عام 1955، من تأليف الكاتب الأمريكي سلون ويلسون.

(328). تا-نهيسي كوتس Ta-Nehisi Coates كاتب وصحفي أمريكي مهتم بالقضايا الثقافية والاجتماعية والسياسية. ويولي السود الأمريكيين اهتمامه الكبير. نشر كتابه «بين العالم وأنا» Between the World and Me عام 2015.

(329). جيمس بالدوين James Baldwin: روائي وشاعر وكاتب مسرحي أمريكي (ت. 1987). وكان قد أصدر «النار في المرة القادمة» The Fire Next Time عام 1963.

(330). آن-ماري سلوتر Anne-Marie Slaughter: محامية ومحللة سياسية أمريكية. نُشر مقالها «لماذا لم تحصل على المرأة حقوقها كاملةً بعد؟» Why Women Still Can't Have It All عام 2012.

(331). جوردان بيترسون Jordan Peterson: عالم نفس كندي وأستاذ بجامعة تورونتو، يوصف بالمحافظ. من بحوثه: «ما بعد الحداثة وسياسات الهوية».

وجديدة. وبشكل أكثر عمومية، فإن النقد المحافظ لليبرالية الأكاديمية صار «مستخلصاً» في العقود الثلاثة الواقعة بين نشر كتاب ويليام ف. باكلي[332]: «الله والإنسان» في جامعة ييل عام 1955، وكتاب آلان بلوم[333]: «إنغلاق العقل الأمريكي» في عام 1987، وكل ما في هذه العقود الثلاثة من وجهات نظر قام بلوم بتكرارها وإعادة تدويرها.

هذا أمر يمكن الدفاع عنه إلى حد ما لأن السياسات الأكاديمية التي ينتقدها المحافظون تستمر في الدوران على الأنماط المتكررة نفسها، حيث أفسحت معارك الحرم الجامعي في الستينيات الطريق أمام حروب أجهزة الكمبيوتر الشخصية في الثمانينيات الأمر الذي أفسح بدوره المجال للحوار حول نضالات العدالة الاجتماعية. من المسلم به أن كل موجة تقدمّية تتضمن مستجداتها وربما تكون الموجة الأخيرة دائمةً وتحوليّة. وفي الوقت نفسه، كما أشار موسى الغربي[334] في مقال له نُشر عام 2019 على موقع أكاديمية هيترودوكس[335]، فإن مطالب النشطاء «المتيقّظين» والتوجهات المضادة من قبل نقّاد التقدمية الجديدة مألوفةٌ جداً في الجولات المبكرة لسجالات الحرم الجامعي. ويعود الكثير من الأطر الأيديولوجية والعبارات الطنّانة (مثل التركيز الخاص على: الضحية والرضوض النفسية[336]، ومفاهيم «اللغة بوصفها عنفاً»، وخطاب «الفضاءات الآمنة»[337]

---

(332). ف. باكلي William F. Buckley: كاتب أمريكي محافظ. أسّس مجلة «ناشيونال ريفيو». (ت. 2008). نشركتابه «الله والإنسان» God and Man عام 1951.

(333). آلان بلوم Allan Bloom: فيلسوف وأكاديمي أمريكي (ت. 1992). نشر كتابه «إنغلاق العقل الأمريكي» The Closing of the American Mind علم 1951.

(334). موسى الغربي Musa al-Gharbi: كاتب وباحث علم اجتماع بجامعة كولومبيا. مهتم بدراسة تأثير المؤسسة الاجتماعية على عقليات الأفراد.

(335). أكاديمية هيترودوكس Heterodox Academy: مجموعة أكاديمية تهدف إلى تنوع وجهات النظر في الحوار الجامعي. أسسها عام 2015 عالم النفس جوناثان هادت وعالم القانون الدستوري نيكولاس كوين.

(336). مبحث في علم نفس الضحايا Victimology للتحقق من قدر الأذى النفسي وكيفية التعافي منه وتقدير استجابة الضحية في محيط الآخرين.

(337). يشير مصطلح الفضاء الآمن Safe space إلى أمكنة مخصصة للأفراد الذي يشعرون بالتهميش

و«الاعتداءات المجهرية»[338]، وغيرها) إلى فيتنام وحقبة ما بعد المطالبة بالحقوق المدنية في أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وبداية «طفرة المواليد».

إن كل هذه المعارك بالطبع، تحدث في الحُرُم الجامعية التي ترتادها النخبة، وفي المدارس المرموقة نفسها التي كانت تبزّ مؤسسات التعليم العالي وتهيمن على الثقافة الأمريكية قبل ستين عاماً خلت. لا توجد قائمة أكثر انحطاطاً في ركودها وتكرارها من قائمة تصنيف الكليّات والجامعات وفقاً لما تذكره شبكة US News & World Report.[339]

قد يكون الاعتراف بواقع التكرار أصعب قليلاً بالنسبة إلى التّقدميين مقارنةً بالمحافظين، لأن النزعة التقدمية مستمَرة أكثر ويجعلها وضعها المفترض في طليعة التغيير الثقافي، وهي تحفّز بجرأة على ارتياد آفاق جديدة. هذا ما يجعل من الصعب على اليسار إدراك إعادة تدوير طموحه وقلقه العابر للأجيال، والحقيقة أن العديد من «الاختراقات» التقدميّة هي مجرد ثقافة تعود إلى شيء لم نقم به منذ وقت ليس ببعيد، بما في ذلك البطلات الإناث مثل «المرأة الخارقة»[340] (وقد اقتفت أثر «ريبلي» التي قامت بدورها سيغورني ويفر[341] في أفلام «الكائن الفضائي

في المجتمعات الغربية للتواصل في ما بينهم وتبادل الحديث عن تجاربهم. وهي فضاءات شائعة في الجامعات. أما في المؤسسات التعليمية فيشير المصطلح إلى نبذ العنف وخطاب الكراهية ما يتطلب باستمرار خلق فضاء آمن للمهمشين والمتضررين.

(338). يشير مصطلح العدوان المجهري أو المصغّر Microaggression إلى استخدامات الألفاظ اليومية في السلوك اليومي والتي تتضمن الإهانة أو التجريح أو الإذلال المتعمّد والعرضي ضد المهمشين اجتماعياً، وذوي الاحتياجات الخاصة، وغيرهم.

(339). أخبار الولايات المتحدة والتقرير العالمي U.S. News & World Report شبكة إعلام أمريكية بدأت كمجلة إخبارية سنة 1933 ثم تطورت إلى قناة تلفزيونية اخبارية وهي نشطة جداً على الإنترنت، وهي تصدر تصنيفاً سنوياً للكليات والجامعات الأمريكية بحسب شعبيتها لدى الجمهور.

(340). المرأة الخارقة Wonder Woman: شخصية البطلة الخارقة التي نشرتها سلسلة «دي سي كوميكس»، وظهرت للمرة الأولى عام 1941.

(341). سيغورني ويفر Sigourney Weaver: ممثلة أمريكية من رائدات أفلام الخيال العلمي، قامت بدور ريبلي Ripley في فيلم الكائن الفضائي Alien.

الغريب»، أو سارة كونور[342] التي تصارع الروبوت في أفلام «ترميناتور»[343]، أو حتى الأميرة لَيا[344] التي تستخدم المتفجرات في فيلم «حرب النجوم»* الذي عُرض قبل أربعين عاماً) أو الأبطال الأمريكيين من أصل أفريقي كما في فيلم «الفهد الأسود»[345]. (كان نجوم السينما السود في الحقيقة، في سنوات إدي ميرفي وريتشارد بريور وبيل كوسبي ودينزل واشنطن[346] الشاب أكثر أهمية مما صارت عليه في عصرنا المهووس رسمياً بإعادة تجسيد الماضي فنياً).

ولكن إذا كان المحافظون أكثر راحة بدرجة ما في تمييز الأنماط الدوريّة في التاريخ، فمن جانبهم، هناك إغراء ما ينفكّ يشدّهم نحو التفكير في النهايات المنذرة بالفناء، حيث تكون الساعة متأخرة دائماً، وشيطان ما بعد الحداثة أو الماركسية الثقافية يسيطران تماماً، وهذا هو العصر الذي سيؤدي إلى انحلال نهائي للقيم التقليدية والدين المسيحية وأمريكا. هذه هي اللحظة التي ينجح فيها مفوَّضو اليسار في إسكات الخطاب اليميني والديني، وتجريم الأخطاء السياسية، والوصول بهزيمة النزعة المحافظة التي طالت إلى نهايتها.

على الرغم من ذلك، فإن منظوراً أوسع قليلاً قد يشير إلى أن العديد من نقاشاتنا حول الحرب الثقافية، والتي قد تشتعل أو تبرد بين حين وآخر، ولديها معادِلاتها الحزبية المختلفة اعتماداً على الكلبيّة* والمصلحة الذاتية، إنما تعكس نفس الدورة المتكرّرة من السجال حول صعوبة إيجاد الحلول، وهو السجال الذي خلقته الثورات الحقيقية التي حدثت قبل خمسين أو ستين عاماً. من المؤكد أن

---

(342). سارة كونور Sarah Conner: من الشخصيات الرئيسية في فيلم «ترميناتور».

(343). ترميناتور (المبيد) Terminator: سلسلة أفلام حركة وخيال علمي بدأت بجزء أول أخرجه جيمس كاميرون وسيناريو غيل آن هيرد.

(344). الأميرة لَيا Princess Leia: أميرة كوكب ألديران في «حرب النجوم» (1977).

(345). الفهد الأسود Black Panther: أنتج الفيلم الأول عن شخصية البطل الخارق الأسود (سلسلة مارفل كوميكس)، عام 2018.

(346). إدي ميرفي Eddie Murphy وريتشارد بريور Richard Pryor وبيل كوسبي Bill Cosby ودينزل واشنطن Denzel Washington: من ممثلي التلفزيون والسينما السود الأمريكيين المعروفين.

التغيّر الاجتماعي لم يتوقف، لكن العديد من التغيرات التي تحدث اليوم هي مجرد توابع أو تداعيات تلك الثورات وليست زلازل جديدة، كما لا تزال السمات التي تميز الحرب الثقافية القائمة على جبهات عديدة متأزمةً في الوقت الحالي مثلما كانت قبل ثلاثين عاماً.

ربما كانت حقوق المثليين هي الاستثناء الأكبر، فما حدث في الرأي العام من تغير درامي وسريع على نحو مؤثر قد أقنع التقدميين بأنه كان من الممكن ببساطة تسوية سجالات الحرب الثقافية. وبعد ذلك، أي عندما تم اختبار هذه القناعة بانتخاب دونالد ترمب، انقلب المزاج التقدميّ بطريقة ما من الشعور بالانتصار إلى الهستيريا، ومن الانفتاح التاريخي على العدالة إلى هبوط ليل الفاشية المظلم!

لكن هناك أمثلة أخرى تشير أكثر من ذلك إلى عصر يتكرّر فيه حدوث ما سبق déjà vu. فـ«**مسيرات الفخر**»[347] ومواكبه التي ترعاها الشركات، وقصص كيتلين جينر[348] في المجلات، تبدو جديدة ومذهلة. وبالنسبة إلى 5 في المائة من السكان المثليين والمتحولين جنسياً، فإن الأربعين عاماً الماضية قد أحدثت ثورة حقيقية. ولكن التغيرات الاجتماعية السريعة التي أعقبت الستينيات في ساحات العرق والجنس والدين، أفسحت الطريق أمام حلول الرّكود. لقد ضاقت فجوة الأجور بين البيض والسود بشكل لا مثيل له منذ الأربعينيات حتى السبعينيات، ولم تتقلص أو تتسع أكثر منذ ذلك الحين. وكذلك الأمر مع الفصل السكني والتعليمي (عندما يتم التحكم في انخفاض عدد السكان البيض، فإن أوضاعهم لا تسوء ولا تتحسّن)، كما تقلّصت فجوة الأجور بين الذكور والإناث بشكل

(347). مسيرات الفخر Pride parades: مسيرات عامة لدعم الشذوذ في المجتمعات الغربية تحتفل بالمثليات والمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومتعددي الزوجات ومتعددات الأزواج، من أجل دعم حقوقهم المدنية والقانونية.

(348). كيتلين جينر Caitlyn Jenner: ناشطة اجتماعية أمريكية، ومقدمة برامج تلفزيونية، أعلنت سنة 2015 عن إجراء عملية تحول جنسي كامل لها، وظهرت على أغلفة العشرات من المجلات الشعبية. وكانت قبل ذلك رجلاً متزوجاً أنجب ستة أبناء، وبطلاً في الألعاب الأولمبية فاز بعدة ميداليات.

كبير خلال السبعينيات، ثم تباطأ معدّل التقلص، وبغض النظر عن ظهور حركات نسوية مثل «أنا أيضاً»[349]، فقد تمت تسوية هذا المعدّل في مطلع العقد الأول من القرن الحادي والعشرين (مع توسّع الفجوة قليلاً بين العمال الأصغر سناً). ومن الواضح أن البلاد أكثر تحرراً في ما يتعلّق بالقضايا الجنسية مما كانت عليه قبل جيلين، لكن الرأي العام حول الإجهاض، وهو قضية جوهرية تغذي الانقسامات في الحرب الثقافية، ظلّ مستقراً بشكل ملحوظ منذ الثمانينيات، مع ميل إلى المطالبة بـ«معارضة الإجهاض» في ظل الرؤساء الديمقراطيين من جهة، و«تأييد الإجهاض» في ظل الجمهوريين من جهة أخرى. إن صعود «اللامتدينين»،[350] أي الأشخاص غير المتمين دينياً، هو تحوّل مهم بعد التسعينيات في الولايات المتحدة (بنسبة أقلّ من ذلك في أوروبا، حيث انتشر الاتجاه العام نحو العلمنة في الغالب منذ بداية الثمانينيات)، لكن معظم التوجّه إلى عدم الانتماء الديني كان بين أمريكيين لا يتبعون أي كنيسة في الأساس، وقد انخفضت معدلات حضور الكنيسة بشكل كبير خلال الستينيات، مدفوعة على الأغلب بأزمة الكاثوليكية التي حدثت بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، على أن ارتياد الكنيسة الكاثوليكية انخفض بشكل هامشي منذ الثمانينيات، في حين لم ينخفض ارتياد الكنيسة البروتستانتية على الإطلاق.

في ظل هذه الخلفيات، لم يكن من قبيل الصدفة أن تظهر أوجه تشابه واضحة بين معركة تأكيد كلارنس توماس[351] مرشّحاً للمحكمة العليا عام 1991، ومعركة تثبيت بريت كافانو[352] عام 2018، أو بين لحظة انطلاق تظاهرة «حياة

(349). حركة «وأنا أيضاً» Me Too #: حركة اجتماعية تتضامن مع اللواتي تعرضن للتحرش أو الاعتداء الجنسي.

(350). اللامتدينون، هم المعروفون باسم Nones (البدون) في الولايات المتحدة.

(351). كلارنس توماس Clarence Thomas: قاض مشارك في المحكمة العليا للولايات المتحدة، رشّحه جورج دبليو بوش خلفاً لثورغود مارشال T. Marshall، وهو ثاني أمريكي من أصل أفريقي يعمل في المحكمة بعد مارشال، وفي 2018 أصبح كبير القضاة المساعدين.

(352). بريت كافانو Brett Kavanaugh: قاضٍ مشارك في المحكمة العليا في الولايات المتحدة. رشّحه

السّود مهمّة»[353] الحالية، ومناقشات أ. ج. سمبسون[354] ورودني كينغ[355] حول وحشية الشرطة في منتصف التسعينيات، أو بين السجال حول الإجهاض في عام 1990 والسجال حوله اليوم، أو حتى أوجه التشابه بين فضائح دونالد ترمب الجنسية وفضائح بيل كلينتون. إن هذه التشابهات تعكس ما يسميه جاك برزون* «جمود عصرنا وأزمته المستمرة»، إنها الخلافات الملحوحة التي تنتظر بعض التدبير الجديد ليتم حلّها أو تجاوزها.

يمتدّ هذا النمط في ما وراء الحروب الثقافية إلى المناظرات الأيديولوجية الأخرى في السياسة الأمريكية، حيث تم تجميد الائتلافات اليسارية واليمينية بشكل عام في مكانها منذ ثورة ريغان*، ليس على الصعيد السياسي فحسب ولكن على المستوى الفكري أيضاً، وقد اقتصرت على تدوير الحجج المعتادة نفسها، بمجموعة أساسية من القضايا والأفكار، والسبب في أن المحافظين الأمريكيين يحنّون بشكل متواصل إلى فترة رئاسة ريغان بعد أن مرّ عليها الآن أكثر من ثلاثين عاماً، كما هو السبب أيضاً في أن الليبراليين لا يزالون مفتونين بأيقوناتهم من حقبة الستينيات هو أن القليل جداً قد تغير سياسياً منذ الاضطرابات التي حدثت بين اغتيال جاك كينيدي[356] عام 1963، ومنذ فوز ريغان عام 1980. أو (باستعارة

دونالد ترمب، وكان سابقاً قاضي دائرة الولايات المتحدة في ولاية كولومبيا.

(353). حياة السّود مهمّة Black Lives Matter: حركة ظهرت في الولايات المتحدة عام 2013 تناهض عنف الشرطة ضد المواطنين الأمريكيين من أصل أفريقي، بعد مقتل الفتى الأمريكي الأسود ترايفون مارتين، ولم يتوقف نشاطها طيلة السنوات التي تلت هذه الحادثة. كما عادت إلى الظهور بقوة عام 2020 عندما قتلت الشرطة جورج فلويد. وفي 2021 رُشحت الحركة لنيل جائزة نوبل.

(354). أ. ج. سمبسون O. J. Simpson: لاعب كرة قدم أمريكي سابق، ممثل ومذيع، اتهم بقتل زوجته وصديقها، تمت تبرئته من جريمة القتل، وتبين في محكمة مدنية لاحقاً أنه كان مسؤولاً عن موتهما.

(355). رودني كينغ Rodney King: ناشط من أصل أفريقي تعرّض للضرب على يد شرطة لوس أنجلوس أثناء اعتقاله لقيادته السيارة بينما كان مخموراً. وقد صور أحد الأشخاص ما حدث وأذاعت محطة تلفزيونية المشهد فتحولت قضيته إلى قضية رأي عام أثارت الشارع الأمريكي.

(356). جاك كينيدي Jack Kennedy: هو جون كينيدي، الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة من عام 1961 حتى اغتياله عام 1963، وكان يدعى جاك عندما كان صغيراً.

التشبيه بالسفر عبر الزمن لمارك ستاين* من فصل سابق) فإن معظم الحجج السياسية اليوم والأطر الخطابيّة والدوائر الانتخابية ومجموعات المصالح، سوف تكون بالنسبة إلى المسافر عبر الزمن القادم من أوائل الثمانينيات أكثر تميزاً ممّا يمكن أن تكون عليه مناقشات أواخر السبعينيات بالنسبة إلى مسافر من حقبة الكساد وصولاً إلى عصر كارتر.

لقد تحولت خطوط المعركة الشاملة إلى اتجاه فرديّ النزعة individualistic على الأغلب: فاز اليمين ببعض الانتصارات الاقتصادية في الثمانينيات والتسعينيات، وفاز اليسار ببعض الانتصارات الثقافية في التسعينيات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين. لكن العديد والعديد من السجالات والحجج (حول العرق والإجهاض والضرائب والرعاية الاجتماعية) تبدو إلى حد كبير كما كانت قبل جيلين، بل حتى المحاولات الواعية للخروج من هذا المأزق تنتهي، مرحلياً على الأقل، بإعادة التأكيد على ذلك. لقد بُني انتصار دونالد ترمب عام 2016 على قطيعة حقيقية مع المعتقدات الأرثوذوكسية الريغانية التي تَسِمُ حزبه، لكن الكثير من نزعته الشعبوية تبخّرت عند اتصاله بأجندة الحزب الجمهوري في العاصمة واشنطن وهي -على رسوخها- لا تحظى بشعبية كبيرة.

وعلى هذا المنوال بالنسبة إلى الدين كذلك، حيث توقف الصراع بين التقليديين والتقدميّين في المسيحية واليهودية لمدة أربعين عاماً، مع ظهور بعض التطورات التي تبدو جديدة، مثل الانتخابات والمساعي التحررية التي دعا لها البابا فرانسيس[357]، وإعادة المناداة بالإنجيلية التقدمية، وهي تطورات أدّت إلى إثارة المناقشات اللاهوتية والأخلاقية وظهورها على السطح، مع انتهائها غالباً إلى النتائج المتوقَّعة نفسها، أما خارج تلك المعسكرات المتحاربة، فإن القصة الكبرى في الدين الغربي عادةً ما تعني غياب أي قصص ممتعة أخرى. إن المركز الديني

(357). البابا فرانسيس Pope Francis: بابا الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان منذ 2013، أرجنتيني الأصل. وغالباً ما توصف إصلاحات البابوية بأنها تقدّمية أو ليبرالية.

اليوم يتمحور على نزعة الفردية الروحيّة الغامضة نفسها، «الربوبيّة العلاجيّة الأخلاقيّة» التي تمزج بين حركة «العصر الجديد»[358] والعناصر المسيحية، وهو ما وصفه كتّاب مثل لاش Lasch وبيلا Bellah للمرة الأولى في السبعينيات. لكن المفتقد هنا هو اختبار وتجريب النوع الذي يؤدي إلى التجديد الديني في المؤسسات القائمة (كما حدث في كثير من الأحيان في الكاثوليكية والبروتستانتية) لينتج عنه تالياً منافسون آخرون: المورمونية[359]، والعلم المسيحي[360]، وشهود يهوه[361]، والسبتيّون[362]، والخمسينيّون[363]، بل حتى -ليكن الله في عوننا- جيم جونز[364]، وديفيد كوريش[365]، والسيتولوجيا (العلمويّة)[366].

كما هو الحال مع سمات الانحطاط الأخرى، هناك مزايا في الوسطيّة الدينيّة (واسألوا سكان جونزتاون[367]). لكن مخاطر الطوائف وتجاوزاتها قد تكون

---

(358). العصر الجديد New Age: مجموعة من المعتقدات والممارسات الروحية والدينية التي نمت وانتشرت في العالم الغربي في سبعينيات القرن العشرين. وتستمد فلسفتها من وحدة الأديان. وهي شكل حديث للإيمان بوحدة الوجود.

(359). المرمونية Mormonism تقليد ديني مسيحي ظهر في الولايات المتحدة في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر. بدأها جوزيف سميث الذي نشر كتاباً بعنوان «كتاب المورمون».

(360). العلم المسيحي Christian Science: مجموعة معتقدات وممارسات مسيحية طورتها ماري بيكر في القرن التاسع عشر في نيوانغلاند في كتابها «العلم والصحة ونصوص الكتاب المقدس».

(361). شهود يهوه Jehovah's Witnesses: طائفة مسيحية تنادي بتأسيس مملكة الله على الأرض لإنقاذ البشرية. تأسست في أواخر القرن التاسع عشر على يد تشارلز راسل.

(362). السبتيون Seventh-day Adventists: طائفة بروتستانتية ظهرت في القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة. تدعو إلى التهيؤ لمجيء المسيح الذي أصبح وشيكاً.

(363). الخمسينية Pentecostalism: حركة بروتستانتية أمريكية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تنادي بمعمودية الروح القدس. وتعني ضرورة المرور باختبار روحي فردي مع الله. وتسمى أيضا العنصرية نسبة إلى «يوم العنصرة» وهو عيد يحيي ذكرى نزول الروح القدس.

(364). جيم جونز Jim Jones: واعظ ومعالج ديني أمريكي وزعيم «معبد الشعب»، وهي منظمة دينية بدأت نشاطها عام 1955 وانحلت بوفاته منتحراً عام 1978.

(365). ديفيد كوريش David Koresh: قائد طائفة دينية أمريكية (ت. 1993).

(366). السيتولوجيا Scientology: حركة دينية-علمية أسّسها رون هوبارد في خمسينيات القرن العشرين. ويؤمن أتباعها بأن الإنسان كائن خالد يتوطّن جسداً فانٍ.

(367). جونزتاون (مدينة جونز) Jonestown: الاسم الشعبي لمستوطنة «معبد الشعب» في جمهورية غيانا. وكان جيم جونز قد أسّس جماعة بروتستانتية متطرفة انتهى إليها 30 ألف عضو. ومقرها كاليفورنيا، ثم منحه حاكم غيانا أرضاً شاسعة جعلها مستوطنة خاصة بكنيسته. ولكن هذه الدعوة

الثمن الذي تدفعه الثقافة الدينية في مقابل الابتكار والتجديد و«النبوغ» الروحي. عندما بثّت شبكة «نتفليكس» مؤخراً سلسلة وثائقية بعنوان «بلاد بريّة»[368] عن معلّم هندي وأتباعه الأمريكيين الذين حاولوا بناء مجتمع طوباوي في صحراء أوريغون قبل أربعين عاماً، كان الخَبَل واضحاً في هذه الجهود، ولكنها كانت تتّسم بالجرأة أيضاً، والتوق إلى السمو، والاستعداد للإيمان برجل مقدّس ورسالة تغيّر الحياة. هناك لقليل من هذا الطموح الروحي في العالم الغربي اليوم، وقد ذكر مؤرخ الدين فيليب جينكينز في المدة الأخيرة [369] مؤخراً أن الانخفاض في «عدد وحجم الطوائف الهامشية المثيرة للجدل» منذ الثمانينيات هو شيء «أصيل وتأريخي [أي برتبط بعصر معين]»، وهو علامة سيئة على حيوية المركز الديني، إذ منذ أن ظهرت مثل هذه التجارب الجنونية على أطراف المجتمع كانت غالباً ما تشير إلى أن الأديان الأكثر انتشاراً لديها «**نواة صلبة من النشاط والتساؤل الروحيين**». ويمكن ربط السبات الديني الناجم عن انحسار الطوائف بالسبات الفكري عموماً، حيث يعبّر العنصر الديني في الشعور الثقافي العام، بالاقتباس من بيتر ثيل* المتشائم، عن أن هناك عدداً أقل فأقل من «**الأسرار المتبقية التي تحتاج إلى كشف**».

يمتد هذا السبات إلى المشكّكين والملحدين أيضاً. فبالرغم من كلّ الحماس والجدل في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين حول ما يسمّى بـ«الإلحاد الجديد»[370]، فإن مدرستهم لم تأت بجديد على الإطلاق، بل أعادت

انتهت بطقس انتحار جماعي مات فيه أكثر من 400 مؤمن، وعلى رأسهم جونز نفسه.

(368). بلاد بريّة Wild Wild Country: سلسلة وثائقية من ستة أجزاء بثّتها نتفليكس في مارس 2016.

(369). فيليب جينكينز Philip Jenkins: مؤرخ وأستاذ دراسات دينية. عمل أستاذاً للدراسات الأمريكية. من مؤلفاته: «صناعة الطبقة الحاكمة»، و«أناجيل مخفيّة»، و«الحرب الكبرى المقدسة: كيف أصبحت الحرب العالمية الأولى حرباً دينية صليبية».

(370). الإلحاد الجديد New Atheism: مصطلح ظهر في 2006 لوصف الموقف الإلحادي في القرن الحادي والعشرين. ومفاده عدم الاكتفاء بنبذ الخرافات والأديان والأفكار اللاعقلانية، بل وضرورة مواجهتها وانتقادها وإقامة الحجج عليها بمختلف الوسائل وفي جميع المؤسسات الإجتماعية والرسمية.

تدوير الحجج التي كانت يوماً ما جديدة ومثيرة للجدل في القرن الثامن عشر، كما لو أن أحداً لم يكتب شيئاً بعد ذلك، بمن في ذلك الملحدين أنفسهم! أو كأن شيئاً لم يحدث في هذا الفاصل الزمني لجعل أي شخص يشكّك في فكرة أن إلغاء الإيمان سيقودنا إلى غد مشرق. إن التوترات الحقيقية في الفكر ما بعد الديني، وعلى رأسها صعوبة التوفيق بين المادية الداروينية الجديدة القاسية والليبرالية التي لا تزال تعتمد ضمنياً على المفاهيم الميتافيزيقية المسيحية وعلى المطلقات الأخلاقية، إنما تحجب البيانات الإلحادية المعاصرة، الواضحة والتي لم يتم حلها تماماً، كما إن بدائل المسيحية التي قد تجعل من الليبرالية ما بعد المسيحية متماسكةً، من الربوبيّة إلى وحدة الوجود، إنما تلقي ببعض التخيّلات جزافاً لا غير، ولكن يبدو أن الكثير من المثقفين العلمانيين راضون عما يشوب نظرتها إلى العالم من غياب الحدِّ الأساسي الأدنى من التّناسق، وراضون أيضاً عن **اللاأدرية**[371] التي تتعامل مع الأسئلة الأساسية حول طبيعة الكون ومصير الإنسان المرهق بنوع من اللامبالاة.

هذه اللامبالاة تحدّ بقوة من احتمالات مناهضة الأكليروسية (مناهضة السلطة الدينية)، أو مناهضة المسيحية من قبل **اليعقوبية**[372] أو الماركسية، وهذا يعني أن الضغط على الدين التقليدي من قبل النخب العلمانية حقيقيّ ولكنه رخو وضعيف، وأنه أشبه بمسألة ضغط اجتماعي ومضايقة قانونية لا ترقى إلى مستوى الاضطهاد أو التعسّف، لكن هذا الدفع الرخو يواجه دفعاً مقابلاً ورخواً هو الآخر، فالعلمانية المنهكة وغير المتماسكة تتصارع بشكل ضعيف مع مسيحية تبدو منهكة ومنقسمة داخلياً، أي أن أياً منهما لا تمارس تأثيراً حقيقياً على المنطقة الروحية الفاصلة بينهما. في هذه الأثناء، فإن الأصوات التي كانت تتوقّع على نحو

(371). اللاأدرية Agnosticism: القول بأن وجود الله وما يتصل بالغيب غير المادي لا يمكن إدراكه، وأن العقل البشري غير قادر على إثباته أو نفي إثباته. ومن العبث بالتالي بحث مثل هذه المسائل.

(372). اليعاقبة Jacobins: يعود المصطلح إلى زمن الثورة الفرنسية. وكان اليعاقبة يساريين متطرفين يعملون على إلغاء الملكية وسيطرة رجال الدين وتأسيس نظام دستوريّ متحرّر.

يقيني، وفي لحظات مختلفة منذ السبعينيات، حدوث «صحوة كبرى»[373] جديدة تأتي على شكل إحياء مسيحي أو ثورة روحية مفاجئة، تبدو كأنها أصوات تتوقّع تحولاً تكنولوجياً جذرياً خلال الفترة نفسها، ولنلاحظ هنا أن الجيلين الأخيرين لم ينتجا ما تنبأ به من تغييرات، أما تلك الـ«صحوة» فقد أضاعت فرصاً مناسبة كان من الممكن أن تتبعها مثل انهيار الشيوعية، أو مطلع الألفية، أو أن تحدث رداً ما على صدمة 11 سبتمبر.

قد يتم الدفاع عن تلك النبوءات في نهاية المطاف بالطبع، تماماً مثلما لا يجب أن نتوقع استمرار الركود التكنولوجي إلى الأبد، ذلك أن ثورة ثقافية قوية بما يكفي للإفلات من جاذبية الانحطاط قد تتشكّل الآن، إذ ربما يكون ترمب هو آخر اللحظات التي تلوح في الأفق من البيض المحافظين، حيث سيجرف إيقاظ التقدمية كل شيء أمامه على النحو الذي فشل اليسار الجديد في القيام به، وربما تكون إعادة التدوير الحالية لدوافع «العصر الجديد»* الذي يعود إلى السبعينيات الماضية (كما في الاهتمام المتجدّد بعلم التنجيم، والانغماس في أشكال الوثنية الجديدة واليمينية البديلة)، أكثر من مجرد تكرار لعصر الدلو*، وقد يساهم ذلك في قبول الغرب لبعض اللحظات الدينية الجديدة ما بعد المسيحية، وربما تنجح محاولة البابا فرنسيس لتحرير الكاثوليكية في إنقاذ المسيحية الليبرالية من عبثها وانفصالها عن الواقع، أو ربما ستوظّف النزعة التقليدية الدينية اللحظةَ الشعبوية لاستعادة تأثيرها المفقود، أو ربما تعطي كلّ هذه الاتجاهات وهماً بالحركة إلى الأمام وزخماً مفترضاً، في حين أنها تدفعنا في الواقع إلى الوراء دون توقف... إلى الوراء نحو عام 1975.

---

(373) الصحوة الكبرى The Great Awakening: تعبير يشير إلى موجات من فترات الإحياء الديني في التاريخ المسيحي الأمريكي من أوائل القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن العشرين. حيث قام القساوسة البروتستانت الأنجيليين بحث الشعور العام على الاهتمام بالدين إيماناً وممارسةً.

هل يجعلنا «غوغل» مملّين؟

إنّها ليست السبعينيّات الماضية بالتأكيد تلك التي مازالت في حلبة التنافس الذي لم يكد يجري تخيّلها في عصر «فورد»! ماذا عن استثناء الركود التكنولوجي: الإنترنت بكل عجائبه؟ من المؤكد أن ذلك يفعّل بعض الابتكار الثقافي. لكن ألا يذهب كورت أندرسون* بعيداً عندما يختزل الإنترنت في «بعض التفاصيل المعينة»؟ لقد أدّى العصر الرقمي بكل تأكيد إلى اختراع أشكال ثقافية غير مرئية في الواقع الصلب، إلا أنها تغمر مستخدم الكمبيوتر وتحيطه من كل جانب بأبعاد ثلاثة.

قد تبدو صور عصرنا بشكل غريب مثل صور عام 2000 أو 1990، ولكن هذا لأننا لا نرى «يوتيوب» أو «ويكيبيديا» أو «فيسبوك» أو «انستغرام» في الصور. نحن لا نرى المدونات أو التغريدات أو التسجيلات الصوتية، لا نرى عوالم الألعاب الرائعة، لا نرى «الموضات» والهويّات التي يفترضها الناس ويتبنّونها ويلعبون بها على الإنترنت، ولا نرى كلّ تلك الهندسة التي تدخل في بناء هذه العوالم الافتراضية، أو هذه الكاتدرائيات الرقمية في عصرنا.

بعض هذا صحيح تماماً، ولأن العالم الرقمي يعدُّ من قبيل الاستثناء بالنسبة إلى الركود التكنولوجي، فإن الثقافة الرقمية هي استثناء جزئي بالنسبة إلى التكرار الثقافي. لكن مثلما يجب أن نتردّد أمام الإفراط في بيع الإنترنت ونعترف بأن بعض توجهّات التعزيز التقني إنما هي استجابة لغياب التقدم التكنولوجي في مكان آخر، يجب كذلك أن نتردّد أمام الادعاء بأن ثقافة الإنترنت تمثّل ما زَعَمَتْ أصلاً أنها تقدّمه: مثل النهضة الديمقراطية، أو الاختلاف والحق في تجنّب التطابق والامتثال، أو خلق مكان يمكن للموهبة الفردية أن تجد فيه جمهوراً دون الحاجة إلى صعود السلالم المعتادة أو التفاوض مع الآلة على حل وسط.

كانت تلك القصة أكثر قبولاً قبل خمسة عشر عاماً، عندما كان الإنترنت يافعاً

وجديداً وغريباً، ولكن هذه التقنية، وما رافقها من أسواق، سريعاً ما توطّدت، مع هيمنة «أمازون» و«فيسبوك»، وطرح الشركات الناشئة للشراء، وتعزيز ثقافة عصر التكنولوجيا أيضاً، مع العمل على التجانس أكثر من الحرص على التنوّع في العديد من القطاعات. إلا أن اقتصاديات الإنترنت تفضّل ثقافة المطابقة كما يبدو، أو كما كتب مايلز كلي[374] مؤخرًا في مجلة MEL قائلاً: «وعدت الإنترنت باختلاف أُسّي[375] لكنها تحوّلت إلى ثقافة أحادية أخرى». عندما دمرت شركة «نابستر»[376] وبعد ذلك «آيتونز»[377] صناعة التسجيلات، أو عندما «عطّلت» أمازون» تجارة الكتب، سمح المشهد الجديد في بعض الأحيان لمزيد من الهواة بالاختراق، لكن الإنترنت «فضّلت» في الغالب أسماء الشركات اللامعة والنجوم لأن علاماتهم التجارية أصبحت أكثر أهمية في غياب الوسطاء القدامى.

لهذه الأسباب تعتمد صناعة النشر الآن أكثر من أي وقت مضى على قوة النجوم، وأصبح من الصعب على مؤلف من «القائمة الوسطى» كسب قوته أكثر من ذي قبل، والأمر نفسه بالنسبة إلى نجوم الموسيقى الكبار الذين يمكنهم إملاء شروطهم عبر الإنترنت فيحققون ثروات جديدة من جولات فنية لم يقوموا بها بعد، لكن أصحاب «**القائمة الوسطى**»، والذين يكونون في الكثير من الأحيان أكثر إثارة للاهتمام من الناحية الفنية، يفقدون حصتهم من السوق ولا يجنون المزيد من الأموال. من المرجح كذلك أن تزداد الاتجاهات المضادة للإبداع في صناعة الأفلام إذا تمكنت الإنترنت من التأثير على النمط المعتاد في إطلاق الأعمال السينمائية لتدفع هذه الصناعة إلى الانهيار، تاركةً عدداً قليلاً من عمالقة الإنتاج مثل «نتفليكس» و«أمازون» و«ديزني» وخوارزمياتهم المسؤولة عما يجب إنتاجه

---

(374). مايلز كلي Miles Klee: كاتب صحفي وروائي أمريكي. من مؤلفاته: «إيفيلاند». و«زيف حقيقي».

(375). الاختلاف الأُسّي Exponential divergence: معامل خوارزمي في برمجة الكمبيوتر يعمل كدالّة تباين، وظيفته تحديد التبادلات المحتملة إحصائياً قياساً بالمدخلات التي تتيحها إمكانية الاختيار.

(376). نابستر Napster: برنامج خدمات موسيقية و«متجر» فني على الإنترنت.

(377). أيتونز iTunes: مشغّل وسائط ومكتبة ومتجر موسيقى على الإنترنت.

من أفلام ثم السماح لك بمشاهدتها على حساب «الميديا» الخاص بك، والأمر نفسه كذلك بالنسبة إلى المنافسة بين أشكال عرض الفنون الأخرى من حيث إقبال الجمهور أو لفت الانتباه أو كسب الأموال. ولكن الأفلام والموسيقى والتلفزيون تجاوزت الانتقال إلى عصر الإنترنت بشكل أفضل بكثير مما حدث مع الموسيقى الكلاسيكية أو الباليه أو المتاحف الفنية، وهي قطاعات شهدت جميعها تأثيرات مماثلة بسبب النجوميّة، وتراجع جمهورها بشكل عام (ملاحظة: لا تزال متاحف نيويورك تجتذب حشوداً ضخمة، ولكن أمكنة أخرى مماثلة تعجز عن ذلك).

لنأخذ صناعة الثقافة، وهو المجال الذي أكسب منه رزقي، أعني عالم الصحافة. عندما بدأتُ مسيرتي المهنية في السنوات الأولى بعد عام 2000، كان هناك الكثير من الحديث المتألق حول الكيفية التي سيُحدِث بها التدوين والأشكال الأخرى الخاصة بالإنترنت ثورةً في الأعمال التجارية المتشبّثة بتقاليدها، ما أدّى إلى تخصيص صفحات الصحف والمجلات بمواد عن الإبداع الخارجي والتنوع الفكري والمنظور العالمي. وحدث هذا في بعض أجزاء الإنترنت أيضاً، حيث هناك مواهب في الصحافة اليوم لم يكن من الممكن رعايتها لولا الشبكة العنكبوتية، ولولا ما قدّمته الشبكة من مناقشات هي أكثر ثراءً في بعض الأوساط مّما كانت عليه صفحات الآراء التقليدية، بالإضافة إلى إمكانية الوصول إلى الخبرات التخصصية والاطلاع على الثقافات الثانوية (أو الهامشية) التي لم تكن معرفتها متاحةً عن طريق المطبوعات.

كان هذا هو الموضوع الثانوي في العشرين سنة الماضية من الصحافة، أما الموضوع الرئيسي فهو -مرةً أخرى- التمكين الثقافي، وهو مشهد يتألق فيه اللاعبون الكبار، أو على الأقل يستمرون فيه بكفاءة، بينما يتم القضاء على الطبقة الوسطى من كوادر المؤسسات، ولا سيما اللاعبون المحليون، حيث يتضح أن مشهد إنتاج المحتوى الذي يتّسم بالديمقراطية وبتكلفة ضئيلة يصبح مكرساً

لصالح الدهماء، لا لصالح المواهب الغريبة والجديدة، وهو ما يمكن أن يعترف به أي شخص قضى بعض الوقت على وسائل التواصل الاجتماعي. إن الانتقادات المختلفة لوسائل الإعلام السائدة القديمة، من اليمين واليسار المتطرف والتيارات الغريبة في كل مكان، كانت قادرة على إثبات وجهات نظرها، لكن المدوّنين في السنوات الأولى بعد عام 2000 لم يطيحوا بوسائل الإعلام السائدة أو يستقلوا عنها، لقد تم استيعاب أفضلهم من قبل المؤسسات الرئيسية، وتشتّت الباقون على تويتر وفيسبوك، منضمّين إلى الحشد المطيع الذي يحدّد الآن، بمساعدة من الخوارزميات الصديقة، ما يقرأه الناس بالضبط وما يشاركونه أو ما يكرهونه. ومثلما ينتشر محتوى فيديو بذيء على الإنترنت بدلاً من توجيه الاهتمام إلى تطوير ما يدوّن وينشر، والمساهمة في الإطاحة بفساد وسائل الإعلام القديمة، فقد أعطتنا الإنترنت كذلك محصولاً وفيراً من الهراء واللاجدوى، ومن المواد الإباحية السياسية التي يُقبِل عليها «العقل الحزبي»، ومن التغطية الإخبارية التي لا تكمن مشكلتها في زيفها بقدر ما تكمن في رداءتها وضآلة قيمتها.

هذه المشكلة تكمن أيضاً حتى في أعاجيب ثقافة الإنترنت الحقيقية. لا شيء مثل ويكيبيديا كان ممكناً عام 1910 أو 1950، والسّعة التي تميّزها في حشد المصادر معجزة حقيقية. أنا أتعمّق عملياً في صفحاتها لسبب أو لآخر كل يوم، لكنها لا تزال منتجاً موحّداً (مُدمَجاً)، لا تزال احتكاراً ثقافياً، والمرجع الوحيد على الإنترنت في نطاقه ومدى استخدامه. كانت هناك ثلاث موسوعات قديمة مختلفة في منزل والديّ، ورفّ مليء بكتب التاريخ، ولم يكن من السهل الوصول إلى ما تتضمنه من معلومات مشتتة بقدر السهولة التي تميز مدخلات ويكيبيديا، رغم أنها أكثر تفصيلاً وتنوعاً في وجهات النظر التي تقدمها. وما لم تكونوا متخصّصين حقيقيين، فإن أياً منكم يستطيع أن يشرع في البحث على الإنترنت عن فن القرن الخامس عشر مثلاً أو موسيقى موزارت، أو العصور القديمة في الصين بادئاً من

المكان نفسه، ليجد مستودع المعلومات نفسه، ويقابل «عقل الخلية»[378] نفسه، و«عقل الخلية» أكبر من الفريق الذي كتب الموسوعة البريطانية عام 1910، ولكنه بالكاد محصّن ضد التحيّز والتفكير الفئوي، كما أنه يميل بطرقه الغريبة إلى هواجس الذكور، وذوي التوجه التكنولوجي، والمدمنين على الإنترنت. إن الويكيبيديا تبدو مثل «عقل الخلية»، على عكس مؤلفي الموسوعة البريطانية القديمة، والموسوعات التي تنافسها، بحيث لا يمكنها إنتاج جملة كاملة متميزة، أو عبارة واحدة لا تُنسى، إلا من باب الصدفة وعن طريق جزء هامشي من بعض المدخلات الغامضة التي نسي محرّرو «التجانس والمماثلة» أن يقوموا بتعديلها!

هذا المسألة، مرةً أخرى، تثير مشكلة المستوى المتوسط (غير المتميز والضحل أحياناً)، فإلى المدى الذي تحدّد فيه الإنترنت الرسائل الثقافية التي تحملها، فإنها تضغط على المبدعين لجعل الأشياء قابلة للنقر والتصفح وقادرة على جذب الانتباه لفترة وجيزة، ولكن على أساس أن القارئ أو المراقب ينتقل سريعاً، وباستمرار، إلى الارتباط التشعبي التالي، أو الفيديو التالي، أو التغريدة التالية، أو إلى تحديث الحالة، أو إلى صورة انستغرام. ليس من المستحيل أن يزدهر النبوغ في ظل هذه القيود، لكن العمق يصبح شبه مستحيل. لم يكن من العبث أنْ عنونَ نيكولاس كار[379] نقده القوي لثقافة الإنترنت بـ«السطحيين». إذا نَجَتْ أغنية شهيرة من «نابستر»، ثم من «آيتونز»، فإن الألبوم القديم الطراز لم ينجُ منها بالضرورة، وهناك حوار، يثير غضب الروائيين ولكنه قد يكون صحيحاً، حول أن الرواية لم تعد ذات أهمية في الثقافة الجماهيرية منذ 29 يونيو 2007، وهو اليوم الذي قدّم فيه ستيف جوبز* جهاز «آيفون». إن الأطروحة الفلسفية، أو القصيدة الصعبة، إلى الحدّ الذي يتبع فيه الشكلُ الوظيفةَ، تنتمي إلى المطبوعات الورقية أكثر مما

(378). عقل الخلية Hive mind: كيان افتراضي بعدد كبير من المشاركين يتبادلون معارفهم وآراءهم، ويخلصون إلى توافق غير نقدي أو خلاصة جماعية محددة.

(379). نيكولاس كار Nicholas Carr: كاتب أمريكي مهتم بالتكنولوجيا وإدارة الأعمال. حاز كتابه «الضّحال» The Shallows على جائزة بوليتزر عام 2011.

تنتمي إلى الشاشات، وليس من المستغرب بعد هذا أنّ تدهور الفنون الجميلة قد تسارعَ في ظل سيطرة الإنترنت، كما أنه ليس من المستغرب أن النوعين اللذين يسيطران حاليًا على الإنترنت هما الجدل السياسي والمواد الإباحية، فكلاهما مناسب بشكل مثالي لوسط الاستخدام الذي تقدّمه الإنترنت، نقرة هنا ثم أخرى هناك، بحيث يكون الشيء الأكثر أهمية هو أن تكون متحمّساً ومتحفّزاً للحصول على حصّتك من المتعة، وأن تستمر على هذا النحو.

خريف طفرة المواليد اللامتناهي

ربما يكون إلقاء اللوم على أجهزتنا بسبب المستوى الثقافي المتوسط أمراً سهلاً للغاية، عندما تكون المشكلة الحقيقية، التي تم التلميح إليها خلال هذا الفصل، هي أننا جميعاً سجناء ثقافيون في زمن «**طفرة المواليد**». هذا ليس تمهيداً، أعدكم بذلك، للحديث عن كيف كان جيل طفرة المواليد (1946- 1964) ببساطة هو القوة المدمرة والمذهلة كما تم تصورّها في الجدل المحافظ، أو الحديث عن النظرات الحانقة التي وُوجه بها جيل الألفية (1981- 1996) والجيل «اِكس» (1965- 1980). كانوا قوة مدمّرة وأنانية، ولكن الشيء نفسه حقيقيّ أيضاً بالنسبة إلى العديد من الأفراد العباقرة، ومثل العديد من الفنانين الذين يصعب التعامل معهم، فإن الصورة الذاتية المتضخّمة عن جيل نهاية الستينيات يبررها بكيفية ما الإبداع الذي قدّمه وطاقته الشبابية.

لا يمكن لجيل الطفرة أن يدّعي الفضل المباشر في كل تلك الطاقة الشبابية، طالما أن العديد من الرجال والنساء الذين صنعوا عقد الستينيات الثقافي في القرن الماضي قد ولدوا قبل البداية التقنيّة لطفرة المواليد (وقبل ذلك بوقت قليل بالنسبة إلى الموسيقيين والروائيين، وبوقت أطول بالنسبة إلى المثقفين والثيولوجيين). لكن أبناء جيل الطفرة كانوا لا يزالون صغاراً خلال انفجار الإبداع العظيم والأخير في التاريخ الغربي، وخلال الانطلاقة الجبارة الأخيرة لابتكارات الثقافة

الجماهيرية.

إن عبقرية موسيقى الستينيات، وسينما السبعينيات، وأهمية النسوية، والليبرالية، وفلسفة البيئة، والأحداث اللاحقة، والطابع الذي تركته طلائع جيل الطفرة protoboomers مثل فرقة **البيتلز**[380] **وبوب ديلان**[381]، وأبناء جيل الطفرة الناضجين مثل ستيفن سبيلبرغ* وستيف جوبز*، كل ذلك حقيقيّ، بغض النظر عن نوع الحكم الأخلاقي الذي يمكن أن يطلقه المرء على العصر بأسره. لكن إذا أضفى أحد ما هذا النوع من التميّز الثقافي على الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، فلماذا الركود اللاحق مع انتقال جيل الطفرة من حياة الشباب إلى مصاف التأثير والسلطة؟ ألا ينبغي أن تؤدي فترة الخصوبة حقاً إلى مزيد من الخصوبة بعد ذلك، بدلاً من مجرد تكرار نفسها إلى ما لا نهاية في إعادة تمثيل الاحتجاجات الجامعية في الستينيات، بالإضافة إلى إعادة تشغيل مسلسلي «ستار تريك» و«روزان»؟

ليس بالضرورة! لقد اقترح عالم الاجتماع الراحل **روبرت نيسبت**[382] في مقال له عن «العصور الذهبية»، نُشر ضمن كتابه: «*تحيّزات: قاموس فلسفي*»، أن عصر الإنجاز الجمالي أو الفكري العظيم يتم تعريفه عادةً بما يسميه «**التناقض الديالكتيكي**»، وكان يعني بهذا أن طفرة «**شعلة الإبداع**» تتطلب في الغالب أفكاراً واتجاهات قوية وقوى تكون في حالة توتّر واضح بين بعضها بعضاً، على سبيل المثال، **جماعاتية**[383] قوية، **وفردانية**[384] قويّة، وتوجهات علمنة قوية، وفهم

---

(380). البيتلز Beatles: فرقة روك إنجليزية تأسست عام 1960.

(381). بوب ديلان Bob Dylan: كاتب وفنان تشكيلي ومغن وكاتب أغاني أمريكي، نال جائزة نوبل للآداب عام 2016.

(382). روبرت نيسبت Robert Nisbet: عالم اجتماع أمريكي، ونائب رئيس جامعة كاليفورنيا، صدر كتابه «تحيّزات: قاموس فلسفي» Prejudices: A Philosophical Dictionary عام 1983.

(383). الجماعاتية (الفكر الجماعي) Communitarianism: توجّه فلسفي يؤكّد على العلاقة بين الفرد والمجتمع، وعلى أن الهوية والشخصية الاجتماعية تتشكّل في إطار العلاقات المجتمعية.

(384). الفردانية Individualism : نزعة فلسفية تؤكد على القيمة الأخلاقية الفردية، وتلقي بظلالها

متمكّن للأفكار المقدسة والثورية، وإجماع أخلاقي متنفّذ.

لا يتعيّن على المرء أن يطلق على الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي اسم «العصر الذهبي» لكي يتأكّد من أن هذا الوصف يناسب العصر تماماً (إذ من الواضح أن السبعينيات كانت أكثر بهرجةً وهرجاً وفساداً). كان جيل الطفرة آخر جيل متمرّد بلغ سنّ الرشد، ليس فقط مع وجود العديد من الصروح التقليدية التي لا تزال قائمة، ولكن أيضاً مع الإحساس (خاصة في خمسينيات أيزنهاور)، بأن هذه الصروح قد تعزّزت وتوطّدت فعلاً بعد المرور بتجارب الاكتئاب والحرب العالمية الثانية. وذلك ما أعطى الثقافة المتمردة في الستينيات خصماً حقيقياً بإمكانها أن تقاومه وتناضل ضده، يتمثّل في المعايير البرجوازية القديمة التي تمت إعادة بعثها من خلال التحوّل إلى الضواحي ومظاهر الرخاء، والمسيحية التي مرّت للتو بتجربة إحياء مستدامة، وسرود التاريخ الوطنية التي تم صقلها بالانتصار في الحرب العالمية الثانية، والثقافة المشتركة التي أصبحت أكثر ارتباطاً من خلال تأثير الإذاعة والتلفزيون ودوريات السوق الجماهيرية والأفلام. إن كبار السن في ذلك العالم (الشخصيات الأبوية التي يجب مصارعتها والتغلب عليها)، كانوا أبطال حرب وعمالقة، كانوا هكذا حرفياً في حالة ليندون جونسون* وشارل ديغول[385]، ومثلما كانت الأشكال القديمة لا تزال قوية وحيويّة، فلابد من أجل إسقاطها أو التغلب عليها أو استبدالها، أن تكون الأشكال الجديدة قوية كذلك.

هذا ما حدث لبعض الوقت. لقد كانت النزعة الطوباوية التي وسمت جيل الطفرة، والتي تبدو الآن مستنفذةً ومُحَيَّنةً وانتهى تسويقها، ثورةً حقيقية عندما انبثقت للمرة الأولى، وكان لا بد لها من أن تشعر بأنها ثورةٌ فعلاً، لأنها كانت تهاجم شيئاً لا يزال يشعر بأنه واثق ومتجذّر، وربما ظنّ بأنه باقٍ ولن يتغيّر.

على الأخلاق والسياسة والتقويم الاجتماعي، وهي تناقض الشموانية والجماعية والجماعانية.

(385). شارل ديغول Charles de Gaulle: قاد فرنسا ضد النازية، أسس الجمهورية الخامسة، وأعاد كتابة الدستور، وترأس الحكومة المؤقت بين 1955 و1946. (ت. 1970)

شاهدوا الموسم الأول من مسلسل «رجال مجانين»*، أو أي مصدر أساسي مكافئ له، ثم شاهدوا فيلم «وودستوك»[386] الوثائقي الذي أُنتج عام 1970، ولكم أن تتعجبوا مما ترون من تناقض. اقرؤوا مجموعة أعداد من صحيفة «نيويوركر» في فترة تألق «ويليام شون»[387]، و«إي. بي. وايت»[388]، و«جيمس ثوربر»[389]، ثم قارنوا ذلك بـ«الصحافة الجديدة»[390] بدءاً من هجوم «توم وولف»* الضاري على «ويليام شون»، إلى «غاري ويلز»[391] و«جوان ديديون»* و«هنتر س. تومبسون»[392]، وسوف ترون تضارباً بين قوتين فعّاليتين، وبين نهجين ثقافيين قويين، على أن الأصغر بينهما لا يعمد إلى القضاء على الأكبر من خلال نقاط ضعفه فحسب، بل ويتغذّى على قوة النظام الأقدم. اختاروا رواية أو كتاب مذكرات عاشت شخصياتها في كاثوليكية ما قبل مجمع الفاتيكان الثاني[393] في الأربعينيات، ثم اقرؤوا اللاهوتيين التحرّريين الذين حدَّد عملهم معنى «كاثوليكي» في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وسوف ترون الصدام الذي هزّ ثقة الأجيال بين بعضها بعضاً، وفورة اليقين الليبرالي وتأهّبه للإطاحة بثقافة دينية كانت تبدو خالدةً قبل سنوات قليلة فقط.

---

(386). وودستوك Woodstock: شريط وثائقي (1970) عن الثقافة المضادة التي يمثلها مهرجان وودستوك الذي أقيم عام 1969.

(387). ويليام شون William Shawn: صحفي، قام بتحرير صحيفة نيويوركر بين 1952 و1987. (ت. 1992).

(388). إي. بي. وايت E. B. White: كاتب ومؤلف كتب أطفال. (ت. 1985).

(389). جيمس ثوربر James Thurber: مؤلف مسرحي ورسام كاريكاتير. (ت. 1961).

(390). الصحافة الجديدة New Journalism: العمل الصحفي كما تطوّر في الستينيات والسبعينيات، بأساليبه وتقنياته الأدبية، والخروج عن الأنماط التقليدية القديمة في إصدار الصحف والمجلات ومعالجة الأخبار ونشر التقارير.

(391). غاري ويلز Garry Wills: كاتب ومؤلف مهتم بدراسة التاريخ والسياسة والدين. من مؤلفاته: «ماذا يعني القرآن؟ وأين تكمن أهميته؟».

(392). هنتر س. تومبسون Hunter S. Thompson: صحفي وكاتب أمريكي، مؤسسة حركة غونزو gonzo الصحفية. (ت. 2005). من مؤلفاته: «ملائكة الجحيم».

(393). كاثوليكية ما قبل الفاتيكان الثاني pre-Vatican II Catholicism : هي الكاثوليكية التقليدية بمعتقداتها وممارساتها الليتورجية القديمة وتعاليمها الكنسية التي سبقت المجمع الفاتيكاني الثاني بين 1962 و1965.

في كل حالة من الحالات التي ذكرناها، يبدو أن المهم هو التوتّر، والطريقة التي اعتمدتها أفكار جيل الشباب واتجاهاته المتعدِّدة، من طوباوية، وتحرّرية، ونزعة تصوّفية، ونزعة شكوكيّة، والتي ثار بها على تقاليد الجيل الأقدم وآرائه، وعلى التعليم الذي تلقاه في الثقافة القديمة، مع رفضه لإعادة صياغة الالتزامات الجوهرية التي انبنت عليها تلك الثقافة القديمة. هكذا يستمد توم وولف الحيوية من وليام شون حتى وهو يطعنه ويقضي عليه. وتعيش كل من «العصابة البريّة»[394] و«ماكيب والسيد ميلر»[395] في توتّر مثمر مع «جون فورد»[396]. ويقوم كارل رانر[397] بتضمين اللاهوت الثوري في الأطر القديمة للتوماويين الجدد[398]. في 1964 أخبر بوب ديلان» جمهوره عن «زمن التغيير»[399]، ولكن جائزة نوبل التي تحصل عليها بعد سنوات طويلة تعتمد أساساً على جميع أسلافه من الأدباء. في كل حالة إذن، من السهل أن نثق في أنه لا تزال هناك ثقافة مشتركة تدعم كل شيء معنوياً، وأن النقد أو المراجعة سيتم فهمها لا وفقاً لشروطها الخاصة فقط، ولكن أيضاً بالنسبة إلى ما يتعلق بما حدث قبل ذلك، وأن الناس سوف يقدّرون الشيء الجديد لأنهم يدركون تماماً ما هي الأشياء التي وُوجهت بالتحدّي أو تمت إعادة تشكيلها.

---

(394). العصابة البريّة The Wild Bunch: فيلم أمريكي عن عصابة من الخارجين عن القانون عاشت عام 1913 وتحاول أن تتكيّف مع المحيط الجديد. عُرض الفيلم عام 1969 وهو من إخراج سام بيكينبا Sam Peckinpah.

(395). ماكيب والسيد ميلر McCabe and Mrs. Miller: فيلم عن الغرب الأمريكي تم إنتاجه عام 1971، من إخراج روبرت التمان.

(396). جون فورد John Ford: مخرج إيرلندي-أمريكي، عرف بأفلامه عن الغرب الأمريكي. (ت.1973).

(397). كارل رانر Karl Rahner: لاهوتي كاثوليكي ألماني، شارك في تأسيس مدرسة اللاهوت الجديد. (ت. 1984).

(398). التوماويون الجدد neo-Thomists: الذين ينتمون إلى التوماوية الجديدة، وهي مدرسة لاهوتية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لإحياء لاهوت القرون الوسطى والفلسفة الكاثوليكية الرومانية (نسبةً إلى توما الأكويني).

(399). يقصد أغنية Times They Are A-Changin التي كتبها وغناها ديلان ثم أصبحت رمزاً يعبّر شبابياً يعبّر عن الإحباط والقلق، وقد صدرت عام 1964.

يكتب روبرت نيسبت في نفس المقال المشار إليه أن هذا النوع من التناقض لا يدوم إلى الأبد، وعندما ينهار النظام القديم بسرعة كبيرة جداً وبطريقة دراميّة، فإن العصور الذهبية تفسح المجال أمام العصور الحديديّة بسهولة. وإذا لم يكن هناك مجتمع متماسك، فلا شيء لمواجهته وتحدّيه، لا شيء يؤجج الديناميكيّة المطلوبة لخلق عصر ذهبي جديد، وإذا لم يكن هناك شيء سوى الانتهاك والتعدّي، فلا شيء يعطي هذه الأفعال «غايةً وجوهراً ومعنى» أكثر من كونها مجرّد انغماس ذاتي.

إن كلتا المشكلتين تطارد عصرنا حيث لا يزال الجميع يتخيّل نفسه متمرداً، وحيث يبدو «العمالقة» كأنهم ثوريين ذوي ثقافة مضادة، لكن الأشكال والبنى التقليدية التي أعطت التمرد هدفاً ووضوحاً لا تزال قائمة فقط بوصفها حواجز عاطلة لا يدافع عنها أحدٌ صراحةً، أو بوصفها ظلالَ نفسها في مناطق نائية لا صلة لها بالعصر، وأن ما تبقى لها من قوة إنما هي طاقة سلبية محضة موجودة في الغالب لدفع نخبة المثقفين إلى الاقتناع بأنهم لم يفوزوا بعد، وأنهم ما زالوا المتمردين أنفسهم كما كانوا عام 1968.

إن النخبة الثقافية ليست كذلك، لكنها لم تبنِ ثقافةً جديدة قوية بما يكفي لتوليد تناقضاتها الخاصة، وهذا جزء من سبب وجود الكثير من التكرار والمعاودة وإعادة التدوير. إنها الرغبة في إعادة إحياء العصر البطولي للثقافة المضادة في عالم فازت فيه هذه الثقافة في الغالب الأعم، وهي محاولة لتشكيل «مزيج فني» pastiche من ثقافة جديدة لا تزال جدّ ضحلة وسطحيّة وضعيفة الجذور تماماً، لإقراض المنهمكين في صنع تلك التشكيلة ما يحتاجون إليه.

فكروا في ذلك، مرةً أخرى، على أنه مشكلة عُولجت في «حرب النجوم»*. كان الفيلم الأصلي مزيجاً فنياً جماهيرياً لامعاً أنجزه مخرج من «جيل الطفرة»، ويمكن نسبته فنياً إلى السينما الكلاسيكية بمئات الطرق المختلفة. كانت عبقريته تعتمد

بشكل كبير على الماضي السينمائي، على أكيرا كوروساوا[400] وليني ريفنستال[401]، مثلما على مسلسلات «فلاش غوردون»[402]، ونظرية «جوزيف كامبل»[403] الأسطورية، وقد مهّد ذلك «المزيج الفني» لخلق نموذج جديد في صناعة الأفلام، والمؤثرات الخاصة الرائجة التي استخدمها **جورج لوكاس**[404] لاحقاً بشكل يثير الإعجاب على نحو ما، كما مهّدت له لبلوغ الكمال في ثلاثية الأفلام التمهيدية[405] من «حرب النجوم» عشرين عاماً بعد ذلك، ولولا المراجع الكلاسيكية لما كان لإبداعه أن يكتمل على هذا النحو. لقد صنع أفلاماً تبدو كأنها محاولة لتجسيد ثقافة غريبة تماماً لإعادة خلق دراما إنسانية مؤسَّسة على قصص محورها سكان الأرض حيث يتم إرسالها ذهاباً وإياباً من خلال مترجم ولستة عشر مرة، وهو ما أدى بدوره إلى تخلّي صانعي الجولة التالية من أفلام «حرب النجوم» (الجولة التي تتواصل وتستمر...)، عن الأصالة بشكل تام، وعدم قيامهم بصنع مثل ذلك «المزيج الفني» من الأفلام الكلاسيكية، ولكنهم صنعوا «مزيجاً» من «المزيج الأصلي» الذي صنعه لوكاس!

تكشف هذه الأمثلة عن أن التميز بين الانحطاط والحيوية الثقافية، وبين عصرنا وسنوات شباب جيل «طفرة المواليد»، يكمن في «**التقدّم المُحبِط**». فالثقافة

---

(400). أكيرا كوروساوا Akira Kurosawa: مخرج وكاتب سيناريو ومنتج سينمائي ياباني. أخرج 30 فيلماً. ويعتبر من أهم صنّاع السينما في العالم. (ت. 1998).

(401). ليني ريفنستال Leni Riefenstahl: مخرجة ومصورة وممثلة ألمانية. اشتهرت بدورها الأساسي في إنتاج الدعاية النازية. (ت. 2003).

(402). فلاش غوردون Flash Gordon: مسلسل خيال علمي بدأ إنتاجه عام 1936 ثم 1949. وقد اختير عام 1996 للحفظ في السجل الوطني للأفلام في مكتبة الكونغرس «لأهميته الثقافية والتاريخية والجمالية».

(403). جوزيف كامبل Joseph Campbell: أستاذ الأدب الأمريكي. كتب عن الميثولوجيا والأديان المقارنة. أشهر أعماله «بطل بألف وجه» الذي صدر عام 1949. وفيه يناقش اشتراك اساطير العالم في بنية رحلات الأبطال. (ت. 1987).

(404). جورج لوكاس George Lucas: مخرج ومنتج وكاتب سيناريو. وهو أحد أكثر صانعي الأفلام نجاحاً. عرف بأفلامه «حرب النجوم»، و«انديانا جونز».

(405). هي الأفلام الثلاثة الأولى من «حرب النجوم» Star Wars prequel trilogy. التي كتبها وأخرجها جورج لوكاس. ويطلق عليها شعبياً اسم Prequels.

الحيويّة تنتقد تقاليدها الخاصة، والثقافة المنحطّة تكرّر النقد بصوت أعلى أو أكثر فظاظة أو يؤدي إلى الضجر. الثقافة الحيوية تصنع مزيجاً متناغماً bricolage من القصص الكلاسيكية، أما الثقافة المنحطة فتعيد تشكيل المزيج الذي وجدته بإجراء بعض التغيير على الطاقم وحشر حبكات بسيطة كيفما اتفق. الثقافة الحيوية تخلق معجبين جدداً، أما الثقافة المنحطة فتحاول إرضاء معجبيها السابقين. الثقافة الحيوية ورشة عمل، أما الثقافة المنحطة فهي متحف.

هل يمكن أن تنتهي «نهاية التاريخ»؟

أحد الأنبياء المهمين في ثقافة المتحف هذه كان فرانسيس فوكوياما* الذي ينطبق شيء ممّا وصفتُ من رتابة وتكرار مستمر على عمله الأشهر المنتمي إلى ثقافة نهاية الحرب الباردة: «**نهاية التاريخ والإنسان الأخير**». إن طبيعة «النهاية» التي ذكرها فوكوياما، خلافاً للعديد من أوجه الرفض المتطلّعة اللاحقة التي تعرّضت لها أطروحته، لم تكن تعني نهاية الأحداث، أي نهاية الحروب أو الكوارث أو النكسات الاقتصادية، بل هي النهاية التي تتوقف عندها جدليّة أفكار محدَّدة، أي «التراث الأيديولوجي المشترك للبشرية» الذي قاد من الماضي الإقطاعي والمتدرّج تراتبياً إلى الحاضر المتكافئ أو المتعادل، والذي اقترح فوكوياما أنه قد انتهى بهزيمة منتصف القرن العشرين التي لحقت بالفاشية، ثم الانهيار النهائي للبديل الشيوعي، مع انتصار الديمقراطية الليبرالية التي لم تترك أي احتمالات أيديولوجية جادّةٍ قائمةً غيرها.

لا يزال من الممكن وجود أنظمة استبدادية وأتوقراطيات، ومن المحتمل أن يكون هناك ثوّار في عالم فوكوياما، ولا يزال من الممكن وجود رجعيين وراديكاليين يرفضون التسوية الديمقراطية الليبرالية، ولا يزال من الممكن وجود حدود لحكم الليبيرالية العالمي، لكن هذه البدائل تبدو في عالم الأفكار مجرد أشكال ارتداديّة قادرة على إثارة المتاعب أمام الإجماع الليبرالي، وقادرة على

الإضرار بالحضارة الليبرالية، ولكنها غير قادرة على إطلاق الخيال البشري بطريقة تجعل من الممكن الإطاحة بالنظام الليبرالي ووضع بديل آخر عنه يكافئه سعةً ورحابة.

غالبًا ما كان فوكوياما متّهماً بأنه نصير ليبرالي متحمّس، لكن خاتمة مقاله الأصلي كانت، على نحو ما، حزينة وحداديّةً بشأن السيناريو الذي وصفه، حيث كتب: «نهاية التاريخ ستكون فترة حزينةً للغاية، فالنضال من أجل الاعتراف، والاستعداد للمخاطرة بحياة الآخر في سبيل هدف تجريدي، والصراع الأيديولوجي العالمي الذي يدعو إلى الجرأة والشجاعة والخيال والمثاليّة، سوف يتم استبداله بالحسابات الاقتصادية، والحل اللانهائي للمشاكل التقنية، والهواجس البيئية، وإرضاء مطالب المستهلكين المتبدّلة. ولن يوجد في فترة ما-بعد-التاريخ فنٌّ ولا فلسفة، بل مجرّد رعاية دائمة لمتحف تاريخ البشرية. ويقول بعد ذلك: «ربما ساعد هذا الاحتمال بعد قرون من الضجر في نهاية التاريخ على بدء التاريخ مرة أخرى».

لم يتخيّل فوكوياما، إذن، أن «النهاية» التي تصوّرها سوف تكون أبدية، وكوصف انتقالي لعالم ما بعد 1989، فإن المشهد الذي أسميه منحطاً يتوافق عقلانياً مع التسمية التي اعتمدَها أي «نهاية التاريخ». من المؤكد أن الكثير من التكرار الفكري والإحباط الموصوفيْن في هذا الفصل يُشعر بالإحباط بسبب عدم القدرة على تخيّل شيء جديد، أو على تمييز «خطوط واضحة يمكن التقدم من خلالها»، بتعبير جاك برزون*، وبسبب عدم القدرة على الهروب من القيود السياسية والأخلاقية وحتى اللاهوتية التي فرضتها الليبرالية الحديثة مؤخراً، أو استعادة بعض النعيم المفقود، أو الوصول بجرأة إلى الجنة أو يوتوبيا المدينة الفاضلة.

لقد لاحق هذا الإحباط في «نهاية التاريخ» الراديكاليين والرجعيين على حد

سواء، من الحركات المناهضة للعولمة في التسعينيات، إلى حركة «احتلوا وول ستريت»[406] و«أنتيفا»[407]، ومن القاعدة إلى داعش. يمكن للاحتجاجات أن تغلق المدن، ويمكن للإرهابيين أن يفجّروا المباني، لكن لا يوجد برنامج يمكّن الإسلاميين أو الفوضويين أو الماركسيين فعلياً من تهديد هيمنة الليبرالية الحديثة. إن أفضل فيلم حتى الآن عن السياسة الراديكالية في ظل الانحطاط هو «نادي القتال»[408] الذي عُرض عام 1999، وقد أضفى بشكل مميز طابعاً درامياً على استياء الذكور من نهاية التاريخ، في ظلّ ما يحيط بهم من أشكال الثقافة المتواضعة، والراحة الجسدية، وكابوس علامة إيكيا[409] التجارية، وهو ما ينتهي به إلى إرسال أبطاله المندفعين في أدوار فوضوية وفاشية نحو الذروة التي يفجرون فيها ناطحات السحاب ولا يحققون، تقريباً، أي شيء على الإطلاق.

بعد عامين من ذلك، وقد حدث هذا في الواقع وليس في السينما، قتلتْ أحداث 11 سبتمبر الآلاف، ودفعتْ أمريكا إلى العديد من الكوارث في سياستها الخارجية، لكن تنظيم القاعدة لم يربح شيئاً من ذلك، والتاريخ لم يُستأنَف من جديد بالمعنى الفوكويامي عام 2001 فعلياً، وبدا أن جميع المثقفين المحافظين الجُدد والليبراليين الصقور الذين أرادوا ذلك لكي يستأنفوا مهمتهم (أي بعض المثقفين، مثل نورمان بودوريتز[410] وبول بيرمان[411]، الذين أرادوا بوضوح أن

---

(406). احتلوا وول ستريت Occupy Wall Street: حركة احتجاجية ضد عدم المساواة الاقتصادية بدأت في مدينة نيويورك (سبتمبر 2011). وانتشرت حركات وتظاهرات أخرى شبيهة بها في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة.

(407). أنتيفا Antifa: حركة يسارية من الشيوعيين والاشتراكيين والفوضويين يعارضون الفاشية والنازية والرأسمالية والنيوليبرالية واليمين المتطرف. نشطوا كثيراً بعد فوز دونالد ترمب وقاموا بالعديد من التظاهرات والاحتجاجات.

(408). نادي القتال Fight Club: فيلم أمريكي (1999) من إخراجديفيد فينشر. مقتبس عن رواية صدرت عام 1996 بنفس العنوان من تأليف تشاك بالانيوك.

(409). إيكيا Ikea: يتبدّل ولاء الراوي (تايلر دوردن ذو الشخصية الانفصامية) في «نادي القتال» بين ذاته وبين العلامة التجارية التي تحملها أدوات شركة إيكيا المحيطة به.

(410). نورمان بودوريتز Norman Podhoretz: كاتب وناقد أمريكي من المحافظين الجدد. من مؤلفاته: «الحرب العالمية الرابعة: الكفاح الطويل ضد الفاشية الإسلاموية»، و«لماذا نعتبر اليهود

يجدوا في الإسلاموية منافساً أكبر من شأنه أن يمنح الإجماع الغربي معركةً حقيقية، والذين سيعيدون توضيعَ هدفٍ ما وبثَّ حيويةٍ جديدة في حالة الانحطاط)، انتهى بهم الأمر إلى إرسال الآلاف من الشباب الأمريكيين للموت من أجل «صراع الحضارات»، الصراع الذي لم يكن على طرفه الآخر سوى عدد من المستبدّين الصغار والمقاتلين الطائفيين والإرهابيين الذين يسكنون الكهوف.

لقد كان مثل هذا الشعور بعدم الجدوى حاضراً في الاستجابات الأيديولوجية للركود الكبير، حيث كانت تلك الصدمة التي تعرّض لها النظام من النوع الذي توقعه الماركسيون منذ فترة طويلة، وكانت هناك أزمة تعتبر في الوقت نفسه فرصة جديدة لولادة شيء جديد. مع ذلك، ولبعض الوقت، فإن النتيجة الرئيسية كانت توحيد النخبة، وتفوّق المصرفيين الألمان على أوروبا، وسعي باراك أوباما وميت رومني[(412)] إلى الرئاسة بأكثر الحملات الانتخابية فراغاً. كتب مارك ليلا[(413)] في «الجمهوري الجديد»[(414)] عام 2014: «لم يحدث مطلقاً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وربما منذ الثورة الروسية، أن كان التفكير السياسي في الغرب ضحلاً وغافلاً»، ولم يكن يقصد بهذا أنه لم تنشأ أي رؤية جديدة للعالم من رماد الشيوعية تتحدي الإجماع الديمقراطي الرأسمالي الليبرالي فحسب، بل كان يعني أيضاً أن الناس لم يفهموا بشكل متنامٍ السبب الكامن وراء بحث شخص ما عن بدائل لذلك الإجماع في المقام الأول، يقول: «حاولوا أن تنقلوا دراما الحياة السياسية

ليبراليين؟».

(411). بول بيرمان Paul Berman: كاتب أمريكي يهتم بالسياسة والأدب. من مؤلفاته: «الإرهاب والليبرالية»، و«حكاية يوتوبيا». وقد خصص جزءاً ملحوظاً من كتاباته للحديث عن الإسلام. وهو يميز بشكل واضح بين الدين الإسلامي والحركات الراديكالية التي ترفع شعار الإسلام.

(412). ميت رومني Mitt Romney: عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، عن ولاية يوتا، منذ عام 2019.

(413). مارك ليلا Mark Lilla: كاتبٌ ومؤرخ أفكار، وأستاذ في العلوم الإنسانية بجامعة كولومبيا. من مؤلفاته: «ضد الحداثة»، و«الفكر الفرنسي الجديد»، و«العقل الغارق: عن ردّ الفعل السياسي»، و«العقل المتهور: المثقفون والسياسة».

(414). الجمهوري الجديد The New Republic: مجلة أمريكية سياسية ثقافية فنية معاصرة، تأسست عام 1914.

والفكرية الكبرى من عام 1789 حتى عام 1989 إلى الطلاب الشباب اليوم، سواء كانوا طلاباً أمريكيين أو أوروبيين أو حتى صينيين، وسوف تشعرون بأنكم تُرِكتم مثل شعراء عميان يتغنون بأطلانطس المفقودة».

كان ذلك قبل خمس سنوات، وسؤال اللحظة الراهنة هو ما إذا كان تحليل «مارك ليلا» لا يزال قائماً أم لا؟ لقد كتب هذه الكلمات قبل صعود ترمب، وقبل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وقبل جيريمي كوربين[415] وماتيو سالفيني، وقبل انزلاق الصين نحو النزعة الشمولية الرقمية تحت رئاسة شي جينبينغ[416] مدى الحياة، وقبل أن يصبح من الشائع القول بأن النظام الليبرالي قد دخل في أزمة. إن الإجماع في الوقت الذي أكتب فيه الآن ربما يكون مختلفاً حقاً هذه المرة، على العكس من 2001 أو 2008، وقد تكون «نهاية التاريخ» قد انتهت فعلاً، وأن البدائل الأيديولوجية تعود أخيراً، وأن العقم والتكرار يفسح المجال لشيء أكثر خطورة وإثارة للاهتمام، بينما ستكون نهاية الانحطاط حتميةً. فحتى فوكوياما نفسه قد انضم إلى الجوقة، وهو يجادل في كتابه الأخير: «الهوية: مطلب الكرامة وسياسة الاستياء»[417]، بأن سياسات الهوية والرغبة في الاعتراف من قبل الجماعات والقبائل والدول القومية، قد تنتهي أخيراً بتدمير النظام الليبرالي ديمقراطي من داخله.

سيركز القسمان التاليان من هذا الكتاب في ما إذا كان هذا الإحساس بالنهاية وببداية تاريخية جديدة له ما يبرره! قد يكون الأمر كذلك بكل تأكيد، ولأن كل الأشياء تنتهي، فإن الانحطاط يجب أن ينتهي أيضاً، بل قد ينتهي ما نعيشه من انحطاط أثناء قراءتكم هذا الكتاب الذي يصفه، أما بالنسبة إلى الاحتمال الآخر –

(415). جيريمي كوربين Jeremy Corbyn: زعيم حزب العمال البريطاني بين 2015 و2020.

(416). شي جينبينغ Xi Jinping: الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني، ورئيس اللجنة العسكرية المركزية منذ عام 2012، ورئيس جمهورية الصين الشعبية منذ عام 2013.

(417). صدر كتاب «الهوية: مطلب الكرامة وسياسة الاستياء» Identity: The Demand for Dignity and the Politics of Resentment عام 2018.

أي مرونة الانحطاط الممكنة، وديمومته المحتملة على مدى عقود قادمة- فهو ما سينصرف له انتباهنا في ما يلي.

الجزء الثاني

الانحطاط المستدام

5

خَدَرٌ مريح[418]

في عام 1989، أجرى القاتل المتسلسل والمغتصب ومُجامِع الجثث، تيد بندي[419]، وكان يواجه عقوبة الإعدام بالكرسي الكهربائي، مقابلةً مع الناشط المسيحي جيمس دوبسون[420]، وأراد بَندي أن يشرح السبب الحقيقي وراء تحوّله إلى قاتل متسلسل، فأخبر دوبسون بإنه تأثير مشاهدة الأعمال الإباحية. وقال:

«كنتُ في الأساس شخصاً عادياً، وكان لدي أصدقاء رائعون، وقد عشت حياة طبيعية باستثناء جزء واحد صغير منها، ولكنه كان قوياً ومدمّراً جداً، وقد احتفظت به سراً متغلغلاً في نفسي دون أن أخبر به أحداً»، ثم قال أن الأعمال الإباحية كانت «حلقة ضرورية لا غنى عنها في سلسلة السلوك»، وأنها قادته إلى الاغتصاب والقتل الجماعي، فهي «مثل الإدمان الذي يجعلك تتوق إلى تعاطي شيء أقوى... حتى تصل أخيراً إلى النقطة لا تستطيع أن تمضي إلى أبعد منها».

كان بَندي معتلّا اجتماعياً يبتهج بالمناورة والتلاعب بالكلمات لتبرئة نفسه، وربما كان دوبسون لعبته الأخيرة لا غير، ولكن إذا كان القاتل المتسلسل يكذب

---

(418). قام المترجمان بنقل الصفة الواردة في العنوان (خدرٌ بارنياح) إلى الدلالة المصدرية لشمولها وتعبيرها عما ذكره المؤلف في هذا الفصل.

(419). تيد بندي Ted Bundy: قاتل متسلسل اختطف واغتصب عدة فتيات في السبعينيات. وقد اعترف بارتكاب 30 جريمة قتل في سبع ولايات أمريكية.

(420). جيمس دوبسون James Dobson: عالم نفس ومؤلف إنجيلي مسيحي أمريكي. من مؤلفاته: «الحياة على الحافة»، و«عندما لا يعني الله الكثير».

أو يبالغ على الأقل، فقد اختار كذبة كانت قد لعبت دوراً في المخاوف التي انتشرت في حقبة الثمانينيات. فالثورات الاجتماعية في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي جعلت الإباحية متاحةً على نطاق أوسع، وصريحةً أكثر، وغالباً ما أصبحت منحطّةً ومهينة أكثر مما كانت، وقد رافقت تلك الثورات موجةٌ من الإجرام ارتفعت فيها معدلات الاغتصاب والاعتداء الجنسي. لم يكن المسيحيون مثل دوبسون والمحافظين الاجتماعيين الآخرين، هم الذين ركزوا وحدهم على وجود صلة بين فيلم «ديب ثروت»[421] الإباحي الذي أُنتج عام 1972 وبين العنف الجنسي، أو بين لاري فلينت[422]، ناشر مجلة «هسْلر»، وبين الضراوة الذكوريّة. خاصة عندما نجد أن كاثرين ماكينون[423] وأندريا دوركين[424]، وهما أكثر الشخصيات استفزازاً في الحركة النسويّة إبان الثمانينيات، قد أخذتا هذا الرابط على أنه أمر مسلّم به، وقدمتا ما كان تيد بندي قد أوضحه أو تبنّاه من حجج تقول بأن المواد الإباحية تثير وتؤكد تخيّلات الاغتصاب وتُضعف حساسية الذكور من العنف، فتجبرهم على البحث أولاً عن سيناريوهات ومواد أكثر تطرفاً، وتدفعهم أخيراً إلى محاولة خلق مثل هذه السيناريوهات في الحياة الواقعية، من خلال إيلام أجساد النساء بتقليد المشاهد التي أثارتهم واستوهتهم رؤيتها في مجلة أو على شاشة.

منذ الوقت الذي التقى فيه تيد بَندي بخالقه، أجرينا تجربة اجتماعية موسّعة

---

(421). ديب ثروت Deep Throat: فيلم إباحي أخرجه ج. داميانو، ويعتبر أشهر ما تم عرضه في ما يسميه الإعلام الأمريكي «عصر الإباحية الذهبي» (1969- 1984).

(422). لاري فلينت Larry Flynt: ناشر أمريكي، ورئيس مؤسسة فلينت للنشر. يصدر عدداً من المجلات والتسجيلات الإباحية، تعرض لمحاولة اغتيال أصيب على إثرها بالشلل.

(423). كاثرين ماكينون Catherine MacKinnon: باحثة وناشطة ومؤلفة نسوية أمريكية راديكالية. من مؤلفاتها: «الخلاف حول المساواة بين الجنسين»، و«سياسة الفراشة». و«النوع الاجتماعي في القانون الدستوري».

(424). أندريا دوركين Andrea Dworkin: ناشطة وكاتبة نسوية أمريكية راديكالية. من مؤلفاتها: «كراهية المرأة»، و«دمنا: نبوءات وخطابات عن السياسة الجنسية»، و«كبش الفداء: اليهود وغسرائيل وتحرير المرأة».

تضع هذه الأطروحة موضع الاختبار. لقد تلا عصر مجلة «هسلر» عصر «بورنهاب»[425]، وهي الشبكة التي جعلت المواد الإباحية متاحةً أكثر مما كانت عليه حتى في ذروة نجاح لاري فلنت، فهي متاحة على الفور ودائماً، بجميع الأشكال وأكثرها تطرّفاً وتنوّعاً، ولجميع الأعمار بمن في ذلك الأكثر قابليةً للتأثر.

وتستخدم المواد الإباحية الآن لغرض تربية المراهقين الأمريكيين جنسياً، حيث توجّه برامج معينة للشباب المحرومين لإعادة تثقيف المراهقين في ما يتعلق بتصوراتهم عن الإباحية وما يتوقعه منهم الجنس الآخر، ويتم استخدام قاعدة البيانات الضخمة بشكل متزايد لدفع مستخدمي المواد الإباحية إلى أبعد الحدود الممكنة التي يخشاها مناهضو الإباحية في الثمانينيات، ما يجعلهم عديمي الحساسية إزاء الترويض والتوافق اللاإرادي، ويشجعهم على التوجّه نحو السادية والماسوشية والتوحيد بينهما، وينشر بينهم سلوكاً غريباً لم يكن الناس ليعرفوا بوجوده بينهم لولا الإنترنت.

إذا كان التحالف الاضطراري الذي نشأ في عهد ريغان بين دوبسون ودوركين، وبين الأخلاقيين المسيحيين والمتشدّدين النسويّين، محقاً في العلاقة السّببية التي أقاموها بين المواد الإباحية والاغتصاب، لكنتم قد رأيتم عصر الإنترنت يفاقم أزمة العنف الجنسي إلى ما هو أسوأ، ويظهر العديد من أمثال «تيد بندي»، وتنتشر مسارح الرّعب اللاأخلاقية[426]، طالما أنه يتم تحت وصاية الإنترنت تدريب المغتصبين الذكور وتربيتهم منذ مراهقتم المبكرة، ثم يُرسَلون في مرحلة البلوغ للبحث عن أكثر أنواع المتعة والإثارة عنفاً وتطرفاً.

---

(425). بورنهاب Pornhub: أضخم شبكة مواقع إباحية على الإنترنت. تم إطلاقها عام 2007.

(426). يشبهها المؤلف في الأصل بـ Grand-Guignol وهو مسرح فرنسي افتتح عام 1897 وأغلق عام 1962، وكان متخصصاً في تقديم عروض رعب طبيعية. ويستخدم هذا الاسم إعلامياً للإشارة إلى عروض الرعب غير الأخلاقية التي تسيء إلى قيم المجتمع العامة.

لكن هذا لم يحدث فعلاً، فعلى الرغم من هيمنة الإباحية الرقمية، وعلى الرغم من دور الإنترنت الواضح الذي يعمل كموجّه للاستدراج والافتراس، فإن البيانات التي لدينا حول الاعتداء الجنسي تشير إلى أن معدلات الاعتداء الجنسي انخفضت مع ظهور الإنترنت وانتشارها، وعندما انتقلت المواد الإباحية من المجلات وأشرطة الفيديو وأصبحت سلعة مجانيّة متاحة دائماً، بادر المزيد والمزيد من الشباب الأمريكيين إلى التدرّب على الجنس وممارسته عبر الإنترنت.

لكلّ مصدر بيانات مشاكله، وإحصائيات الجرائم التي تظهر انخفاض معدلات الاغتصاب تفتقد إلى العلم بالكثير من الاعتداءات التي لم يتم التبليغ عنها. قد يكون هناك أيضاً تركيز على الضحية، حيث يسهل على المتاجرين بالجنس عبر الإنترنت تحديد واستغلال النساء الأكثر ضعفاً واللواتي يعرضن أنفسهن، بدلاً من مطاردة عدد أكبر. ولكن حتى مع السماح بزيادة الاتجار بالجنس عبر الإنترنت، بالإضافة إلى حوادث الاغتصاب غير المبلّغ عنها، لا يوجد سبب وجيه لافتراض أن الإبلاغ عن الاغتصاب أصبح أسوأ بشكل كبير على مدى الخمسة وعشرين عاماً الماضية، وهو ما قد تحتاجون إلى تصديقه للاعتقاد بأن الإنترنت جعلت مشكلة العنف الجنسي الذكوري أسوأ من أي وقت مضى.

يعني هذا أنه إذا استطاعت الإباحية المتغلغلة في كل مكان تحويل الرجال إلى مفترسين، فإن بعض القوة التعويضية الأخرى، مثل نفوذ الأفكار النسوية، وتطوير عمل الشرطة، وفرض عقوبات أشد، وانحدار مستوى الجريمة العام، سوف تعمل على مقاومة هذا التأثير. ولكن من الممكن أيضاً أن يسير التأثير فعلياً في الاتجاه المعاكس، إذ تعدّ العوالم الخيالية التي تقدّمها المواد الإباحية بالنسبة إلى العديد من الرجال بديلاً عن كل نوع من السلوك الجنسي في العالم الواقعي دون أن تكون دافعاً للاعتداء الجنسي. وبالفعل، هناك بعض الأدلة على هذا الخلاف

تحديداً. عندما قام الخبير الاقتصادي تود كيندال[427] بفحص معدلات الاعتداء الجنسي في الولايات الأمريكية حيث تنتشر الإنترنت بشكل أسرع، أو أبطأ أحياناً، وجد ارتباطاً واضحاً بين الوصول إلى الإنترنت وانخفاض معدلات الاغتصاب. كما قدّمت التغييرات في قوانين مناهضة الإباحية في الدول الأوروبية تجارب طبيعية ونتائج مماثلة مفادها أن توفّر الإباحية المفاجئ يتزامن مع وجود عدد أقل من الاعتداءات الجنسية. وقد قام فريق من باحثي جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) UCLA في الولايات المتحدة، باستطلاع رأي شمل عدداً كبيراً من مجرمي الجنس، ووجدوا أنهم كانوا يستخدمون المواد الإباحية بشكل أقل ممّا يفعل الذكور العاديون، كما أظهر تأثير «زوال الحساسية»[428] الذي توقّعته كاثرين ماكينون* وآخرون في هذا البحث أن مشاهدة المواد الإباحية بشكل مستمر تجعل الإثارة الجنسية الطبيعية كما يبدو أكثر صعوبة لدى العديد من المستخدمين، وتجعل الجنس الطبيعي بالتالي أقل جاذبية لهم، وكان التأثير الناجم عن انطفاء الرغبات هذا هو إرسال الكثير من المستخدمين إلى عالم الخيال والممارسة الافتراضية أعمق فأعمق، بدلاً من خروجهم إلى العالم الحقيقي بحثاً عن «ضحايا».

أمان العالم الافتراضي

لا توجد تجربة في العلوم الاجتماعية يمكنها أن تثبت بشكل قاطع النظرية التي تقول: «**إباحية أكثر، اغتصاب أقل**»، لكن العلاقة بينهما تقدم مثالاً محتملاً لنمط محدّد في الحياة المعاصرة، بحيث يتزامن انتشار وسائل الترفيه الافتراضية مع

(427). تود كيندال Todd Kendall: باحث ومحلّل اقتصادي، أستاذ الاقتصاد بجامعة كليمسون، ثم نائب الرئيس التنفيذي لشركة كومباس ليكسيكون.

(428). زوال (أو فقدان) الحساسية Desensitization في الأساس هي عملية نفسية تهدف إلى تقليل الاستجابة العاطفية لمحفز سلبي بعد التعرض له بشكل متكرر. وهي إحدى طرق العلاج في علم النفس للتخلص من الرهاب والقلق. ولكن المقصود هنا هو زوال الحساسية بمعنى الإحالة التي تنقل الشخص من العالم الواقعي إلى المتخيّل سلباً و/أو إيجاباً.

سلوك اجتماعي أكثر أماناً بين الأجيال التي تستمتع بالملذات الترفيهية، بما في ذلك الملذات التي يبدو من الواضح أنها مؤذية ومعادية للمجتمع إذا نُقلت خارجَ حدود الشاشة الوديّة. إن التحالف نفسه بين المراقبين المحتملين الذين احتشدو ضد الإباحية في الثمانينيات، جعلهم يحتشدون أيضاً ضد ألعاب الفيديو العنيفة، تلك التي تطورت بسرعة من ألعاب أركيد[429] الخاصة بالرماية وقنص الفضائيين إلى برامج المحاكاة التي يمكن -باستخدام وحدة تحكم إلكترونية- أن يصبح بها أي شاب قاتلاً أو جندياً أو رجلَ عصابة (افتراضياً) لمدة ساعة أو يوم. لكن عصر «غراند ثيفت أوتو»[430] لم يكن عصراً يتصاعد فيه العنف أو يزيد عدد «المفترسين»، أو أي شيء آخر من مظاهر موجة الجريمة التي بدأت في الستينيات، إذ بدلاً من ذلك، وعندما يتم التناغم مع مثل هذه الألعاب، فإن عنف المراهقين والشباب يخمد ويتلاشى.

وكما ذهب العنف، ذهبت كذلك المؤشرات الاجتماعية الأخرى بين الشباب. فقد انخفض مع انتشار الإنترنت معدل ممارسة الجنس بين المراهقين، وانخفض بالتالي معدّل حمل المراهقات، وقلّ التدخين وشرب الكحول، والقيادة في حالة سكر. كان 42 في المائة من المراهقين الأمريكيين عام 1992، ينخرطون في العراك والقتال بين بعضهم بعضاً، وبحلول عام 2015، تراجع هذا الرقم إلى 22 بالمائة. وفي عصر المسلسل التلفزيوني «بيفرلي هيلز 90210»[431] الموجّه للمراهقين، والذي تم عرضه للمرة الأولى عام 1990، فقد 10 في المائة من المراهقين عذريتهم قبل سن الثالثة عشرة، أما في عصر «سناب شات»[432] فإن 4 بالمائة

(429). ألعاب أركيد Arcade: سلسلة ألعاب كانت منتشرة في الثمانينيات، تعمل بإلقامها عملة معدنية.

(430)Grand Theft Auto لعبة مغامرات وعنف أنتجتها شركة «روكستار نورث». تتيح للاعب استخدام أجواء محاكاة بالغة الدقة.

(431). مسلسل بيفرلي هيلز Beverly Hills 90210: دراما تلفزيونية أمريكية من 10 مواسم موجّهة للمراهقين، من إنتاج أرون سبيلينج، بدأ عرضها عام 1990، وانتهى إنتاجها عام 2000.

(432). سناب شات Snapchat: تطبيق مراسلة أمريكي متعدد الوسائط.

منهم فقط استمتعوا بهذا «التميز» المشكوك فيه! وأخيراً.. يخبرنا مقال نشرته «صحافة البيانات»[433] عام 2016 تحت عنوان: «مراهقو اليوم أفضل منك، ونستطيع إثبات ذلك»، وقد أثبتت البيانات بالفعل أن حياة المراهقين في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كانت أكثر أماناً من الناحية الجسدية ممّا كانت عليه في أي وقت في التاريخ الأمريكي الحديث.

ربما تكون حياة المراهقين أكثر أماناً اليوم بسبب الأبوة المفرطة، أو بسبب تطوّر عمل الشرطة، أو دروس مكافحة الكحول الناجحة التي تقدّم في المدارس. ولكن من المحتمل أن يكون هناك ارتباط عام بين الترفيه الإلكتروني والتواصل الافتراضي، وبين سلوكيات الحياة الواقعية التي كانت تقود المراهقين السابقين إلى الخطر والتأثر بالإغراءات. وسواء أكانت ألعاب الفيديو أو المواد الإباحية أو مجرد ضجيج الحياة الاجتماعية عبر الإنترنت، فإن الواقع الافتراضي يجعل من الممكن قضاء حياة مراهقة اجتماعية في المنزل أكثر بكثير ممّا كانت عليه في الماضي، ما يقلّل بدوره من المخاطر التي تأتي مع القيادة بسرعة كبيرة، والاحتفال إلى وقت متأخر من الليل، والإفراط في شرب الخمر، وإقامة العلاقات دون حذر، والتصرف بشكل عام بالطرق التي جعل مرحلة الشباب تقليدياً تبدو خطرة.

تجدر الملاحظة أن كل هذا السلوك الجيد في العالم الحقيقي لا يجعل الشباب أكثر سعادة، وبدلاً من ذلك، هناك قدر لا بأس به من الأدلة على أن المراهقين في عصر الإنترنت أكثر توتراً وقلقاً، وأكثر عرضة للاكتئاب من المراهقين في الماضي الذي كان أكثر خطورة. لكن تعاستهم هي شكل من أشكال الخلل الاجتماعي وعدم الاستقرار، وليست حافزاً على التصرّف غير المقبول، ويبدو أن العنف الوحيد الذي يشجّعه مثل هذا البؤس بشكل قاطع هو محاولات الانتحار، وهو أحد أشكال حماقات المراهقين القديمة التي تزداد في عصر الـ«آيفون».

(433). صحافة البيانات Data journalism: صحافة رقمية تعتمد على التفاعل بين التخصصات المختلفة لحشد أكبر عدد من البيانات وتحليلها وتوظيف مخرجاتها على نطاق واسع.

لكل اتجاه قيم ناشزة، وقد يشجع العالم الافتراضي أعمال العنف أو الفساد الخلقي ضمن مجموعة فرعية صغيرة من السكان. وربما تؤدي حوادث إطلاق النار في المدارس التي تهيمن على الأخبار ووسائل التواصل الاجتماعي، على وجه الخصوص، إلى تغذية تأثير المحاكاة على الإنترنت. لكن القتل الجماعي هو شكل فارغ وعدمي من أشكال الاحتجاج، وإرهاب لا قضية له، وعمل من أعمال جنون العظمة لا توافق طبيعته أي شخص سوى النرجسيين المرضى، وهو يرعب المراهقين ويجعلهم يتوخون الحذر والانتباه بدرجة كبيرة، في حين أن التيقّظ ونشر الحراس المسلحين في المدارس، والتسامح في حدوده الدنيا مع سوء السلوك الشائع لدى المراهقين هي اجراءات لن تنهي ما يحدث من قتل، لذا فإن ظاهرة إطلاق النار ليست مجرد شيء بغيض ومروّع، ونادر الحدوث يناقض توجهات المراهقين الرئيسية في عصر الإنترنت، بل قد يكون أيضاً مشجّعاً على الهدوء العام في عمر المراهقة، وهو يقدّم لها سَوْرة رعبٍ عرضيّة تدعم اتجاهاً عاماً وأوسع نحو الأمان والانتباه والسلام، في أكثر حالات الهدوء تعاسةً، في بعض الأحيان.

إن هذا التأثير المهدئ لا يقتصر، من ناحية أخرى، على اليافعين وما يكتنفهم من مخاطر، فهو يمتد إلى سن الرّشد[434] ومسؤولياتها. عندما ظلت معدلات مشاركة قوة العمل من الرجال منخفضة بعد الركود الاقتصادي الكبير [من ديسمبر 2007 إلى يونيو 2009]، لاحظت مجموعة من اقتصاديي العمل أن الشباب على وجه الخصوص كانوا يعملون بشكل أقل ويبحثون عن العمل بحرص أقل من الرجال الأكبر سناً، وهو اتجاه لا يوافق نمط الركود العادي، ووجد الباحثون أن هؤلاء الرجال أنفسهم تميزوا عن كبار السن بظاهرة أخرى وهي أنهم كانوا يلعبون الكثير من ألعاب الفيديو، وبالاعتماد على بيانات المسح

(434). من المتعارف عليه أن سن المراهقة Teenage هي عمر الإنسان بين الثالثة عشر والتاسعة عشر. بينما يبدأ اليَفع Adolescence في سن المراهقة، وربما قبل الثالثة عشر، وينتهي بعد التاسعة عشر. أما سن الرشد Young adulthood فهي من التاسعة عشر إلى الثالثة والعشرين.

الذي تم إجراؤه، خلصوا إلى أن الرجال كانوا في الواقع يستبدلون ألعاب الفيديو بالعمل والبحث عن وظيفة، بإضفاء قيمة أعلى على الترفيه والتسلية وقيمة أقل على التوظيف، وذلك بدرجة أكبر مما قامت به مجموعة أخرى مماثلة عندما كانت ألعاب الفيديو أقل تطوراً. وبشكل عام، فإن ما لا يقل عن 20 في المائة من الانخفاض في مشاركة القوى العاملة في الفترة 2005 إلى 2015، حسبما قدّر الباحثون، قد تم تفسيره بما حققته لعبتا «نداء الواجب» و«الفداء»[435] من انتشار وجاذبية.

يمكن حلّ المشكلة الآنية هنا، أي كيفية إعادة أولئك الرجال إلى القوى العاملة عن طريق زيادة الأجور إلى حدّ ما. في السنوات التي أعقبت عام 2015، تم على الأقل إقناع بعض الرجال المنخرطين في ممارسة الألعاب بالعودة إلى وظائفهم عن طريق اقتصاد أقوى، ما أدى إلى نشر تلك الطرائف على «تويتر» والتي تتساءل عن السبب في تراجع الإقبال على الألعاب. ولكن حتى لو أصبحت الألعاب باعتبارها بديلاً عن العمل أكثر انتشاراً وجاذبية بالفعل خلال فترات الركود، فإنها تصبح في هذا التوقيت نسخةً ثقافية لما يسمّيه الاقتصاديون «مثبّتات تلقائية»[436]، ويشير هذا المصطلح عادةً إلى برامج الدولة في إتاحة الرفاهية والتأمين ضد البطالة، وما شابه ذلك من برامج يتمّ تعميمها خلال فترات الركود للمساعدة في الحفاظ على استقرار الأسر والاقتصاد الأوسع نطاقاً. لكن يمكن تطبيق الفكرة نفسها على الحياة الاجتماعية، فالشاب العاطل من العمل هو مصدر للمتاعب بطبيعته، وهو متطرّف محتمل يغريه الإجرام، ومنفتح على الاستقطابات الدينية، ومنجذب إلى التشدّد الأيديولوجي. في حين أن الشاب العاطل من العمل الذي يستطيع الاستعاضة بالألعاب يكون منشغلاً بالترفيه، ومنسجماً مع وضعه

---

(435). نداء الواجب Call of Duty والفداء Red Dead Redemption: لعبتا مغامرات وعنف واسعتا الانتشار في أوساط الشباب الأمريكية.

(436). المثبّتات التلقائية Automatic stabilizers: سمات البنية الاقتصادية (مثل ضرائب الدّخل والإنفاق على الرفاهية) التي تعمل على كبح التقلبات في الناتج المحلي الإجمالي.

الخاص بسلام، فهو إذن أقل احتمالاً من أن يسبّب المزيد من المشاكل للمجتمع الذي يعاني من الركود، والذي لا يستطيع أن يمنحه وظيفة مجزية. إن هذه الأوضاع بدورها تجعل الركود نفسه أكثر استدامة، لأن حوافز التمرد تتم إعادة برمجتها وتحويلها إلى مباريات في تبادل إطلاق النار مع الكائنات الفضائية!

كانت اليابان واحدة من المجتمعات التي تقدّمت بخطوات متسارعة على هذا المسار، كما أشرت سابقاً، فبعد أن دخلت مرحلة الركود الاقتصادي والانهيار الديموغرافي أصبحت من روّاد العالم في إنتاج واستهلاك ألعاب الفيديو والمواد الإباحية (كان لها الريادة أيضاً في إنتاج الروبوتات لاستخدامات جنسية)، ولدى المجتمع الياباني الآن تصنيفاً ثرياً من المصطلحات لوصف الشباب، وخاصة الذكور منهم، المقبلين على الملذات الافتراضية بدلاً من ملذات العالم الواقعي، مثل: **سوشوكو دانشي** *soushoku danshi* **(آكلو العشب)** لوصف الفتيان المشاغبين، **بارسايتو شينغورو** *parasaito shinguru* **(العزّاب الطفيليون)**، **سيكوسو شينا شوكوغون** *sekkusu shinai shokogun* **(متلازمة التبتّل)** لوصف ظاهرة الامتناع عن الزواج، وغير ذلك من الاصطلاحات الكثيرة، كما أنها حافظت على استقرار اجتماعي يثير الإعجاب طوال عقودها الضائعة وأزمتها السياسية، فأبقت على معدلات الجريمة منخفضةً، وحافظت على الشوارع آمنةً، وداومت على الالتزام الياباني التقليدي بالشرف واللياقة، على الرغم من تراجع الثقافة العائلية التقليدية. وتعتبر سمات هذا المزيج خاصة باليابان، لكن النمط العام له صلة واضحة بالمجتمعات الغنية الأخرى. لقد تراجعت سنوات التغطية الصحفية الغربية التي تسأل قراءها: «أليست اليابان غريبة الأطوار؟» وأفسحت المجال أمام الاعتراف بأن اليابانيين قد يكونون متقدمين بعض الشيء عن بقيتنا، وأن دمجهم بين الحدود الافتراضية المتطرفة وبين التحدّر السلمي وغير الجنسي إلى الشيخوخة المجتمعية قد يكون نموذجاً يحتذى وليس حالةً شاذة.

ولأن كل ذلك يعتمد على التحفيز، أي على جاذبية الجنس وإثارة العنف

الافتراضيتين، فإن الواقع الافتراضي بهذا المعنى يتضمّن كذلك تشابهاً معيناً مع نبات اللوتس الذي رآه **أوديسيوس**[437] في رحلاته الشهيرة. إن المجتمع الخاضع للترفيه الرقمي يقدّم لسكانه فرصة تجربة الملذات الوحشيّة والمعربدة بأشكال وأساليب تتجاوز بكثير ما يمكن أن يوفره العالم الحقيقي. ومع ذلك، يبدو في بعض النواحي أنه أيضاً عالم من السلام والنظام والرعاية والسلوك المحمود والملذات الخامدة إلى حد ما، لأن هذا النوع من الناس (الشباب والمتبرّمين على الأخص) الذين هدّدوا في السابق باضطراب وبلبة حقيقيين، بل هدّدوا بالثورة، هم في الواقع يعيشون في منازلهم، يتراسلون ويتلاطفون، ويمارسون العادة السرية، أو حتى يتقاتلون ويطلقون النار، باستخدام برامج الترفيه على أجهزتهم وحواسيبهم غير المؤذية، مثل «**أكلة اللوتس**».

الإنصات إلى «سوما»

يقدم عصرنا كذلك أنواعاً أكثر واقعيةً من نبات اللوتس، فهؤلاء الشباب حسنو السلوك هم أكثر جيل تلقى العلاج بالأدوية الطبية عبر التاريخ، من الأدوية الموصوفة للأولاد الذين يعانون من اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه (ADHD[438]) إلى مضادات الاكتئاب الموصوفة للمراهقين المصابين بالقلق، وقد تم تصميم معظم الأدوية بحيث تكون مهدّئة ومسكّنة للمرور بتجربة سلسة لا عواقب لها. إن الماريجوانا المخدّر القانوني الذي يختاره البالغون بشكل متزايد، والذي يجادل المدافعون عنه بأنه لا يثير نفس القدر من السلوك الخطير مثل الكحول والمخدرات القوية، ما يجعله نموذجاً أساسياً غير ضار ومختلفاً عن

---

(437). أوديسيوس أو عوليس Odysseus: ملك أسطوري في الميثولوجيا اليونانية. تعرض إلياذة هوميروس رحلته. حيث تصل سفنه إلى جزيرة ينتشر فيها نبات اللوتس المخدر الذي يسلو كل من تناوله عن بلده وأهله.

(438). اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه (Attention deficit hyperactivity disorder (ADHD): اضطراب يسبّب سلوكاً مفرطاً من النشاط والاندفاع الحركي أكثر من المستوى الطبيعي أو المعتاد.

النموذج الذي تمثّله حالة السُّكر، إلا أن هذا التبرير تمّ انتقاده والطعن فيه، كما هو الحال مع أدلة أخرى على تقنين استخدام العقّار وتأثيره الإيجابي على الجريمة والأمراض العقلية. أما الدليل على أنه يشجّع العدوانية أحياناً، فقد يعني أن العقّار يشبه الإنترنت في جعل أقلية صغيرة تبدو أكثر عنفاً، ولكنها تنجح في تهدئة الأغلبية، بحيث يكون المجتمع الذي تعاطى العقّار بالنسبة إلى معظم الناس مجتمعاً حالماً يشعر بالرضى أكثر منه مجتمعاً غاضباً أو غير مستقر، وبحيث يجعل انتشارُ التعاطي عصرَ الركود يبدو في الغالب وكأنه وقت هادئ ومريح.

هناك الوباء الأفيوني[439] من ناحية أخرى، وقد اجتاح الأجزاء الأكثر تعاسة من أمريكا البيضاء دون أن يلاحظ أحد ذلك، طالما أن العقّار مهدئ أكثر مما هو مثير، فهو يؤدي إلى نشوة لطيفة تجعل مستخدميه ينزلقون ببساطة، شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم، دون أن يتسبّب لأحد في أي مشكلة. لا يعني ذلك أنه لم تحدث حالات من العنف المرتبطة بتجارة المواد الأفيونية، أو أنه لم يوجد مدمنون كانوا على استعداد لارتكاب جريمة قتل من أجل الحصول على هذه المواد. ولكن الأمر انتهى بالكثير من الأمريكيين إلى الموت بأعداد قياسية جراء تعاطي المواد الأفيونية دون أن يرتبط ذلك بارتفاع معدل جرائم القتل، ودون مظاهر الاضطراب والفوضى التي صاحبت وباء «الكراك»[440]. وكما كتب الصحفي أندرو سوليفان[441] في مجلة نيويورك عام 2018 فـ«إن المخدرات التي تغزو أمريكا الآن هي نوع من المهدئات، فهي ليست وسيلة للانخراط في الحياة بشكل حيّ ونشِط، ولكن للحصول على فترة راحة من محن الحياة»، وعلى العكس من

---

(439). الوباء الأفيوني Opioid Epidemic: العبارة المستخدمة لوصف الاستخدام المفرط للمواد الأفيونية وما يؤدي إليه سوء استخدامها من وفيات والعواقب الاجتماعية والنفسية والاقتصادية المترتبة على ذلك (توفي نصف مليون أمريكي بسبب استخدام الأفيونات بين 1999 و2017).

(440). الكراك Crack: من أشكال الكوكايين النقي القابل للتدخين. ويعبّر بـ«وباء الكراك» عن ارتفاع معدّل تعاطي هذا المخدّر في المدن الأمريكية بين أوائل الثمانينيات وأوائل التسعينيات.

(441). أندرو سوليفان Andrew Sullivan: كاتب ومحلل سياسي انجليزي-أمريكي، من مؤيدي إسرائيل، من مؤلفاته: «جدل حول المثلية»، و«الروح المحافظة».

الماريجوانا، فإن المواد الأفيونية عقاقير معادية للمجتمع، وهي تقدّم شكلاً من السعادة التي يفضّل أن يعيشها المرء منعزلاً، وبدلاً من الإقبال على الطعام، فإنها تجعله يفقد شهيته غير مهتمّ به أبداً، وبدلاً من زيادة الرغبة الجنسية، تجعله زاهداً في ممارسة الجنس. كتب سوليفان أيضاً: «ما أن تشعر بالانتشاء حتى تميل رأسك وتغلق جفنيك». إن أفضل كتاب عن هذا الوباء هو الذي ألفه الصحفي سام كوينونيس[442]: «أرض الأحلام» لسبب ما.

لا يمكن لأي من منتجات القنب الهندي التجارية أو الفنتانيل[443] غير القانوني أن يضاهي صفات «سوما»[444] الذي ابتكره ألدوس هكسلي[445] في «عالم جديد شجاع»، إنه «العقّار المثالي»، كما تقول إحدى شخصياته بابتهاج: «حيث جميع مزايا المسيحية والكحول مجتمعةً»، دون الشعور بذنب ديني أو معاناة صداع ما بعد السُّكر. يتم تصنيع عقار «سوما» وتوزيعه بدقة من أجل الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي، ولكن عقّارات «سوما» الخاصة بنا لم يتم تصميمها بوعي، وهي أكثر خطورة، وموزعة بشكل غير متساوٍ، وغير مرغب فيها عالمياً. إلا أن لها من ناحية أخرى تأثيرات «هكسليّة»[446] واضحة، فهي تقدم لمن يتعاطونها مخرجاً مؤقتاً من حالات السخط المعتاد، وتحديداً الأشخاص الذين قد يميلون إلى التمرد أو تحطيم الأشياء، أو الانضمام إلى طائفة دينية غريبة، أو إشعال ثورة، أو الانعزال مثل المسيحيين الأوائل بطريقة راديكالية تغيّر المجتمع. إنها تدمّر الحياة، لكنها قد تساعد أيضاً على استقرار المجتمع، وهي تقلّص عدد الأشخاص غير

---

(442). سام كوينونيس Sam Quinones: صحفي أمريكي، اشتهر بمتابعته لأزمة المواد الأفيونية. صدر كتابه «أرض الأحلام» Dreamland عام 2015.

(443). الفينتانيل Fentanyl: مادة أفيونية تستخدم كمسكّن للألم، أو تخلط بالهيروين أو الكوكايين.

(444). سوما Soma: عقار مهدئ تستخدمه الدولة في رواية «عالم جديد شجاع» للسيطرة على السكان وجعلهم يشعرون بالسعادة، وقد استقى هكسلي هذا الاسم من اطلاعه على التجارب الروحانية الهندية.

(445). ألدوس هكسلي Aldous Huxley: كاتب وفيلسوف انجليزي، ألف ما يقرب من 50 كتاباً، أشهرها «عالم جديد شجاع» Brave New World.

(446). هكسليّة Huxleyan: نسبة إلى ألدوس هكسلي.

السعداء، عن طريق الانتحار أو بجرعة زائدة أو بالإهمال الصحيّ الحَذِر. لكن جميع هذه الاعتبارات اختيار شخصيّ (أو هو على الأقل مجرّد «خيار»)، وهي ليست مفروضة من أعلى [كما في رواية هكسلي]، أي إنها ليست ذلك النوع من الداروينيّة الاجتماعيّة الذي قد يؤدي إلى المقاومة. إن عقّارات «سوما» الخاصة بنا لا تحلّ المشاكل الاجتماعية، بل تفاقمها في الواقع، ولكم أن تسألوا الأطفال المولودين لمدمني المخدرات الأفيونية، والبلدات الصغيرة التي دمرتها الجرعات الزائدة، لكنها تمنع في الوقت نفسه، هذه المشاكل من أن تؤدي إلى عواقب أوسع يمكن أن تصيب مجتمعات أخرى لا تنتشر فيها المخدرات والمهدئات.

تقترن المخدرات بوسائل الترفيه الافتراضية بنفس الطريقة التي تقترن بها «سوما» بشكل طبيعي مع الخصائص الأخرى لدولة «عالم جديد شجاع». كان لمجتمع هكسلي المستقر تماماً نوع من القدرة على «لمس المشاعر»، كما في ممارسة الجنس الافتراضي VR sex. نحن لسنا بعيدين جداً عن شيء مشابه حيث تلتقي الروبوتات الجنسية مع جهاز «أوكيلوس ريفت»[447]، وحيث لا يقمع مجتمعنا شهوة الشباب ورغباتهم العنيفة بقدر ما يحفّزهم بأمان من خلال ألعاب الفيديو والبرامج البذيئة. أن مدينة هكسلي الفاسدة (الديستوبية) تمنح سكانها عقار V.P.S[448] الإلزامي بديلاً عن مشاعرهم الطبيعية، وهم يتعاطونه «بانتظام مرةً واحدة في الشهر. نحن نُغرق النظام بأكمله بالأدرينين[449]. إنه المعادل الفسيولوجي الكامل للخوف والغضب. كل التأثيرات المنشّطة لقتل

---

(447). أوكيلوس ريفت Oculus Rift: نظارة واقع افتراضي تجعل المستخدم يشعر بالانتقال إلى فضاء ثلاثي الأبعاد للبرنامج المتعدد الوسائط الذي يستخدمه.

(448). البديل العاطفي العنيف (V.P.S) Violent Passion Surrogate: يذهب الأفراد في رواية هكسلي مرة في الشهر إلى «مركز التكيّف» لتناول عقار كيميائي يمنح مستخدمه تجربة نفسية مشابهة لممارسة الجنس الطبيعي.

(449). الأدرنين Adrenin أو الأدرينالين Adrenaline: هرمون أو دواء يساهم في تنظيم الوظائف الحشوية (مثل التنفس)، ويلعب دوراً مهماً في الاستجابة السريعة، كما في حالات الخوف والغضب.

ديسديمونا[450] والموت على يد عطيل، دون أي عواقب مزعجة».

إن نسخنا الخاصة من «سوما» ليست متقدمة حتى الآن، ومجتمعنا ليس مستقراً بالطبع. لكن النظام الاجتماعي الغربي اتخذ في ظل الانحطاط منعطفاً «هكسلياً» واضحاً، مع اتجاهات اجتماعية تبرّئ في الوقت نفسه فرضية ثقافية محافظة واحدة، وهي أن هذا الخيار وحده لا يجعل الناس سعداء، وأن الفرد غير المرتبط من المحتمل أن يصبح عبداً لأدوات الترفيه، أو يصبح لاجئاً عقلياً إلى نفسه، وأن المسكنات والملهيات تخلّف وراءها الأسرة والدين دون شك. هذا الخيار يثبت باختصار خطأ توقعات المحافظين المختلفة.

منذ الستينيات فصاعداً، تنبأ المحافظون الذي انتقدوا ليبرالية «**جيل الطفرة**» بأن الفردية السائدة سوف تجعل المجتمع نفسه ينحلّ، وأن قلّة من الآباء والكنائس الضعيفة **والإيثوس**[451] المتْعويّ العام [شخصية الجماعة أو الأمة] تعني المزيد من الجريمة والعنف والانهيار الاجتماعي العلني. وقد بدا أن الاتجاهات الغربية من حوالي 1965 حتى 1990 تبرّر هذه الفرضية، ولكن شيئاً ما تغيّر بعد ذلك، إذ بدون إعادة ترميم النسيج الاجتماعي، وبدون إحياء الحياة المدنية أو الدينية أو تقوية الروابط المجتمعية والروابط الأسرية التي يرغب فيها الناس بشدّة وهم يصطفّون على جانبي الحرب الثقافية، حدث وأن انخفضت معدلات الجريمة، وتضاءل جنوح المراهقين، وأصبح نمط الحياة اليومية أكثر استقراراً والتزاماً بالقانون وآمناً بكل بساطة.

بكلمات أخرى، لقد أدّت الثورات الاجتماعية التي حدثت قبل خمسين عاماً إلى نوع معين من الفوضى، ولكن بفضل نزعة الهروب الافتراضي من الواقع،

(450). ديسديمونا Desdemona: شخصية شكسبيرية في مسرحية عطيل. وهي امرأة جميلة من البندقية تهرب من عطيل المغربي الذي يكبرها بعدة سنوات.
(451). الإيثوس Ethos: مجمل روح الجماعة أو شخصيتها العامة. بما تتضمنه من معتقدات ومثل وأخلاق وسلوك. وهو أصل الإيثيكا أي الشخصية الأخلاقية للجماعة أو الأمة.

والإنجاز التكنولوجي الكبير لعصر أصابه الركود، فإن الانحطاط الذي حدث بعد ذلك يبدو مستداماً بشكل مدهش.

كمأساة أولاً، ثم كتمثيل مسرحي

من المحتمل، الآن، أن يبادر القارئ بطرح اعتراض واضح: ماذا عن السياسة؟ إذا كان التأثير الرئيسي للمواد الإباحية وألعاب الفيديو وأجهزة الآيفون والمستحضرات الدوائية يتمثل في إبقاء الناس خلف أبواب منازلهم، منفصلين عن بعضهم بعضاً، وحسني السلوك دون أن يكونوا سعداء، لكي يتم استبدال وسائل الترفيه بالواقع، وتهدئة الشباب، وكذلك كبار السن ومتوسطي العمر، فمن المؤكد إذن أن ثمة استثناء في التأثير المزعج الذي يبدو أن وسائل التواصل الاجتماعي تتركه على علاقة الناس بالسياسة!

هل سيعيد مجتمع هادئ حقاً إنتاج ألمانيا ڤايمار[452] أو احتجاجات أيام الغضب عام 1969 على وسائل التواصل الاجتماعي، مع احتشاد الغوغاء على الإنترنت والتهديدات بالقتل وعودة التطرف القديم إلى الظهور مرة أخرى؟ هل سينتج عن مجتمع من أكلة اللوتس سَورةٌ شعبوية وإحياءٌ اشتراكي، أو حربٌ أهلية داخلية شديدة الاستقطاب إلى الدرجة التي قد يظنّ فيها الناس على الجانبين أن عمل قرصان روسي[453] يعبّر عن قناعات مواطنيهم الصادقة؟ وهل سينتخب مثل هذا المجتمع الهادئ دونالد ترمب رئيساً؟

من الغريب أن الإجابة قد تكون «نعم». السّورة الشعبوية، وجنون الحشود على الإنترنت، والطريقة التي سمحت بها الإنترنت بعودة أشكال معينة من

---

(452). ألمانيا ڤايمار Weimar Germany: نشأت جمهورية ڤايمار في الفترة من 1919 إلى 1933 كنتيجة لخسارة ألمانيا الحرب العالمية الأولى وثورة 1918 الاشتراكية. وسميت مدينة ڤايمار. أما لعبة ڤايمر الافتراضية فتدور حول مجموعة من الديمقراطيين الاشتراكيين والمحافظين يحاولون إنقاذ الدولة ضد الشيوعيين والقوميين الذين يسعون للإطاحة بها.

(453). يشير المؤلف إلى اتهام روسيا بالتدخل في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 2016.

التطرف السياسي، والصعود الغريب لرئيس تلفزيون الواقع [ترمب]، وتكاثر نظريات المؤامرة، والثقافات السياسية الناشزة بين الغربيين الأكثر تطرفاً على الإنترنت، وانتشار الأخبار الزائفة بجميع أشكالها المتنوعة... نعم، إذا كان انحطاطنا سينتهي بعودة التاريخ، والصراع الأيديولوجي، وسياسات قتال الشوارع، والأفكار الطوباوية، فقد تكون هذه هي الطريقة التي تبدأ بها تلك النهاية. لكنها قد تمثل أيضاً الطريقة التي يقوم بها الواقع الافتراضي بإدارة المشاعر السياسية، ليس من خلال إثارة ثورة حقيقية ولكن عن طريق تشجيع الناس على ممارسة التطرف، وإعادة تمثيل الثلاثينيات أو عام 1968 على وسائل التواصل الاجتماعي أو على منصّة «ريديت»[454] أو قناة فيديو على «يوتيوب»، للتعامل مع سياسات التطرّف بالطريقة نفسها التي يتم التعامل فيها مع ألعاب العنف والمغامرات، كنوع من الرياضة، أو كعقّار يثير كيمياء الجسم، أي دون تعريض شيء من حياتهم الحديثة المريحة نسبياً لخطر فعلي. قد يكون نزاع جيّد على «الفيسبوك»، أو تجمهر الغوغاء على «تويتر»، بمثابة المعادل السياسي لعقّار هكسلي، ويقدم جميع التأثيرات المنشطة التي نتجت عن أحداث قديمة مثل الانضمام إلى «رجال الأرصاد»[455] أو «الفهود السّود»[456] أو «زحف بنيتو موسوليني»[457] على روما دون التعرّض لأي مضايقات جسدية. قد يعيد الإنترنت تجسيد دراما التاريخ ومآسيه، ولكن في صورة إنتاج مسرحي، أوملهاة

---

(454). ريديت Reddit: منصة أمريكية إخبارية تفاعلية على الويب، وبث مباشر عن طريق «شبكة ريديت العامة».

(455). رجال الأرصاد Weathermen هو الاسم المختصر لمنظمة الطقس تحت الأرض (The Weather Underground Organization (WUO ، وهي منظمة يسارية راديكالية تناهض الإمبريالية الأمريكية نشطت في أواخر الستينيات وأثناء سنوات السبعينيات.

(456). الفهود السود Black Panthers : هم أعضاء حزب الفهد الأسود - The Black Panther Party BPP وهي منظمة سياسية أسسها عام 1966 طلاب جامعيون أمريكيون من أصل أفريقي. واستمر نشاطها حتى 1982.

(457). الزحف على روما The March on Rome: مسيرة شعبية حاشدة توجّهت إلى روما من مختلف المدن الإيطالية بعد فوز بنيتو موسوليني وصعوده إلى السلطة، تأييداً له. وقد انتقل حكم إيطاليا بعد هذه المسيرة إلى الحزب الفاشي.

هزلية لا غير.

ليس تماماً بالطبع، فترمب رئيسٌ فعلاً، وإذا تعثّر عن غير قصد في حرب عالمية أو أساء إدارة جائحة كورونا، فلن يكون هناك شيء افتراضيّ في ذلك، كما أنه لا شيء منحطّ كنتيجة لما حدث. ولكن حتى الآن، أين يكمن شذوذ ترمب ونزعته السلطوية الواضحة جداً؟ هذا ما يظهر بجلاء في إدراجاته على «تويتر». إنه بصفته رئيساً حقيقياً في الحياة الواقعية، شخص ضعيف، وليس قوياً، غير مقيّد ولكنه مكبّل، وهو غارقٌ في وظيفته بدلاً من أن يطوّعها لإرادته. وليست سياسة ترمب في العالم الحقيقي، عالم التشريع وصنع السياسات، إلا من قبيل سياسات الجمود والمأزق نفسها التي كانت قبله، مع الكثير من الكذب والمزيد من الفساد والغارات العرضية التي يشنّها بين حين وآخر رجل على سدّة الحكم، ولكن ذلك لا يشبه صعود المتسلّطين المستبدين الحقيقيين في عالم الثلاثينيات.

هناك رئاسة ترمب الافتراضية التي ترعب غاراتها الليبراليين، وهناك أيضاً رئاسته الافتراضية التي تتصنّع وتتكلّف على قناة «فوكس»، ويستعرض بها قدراته على هاتفه. لكن بعد مرور ثلاث سنوات (2020)، فإن ما هو حقيقي لا يزال أقرب إلى النوع الذي يعرفه الرئيس جيداً، ألا وهو تلفزيون الواقع الأكثر قرباً له من العودة إلى تاريخ ما قبل عام 1989.

أغلقوا «تويتر»، واخرجوا من «فيسبوك»، واطفئوا التلفزيون، ماذا ترون في الولايات المتحدة في عهد ترمب؟ هل الجامعات في حالة اضطراب؟ لا، فموجة الاحتجاجات الصغيرة في الجامعة، والتي تركّز معظمها حول الخلافات الضيقة، بلغت ذروتها قبل انتخابه وتضاءلت منذ ذلك الحين. هل هناك أعمال شغب مدنيّة؟ لا، فقد تلاشى توهج الاحتجاج المدني بعد فيرغسون. هل توجد موجة عنف سياسي؟ نوعاً ما، ولكنه يشبه إطلاق النار في المدارس أكثر من الاشتباكات السياسية في الثلاثينيات أو الستينيات، بمعنى أنه يتضمن أشخاصاً مضطربين

يتقدمون مثل فرسان تائهين ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة، بدلاً من انتمائهم إلى حركات منظّمة بنوع ما من الاستراتيجية أو الهدف المحدّد. من الواضح أن التشويش السياسي في حقبة الإنترنت مسؤول جزئياً عن جميع أنواع الرعب، بدءاً من حديث العنصريين البيض مع بعضهم بعضاً، إلى هراء موقع «∞شان»[458] المتطرّف، إلى مؤيد بيرني ساندرز[459] الذي حاول قتل الجمهوريين في إحدى مباريات الكونغرس للبيسبول عام 2017. لكن هذه الحالات رهيبة واستثنائية أيضاً، وهي لم تؤسس بعد نمطاً يشبه بأي شيء عام 1969، العام الذي وقع فيه أكثر من ثلاثة آلاف تفجير عبر الولايات المتحدة القاريّة، أما غير ذلك، فإن هذه الحالات تتعايش مثل غيرها من الأشكال الأخرى من العنف الجماعي المتقطّع، مع إحصائيات تتحدث بشكل عام عن استمرار النظام والسلام المستمر.

والآن، ربما تكون حالات النشوز التي تحدث اليوم مقدمةَ شيء أسوأ، وهذا يحدث غالباً، ففي فترات ما قبل الاضطرابات السياسية الحقيقية، كان المتمرد والمشاغب ومقاتل الشوارع، وحتى الإرهابي، أكثر اهتماماً بما يحدث، أو بما هو آت بالفعل، أكثر من المواطن الملتزم بالقانون. يمكنكم أن تفهموا مستقبل ألمانيا بشكل أفضل عام 1930 من خلال مشاهدة «القمصان البنيّة»[460] و«الحمر»[461] يتقاتلون في الشوارع بدلاً من التسكّع مع أصحاب المتاجر من الطبقة المتوسطة، ويمكنكم أن تروا المستقبل الأمريكي بشكل أكثر وضوحاً في

---

(458)∞ شان ∞chan: موقع مفتوح لنشر الإدراجات الموجّهة ينشر أفكاراً عنصرية حول تفوّق البيض، والنازيين الجدد، واليمين البديل، ومعاداة الساميّة. وتبين أن لبعض منشوراته صلة بأحداث عنف في الولايات المتحدة.

(459). بيرني ساندرز Bernie Sanders: عضو مجلس الشيوخ عن لاية فيرمونت منذ 2007. حاول نيل ترشيح الحزب الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة عامي 2016 و2020 دون جدوى.

(460). القمصان البنيّة Brownshirts: الجناح شبه العسكري الأصلي للحزب النازي. لعبوا دوراً مهماً في صعود أدولف هتلر إلى السلطة في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي.

(461). الحمر Reds: منظمة شبه عسكرية يسارية متطرفة تابعة للحزب الشيوعي الألماني. وكانوا يعادون النازية، وبعد استيلاء النازيين على السلطة عام 1933، تم اعتقال أعضاء المنظمة وسجنهم، بينما انضم مقاتلوها إلى الجيش الأحمر السوفيتي ضد الجيش النازي.

عمل جون براون[462] المؤيد لإلغاء الرق أكثر من أي مكان آخر في خمسينيات القرن التاسع عشر. نُشر مقال جوان ديديون* الشهير: «التراخي في الذهاب إلى بيت لحم» كما قالت في «أواخر ربيع عام 1967 البارد»، وذكرت فيه أنه بالرغم من أن الاقتصاد كان قوياً وأن البلد يبدو مستقراً ظاهرياً، يمكنكم القول بأن «مركز أمريكا لم يكن متماسكاً» من خلال زيارة «هايت أشبوري»[463] والتفكير في الهيبّين. وبعد ذلك بعام، مات مارتن لوثر كينغ[464] وروبرت ف. كينيدي[465]، وكان المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي[466] في حالة من الفوضى، وبدأت الموجة الإرهابية التي أشرنا لها.

لكن إرهابينا ومتطرفينا لا يشعرون بالضرورة كأنهم أنبياء أو طلائع، فهم غالباً ما يشعرون بأنهم أشبه بالعلامات. الإرهابي في أمريكا القرن الحادي والعشرين ليس الرجل الذي يرى بعمق أكبر من البقية أو يبشّر بعالم جديد قادم. إنه شخص (وغالباً ما يكون شاباً) لا يفهم ذلك، شخص يأخذ كل الأشياء التي يقرأها على الإنترنت حرفياً بطريقة لا يقوم بها معظم الأشخاص الذين ينشرون ما يقرأه هو، شخص يخلط بين الترفيه الافتراضي والواقع، شخص يمرّ بتجربة «عقّار هكسلي» نفسها، مثل أي شخص آخر، ولكن على العكس من أي شخص آخر فهو يتخيّل أنه عُطَيل فعلاً. إن الرفيق اليساريّ المتأنّق الذي يحاول اغتيال الجمهوريين ليس أكثر تعمّقاً في فهم فكرة المقاومة من الناشط العادي، بل هو

---

(462). جون براون John Brown (1800- 1859): قائد أمريكي متدين نادى بإلغاء الرق، عن طريق العنف إذا فشلت المحاولات السلمية.

(463). هايت أشبوري Haight-Ashbury مهد حركة الثقافة المضادة في الستينيات. ويعرف الحي المجاور له بأنه المركز الذي نشأت فيه ظاهرة الهيبيين.

(464). مارتن لوثر كينغ Martin Luther King: وزير معمداني أمريكي من أصل أفريقي، أصبح المتحدث الرسمي الأبرز وزعيماً في حركة الحقوق المدنية الأمريكية منذ عام 1955 حتى اغتياله في عام 1968.

(465). روبرت ف. كينيدي Robert F. Kennedy: محام وسياسي أمريكي شغل منصب المدعي العام للولايات المتحدة بين يناير 1961 وسبتمبر 1964، اغتيل عام 1968.

(466). المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي Democratic National Convention: المؤتمرات الدورية التي يعقدها الحزب الديمقراطي كل أربع سنوات لتسمية مرشح الحزب لمنصب الرئيس ونائبه.

شخص يسيء فهم هذه الفكرة تماماً، ويستمع إلى كل الأحاديث التي تدور على الإنترنت عن الخيانة والفاشية، ويعتقد أنه بالفعل في الأربعينيات من القرن الماضي في فرنسا، وأن حلفاءه عبر الإنترنت هم في الواقع من عائلة «ماكي»[(467)] وليسوا مجرّد نسخة من مقلّدي نجوم الأفلام من سكان الضواحي. إنه شخص يظهر في مطعم «بيتزا كوميت»[(468)] في شمال غرب العاصمة حاملاً مسدسه لأنه يعتقد أن الليبراليين البارزين يديرون قبواً في الطابق السفلي لممارسة الشذوذ مع الأطفال، أو هو شخص يركن شاحنته على سدّ هوفر[(469)] ليقول بأن بعض لوائح الاتهام الوهمية التي كُشفت ليس مجرد عمل موجّه أكثر جرأةً مما قام به واضعو نظريتي المؤامرة «بيتزاغيت»[(470)] و«كيو»[(471)]. إنه يسيء أساساً فهمَ معنى وهدف نظريات المتاهة تلك، معتبراً إياها ادعاءات حرفية حول العالم بدلاً من كونها موجّهة لأغراض مبتدعيها (رياضة كانت أو هواية أو خدعة صغيرة) ولمعظم المشاركين فيها (من باب الترفيه السياسي وخلق شكل غريب من المجتمع الافتراضي).

إن هذا لا يبرّر ما يحدث من خداع أو تأجيج للغضب، ولا سيما الرئاسيّ منه، بل هو بعيد جداً عن ذلك. لكنه سياق مهمّ للتفكير في ما إذا كان من المحتمل أن تؤدي متابعة السياسة عبر الإنترنت إلى تأجيج الغضب في العالم الحقيقي. الأكاذيب والدعاية السياسية هي سمات طبيعية للحركات الثورية، ولكن عادة ما

(467). ماكي Maquis: مقاتلو حرب العصابات في المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية.

(468). بيتزا كوميت Comet pizza: مطعم بيتزا مشهور بواشنطن.

(469). سد هوفر Hoover Dam: السد الخرساني على نهر كولورادو بين ولايتي نيفادا وأريزونا.

(470). مؤامرة البيتزا Pizzagate: نظرية مؤامرة خلال دورة الانتخابات الرئاسية عام 2016 ادّعى واضعوها بأن رسائل البريد الإلكتروني لحساب هيلاري كليبنتون والحسابات المتصلة بها تحتوي على رسائل مشفرة تربط بين عدة مطاعم بيتزا ومسؤولين في الحزب الديمقراطي متورطين في الاتجار بالبشر واستغلال الأطفال لأغراض جنسية.

(471). مؤامرة كيو أو كانون QAnon، Q: نظرية مؤامرة يمينية ظهرت عام 2017 تزعم أن عدداً من ممثلي هوليوود وسياسيين ليبراليين وديمقراطيين منخرطين في أعمال عصابة عالمية للاتجار بالأطفال واستغلالهم جنسياً.

يكون هناك إيمان حقيقي متداخل معها أيضاً. لقد قام جوزيف غوبلز[472] بالدعاية كأنه الشيطان نفسه، لكنه آمن بالفوهرر وقضيته تماماً، وأليكس جونز[473] يؤمن فقط ببيع المكمّلات، أما دونالد ترمب فيؤمن بتسويق دونالد ترمب لا غير، وهناك قدر كبير من التطرف على الإنترنت هو عبارة عن مزيج من «الميمات»[474] الساخرة والمُزَح والألاعيب، مع وجود متصيدين مجهولين يتنافسون مع مخادعين معروفين على استغلال مخاوف المُسنّين، ويجرفون معهم عدداً من السكان الأصغر سناً فيحفزّونهم ويشجعونهم. والسبب في أن ستيف بانون[475] حقّق وحده بين الشخصيات «الترمبيّة» شهرةً كبيرة لفترة وجيزة هو أنه بدا صاحب فلسفة متماسكة وراء ما يحدث من انجراف، وأنا أشدّد على كلمة «بدا» هذه، لأن هناك احتمالاً بأن التحقّق من أسماء المثقفين الفاشيين الذي قام به إنما كان جزءاً من عملية الخداع أيضاً [انظر الهامش أدناه]. أما السبب في تفضيل شباب أنتيفا* للأقنعة فهو أن عدداً هائلاً منهم يمارسون ثورتهم، ولا يريدون وضع أسمائهم وصورهم على شيء هو في الأساس مجرد لعبة.

لنأخذ المثال الأكثر تطرفاً وإيجازاً: مسيرة 2017 في **شارلوتسفيل** Charlottesville بفيرجينيا، التي وَعَدت بـ«توحيد اليمين»[476]، وجمعت أنصار

---

(472). جوزيف غوبلز Joseph Goebbels: وزير الدعاية النازية بين 1933 و1945.

(473). أليكس جونز Alex Jones: مقدم برامج يميني متطرِّف. وُصف إعلامياً بأنه رائد نظرية المؤامرة في أمريكا.

(474). «ميمات» الإنترنت memes: صور ومقاطع فيديو أو عبارات. دالّة أو مرحة. يتم تداولها وتنتشر بسرعة بين مستخدمي الإنترنت.

(475). ستيف بانون Steve Bannon: كان منتجاً منفذاً ومؤلفاً سينمائياً في هوليوود، وأنتج 18 فيلماً. ثم شارك في تأسيس منظمة استقصائية تعمل على مساءلة الحكومة. وتم تصنيفه عام 2015 برقم 19 في قائمة الأكثر تأثيراً في الإعلام السياسي في الولايات المتحدة. ثم أصبح الرئيس التنفيذي لحملة ترمب الانتخابية، ثم كبير مستشاريه، ومساعده، ولكن ترمب عزله بعد أن نشر مقتطفات من كتاب «النار والغضب». وتبرأ منه على الفور قائلاً أن بانون فقد عقله عندما غادر البيت الأبيض. وقد حاول بانون إعادة توجيه مقصده مما كتب وأعلن انه يعني أسماء أخرى ولا يقصد ترمب. وحاول التواصل مع ترمب من جديد.

(476). فلنتوحَّد اليمين Unite the Right: تجمع سياسي يضم المؤمنين بتفوّق العرق البيض في الولايات المتحدة. ظهر عام 2017 بشارلوتسفيل في تظاهرة كبيرة انتهت بأعمال عنف وسقط فيها

تفوّق البيض التقليديين من حليقي الرؤوس، مع نموذج جديد من الأنصار الذين يحملون المشاعل، ويبدو أنهم جاؤوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في هذه التظاهرة والمشاركة بالتواصل والدخول في مشاجرات افتراضية مع حركة أنتيفا، إلى أن قام أحدهم، وهو مقتنع بأن لعبة ڤايمار[477] حدث واقعي بمعنى الكلمة، بقيادة سيارته وسط حشد من المعارضين فقتل امرأة على الفور. هل أدى ذلك إلى تنشيط الحركة الناشئة، وإلهام العنف المنظم، وجلب مجندين جدد متلهفين للحصول على فرصة إثارة الفوضى فعلاً؟ هذا ليس صحيحاً، فقد تفكّكت الحركة بسرعة، وتحولت إلى توجيه أصابع الاتهام والتنصّل مما حدث، وبحلول الوقت الذي انقضت فيه الذكرى السنوية الأولى لشارلوتسفيل، أنتجت محاولة القيام بتظاهرة مماثلة في واشنطن العاصمة بعد ذلك بسنة، صورةً لا تمحى لعدد قليل من القادة الوطنيين البيض المثيرين للشفقة مجتمعين معاً في عربة بمترو العاصمة، وكأنهم جنرالات تخلى عنهم جنودهم عند أول زفرة لرياح العنف الحقيقي، وكانوا أقلّ عدداً من الصحفيين الذين جاؤوا لتغطية الحدث وصاروا يتطلعون حولهم ببلاهة.

أمريكا بودريارد[478]

طلبت مجلة فورين بوليسي في مارس 2017، من **كيث ماينز**[479]، خبير وزارة الخارجية في الحرب الأهلية في العالم النامي، تقييم مخاطر اندلاع حرب أهلية ثانية في الولايات المتحدة، وكان أن أعطى أمريكا فرصة بنسبة 60 في المائة للوقوع في مثل هذا الصراع من السنوات العشر إلى الخمس عشرة القادمة، وقد توصّل

عدد من القتلى.

(477). انظر الهامش السابق حول جمهورية ڤايمار.

(478). جان بودريار Jean Baudrillard: عالم الاجتماع والفيلسوف والمنظر الثقافي الفرنسي (ت. 2007). من أعماله: «نظام الأشياء». و«الموت والتبادل الرمزي». و«روح الإرهاب».

(479). كيث ماينز Keith Mines: يعمل الآن مدير برنامج أمريكا اللاتينية بمعهد الولايات المتحدة لشؤون السلام.

الأكاديميون الآخرون الذين جمعهم لمناقشة هذه التجربة إلى إجماع أقل قليلاً بنسبة 35 في المائة. وبعد أحداث شارلوتسفيل، سلّطت مجلة «نيويوركر» الضوء على عمل المناجم وأجرت معه مقابلة، فقال لمراسل المجلة، روبن رايت: **«ما زلنا نقول أنها لا يمكن أن تحدث هنا. لكن بعد ما حدث -ويا للهول- نعم يمكنها أن تحدث»**.

لكن إذا افترضنا أن حرباً أهلية ثانية حدثت فعلاً، فمن هو الذي سيقف ضدها ويحاربها تحديداً؟ الحرب الحقيقية ببساطة ليست جذّابة للأشخاص الذين تذوقوا البدائل الافتراضية، وتتميز بعض الفصائل الأكثر استقطاباً بتكيّفها مع الحياة الحديثة المريحة للغاية. إن أشد المقاومين الذين يناهضون ترمب هم أمهات ليبراليات متعلمات يعشن في الضواحي، وأكثر الأشخاص وفاءً لشعار[480] حملة ترمب هم سبعون متقاعداً في «القرى»[481]. فمَن بينهم مِن المفترض أن يحمل سلاحاً؟ وهل سيقتحم الشباب اللاعبون الساخرون من أقصى اليمين معاقل الأكاديميين الليبراليين بشكل جماعي، ليقابلهم محاربو العدالة الاجتماعية؟ هل سينتقل كبار السن وقد أثارتهم سلاسل البريد الإلكتروني وبرامج شون هانيتي[482] الإذاعية إلى بيركلي كاليفورنيا، للاشتباك مع أنتيفا وحزب الفهد الأسود الجديد؟[483]

حتى عندما انزلقت يوغوسلافيا السابقة إلى الحرب الأهلية في التسعينيات، كان من الصعب على الفصائل المتحاربة أن تجد جنوداً لخوض المعارك الفعلية، لدرجة أن القوميين الصرب انتهى بهم الأمر إلى الاعتماد على السجناء المدانين

---

(480). MAGA هو اختصار Make America Great Again أي «فلنجعل أمريكا عظيمة مرةً أخرى»، شعار ترامب الانتخابي. وهو الشعار نفسه الذي كان رونالد ريغان قد استخدمه في حملته الانتخابية عام 1980

(481). القرى The Villages هو الاسم المتداول كناية عن فلوريدا.

(482). شون هانيتي Sean Hannity: مقدم برنامج حواري أمريكي ومعلق سياسي محافظ.

(483). حزب الفهد الأسود الجديد New Black Panther Party: انظر التعريف السابق بـ«الفهود السود».

وعلى مثيري الشغب في ملاعب كرة القدم. كان ذلك مجتمعاً لا يزال يتذكر الحرب العالمية الثانية وقد مزقته الأحقاد القديمة. أما أحقادنا وحزازاتنا فتتأجج بطريقتها الخاصة، ولكن ليس من الواضح أنها على النحو الذي ذكرناه، أي الطريقة القديمة. إنها الطريقة التي أقنعت الشباب ذات مرة بأنه من اللياقة وحسن الخلق أن تموت من أجل وطنك أو قضيتك، وهي الطريقة التي أعطت الولايات المتحدة في فترة ما قبل الحرب الأهلية تلك الأحداث من قتال الفوات بعضها بعضاً في سبيل مناهضة العبودية أو من أجل تأييدها في «نزيف كانساس».[484]

هناك خوف مفهوم في عصر الهيجان عبر الإنترنت، من أن نوعاً ما من التدفّق الثقافي والسياسي سيقود إلى انحدار مجتمعنا إلى نوع مماثل من الصراع المدني. لكن ربما كانت طبيعة انحطاطنا، وطبيعة شيخوختنا الحضارية، هي التي لا تجعل هذا السيناريو محتملاً، ولربما كانت مشكلتنا مختلفة من حيث أن معاركنا الصاخبة والغاضبة لا تدل سوى على القليل مما له علاقة بواقعنا، وحتى عندما تكون أكثر ضراوةً، فإن العالم الافتراضي يجعلها فارغة وأقرب إلى العرض الدرامي، فهذا الغضب المنتشر على الإنترنت هو مجرد صمام أمان، أو هو عامل تهدئة بالنسبة إلى مجتمع يعاني من سوء الحكم، ومصاب بالركود، ولكنه في النهاية أكثر استقراراً مما يبدو على تويتر.

تذكروا أن **جاك برزون*** كتب أن الانحطاط يمكن أن يكون «وقتاً نشطاً للغاية، ومضطرباً بشكل خاص»، على الرغم من ميله نحو التعب والتكرار. هذا المزيج من القلق والنشاط المحموم الذي يقوم بالتكرار وإعادة التدوير إلى النهاية، تنبأ به أيضاً جان بودريارد، المعروف بتركيزه قبل الإنترنت على الواقع المحاكى بوصفه تجربة ضمنيّة في الحداثة المتأخرة، وقد أجاب المنظّر الفرنسي على حجة

---

(484). نزيف كانساس أو كانساس النازفة Bleeding Kansas: المواجهات العنيفة بين الأمريكيين من مناهضي العبودية والمؤيدن لها في الفترة من 1854 إلى 1861.

فوكوياما حول «نهاية التاريخ» باقتراح يقول أن المجتمع الذي يواجه إغلاق حدوده التاريخية لن يعاني، في الواقع، من غياب من يرشده ويقوده، ومن «قرون السأم والتبرّم» التي خشيها فوكوياما، بسبب «الابتكار ما-بعد-الحديث لإعادة التدوير»، يقول:

«لن يصل التاريخ إلى نهاية ما، ولن نستثني الأسوأ طالما أن المخلّفات، جميع المخلّفات، مثل الكنيسة والشيوعية والجماعات العرقية والصراعات والأيديولوجيات، قابلةٌ لإعادة التدوير إلى ما لا نهاية. المذهل هو أن لا شيء مما يُعتقد أن التاريخ استبدله قد اختفى حقاً، فجميع الأشكال العتيقة التي عفا عليها الزمن كامنةٌ وجاهزة للظهور من جديد، دون أن تتأثّر بالزمن، مثل الفيروسات في أعماق الجسم. لقد انتزع التاريخ نفسه من الزمن الدوري ليقع في نظام إعادة التدوير».

إذا جمعنا بين المحاكاة وإعادة تدوير في مفهوم بودريارد، سنحصل على تجربة غريبة من الراديكالية السياسية في ظل الانحطاط. لندخل إلى مصفوفة المناقشات السياسية على الإنترنت، وسنشعر كما لو أن التاريخ بأسره يعود. الاشتراكيون والماركسيون، مرةً أخرى! الملكيون الكاثوليك والوثنيون الجدد، مرة أخرى! الفاشيون والاشتراكيون القوميون، مرة أخرى! لنخرج من الفضاء الافتراضي إلى الهدوء التعيس الذي يسم حياة الطبقة الوسطى اليومية، حيث تشكّل المخدرات والانتحار إغراءات أكثر خطورة من التطرّف السياسي والعنف الثوري، ولسوف نشعر بأننا كنا تحت هيمنة «عقّار هكسلي»، بكل تلك التأثيرات المنشّطة للعيش في الثلاثينيات، ولكن مع عدد أقل بكثير من الضحايا.

إذا كنتم تريدون أن تشعروا بأن المجتمع الغربي مضطرب ومزعزع، فهناك تطبيق افتراضي لذلك، ومحاكاة مقنعة تنتظركم. أما في العالم الواقعي فمن الممكن أن يكون المجتمع الغربي مسترخياً وفي أكثر أوضاعه ارتياحاً، شاعراً بالخَدَر، متذكّراً شبابه الأيديولوجي الجامح والمتهوّر.

6

الطغيان اللطيف

تم في صيف 2018 اكتشاف جثة في سيارة متوقفة في «إيست فيليج»[485] في نيويورك. كان القتيل رجلاً يدعى جيفري كوربيس، وقد بقي داخل السيارة لمدة أسبوع قبل أن يلاحظه أحد.

اتضح بعد إجراء بعض التحقيقات أن اسمه الحقيقي كان جيفري ويغلارز، وأن قصة حياته مرّت بحالة من الاحباط على نحو مريع في «طفرة المواليد» الكبرى. لقد ولد ضمن سبعة أطفال في فلوريدا في خمسينيات القرن الماضي، وكان مهووساً بعصر الفضاء عندما كان طفلاً، وكان هو وصديق طفولته «يقضيان ساعات طويلة وهما يستذكران كل رحلة استكشافية ويعيدان ترتيب تفاصيلها»، حسبما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز في نعي نشرته وحلّلت فيه واقعة وفاته. ثم أصبح لاحقاً مصمّم برمجيات في مدينة نيويورك، وتزوج وأنجب طفلًا واحداً، ولكن بدا أن حياته الشخصية والمهنية بلغت ذروتها في الألفية الجديدة ثم تدهورت بعد ذلك. كانت هناك انتكاسة كبيرة بشكل خاص بعد الأزمة المالية، وقد اضطر إلى ترك الوظيفة لمرتين، وبعد أن استقال من وظيفته الثانية، لأنها كانت تتطلب السفر مراراً إلى تكساس الأمر الذي أدى إلى التوتّر بينه

(485). تعرف إيست فيليج East Village (منهاتن. نيويورك) بصخب حياتها الليلية حيث تنتشر فيها الحانات وأماكن اللهو.

وبين زوجته بسبب ترتيبات الحضانة المشتركة، ولم يتمكن من العثور على وظيفة جديدة، وفي النهاية أصبح مثالاً للبطالة وهو في أواخر منتصف العمر، وظهر في فيلم وثائقي على برنامج «**الساعة الإخبارية**»[486] واصفاً موارده المالية المتدنية، وقلقه الشخصي.

في هذا الوقت تقريباً، من عام 2013، حدث شيء آخر، فقد أخطأ ويغلارز في حق جاره وحق النسيج الاجتماعي، وكانت عقوبته دائمة وشديدة. ثم ذهب يوماً ما إلى أحد مطاعم ماكدونالدز حيث يستلم طلبه وهو في سيارته، وتلقى طلباً خاطئاً هو غير الوجبة السريعة التي أمر بها، فعاد إلى المطعم لتقديم شكواه، ما أدّى إلى مشادّة ألقى فيها بالشطيرة على موظفة المطعم التي كانت حاملاً. كانت العقوبة القانونية في حدّها الأدنى، بعد أن وُجهت ضده تهمة السلوك غير المنضبط، والتي تم إسقاطها في النهاية. لكن التفاصيل المتّصلة بعاملة المطعم الحامل أكسبت الحادثة اهتماماً سريعاً من وسائل الإعلام التي نشرت بدورها سجلاً دائماً عن ويغلارز في المكان الذي يهتم بتفاصيل حياة العديد من الأشخاص أكثر من اهتمام النظام القانوني بهم، وهو السجل المحفور على صخر الغرانيت والذي تظهره نتائج البحث على منصة «غوغل»، المتاحة لأي صاحب عمل مثلما هي متاحة لكل من يبحث.

هكذا، وبعد أن كان البحث عن عمل جديد أمراً صعباً، صار بعد ذلك مستحيلاً، ما أجبر ويغلازر على اتخاذ اسم مختلف والعيش باسمه المستعار «**جيفري كوربيس**» لبقية حياته التي انتهت بالبحث عن السم عن طريق مواقع الإنترنت، الإنترنت التي ألحقت به تلك السمعة السيئة على مدى خمس سنوات، وأخيراً كتب رسالة نصّية وداعيّة وجدت في سيارته حيث مات وبقي جسده متعفناً لمدة أسبوع.

---

(486). بي بي اس نيوز أور PBS NewsHour: برنامج إخباري تلفزيوني يومي تبثه 350 محطة أمريكية عضو في شبكة بي بي اس.

لقد أدت بشاعة هذا الاكتشاف أخيراً إلى ما كان ويغلازر عاجزاً عن القيام به في حياته، وإذا بحثتم في «غوغل» عن اسمه الحقيقي اليوم، فإنكم لن تجدوا العنوان الرئيسي الذي جرّه إلى الانتحار: «رجل غاضب يعتدي على مديرة مطعم مكدونالد»، في أعلى قائمة النتائج التي يظهرها محرك البحث.

عصر الائتمان الاجتماعي

في فصل الصيف نفسه الذي انتحر فيه ويغلارز، كانت مكبرات الصوت على متن القطار السريع الذي ينطلق من بكين إلى شنغهاي تردّد الإعلان التالي: «أيها الركاب الأعزاء، الأشخاص الذين يسافرون بدون تذكرة أو يتصرفون بشكل غير قانوني، أو يدخنون في الأماكن العامة، سيتعرضون للعقوبة وفقاً للوائح المعمول بها، وسيتم تسجيل السلوك في نظام المعلومات الائتمانية الخاصة بالأفراد. لذلك، ولتجنب وجود سجل سلبي في ملف الائتمان الشخصي، يرجى اتباع اللوائح، والالتزام بالتعليمات على متن القطار وفي المحطات».

لا يعد نظام الائتمان الاجتماعي أكثر التجارب رعباً في السيطرة الشمولية التي تسم جمهورية الصين الشعبية (ينتمي هذا التمييز إلى الثورة الثقافية التي يتم فرضها على الأيغور[487] في غرب الصين). إنه شكل لطيف نسبياً من الإشراف والتلاعب، يتم من خلاله تطبيق منطق التصنيفات الائتمانية على جميع أنواع السلوك المحتملة المعادية للمجتمع، على القطارات والطائرات وبشكل متزايد في المدن الصينية. قد يجد سكان المدن والمسافرون المشمولون بنظام الائتمان أنفسهم مصنفين إلى درجات ترتفع تلقائياً عندما يتبرعون للجمعيات الخيرية وتنخفض عندما يعبرون الإشارة الحمراء، أو يعبرون الطريق بشكل فوضوي، أو يتنزّهون مع كلابهم بدون مِقْوَد.

(487). الأيغور Uighurs: مجموعة عرقية تركية، في منطقة شينجيانغ أيغور ذاتية الحكم في شمال غرب الصين.

تأتي الدرجات العالية مع منافع أخرى، مثل استئجار الدراجات دون إيداع مسبق، أو تتبُّع طلبات الموافقة على التأشيرة بسرعة أكبر، أما مع انخفاضها بدرجة كافية، فقد تجد نفسك ممنوعاً من ركوب الحافلات والقطارات والطائرات، أو محروماً من الحق في إجراء عمليات شراء معينة، أو ممنوعاً من الاستفادة من الخدمات الاجتماعية، وتعرّض نفسك للتوبيخ بشكل علني على اللوحات الإعلانية الحكومية أو على الإنترنت.

ونظراً لأن هذه الأنظمة لا تزال تجريبيةً، فإن تطبيقها يتبع أشكالاً مختلفة في مدن مختلفة (هناك مثلاً نظام نقاط خاصّ بمالكي الكلاب فقط، حيث من الممكن أن تحضر درجةٌ منخفضة جمعيةَ الرفق بالحيوان إلى باب بيتك لأخذ الكلب)، وهناك إصدارات ليست رسمية تديرها شركات خاصة، وهي تتداخل مع النسخة الحكومية. لكن حكومة بكين تأمل أن يكون هناك نظام ائتمان اجتماعيّ موحّد يعمل على مستوى الصين بأكملها في القريب العاجل. إذا نجحتْ في ذلك، فسيكون مشروعها تتويجاً لمشروع أكبر من مشاريع التكيّف في العصر الرقمي. لقد قام الحزب الشيوعي الصيني، تحت ضغط الإنترنت الكبير، بقلب تقنيات العصر الافتراضي من أجل خدمة قضية الركود السياسي والاستقرار الاجتماعي، وفرض الرقابة الرسمية على الإنترنت بحيث تصبح آلة لتشجيع الاستهلاك وتسهيل ضروب الإلهاء، بدلاً من تركها ملاذاً للمخالفين، ولتسخير تقنيات المراقبة وبرامج التعرّف على الوجوه[488] لضمان تمتّع المواطنين الصينيين بخصوصية فرديّة أقل من ذي قبل، وللاعتماد على شعبية تطبيقات وسائل التواصل الاجتماعي التي تتيحها شركات الإنترنت الصينية، لتتبع الحركات والمعاملات المالية والمحادثات، وغير ذلك من الأغراض.

كنا قد تحدثنا في الفصل الأخير عن الكيفية التي يمكن أن يكون بها الانحطاط

---

(488). برنامج التعرف على الوجوه Facial-recognition software: تقنية رقمية تطابق بين ملامح الوجوه ونماذج مصنّفة ومسجّلة في قاعدة بيانات كبيرة. تستخدم للتحقق من الهوية.

المستقر شيئاً يتم اختياره بحرية بدلاً من فرضه، وكيف أن سكان مجتمع ثري وعريق ومريح ربما يفضّلون الركود في وجود إلهاء افتراضي، وسياسة حفلات تنكريّة، ومنتجات صيدلانيّة توفّر الرّاحة، بدلاً من العمل لمعالجة العالم الحقيقي أو تجديده أو إصلاحه أو تثويره. لكن التفضيلات مرنة، والخيارات «الحرة» مشروطة، والملذات تتحول إلى إدمان، أما ممارسات الشركات والحكومات على السواء فإنها تساعد على تحديد أي الخيارات يبدو طبيعياً وأيها ليس كذلك... لذا فإن هذا الفصل يدور حول استراتيجية السيطرة التي قد تستخدمها السلطات في مجتمع منحط للحفاظ على النظام، وهيكل الحوافز، والمكافآت والعقوبات التي تحدد مسبقاً وبشكل جزئي طبيعة الحياة في ظل الانحطاط، وإذا كان لنظامنا أن يكون مستداماً، فلابد بالضرورة أن يكون أكثر فاعلية ونفاذاً وتحقّقاً بمرور الوقت.

بالمقارنة مع نظام الائتمان الاجتماعي في الصين، فإن نسخة هذه الإستراتيجية التي نراها في العالم الغربي تعتبر أكثر لامركزية وتفتقد إلى التنظيم، وهي أكثر محدوديّة وتمدناً بفعل ما تبقّى من تقاليد ليبرالية في الغرب، أي أنها أقل تصميماً وأكثر تطوراً. ولكي نقارب الوصف الشهير لرؤية دنغ شياو بينج[489] على أنها «رأسمالية ذات خصائص صينية»، يمكن وصف النظام الناشئ للرقابة الاجتماعية في الغرب المنحط بأنه «دولة بوليسيّة ذات خصائص ليبرالية». إن قواعدها وقسوتها تتشكّل ويتم التحقّق منها عن طريق النزعة الفردية الثقافية في الغرب، ودعمها السّياسي لحقوق الإنسان. لكنها تظل تتمتع بطابع سلطوي، أو تغلب عليها الطبيعة الاستبدادية بشكل لطيف، تحت راية لم يعد يميّزها لون الشيوعية الأحمر أو لون الفاشية الأسود والبنّي، بعد أن أخذت لوناً ودوداً ومفيداً ومبهجاً، وهو اللون الذي يتخذه مقدّمو العناية والرعاية، أو يتّخذه أكثر المحقّقين رحمةً:

(489). دنغ شياو بينج Deng Xiaoping: القائد الأعلى لجمهورية الصين الشعبية من ديسمبر 1978 إلى نوفمبر 1989.

اللون الطفولي الوردي اللطيف.

الدولة البوليسية الوردية

تنتمي عبارة «الدولة البوليسية الوردية» لجيمس بولوس[490]، وهو فيلسوف ومحلل غريب الأطوار من كاليفورنيا، وقد قام باقتباسها من فيديو موسيقي لمارلين مانسون[491] في أغنية لها عن تعاطي المخدرات وأسلوب الحياة عام 1998، وتعرض بعض لقطات الفيديو شرطة مكافحة الشغب تصدّ الاحتجاجات المناهضة للعولمة، وكانت حسب وصف بولوس: «ترتدي لوناً وردياً من الرأس حتى أخمص القدمين، وتقترب من بعضها بعضاً في عناق غرامي». قد يبدو استخدام هذه الصورة من قبل مانسون، التي أُفترِض حينذاك أنها «الشخص الأكثر خطورة وتهديداً في موسيقى البوب»، بمثابة رؤية تخريبية، وهجوم على سلطة رجال الشرطة. لكن بولوس اعتبره بدلاً من ذلك احتفالاً ضمنياً بنظام اجتماعي نشأ للتو، نظام كانت فيه السلطة العامة «تتدخل بعدوانية في التفاصيل الحميمة للحياة اليومية كأنها نصير لبعض أنواع الحريات المدنية ولكنه عدو للآخرين».

الحريات المدنية التي يجب حمايتها وتشجيعها في هذا النظام الجديد هي حريات المتعة والاستهلاك، وحرية أن تكون «آمناً» بكل المقاييس، بدءاً من الحماية من التهديدات إلى السلامة الجسدية وحق التعبير الشخصي والرفاهية النفسية. الحريات التي يجب تقييدها هي الحريات التي تمكّن من المقاومة، الشخصية والسياسية على حد سواء: حريات الدين والتعبير، والقدرة على المشاركة الكاملة في الثقافة دون التضحية بخصوصياتك، ودون أن تكون حياتك نوعاً من الكتاب

---

(490). جيمس بولوس James Poulos: كاتب ومفكر مهتم بقضايا الحرية وسياسة المستقبل. من مؤلفاته: «فن الوجود بحرية».

(491). مارلين مانسون Marilyn Manson: مغنية وكاتبة أغان ومنتجة وممثلة ورسامة أمريكية.

المفتوح.

يجادل بولوس بأن «**الدولة البوليسية الوردية**» تمحو جزئياً فكرة التقسيم على أساس «العام-الخاص»، وتستبدلها بثنائيات بديلة مثل «**الصحة-المرض**»، و«السلامة-الخطر»، حيث يتم في هذا المشهد «تطبيب» المشاكل الاجتماعية بشكل متزايد، مع لغة علاجية تحلّ محل الوعظ الأخلاقي والاستجابة النمطية لأي نوع من الاضطراب أو التعاسة. إن السلوك الخاص أكثر حرية في مجموعة متنوعة من الأفعال المسموح بها، ولكن يتم تنظيمه بشكل أوثق بالنسبة إلى كل حالة قد تشي بإمكانية وجود الأذى النفسي، فضلاً عن الجسدي. كما أن الحريات السياسية والدينية القديمة تركز بشكل أكبر على احتمالات «الضرر» أو «الخطر» في الثنائيات الجديدة، لأن الاستبعاد الديني أو التميز الأخلاقي قد يجرح شعور الفرد بالرفاهية، كما أن الخطاب السياسي قد يعبر بالمثل عن الكراهية، التي تصبح مقيتة وسبباً في إلحاق الضرر، فهي بالتالي مرفوضة وغير مقبولة.

توجد النسخة الأكثر ثباتاً من هذا النظام في بعض الجامعات الأمريكية، وقد شقّت طريقها إلى «**الدولة البوليسية الوردية**» بدافع الضرورة التجارية. ففي العقود القليلة الماضية، ميزت جامعاتنا نفسها من خلال الوعود التي قدمتها لإنجاز أشياء تبدو غير متوافقة مع قاعدتي عملائها، (أ) بالنسبة إلى الآباء الذين يدفعون الفواتير، حيث تعِدُ الجامعة بالسلامة والإشراف والبيئة المميزة التي سيتم فيها منح أبناء الطبقة المتوسطة كل الرعاية التي يتوقعها الآباء الحريصون، و(ب) بالنسبة إلى الأبناء الذين يتخذون القرار فعلياً، لأنها تَعِدُهم بالدخول في «**رومسبرنغا**»[492] طويلة المدى، هي عبارة عن عطلة لمدة أربع سنوات يتحررون فيها من الإلتزام بقواعد الطفولة ومسؤوليات الكبار، ويعيشون خلاعة «بيت

(492). رمسبرينغا Rumspringa: تقليد في بعض مجتمعات الأميش Amish يمنح فيه الأولاد والبنات حرية أكبر من حيث اختياراتهم الشخصية ويسمح لهم بإقامة علاقات رومانسية تنتهي عادة باختيار المعمودية في الكنيسة أو مغادرة المجتمع.

الحيوانات» أو «المدرسة القديمة»[493] التي من المفترض أنها قد ضُمّنت في الرسوم الدراسية.

إن المواءمة بين هذين الوعدين هي مهمة البيروقراطية الجامعية الآخذة في التوسّع، والتي تتمثل في حماية صحة ورفاهية الجسم الطلابي دون اللجوء إلى الفضائل الأخلاقية القمعيّة مثل العفّة والاعتدال التي قد تحدّ من إقبال الطلبة على الحياة الجامعية. وتقدم بيروقراطية الجامعة المشورة والعلاج الطبي للتخلّص من الاكتئاب الذي يبدو أنه شائع في بيئة اجتماعية من المفترض أنها مكرّسة للتمتّع بالوقت دون هموم، مع تقديم وسائل الوقاية المجانية لمنع أضرار الأمراض المنقولة بالاتصال الجنسي STD، وأخطار الحمل (حيث «**الدولة البوليسية الوردية**» معادية بشكل خاص للأفعال غير المخطط لها وغير الآمنة)، وغير ذلك من القواعد القمعيّة المعتدلة في الخطاب الجامعي التي تثبّط بلطف أي شيء قد يزعج الطلاب الذين تعلّموا على الافتراضات الليبرالية اليسارية حول الكون وحول هوياتهم الفردية. أما الظاهرة الغريبة التي نشأت هنا فهي ما أطلق عليها أستاذا القانون جيني سوك[494] وجاكوب غيرسن[495] اسم «**بيروقراطية الجنس**»، بوصفها نظاماً يهدف إلى منع الاغتصاب والاعتداء الجنسي، وهو الأمر الذي يحوّل مديري الجامعة إلى «بيروقراطيين يحرسون الرغبات، ومسؤولين عن تحديد الجنس الصحي المسموح به، وعن تهذيب الانحرافات في ظل تلك المعايير المفترضة».

إن هذا النظام ذاتيّ الانضباط، بشكل مدهش، وعلى الرغم من وجود عدد لا حصر له من المواد الفكرية المنشورة عما يسمّى «**فقاعة التعليم العالي**»، إلا أن هناك

---

(493). بيت الحيوانات (Animal House (1978، و«المدرسة القديمة» (Old School (2003: فيلمان كوميديان أمريكيان عن حياة الطلبة الجامعية.

(494). جيني سوك Jeannie Suk: أستاذة القانون بجامعة هارفارد. من مؤلفاتها: «ثورة العنف المنزلي وتغيير الخصوصية»، ولها أيضاً «مفارقات ما بعد الاستعمار في الكتابات الكاريبية-الفرنسية».

(495). جاكوب غيرسن Jacob Gersen: أستاذ القانون بجامعة هارفارد، ومدير مختبر قانون الغذاء. من مؤلفاته: «بيروقراطية الجنس»، و«تفويض الأعداء».

القليل من الدلائل على تباطؤ الطلب، مع ملاحظة أن انخفاض معدلات المواليد قد يكون له بعض التأثير على استدامة هذا النظام في الوقت القريب.

يؤدي غياب الإجراءات القانونية في «**البيروقراطية الجنسية**» أحياناً إلى ارتكاب بعض المظالم ضد الشباب، وهو ما ينتج عنه بدوره بعض القلق وردود الفعل العكسية من الآباء والمتبرّعين، ولكن معظم الطلبة يختبرون بيروقراطية الجنس على أنها استبداد ناعم، وليس تسلّطياً. ويثير الامتثال الذي تفرضه قواعد الخطاب الصحيحة سياسياً نوعاً معيناً من ردود الفعل العكسية من الطلاب والأساتذة ذوي الميول اليمينية (كما في دعوة **ميلو يانوبولوس**[496] لإفزاع الساحات!)، وعادة ما تكون ردود الفعل تلك متشدّدة للغاية، مثلما كانت دائماً. وفي الوقت نفسه، فإن أكثر أشكال الاحتجاج انتشاراً، وهم اليساريون المنادون بتطوير نظام العدالة الاجتماعية، موجود على نحو متكافل مع أجهزة «**الدولة البوليسية الوردية**»، حيث يتجرأ الطلبة المتظاهرون على انتقاد الجدل الجامعي، أو بقايا النظام الأبوي الذكوري الأبيض الآيل للزوال (البقايا التي لا يُعثر عليها اليوم إلا في شكل تمثال أو في عنوان أو أغنية)، كما تستجيب الإدارة بأن تَعِد بتأسيس طبقة أخرى من بيروقراطية الرعاية مكرّسة لأشكال هويّاتية من التمكين الشخصي يمكن فيها لنوع معين من المتظاهرين أن يجد عملاً على الفور بعد التخرّج.

لا يوجد شيء يماثل هذا النظام في عالم ما بعد التخرّج الذي ينتظر الطلبة خارج الكلية. لكن ثقافة الصحة والسلامة المماثلة تهيمن على الأحياء وأماكن العمل التي يلتحق بها العديد من خريجي الجامعات، وخاصة الجامعات المخطَّط لها والتي يعمل فيها أكثر الخرّجين كفاءةً. إنه يشبه حلم العمدة **مايكل بلومبيرغ**[497] بتطهير مدينة نيويورك وجعلها أكثر أمناً وتنظيماً عن طريق نشر كاميرات الشوارع

---

(496). ميلو يانوبولوس Milo Yiannopoulos: كاتب وشاعر ومحلل ومعلق سياسي بريطاني من أقصى اليمين، خصص جزءاً من كتاباته للحديث عن الإسلام والعدالة الاجتماعية والاصلاح السياسي.

(497). مايكل بلومبيرغ Michael Bloomberg: عمدة مدينة نيويورك السابق (من 2002 إلى 2013).

والشرطة في كل مكان، أي حلم «الدولة البوليسية الوردية» الذي يتم تطبيقه على السياسات المدنية. وهناك نسخة خاصة من هذا التطبيق أيضاً لتعميمها على مكاتب وادي السيليكون حيث يُقدّم للمبرمجين الشباب فضاءات عمل واسعة ومساحات معدَّة لممارسة اليوغا (لكن لا توجد خيارات متاحة تتعلق برعاية الأطفال باستثناء حافز تقدمه بعض الشركات لتجميد البويضات لغرض الإنجاب مستقبلاً!)، وحيث يتم فصل المهندسين من ذوي التوجّه اليميني في بعض الأحيان بهدف تشجيع الآخرين، أنه نموذج الجامعة الذي تمدّد ليطغى على عالم المهن والأعمال. كما أن كثيراً من دول أوروبا الغربية لديها نسختها الخاصة بها من هذه التطبيقات، وتهدف إلى ضبط ومراقبة التوترات بين السكان الأصليين والوافدين الجدد، وبين العلمانيين ما بعد المسيحيين والمهاجرين المسلمين، ما يجعل شوارع المنتزهات الترفيهية في القارة آمنة قدر الإمكان للسيّاح من خلال المراقبة وقمع الحريات الدينية والمدنية التي من شأنها أن تجعل **ديك تشيني**[498] يحمر خجلاً.

كل هذه الأمثلة محدودة في ما تشير إليه من رعاية، مثلما بالنسبة إلى التدليل على القمع كذلك. فالجامعة تستمر أربع سنوات فقط، ويمكنك التنقّل والعمل حيث شئت دون أن يجبرك أحد على الاختيار، لكن الأمر الأكثر صعوبة من ذلك هو القدرة على الهروب من «رعاية» الإنترنت، والتي يقرّ العديد من مخترعيها المحبطين على نحو شكل متزايد بوظائفها كنظام مراقبة عالمي، وباعتبارها نظاماً يسجّل كل تحركاتك، وكل معاملاتك، وكل كلامك وصورك وبريدك الإلكتروني، من أجل أغراض تجارية خاصة بالشركات. وبالاقتباس من الروائي والتر كيرن[499]، في مقال له بمجلة **«أطلنطيك»** عن جنون الارتياب في عصر

---

(498). ديك تشيني Dick Cheney: نائب رئيس الولايات المتحدة جورج بوش من 2001 إلى 2009.

(499). والتر كيرن Walter Kirn: روائي وناقد وكاتب أمريكي، من مؤلفاته: «إرادة الدم»، و«فك ارتباط»، و«عالياً في الهواء» الذي تم تحويله إلى فيلم بنفس العنوان من بطولة جورج كلوني.

الإنترنت: «أرسل نصاً يقول «لا تدع البق يلسع»، فيصلك في صباح اليوم التالي عبر بريدك الإلكتروني إعلان عن تسويق المبيدات الحشرية»، وكما قال الخبير الأمني بروس شناير[500] ذات مرة، فإن المسألة لا تكمن في أن الإنترنت قد تم اختراقها من قبل دولة المراقبة، أو وكالة الأمن القومي، أو وكالة المخابرات المركزية. إنها تكمن في أن الإنترنت هي فعلاً حالةُ مراقبة، إنها تطبيق افتراضي لسجن المراقبة الجماعية (بانوبتِكون) الذي ابتكره جيرمي بنثام[501]، حيث لا يتعيّن على «الأخ الأكبر»[502] أن يراقب الجميع، لأن الجميع يراقبون الجميع على مدار الساعة.

في محبة البانوبتِكون

لقد طاردت هذه الاحتمالية «الديستوبيّة»* تجربة الإنترنت في وقت مبكر، ولكم أن شاهدوا أفلام البارانويا التي أُنتجت في عهد كليتنون، مثل «عدوّ الدولة»[503] و«الشبكة»[504]، حيث يجد الأبرياء أنفسهم مطاردين رقمياً ومراقبين، بعد أن مُحيت أسماؤهم وسجلاتهم الشخصية. لكن الإنترنت في مراحلها الأولى كانت مجهولة الهوية أكثر بكثير من كونها تجربة حيّة وحيويّة، كانت عالماً من غرف الدردشة وأقسام التعليقات والأسماء المستعارة والمداخل وأسماء الشاشة، وقد تمّ

(500). بروس شناير Bruce Schneier: محاضر وكاتب وخبير تشفير أمريكي. متخصص في أمن الكمبيوتر والخصوصية. من مؤلفاته: «التشفير التطبيقي»، و«أسرار وأكاذيب: الأمن الرقمي في عالم الإنترنت».

(501). جيرمي بنثام Jeremy Bentham (1748- 1832): مصلح اجتماعي بريطاني ابتكر البانوبتيكون Panopticon (سجن المراقبة الجماعية)، وهو سجن مركزي تتم فيه مراقبة السجناء على مدار الساعة، بوضع برج مركزي في السجن تحيط به زنازين السجناء بحيث تتم المراقبة بأقل عدد من الجنود، وبتكلفة زهيدة. ويعبّر اللفظ (وهو مشتق من كلمة panoptic التي تعني القدرة على رؤية كل شيء بنظرة واحدة) عن مفهوم تأديبي مفاده المراقبة المستمرة دون علم المراقبين أنفسهم.

(502). الأخ الأكبر Big Brother: شخصية الحاكم المستبد الغامض في رواية جورج أورويل (1948)، ونستخدم الكلمة للإشارة إلى استبداد وتعسّف الحكام وعدم احترام الخصوصيات الفردية.

(503). عدو الدولة Enemy of the State: فيلم إثارة أمريكي (1998)، من إخراج توني سكوت.

(504). الشبكة The Net: فيلم إثارة أمريكي (1995)، من إخراج إيروين وينكلر.

تجسيد هذا الانطباع ذات مرة عن طريق رسم كاريكاتوري شهير في مجلة «نيويوركر» يقول التعليق المرفق به: «على الإنترنت، لا أحد يعرف أنك كلب».

إذا كان كل ما تريد القيام به على الإنترنت هو ترك تعليقات مجهولة، فإن هذه التجربة لا تزال قائمة إلى حد ما، ولكن ما تقدّمه الإنترنت بالنسبة إلى معظم الناس هو وَهْمُ الخصوصيّة، والشعور بالتواصل غير المرصود والمراقَب، وبسبب هذا الشعور، لا يشعر معظم مستخدمي الإنترنت بالحاجة إلى إخفاء أنفسهم بأسماء مستعارة، مفضّلين التواصل على الإنترنت بالطريقة التي يستخدمونها في الحفلات أو في غرف المعيشة، وهم يرسلون الرسائل النصيّة والبريد الإلكتروني والرسائل الفورية المباشرة بنفس الأسلوب غير الرسمي الذي كان يستخدمه المرء في رسالة شخصية أو في مكالمة هاتفية، وينخرطون في وسائل التواصل الاجتماعي كما لو أنهم ينشرون تغريداتهم ومنشوراتهم ليقرأها المقربون والأصدقاء وليس العالم بأسره.

هذا يعني بكل تأكيد، أنهم معرّضين في الواقع لأن يكونوا مكشوفين أمام الغرباء والأعداء، وأمام قراصنة الإنترنت والفضوليين، أكثر ممّا كان عليه البشر قبل انتقال حياتهم الاجتماعية إلى الإنترنت. وهم معرّضون قبل كل شيء، لنوع جديد من الاضطهاد والمضايقات، لأن القدرة على رؤية الكثير من الأفكار والآراء غير الناضجة وغير المدروسة جيداً والتي تصدر في كل مكان قد أغرى البعض بالقيام بما يمكن أن يفعله الآخرون على نحو أفضل، أي التلصّص على أعدائهم أو أعدائهم المتصوَّرين، وملاحقتهم بغرض القضاء عليهم وتدميرهم افتراضياً، مثلما يقومون بابتكار جرائم جديدة يستطيعون بها وصف تغريدات تويتر أو منشورات فيسبوك التي يجدونها مسيئة، فهم يعملون بشكل عام مثل أجهزة الشرطة، دون أن يعيّنهم أحدٌ للقيام بذلك ودون أن يتقاضوا أجراً على «خدماتهم» من قبل سلطة ما.

ما يكتبه فريدي ديبوير[505]، وهو رجل يساري، عن الجزء الخاص به من النظام البيئي السياسي ينطبق على الإنترنت بالكامل، وليس فقط على توجهاته التقدمية. يقول عمّا يسميه **«العالم المتيقّظ»**:

«هو عالم من الوشاة والمخبرين والجرذان. اذهب إلى أي فضاء يُعنى بالعدالة الاجتماعية وماذا ستجد؟ مراقبة لا نهاية لها، كلّ شخص هو موضوع حُكم، والجميع مشكوكٌ فيهم، وكل ما تقوله يجب إعادة تدقيقه وتحليله بحثاً عن أي جريمة أو جنحة محتملة، والجميع من ناحية أخرى يتصرفون كأنهم محقّقين في «قسم المشاكل العصيّة»، وهم يعملون على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع. أنت تبحث وتبحث عن شخص ما سيئ يقوم بأشياء سيئة، فتجد طرقاً مختلفة لاتهام الكتّاب والفنانين والأشخاص العاديين بشيء ما، أي شيء».

والآن، يمكنك المشاركة على الأقل في ثقافة الإنترنت مع الحدّ من تعريض نفسك (بشكل أفقيّ) لمتابعات الغوغاء، ولكن من المستحيل عملياً (بشكل عمودي) أن تحمي خصوصيتك، سواء من شركات الإنترنت الكبرى ومقدّمي الخدمات، أو من شبكات التواصل الاجتماعي التي تتمكن وكالات الأمن عن طريقها من الوصول بسهولة إلى معظم ما يسعى الأشخاص وراءه في كل نقرة يقومون بها وفي كل نص ورسالة بريد إلكتروني يكتبونها. وكما يشير جيمس بولوس* فإن هذه «ليست دولة بوليسيّة بالمعنى الذي كتب عنه جورج أورويل، ولكنها دولة... متداخلة مع نسيج من تريليونات المعاملات عبر الإنترنت وخارجها». وكل اختراق جديد في تكنولوجيا المعلومات، كل شكل جديد من أشكال التكنولوجيا (مثل جهاز «ألكسا»[506] المنزلي، وكمبيوتر السيارة، ومنصة «سلاك»[507] للدردشة التي تحوّل البيئة المكتبية إلى مشهد اجتماعي)، يَعِدُنا بجعل

---

(505). فريدي ديبوير Freddie deBoer: كاتب وأكاديمي أمريكي، من مؤلفاته «العبادة الذكيّة».

(506). ألكسا Alexa: جهاز طورته شركة أمازون يتفاعل صوتياً ويقوم بعدة وظائف مثل الأخبار والموسيقى والتحكم في الأجهزة الإلكترونية الشخصية.

(507). سلاك Slack: منصة دردشة تستخدمها الشركات والمؤسسات للربط بين أعضاء فرق العمل.

كل خطوة وكل عملية تنزيل نقوم بها أسهل بعض الشيء من حيث متابعتها واقتفائها. إذن، يعلم الجميع في «دولة المراقبة» أنك كلبٌ حقاً.

الخبر السار هنا، هو أن هذه «الدولة» ليست كياناً أحادياً (أو شبه أحادي على أي حال)، كما نصف المكتب السياسي الصيني الذي يحدّ -بحكم الضرورة- من قمعه، لكنها إدارة متداخلة من المؤسسات والشركات، ومن الهيئات الحكومية، وهي آهلة بأشخاص يتشابهون في التفكير، ولديهم الرغبة في مشاركة المعلومات، مثلما لديهم حافز أساسي مماثل لاستخدام قدراتهم من أجل الحفاظ على استقرار النظام، والحفاظ على أنفسهم بأمان على قمة السلطة. هناك سبب يجعل شركات الإنترنت سعيدة بالتعاون مع الحكومات الأوروبية في قمع الخطاب المتطرف، تماماً كما كانت مستعدة للتعاون مع قيود الصين الأكثر صرامة. هناك سبب لوجود الكثير من التعاون الضمني (على الرغم من النفي الرسمي) بين مخاوف الإنترنت الكبيرة ووكالة الأمن القومي NSA [508]. هناك سبب يجعل اللقطات الكبيرة في وادي السيليكون تتحدث عن الخصوصية بنفس اللغة الأبوية التي يفضلها المتحدثون باسم الحكومة. قال **إريك شميدت**[509] من إدارة «غوغل» لمحاوره عام 2009: **«إذا كان لديك شيء ما لا تريد لأحد أن يعرفه، فقد كان من الأفضل لك ألا تفعله في المقام الأول»**.

هذا النوع من اللغة يخيف المدافعين عن الخصوصية، ولكن يبدو أن معظم الناس في العالم المتقدم لا يهتمون بذلك. هناك عروض دورية توضح بالتفصيل ما يمكن أن تعرفه وكالة الأمن القومي عنك، أو توضّح جميع الطرق التي يتجسّس بها عمالقة الإنترنت عليك بشكل فعال لتحويل بياناتك إلى نقود، ولكن مع وجود بعض الاستثناءات، يبدو أن الناس لا ينزعجون حقاً بشأن مسائل الخصوصية إلا

(508). وكالة الأمن القومي National Security Agency: وكالة استخباراتية تابعة لوزارة الدفاع في الولايات المتحدة.

(509). إريك شميدت Eric Schmidt: تقني ومهندس برمجيات، وهو الرئيس التنفيذي لشركة غوغل بين 2011 و2015، ثم شركة ألفابيت حتى 2020.

إذا أثّرت فقط على بيانات حساباتهم المصرفية مباشرة، أي عندما يحدث اختراق يمكّن شخصاً ما من سرقة بطاقات الائتمان الخاصة بهم أو إفساد سجلاتهم الائتمانية. إن الخسارة العامة للخصوصية ببساطة ليست قضية سياسية كبيرة، بغض النظر عن عدد المجلات التي تنشر المقالات الفكرية عن ذلك، وعن عدد المدافعين عن الحريات المدنية الذين يطلقون الإنذارات، وموقف الجمهور العام يميل تجاه هذا الواقع الجديد إلى أن يبدو أقل شبهاً بالقلق الذي تسمعه من المحذّرين ومن مؤلفي الكتب، بل يشبه إلى حد كبير تلك الخواطر والإدراجات التي تنشر على الإنترنت والتي جمعها حساب على تويتر يسمّى «لا شيء يمكن إخفاؤه» عام 2015، بعد أن كشفت الأخبار أن وكالة الأمن القومي قامت بمتابعة البيانات التي تعمل بها كل شركة إنترنت أمريكية كبرى تقريباً. وفي ما يلي بعض ردود فعل المستخدمين:

- إذا كان ذلك سينقذ الناس من هجوم آخر شبيه بـ 11/ 9، فقوموا به، رسائلي على البريد الإلكتروني ومكالماتي الهاتفية ليست مثيرة على أي حال.
- كان لا بد أن يحدث هذا النوع من الأشياء. نحن نعيش في عصر المعلومات. وإلى جانب ذلك، ليس لدي ما أخفيه.
- إذا كنت تشارك حياتك كلها على وسائل التواصل الاجتماعي، فمن سيهتم إذا ألقت الحكومة نظرة خاطفة؟!؟

إن مفتاح فهم هذه اللامبالاة هو أن «دولة البوليس الوردية» لا تُعتَبر اضطهاداً أو طغياناً من وجهة نظر معظم الناس (على الأقل في الوقت الحالي). نعم، إنها تمنح وادي السيليكون وواشنطن معرفةً استثنائية وقدرات استبدادية محتملة، ولكن وفقاً لمنطق رسمي ينظّم قواعد الصحة والسلامة والترفيه في النظام، حيث تتم ببساطة مراقبة معظم المواطنين دون إحداث شعور بالاضطهاد أو الإكراه. لذا فبدلاً من وجود مناخ عام على غرار «شتازي»[510] المتغلغل في كل مكان، سيكون

(510). شتازي Stasy: أمن الدولة في ألمانيا الشرقية (سابقاً).

هناك تأثير مخيف على هوامش الخطاب السياسي، ويؤثر في الغالب على الجماعات والآراء التي تعتبر منبوذة وسيئة السمعة حقاً. بدلاً من المتطلبات الرسمية للمشاركة والتوافق، سيكون هناك ضغط ناعم، ونكزات[511] متتالية، كأن تكون أقساط التأمين الصحي مرتبطة بساعة يد ترتديها وتراقب لياقتك الصحية، وأقساط التأمين على السيارات مرتبطة بجهاز ذكي مدمج بسيارتك، وغير ذلك من مجموعة التطبيقات التي تراقبك بشكل آلي ما لم تقم بإلغاء اشتراكك فيها، مع معرفتك العامة بأن كل خطوة تقوم بها يمكن التقاطها بكاميرا مراقبة أو من هاتفك الذكي ببساطة، مع احتمال مشاركتها على نطاق واسع بالقدر التي تصل إليه وسائل التواصل الاجتماعي. وهكذا، بدلاً من وجود برنامج صريح للقمع السياسي، سيكون هناك تطبيق عشوائي يعتمد على بنية عامة خاصٌ بالقواعد الاجتماعية والسياسية وانتهاكات عرضية للبيانات الضخمة[512] تجعل الجميع متأهبين وفي حالة تيقّظ. وبدلاً من الأشخاص المسجونين بسبب عدم المشاركة أو عدم المطابقة، سيكون هناك مثال تحذيري من الرجال والنساء الذين أصبحوا عاطلين من العمل بعد نشر مقطع فيديو على يوتيوب أو بعد هفوة على تويتر أو – كما في حالة جيفري ويغلارز – بعد مشادّة في العالم الواقعي وثّقتها منصّة «غوغل» دون أن يتمكنوا من حذفها أو التخلص منها أبداً.

في مثل هذا الوضع، سوف تصبح أشكال معينة من سوء السلوك العام أكثر ندرة حتى أن بعض أشكال البارانويا سوف تكون أكثر عقلانية منها. ولكن نظراً لأن الأشخاص الخطرين غالباً ما يتم استباقهم فعلياً أو القبض عليهم بسرعة، ولأن النظام يتأثر بشدة فقط من الشباب المهتمين بالانضمام إلى داعش، أو محبي

---

(511). للنكزة Nudge في لغة التواصل الاجتماعي معنى التنبيه أو الإشارة. وتحول النكز إلى نمط يمكن من خلاله التأثير على السلوك بشكل غير مباشر والإيحاء باختيارات محددة أو القيام بسلوكيات مرغوبة.

(512). البيانات الضخمة Big Data: مجال تصنيف وحفظ ومعالجة طرق التحليل ومناهج استخلاص المعلومات من قاعدة بيانات معقدة وهائلة لا يمكن معالجتها بالتطبيقات التقليدية.

أليكس جونز[513]، أو الحمقى غير المحظوظين الذين يثيرون الغوغاء على تويتر، فإن الخصوصية في مقابل الأمان ستظلّ مقبولةً من معظم الغربيين، خاصةً عندما لا يوجد بديل واضح عن قطع الاتصال بالإنترنت نهائياً.

من العنف الخفي إلى السّلم الاجتماعي

بالإضافة إلى ذلك، قد يتم قبول النظام ليس فقط لأن الإنترنت تبدو ضرورية ولكن لأنها تزيد كذلك من نشر أنواع معيّنة من السلام بشكل فعلي، تماماً كما يُبعد الترفيه الافتراضي الناسَ عن خطر العالم الحقيقي، وكما يمكن لتقنيات المراقبة الجماعية أن تدّعي بشكل معقول أنها تثبط الإجرام والعنف دون خسارة التكاليف المزعجة التي تتطلبها عادة سياسات القانون وفرض النظام، وكما تَعِد المواد الإباحية والمستحضرات الصيدلانية بتقديم المتعة دون التعرض لخطر المرض والحمل والألم، كذلك يمكن للدولة البوليسية الوردية أن تَعِد بحماية المتعة من خلال تنبيهاتها وقواعدها دون تلك التكاليف السلبيّة التي يفرضها النزوع إلى الإباحية والخلاعة تقليدياً.

في المقال المشار إليه أعلاه، يناقش ديبْوير المفارقة المتمثلة في أن جودة خطاب الإنترنت الذي يقول «كل شخص شرطيّ» تعتبر متقدّمة وسبّاقة حتى عندما بدأت الولايات المتحدة أخيراً في الابتعاد عن سياسات الاعتقال الجماعي المفروضة رداً على موجة الجريمة التي روّعت المدن الأمريكية من السبعينيات حتى التسعينيات. لكن هذه ليست مفارقة، ولا هي صدفة، إنها مجرد تطوّر في استراتيجيات النخبة وأدوات السيطرة والتحكّم، واستجابات النخبة للجوانب السلبية المحتملة في ثقافة المتعة الفردية المفرطة. كان السجن الجماعي كما مارسه السياسيون من كلا الحزبين هو المرحلة الأولى من هذا التطور، وهو محاولة يائسة

---

(513). أليكس جونز Alex Jones: إعلامي ومقدم برامج يميني. يوصف بأنه «رائد نظرية المؤامرة في أمريكا».

ووحشية في كثير من الأحيان لاستخدام سلطة الدولة في التعامل مع العواقب الفوضوية للستينيات والثورة الجنسية وثقافة المخدرات وانحدار المؤسسات الأخلاقية، ولكي أكون متهكماً إلى أقصى حدّ أقول أنها كانت طريقة سكان الضواحي الأثرياء في حماية حقوقهم في الطلاق وفي النوم صباح يوم الأحد وتدخين القليل من الماريجوانا، عن طريق التأكّد من أن أبناء الطبقة الدنيا المحبطة الذين لا يعيشون مع آبائهم أو لا يعرفونهم[514] قد تم حبسهم بسبب بيع أو شراء مخدّر «الكراك». وبعبارة أخرى، مَن الذي يحتاج إلى الكنائس والتزّمت الأمريكي القديم والعائلات التي تعتمد على والديْن، عندما يكون لدينا ثقافة تنصح بأن أي شي «إذا جعلك تشعر بالارتياح، فقم به»، ثم تلقي بالأشخاص الذين يأخذون بهذه الرسالة حرفياً في السجن؟

لزيادة هذا التهكّم في ما يتعلّق بالعصر الحالي، قد تقول بأن الحبس الجماعي أصبح أقل أهمية بمجرد اختراع وسائل ترفيه افتراضية تجعل أطفال تلك العائلات المشتّتة يلازمون بيوتهم ويتغلبون على عدوانيتهم الجسدية والجنسية، وأنه بمجرد أن تطوّرت أدوات المراقبة صار وقوعُ الجريمة أقل احتمالاً، والهروبُ من تطبيق القانون أكثر صعوبة، والحياةُ الخارجة عن القانون أصعب من أن تُحتمل.

يمكن طرح نقطة مماثلة حول الجنس والحمل والإنجاب أيضاً، تماماً كما استخدمنا الحبس الجماعي باعتباره إستراتيجية لإدارة الجريمة، فبدءاً من سبعينيات القرن الماضي قمنا باستخدام الإجهاض للتعامل مع حمل المراهقات والولادة خارج إطار الزواج، والتحكم في حالات الزواج بالإكراه (بسبب الحمل) والكبح الجنسي. من الواضح تماماً أن كلاً من الحبس والإجهاض شكلان خفيّان من أشكال العنف، الأول يُفرض عبر أرخبيل ناءٍ من السجون، بينما

(514). وفقاً لإحصائية عام 2018 عن مكتب الإحصاء الأمريكي يوجد 19.5 مليون طفل (أي 1 من كل 4 أطفال) لا يعيشون مع آبائهم أو لا يعرفونهم في الولايات المتحدة.

يُفرض الثاني في ظلام الرّحم، وكلاهما يخلق وهماً من السلام يدعمه إنكار حقيقة ما حدث في الزنازين من جهة، وما تعامل معه المُجهِضون من جهة أخرى.

ولكن، بشكل واضح أيضاً، أصبح كلاهما أقلّ أهمية بالنسبة إلى النظام مع مرور الوقت، فمع بلوغ «الدولة البوليسية الوردية» سن الرشد، تراجعت معدلات الإجهاض جنباً إلى جنب مع معدلات الجريمة والسجن، تراجعت الظاهرتان معاً لأن الجنس الافتراضي لا يقلّ عن العنف الافتراضي في تشتيت رغبات العالم الحقيقي، وأيضاً لأن النظام يعتمد بشكل متزايد على الحلول الكيميائية الأكثر لطفاً من الإجهاض، مثل التعقيم المؤقت بحقنة «ديبوبروفيرا»[515]، لكي يتأكد من أن الفقراء ليس لديهم الكثير من الأطفال. وهو -أي النظام- يعتمد من ثم على عمليات الإجهاض الدوائي، بحيث يصبح العنف المتبقي أكثر سرية وخصوصية من ذي قبل.

يمكننا أيضاً توسيع هذه المناقشة لتشمل السياسة الخارجية، والطريقة التي يتعامل بها نظامنا مع التهديدات الإرهابية، الإسلاموية وغيرها. فالحروب التي أعقبت أحداث 11 سبتمبر مباشرة، واستراتيجية «الغزو والاحتلال وإعادة بناء الدولة» التي تسبّبت في مأساة العراق وأفغانستان، كانت تناظر نهج القوة الغاشمة التي شهدها عصر السجن الجماعي، النهج الذي أطلق أشد الأخطار مدعاة للسخط في التاريخ الحديث. وفي الوقت نفسه، فإن التحوّل إلى حرب الطائرات المسيّرة عن بعد، والاغتيالات الطارئة من عهد أوباما فصاعداً، هو نهج آخر منخفض التكلفة وأقل عنفاً، وربما يكون بالتالي أكثر استدامة، باستخدام الاختراقات التكنولوجية والحرب الافتراضية، والقوة الهائلة للمراقبة وملاحقة وتعقّب الإرهابيين حتى لو شجعت وفاتهم مجنّدين جدداً، لأن منظماتهم مستعجلة جداً على نقل الحرب إلى شواطئنا ولن تتردّد أبداً.

---

(515). ديبوبروفيرا Depo-Provera: الاسم التجاري لحقنة هرمونية تُستخدم لتحديد النسل.

إن كلمة السر في كل هذه الحالات هي الاستدامة. فنظام السيطرة الذي يتطلب سجوناً ضخمة و1.5 مليون عملية إجهاض سنوياً[516] سوف يلهم الغضب والنشاط والاحتجاج. لكن نظام التحكم الذي يعتمد على المراقبة المستمرة، والإقامة الجبرية المدعومة تقنياً، ووسائل الترفيه الافتراضية، والتعقيم الطبّي، سوف يتلاشى أكثر في خلفية الحياة اليومية، وقد تتفاقم المشاكل الأساسية التي تتطلب هذه الاستجابات أو ربما تتلاشى تلقائياً دون معالجتها، لكنها لن تزعج ضمير الأمة بقدر ما كانت تفعل في الماضي القريب.

وبالمثل، فإن السياسة الخارجية التي تتطلب احتلالاً دائماً وجيوشاً بريّة كبيرة وآلاف القتلى جراء الاشتباكات المسلحة، سوف تؤدي بسرعة إلى تفكيك حكومات الدول، لكن السياسة الخارجية التي تتم باستخدام الأقمار الصناعية والطائرات المسيّرة عن بعد، وأحياناً الطائرات المقاتلة والقوات الخاصة، هي سياسة خارجية تَعِد بتقليل الخسائر في صفوف المدنيين على الرغم من أنها لا تستطيع إيقاف هذه الخسائر تماماً. حسناً، حتى لو لم تربح استراتيجية الأمن القومي حروبها أبداً، وحتى إذا أبقت هذه الحروب في حالة من الجمود من أجل الحفاظ على الوطن آمناً بشكل فعلي، فلا يزال بإمكانها الحصول على دعم شعبي دائم لأن العنف يبدو بعيداً ومخفيّاً وافتراضياً بحيث لا يستحقّ الثمن الذي يبذل من أجله، أو هو ببساطة يستحقّ التجاهل، في سبيل تحقيق عصر من السلام الشامل. وبالتالي، فإن معضلة مناهضة الحرب الحالية، هي كما كتب صمويل موين[517]، أستاذ القانون في جامعة ييل، قائلاً: «**إن احتواء وتقليل العنف في حروب أمريكا... زاد من صعوبة انتقاد استخدام أمريكا للقوة في بلدان أخرى**».

---

(516). يبدو هذا التقدير غير دقيق. هناك 619,591 عملية إجهاض في الولايات المتحدة سنوياً وفق إحصاء 2018.

(517). صمويل موين Samuel Moyn: أستاذ القانون في جامعات كولومبيا، هارفارد، ثم ييل. من مؤلفاته: «أصول الآخر: إيمانويل ليفيناس بين الإلهام والأخلاق»، و«جدل حول الهولوكست»، و«المقبرة الإمبريالية».

كلما كان التدخّل أكثر دقةً وفعّالاً، أصبح أكثر استدامة، ومع ما يكفي من التقنية فإن الحرب يمكن أن تستمر إلى الأبد.

متمردون في الآلات

لا تكمن المسألة في أن لا أحد يعترض على هذا النظام أو يتمرّد. يصرّ جيمس بولوس* على أنه على العكس من «الدولة العالمية» في رواية هكسلي*: «عالم جديد شجاع»، والتي تحاول تعميم نظام الصحة والرفاهية وعقّار «السوما»* والقتل الرحيم، على الجميع تقريباً (باستثناء عدد قليل من «المتوحشين» والناقمين المنفيين)، فإن «الخطر» و«المرض» يبقيان جزءاً آهلاً بالبشر في خريطة «الدولة البوليسية الوردية»*، يقول: «أفق الانتهاك ينحسر دائماً عن متناول المسؤولين الرسميين، مهما كان مبتكراً في نطاقه»، وإلى جانب كل السلوكيات الجيدة، لا تزال هناك اتجاهات تسير في الاتجاه المعاكس، فالشبان والشابات يمارسون الجنس بشكل أقل وينجبون عدداً أقل من المواليد، على سبيل المثال، ولكن يصابون في رفضهم لثقافة الجنس «الآمن» بالمزيد من الأمراض التي تنتقل بالاتصال الجنسي. أما من الناحية السياسية، مع انحسار «أفق الانتهاك»، كما قال بولوس، فإن الأفكار المناهضة التي تتسرّب هناك لديها القدرة على أن تصبح أكثر راديكالية، وهذا أيضاً جزء من قصة الإنترنت، جنباً إلى جنب مع الغوغاء الذين يحرّضون على الامتثاليّة، و«رجال الشرطة» الذين يفكرون على نحو خاطئ، وهو ما يوفّر أيضاً فضاءات يمكن فيها للمتطرفين والرجعيين أن يتعاونوا في ما بينهم، ويشجعوا بعضهم بعضاً، ويحثّوا أنفسهم على التطرّف والانضمام إلى داعش، أو احتضان الماركسية اللينينية، أو تفعيل «بيان مفجّر الجامعات» Unabomber[(518)]،

(518). بيان المفجّر Unabomber Manifesto: بيان كتبه الفوضوي الأمريكي تيد كازينسكي T. Kaczynski وهو عالم رياضيات ومفكر اجتماعي، يؤكد فيه على أن الثورة الصناعية أدّت إلى تدمير الطبيعة وأجبرت البشر على التكيّف مع الآلات وخلقت بالنتيجة نظاماً اجتماعياً يقمع الإنسان ويصادر حريته وممكناته، ولحماية الطبيعة والإنسان لابد من تدمير المجتمع الصناعي.

أو إحياء النزعة التوحيديّة الكاثوليكية، أو تهديد النظام المعاصر في جذوره، بشكل عام.

إنه يوفر أيضاً فضاءً آخر لشخصيات مثل دونالد ترمب الذي لن يكون جذاباً للكثير من الناس ما لم يسنّ بشكل دائم نوعاً من الانتهاك من المفترض أن يجعل سجناً مثل «البانوبتِكون»* اللطيف ينأى بنفسه وينزوي خجلاً. إن حقيقة رئاسة ترمب المجرّدة دليلٌ على أن النظام الذي نناقشه ليس مستقراً بطبيعته على غرار دولة هكسلي* العالمية، حيث يمكن على الدوام للدولة البوليسية الورديّة* أن تدعو المناوئين لها بعد مطاردتهم إلى أقصى حد، إلى العودة والإعلان عن أنفسهم مرةً أخرى، مثل الشعبويين والراديكاليين والثوريين، وغيرهم، وذلك إذا حدث أي شيء يحدّ من ملذّات النزعة الاستهلاكية التي تعكس ثروة النظام.

لكن «البانوبتِكون» قابل للتكيف أيضاً، حيث يجذب المتمرّدين إلى مصفوفة الأداء والإنجاز التي يمثّلها، أو ربما يشجّع ويرفع من أشكال التمرّد التي تناسب تلك المصفوفة تماماً، والتي تنشأ مما ينظّمه سلفاً من قواعد، ومما يصنعه من وقائع المحاكاة. إن ترمب يمثّل حالة تستحق الدراسة بالقدر الذي أصبح به رئيساً، لأنه كان نسخة من «تلفزيون الواقع» بصفته «رجل أعمال كبير»[519]، وقد حكمَ (مع استخدام هذه الكلمة بشكل فضفاض جداً) وفقاً لنظام المحاكاة في تصوّر بودريارد للحاكم «الديماغوجي الكبير»، وأدّى أدواراً متباينة من جانبه، في مناطق مختلفة من النظام الإعلامي، مرّةً بوصفه شخصاً عنصرياً متهوّراً، كما ذكرت شبكة «سي.إن.إن»، وأخرى بوصفه بطلاً شعبوياً كما ذكرت قناة «فوكس»، ساعياً باستمرار إلى التحقّق من فعالية وقائع المحاكاة على أخبار المحطّات وتويتر. ما يريده ترمب أكثر من القوة (التي يمتلكها فعلاً ولكنه لا يعرف كيف

(519). يشير المؤلف إلى برنامج من برامج تلفزيون الواقع بعنوان «المتدرّب» The Apprentice الذي شارك دونالد ترمب في 14 موسماً منه (من 12004 إلى 2016). كما يشير إلى كلمة ترمب عندما قال «انتخبني الشعب الأمريكي لأنني رجل أعمال كبير Great Businessman». ثم إلى الصفة الإعلامية التي أطلقت عليه وهي «الديماغوجي الكبير» Great Demagogue.

يستخدمها) هو الانتباه، هو إعادة التغريد، والتحقق من فعالية العرض على التلفزيون والإنترنت. كثير من التمرّد اليميني ضد النظام له نفس خاصية البحث عن الاهتمام، حيث يتحدث الشعبويون المحافظون عن الإطاحة بما يرون أنه نظام يساري للمراقبة والسيطرة الثقافية، لكن مطالبهم المحدّدة غالباً ما تدور عائدةً إلى رغبة تتعلّق بمكانهم الخاص داخل النظام، أي إلى تلك المساحة التي يستطيعون فيها استثمار مقاطع الفيديو الخاصة بهم على يوتيوب وتحويلها إلى نقود، ونشر المقاطع المؤيدة لترمب، دون خوف من الحظر والتهميش أو الإبعاد إلى تطبيقات ومساحات اجتماعية غامضة.

بعبارة أخرى، تستمد شعبويّة حقبة ترمب نوعاً معيناً من الطاقة التي يبثّها التحرّك ذهاباً وإياباً على خط الأمان/ الخطر، ولكنها عندما تتعرّض للضغوط، تفضّل اللجوء إلى النظام كأنها عميل يطلب خدمات معينة، أو كأنها «رعيّة» تطالب بحقوقها، فضلاً عن قبول خيارات النفي مسبقاً. هذا أمر مفهوم بما يكفي، نظراً لأن معظم الخيارات «البانوبتِكية»[520] الإضافية تزحف مع التفوّقين البيض، وسرعان ما يجد المحرّضون الذين تم طردهم فعلياً من احتكارات وسائل التواصل الاجتماعي أنفسهم غير قادرين على استثمار استفزازاتهم وتحويلها إلى نقود.

هذا يعني أن الحرب بين اليمين الشعبوي ووادي السيليكون تناسب في نهاية المطاف النمط الموصوف في الفصل الأخير، بمعنى أن الشعبويّين يقاتلون في المقام الأول من أجل الحق في الترفيه وتوظيف الأموال، وأن أداءهم للخطأ السياسي والشكاوى الصاخبة عندما يحثّ ذلك الأداء على إعادة النظر، ليس تمرداً حقيقياً أكثر مما هو تحقّق من فعالية النظام الأكبر. إن شعبويّي الإعلام يلعبون نفس اللعبة التي يلعبها ترمب نفسه، فهو يظلّ جزءاً من مركّب الأخبار الزائفة التي

---

(520). بانوبتِكي panoptical نسبة إلى بانوبتِكون (سجن المراقبة الجماعية)، ويشتق منها أيضاً مصطلح بانوبتِكية panopticism، الذي يعود إلى الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو.

يُفترض أنه في حالة حرب معها. ولكنه يظلّ أيضاً في حاجة ماسة إلى لفت انتباه وسائل الإعلام، مثل «واشنطن بوست» أو «سي.إن.إن»، حتى وهو يهاجمهما، متذمراً في حسابه على «تويتر» لكلّ من يستطيع سماعه، مدركاً أنه يقود توجيه التقييمات ويرفع معدّل الاشتراكات لصالح «أعدائه» المفترضين، ومستعداً في الوقت نفسه للاتفاق على صفقة معهم، فكل ما يريده هو أن يتصدّر عناوين منشوراتهم ومواقعهم على الإنترنت مهما كان الثمن.

لهذا السبب يمكنك إثبات أن الراديكالية الحقيقية التي تمثل تهديداً حقيقياً لنظام المراقبة الجماعية (**البانوبتِكون**)، وأنها ليست مرئية على الإنترنت على الإطلاق، وأن التمردات التي يمكننا رؤيتها إنما تسرب بالتظافر مع بالنظام، مقيدةً ومدفوعةً باستمرار نحو الترفيه عن طريق اختيارها الاعتمادَ والتفاوض مع أمر يفترض أنها تناهضه. وهذا أيضاً سبب لاعتبار الشعبوية الجديدة ونظائرها اليساريّة الأضعف، تحديات قد يكون النظام قادراً على التعامل معها، بشكل عشوائي ولكن فعّال، دون ثورة أو إصلاح.

إن مشاكل أواخر القرن العشرين في رؤية المستقبل على هذا النحو سوف تصبح من الثوابت الدائمة بالنسبة إلى القرن الحادي والعشرين. وهكذا فإنّ لا-أبوّة الطبقة الدنيا، وفوضى الطبقة العاملة، وسوء استخدام العقّارات، والولادة خارج إطار الزواج، والوحدة، وعدم الإنجاب، والانتحار، والخلل الاجتماعي ما بعد الديني، والإرهاب، والتطرّف بجميع أنواعه... كل هذه الأشياء سوف تستمر بدون حلول. على أن هذه المثابرة لن تمر دون أثر، فهي في الواقع، سوف تحثّ وتلهم ظواهر التمرد السياسي بانتظام. ولكن سيتم استيعاب التمرّد بسرعة في الجزء الترفيهي من «**بانوبتِكون**»، وسريعاً ما سينجذب قادة التمرّد إلى التفاوض حول حصة جمهورهم، وحول حقهم في تحويل رسالتهم المناهضة للمؤسسة الرسمية إلى نقود، وسوف تستمر في الوقت نفسه، إدارة المشكلات الأساسية، مراراً وتكراراً، بواسطة الشاشات والمخدرات والطائرات المسيّرة عن بعد لفترة

زمنية غير محدّدة.

ومع ذلك، قد يقول أحدهم، إذا سمح التمرّد لشخص غير مؤهل بشكل واضح مثل ترمب، من أن يطالب بسلطات الرئاسة، وإذا كانت السياسة بوصفها ترفيهاً تسرّع الاستقطاب وتؤكّد حالة جمود النظام، وإذا كان النظام قادراً على استعادة استقراره ذاتياً بشكل آلي، فكيف يمكن له أن يتعامل مع آثار الأزمات التي تأتي من الخارج؟ كيف يمكن لمجتمع منحطّ أن يأمل في تجنّب التعرض للتحدي الذي يفرضه عليه منافسون أقوياء، كما حدث في العديد من إمبراطوريات التاريخ المتصلّبة التي تم تخريبها وتفكيكها وإسقاطها؟ هناك إجابة واحدة هي: لا يمكنه ذلك. إن الدمار أقرب ممّا نعتقد، ولكن هناك احتمال آخر، سوف يرد في الفصل التالي، وهو أن المجتمع المنحط ليس مضطراً إلى السقوط، إذا كان الذين يتحدّونه وجميع منافسيه الخارجيين المحتملين إما ضعفاء للغاية، أو غير جاهزين تماماً، أو كانوا هم أنفسم قريبين جداً من الانحطاط.

7

في انتظار البرابرة

اختتم الروائي الفرنسي ميشيل ويلبيك عام 2016 عملاً قضاه في تحبير الانتقادات الحادة لمذهب المتعة ونزعة الاستهلاك برواية صوّرت الليبرالية الغربية الحالية وقد تمت الإطاحة بها فعلاً. كان عنوان الرواية «استسلام»، وقد استقرأت ما يحدث من استقطاب في السياسة الفرنسية المقبلة على انتخابات رئاسية متخيّلة في المستقبل القريب، حيث كان أبرز مرشّحيْن فائزيْن في التصويت هما ماري لوبان[521]، زعيمة اليمين المتطرف (حقيقةً وليس افتراضاً)، ومحمد بن عباس، زعيم حزب إسلامي ناشئ (وهو شخصية خيالية). وخوفاً من انتصار اليمين المتطرف قبل كل شيء آخر، يلقي جزء من المؤسسة الليبرالية بثقله وراء ابن عباس، الذي يفوز ويشرع في أسلمة المجتمع الفرنسي ببطء، حيث يخضع الرجال والنساء، من اليمين واليسار، لدين نبيّ الإسلام تدريجياً، وينضمّون إلى إمبراطورية إسلامية جديدة عبر البحر المتوسط.

هذه الرواية شكل من الديستوبيا، ولكنها ليست كما قد يتوقع القارئ العادي. إنها حكاية تحذيريّة حول الإسلام السياسي، وهي نسخة من **«حكاية الخادمة»** حول قانون الشريعة[522]. وفي الواقع فقد تم نشرها في الوقت الذي حدثت فيه

---

(521). ماري لوبان Marine Le Pen: رئيسة التجمع الوطني الفرنسي (الجبهة الوطنية سابقاً) منذ عام 2011. وعضو في الجمعية الوطنية عن الدائرة 11 منذ عام 2017.

(522). قانون الشريعة shari'a law: هي العبارة التي تتردّد في الأدبيات الغربية والعالمية للإشارة إلى

مذبحة شارلي إيبدو[523]، والمصادفة الغريبة هي أن ميشيل ولبيك نفسه كان من الذين يتعرّضون للسخرية على غلاف المجلة قبل أن تقع تلك المذبحة، ما دفع الناس إلى ربطه بجميع المحافظين الأوروبيين الذين حذّروا من خطر التطرّف الإسلامي. لكن في الوقت الذي يُعتبر فيه ولبيك رجعياً بكيفية ما، إلا أن هذا لم يكن بالضبط ما عبّر عنه كتابه. فبدلاً من ذلك، وكما هو الحال في رواياته الأخرى، تعتبر الديستوبيا الفعلية هنا هي الغرب المعاصر، والتحوّل الفرنسي المتخيَّل إلى الإسلام الذي تم تصويره على أنه خطوة محتملة إلى الأمام، وعودة إلى الحيوية والصحة، وطريق قد يؤدي إلى الخروج من الانحطاط.

للوصول إلى هذه الغاية، يتم التهكّم بكل شيء فرنسي في القصة، حيث يصوّر ولبيك الطرق المختلفة التي تجعل الجماعات المعاصرة على تباينها تتصالح بشكل ضعيف مع النظام الإسلامي، من دعاة النسويّة الذين يرحبون بالقوانين العقابيّة ضد سوء سلوك الذكور، إلى الرجعيّين الكاثوليك الذين يكتشفون أرضية مشتركة مع أعدائهم السابقين من المسلمين، وفي هذا السياق يقرّر باحثٌ متخصّص في فلسفة نيتشه أن الزّخم الرجولي في الإسلام يجيب على مآخذه على نعومة المسيحية وأنثويتها. إلا أن التهكّم كان أكثر حدّة في حالة **الراوي الولبيكي**[524]، وهو باحث متخصص في دراسة أعمال كاتب «منحط» من القرن التاسع عشر هو جوريس-**كارل ويسمانس**[525]، حيث يتوق إلى محاكاة ارتداد ويسمانس إلى الكاثوليكية، ولكنه لا يستطيع أن يُقدم على هذه النقلة الإيمانية

الفقه وأحكام الشريعة الإسلامية.

(523). شارلي إيبدو Charlie Hebdo: مجلة أسبوعية ساخرة هاجم مقرها في باريس في شهر يناير 2015 إرهابيان مسلحان بسبب نشر رسوم تسخر من نبي الإسلام وتسببا في قتل إثنا عشر شخصاً وجرح أحد عشر. وقد تبنى الهجوم تنظيم القاعدة. ثم أعادت المجلة نشر تلك الرسوم وغيرها في سبتمبر 2020 (بمناسبة محاكمة متورّطين في الهجوم)، لاثبات عدم تراجعها عن استخدام الفن وسيلةً للنقد السلمي.

(524). نسبة إلى المؤلف: ولبيك.

(525). جوريس-كارل ويسمانس Joris-Karl Huysmans (1848- 1907): روائي وناقد فرنسي. أشهر مؤلفاته رواية «ضدّ الطبيعة» (1848).

ببساطة، وينتهي به الأمر إلى تبنّي النظام الإسلامي الجديد الذي يَعِده بتعدد الزوجات.

مع كل ذلك، فإن الرواية لا تتهكّم بالإسلام، حيث يُصوَّر ابن عباس، وهو نابليون فرنسا الإسلامية الجديدة وراء الكواليس، على أنه نوع من رجل سياسيّ خارق، ويتم التعامل مع دينه وحضارته بنوع عميق وحذِر من الإعجاب والاحترام. ويمنح هذا الاختيارُ الروايةَ قوةً شبيهة بالحلم غائبة تماماً عن معظم أعمال الجناح اليميني الصاخبة ضد الجهاديّة. ولأن العالم الإسلامي يعيش في تقشّف عميق يُقصي الانحطاط الغربي بحدّة، فإنه يعرض نفسه بديلاً واعداً بنوع من التقدّم إلى الأمام بدلاً من مجرد إحياء الحنين النوستالجي إلى العالم المسيحي. الإسلام في رواية «استسلام» ليس ردّ فعل أو عودة، وهو ليس طريق الارتداد إلى الكاثوليكية التي قد يشعر بها بطل الرواية. إنه نزعة مستقبليّة رجعيّة، إنه «دار الإسلام»[526] التي أُعيد إحياؤها بوصفها خلفاً طبيعياً للمشروع الغربي المنهَك.

ولكن إذا كانت هذه الخاصيّة الشبيهة بالحلم فعّالة من الناحية الروائية، فإنها تخبرنا كذلك بسؤال الاستدامة الذي تهتم به الفصول الوسطى من هذا الكتاب، لأنه إذا كانت رواية «استسلام» تبدو متجذّرة في العالم الحقيقي وهي تسخر من الفرنسيين «المنحطّين»، بينما تبدو أشبه بالحلم عندما تصوّر ورثته الإسلاميين، أفلا ينبئنا ذلك بأنه قد لا يكون هناك بديل حقيقيّ أصيل عن الانحطاط في العالم الواقعي غير الروائي؟ وأن الخصوم الحاليين في الغرب الحديث، على عكس أعدائه أو ورثته المتخيَّلين، لديهم الكثير من التحديات ونقاط الضعف الخاصة لاستغلال سُباتنا وركودنا بشكل فعال؟ وأن مخاوفنا الكثيرة من النهاية المنذرة بالفناء، يساراً ويميناً، تعكس نوعاً من أمنية الموت الثقافي الذي يعرف الجميع ضمنياً أنه لن يكون وشيكاً، بل نوعاً من الرغبة المرهقة في رصاصة الرحمة التي لم

(526). بالعربية في الأصل.

نحن بعد فعلياً، وتعكس الخوف من بديلنا عن الكارثة الذي وصف به و.ه. أودن[527] الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، تلك الحضارة التي دامت قروناً «دون إبداع، أو دفء، أو أمل»؟

ربما تكون «أمنية الموت» مفرطة للغاية. ولكن هناك، على أقل تقدير، رغبة بشرية طبيعية في رؤية التاريخ على أنه مسرحية أخلاقية تؤدي فيها الفضيلة إلى القوة ويقود فيه الانحدار إلى الدمار. بالرغم من ذلك، ولكي تنجح هذه المسرحية، يجب أن يكون هناك بعض المقدرة على تحقيق قصاص عادل، وعلى المبادرة باعتلاء جدران القصر بعد أن ظهرت عليها الكتابة، وعلى إسقاط بابل كما تستحق[528]. قد يكون الدافع وراء تضخيم التهديد الذي يتعرّض له عصرنا هو الرغبة في اكتشاف أو اختراع مثل هذه القدرات، لأن الشيء الوحيد الأكثر إخافة ورعباً من احتمال الفناء هو احتمال أن يستمر مجتمعنا إلى الأبد على ما هو عليه، دون إرادة، مثل روما بدون أتيلا[529] كي ينهب قصورها، أو مثل نينوى بدون يهوه لكي يصدر حكمه على جرائمها.

هناك قصيدة شهيرة تعود إلى 1904 بعنوان «في انتظار البرابرة» للشاعر اليوناني سي.بي. كافافي[530]، تعبّر عن مثل هذا المأزق النفسي والثقافي الغريب، حيث يتخيّل كفافي مدينةً على الطراز الروماني في الوقت الذي كان فيه الجميع يتوقّعون أن تقتحمها قبائل الهون بين لحظة وأخرى:

---

(527). و.هـ. أودن W. H. Auden: شاعر أنجلوأمريكي. (ت. 1973). من أعماله: «رقصة الموت»، و«رحلة الحرب»، و«مدينة بدون جدران».

(528). يعود المؤلف هنا إلى قصة بيلشاصر في «دانيال 5» حيث يمثل ظهور الكتابة على جدران القصر تحذيراً إلهياً يقول بأن أيام مملكة بابل قد شارفت على الانتهاء وسوف يرثها أعداؤها، أي الميديين والفرس.

(529). أتيلا Attila: زعيم إمبراطورية في وسط وشرق تضم قبائل الهون والقوط الشرقيين والبلغار. حكم بين 434– 453. عبر الدانوب، ونهب البلقان، وهدّد الإمبراطورية الرومانية بعد فشله في غزو بلاد فارس.

(530). سي. بي. كافافي C. P. Cavafy: شاعر مصري-يوناني، عاش في الاسكندرية، ويعد أحد أهم شعراء اليونان (ت. 1933).

ما الذي ننتظره، مجتمعين في الساحة؟

البرابرة يصلون اليوم.

لماذا لا شيء يحدث في مجلس الشيوخ؟

لماذا يجلس الشيوخ هناك دون تشريع شيء؟

لأن البرابرة قادمون اليوم.

أي قوانين يمكن للشيوخ أن يسنّوها الآن؟

ما أن يصبح البرابرة هنا، سوف يشرّعون.

لماذا استيقظ إمبراطورنا مبكراً جداً،

ولماذا يجلس عند بوابة المدينة

على عرشه معتمراً تاجه؟

لأن البرابرة قادمون اليوم

والإمبراطور ينتظر استقبال زعيمهم.

حافلة بألقاب وأسماء مهيبة.

لم هذا الفزع المفاجئ، هذا الارتباك؟

لم صارت وجوه الناس متجهّمةً؟

لماذا تخلو الشوارع والساحات بهذه السرعة،

وكل شخص عائد إلى بيته مشتّت الذهن؟

لأن الليل قد حلّ ولم يأت البرابرة بعد.

ويقول بعض الذين عادوا لتوهم من الحدود

لم يعدْ هناك برابرة.

والآن، ما الذي سيحدث لنا بدون برابرة؟

لقد كان أولئك البرابرة نوعاً من الحل.

إلى روح كفافي أكرّس هذا الفصل حول السبب في أن البرابرة (وأنا لا أعني المتوحشين الذين يَعْوُون، ولكن أي قوة تستطيع الإطاحة بالنظام الليبرالي ووراثة العالم)، قد لا يكونون في طريقهم إلينا.

الحرب العالمية الرابعة التي لم تكن

لنبدأ بمرشّح وليبيك وريثاً: نظامٌ إسلاميّ جديد يكتسح الغرب الذي كان مسيحياً في يوم من الأيام، ويقهره ويحوّله إلى شكل من أشكال الذّميّة في القرن الحادي والعشرين، وهو وضعُ تابعيّةٍ فرضته الإمبراطوريات الإسلامية السابقة على رعاياها من غير المسلمين. كانت هذه هي الكيفية التي كان من المفترض أن يعود بها التاريخ بعد أحداث 9/ 11، وفقاً لبعض المثقفين الغربيين الأكثر خيالاً وتوقاً للقتال، وهم المحافظون الجدد من اليمين وأنصار «**الأورويليّة**»[531] من يسار الوسط، حيث كانت الفاشية والشيوعية تتحدّى النظام الليبرالي، أما الآن فإن نوعاً من الأيديولوجيا الإسلامية تفعل الشيء ذاته... سمّها الإسلاموية، أو الفاشية الإسلامية، أو (في ظنون الأشخاص الذين يعانون من البارانويا أو الإسلاموفوبيا) يمكنك تسميتها الإسلام فحسب. اربطها دائماً بأسامة بن لادن أو سيد قطب أو الوهابيين أو الملالي أو النبي محمّد. وكيفما عرّفتها، فإن نوعاً جديداً من الأيديولوجية المتشبّعة دينياً كانت في طريقه إلينا، وكنّا نتأهّب لخوض حرب كبرى من أجل الحضارة. لقد انتهى عصر فوكوياما، وبدأ عصر صامويل هنتنغتون[532] مؤذناً بـ«**صراع الحضارات**»، وسوف يحدث الصراع في كل مكان، على امتداد الحدود بين الحضارة الإسلامية وجيرانها، وداخل المجتمعات

---

(531). دعاة الأورويلية Orwells نسبة إلى الروائي جورج أورويل مؤلف «1948».

(532). صامويل هنتنغتون Samuel Huntington: منظّر سياسي ومستشار وأكاديمي أمريكي، (ت. 2008). من مؤلفاته: «صراع الحضارات»، و«أزمة الديمقراطية»، و«من نحن؟ تحديات الهوية الأمريكية».

الإسلامية حيث قد تترسّخ الأفكار الليبرالية أو تُفرض عن طريق التدخل الغربي، وداخل مجتمعات المدن الأوروبية حيث أنشأ المهاجرون المسلمون مستوطنات إسلامية قائمة بحكم الأمر الواقع، وهي جُزُر من التطرّف قد تتوسّع لتشكّل عرابيا Eurabia يوماً ما.

لقد تكشّفت رؤيا ما بعد 11/ 9 هذه عن شيء أساسي، ألا وهو أن الإسلام ليس مفهوماً بالفعل في النظام الذي أصفه بأنه منحط، وأن الحضارة الإسلامية هي «الآخر» الأكثر تميّزاً بالنسبة إلى الغرب، وأن الصراعات الداخلية في العالم الإسلامي تخلق فضاءات هامشية يبحث فيها الشباب المسلم، والشباب الغربي أيضاً، عن بدائل جذريّة عن الشعور بالإرهاق الحضاري.

لكن هذه الحقائق ليست كافية لإثبات مزاعم أكبر تتمثّل في الصراع الحضاري الكاسح أو الحرب الباردة الثانية أو الحرب العالمية الرابعة، فمثل هذه المزاعم تتطلب تخيّلَ عالم إسلامي يتوسّع بدلاً من أن يمرّ بحالة من التشنّج، ويتوطّد بدلاً من أن تستنزفه الحروب الأهلية، ويكتسب المزيد من المؤمنين به في النخبة الغربية بدلاً من أن يتركه معتنقوه، ويتجاوز معدلات الخصوبة الغربية بشكل مذهل بدلاً من أن يقاربها. كل هذه التخيّلات هي مجرد شطحات وهمية لا علاقة لها بالحالة الفعلية التي يمكن أن تكون عليها البدائل الإسلامية عن الليبرالية الغربية.

تقدّم فنتازيا ولبيبك طريقة مفيدة للتفكير في الفَرْق بين تضخيم التهديد والواقع. ففي عالم ولبيبك، تخلق عبقرية ابن عباس إمبراطورية إسلامية بقيادة فرنسا تتمدّد جنوباً لتشمل شمال إفريقيا. في عالمنا، يكافح الاتحاد الأوروبي فعلياً لمنع اللاجئين من دول شمال إفريقيا المنهارة من عبور البحر الأبيض المتوسط، ويبني الجدران ضد العالم الإسلامي الذي لا يهدّد أوروبا إلا بسبب ما يعانيه من خلل وظيفي. في عالم ولبيبك الخيالي، يتنافس أثرياء مسلمون على شراء الجامعات الفرنسية وإعانة المثقفين الفرنسيين مالياً. أما في عالمنا فهم يرشون الحكومات

الغربية، بالتأكيد، لكنهم ينفقون الأموال غالباً في محاولة منهم للتأثير على الحرب الأهلية التي تزعزع استقرار المنطقة وتدور بين كيانات إسلامية تجاور إقطاعياتهم.

في عالم ولبيك، يغري الإسلام الأكاديميين البارزين بالطريقة التي كسبت بها الماركسية والفاشية أنصاراً من المثقفين في الماضي، أما في عالمنا، مع استثناءات نادرة، فمن الجليّ أنه ليس كذلك، لأن تلكما الأيديولوجيتان القديمتان حملتا مناخاً من الثقة التاريخية العالمية، وانعكست فيهما صورة الكفاءة التكنولوجية والتقدم الصناعي التي تكاد تكون غائبة تماماً عن ثوار الإسلام والخلفاء المحتملين. إن التجارب الإسلامية المختلفة، مثل جمهورية إيران الإسلامية و«الدولة الإسلامية» المزعومة، والعصابات الثيوقراطية الإسلامية، تشكل خطراً على الغرب، ولكنها ليست مغرية في نظر الغربيين. لقد قام عدد قليل من الكتاب المتوهّمين المناهضين للاستعمار بمغازلة الخمينيّة عام 1979، لكن هذه القضية تلاشت بسرعة، أما اليوم فلا يوجد مراقب غربي يزور طهران مثلاً ويعلن أنه رأى «المستقبل المحتوم»[533]. يمكن لحركات مثل القاعدة وداعش استغلال الخلل الاجتماعي الغربي لممارسة الإغواء والتجنيد، لكن أهداف هذه الحراكات بائسة وهامشية بل ومستهجنة. لا يوجد إسلاميون من عائلة روزنبرغ[534] أو مثل كيم فيلبي[535]، كما لا يوجد نظير إسلامي لآلجر هيس[536]، وبينما ينخرط المثقفون المسلمون في الغرب أحياناً في حديث مزدوج حول الجوانب غير

(533). يذكّر المؤلف بعبارة «المستقبل المحتوم» Inevitable future التي استخدمها الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو عندما وصف ثورة الخميني في إيران وقد دافع عنها بقوة في البداية. ولكنه آثر الصمت يأساً منها في وقت لاحق.

(534). عائلة روزنبرغ Rosenbergs: هما يوليوس روزنبرغ Julius Rosenberg وزوجته إيثيل Ethel، مواطنان أمريكيان أدينا بالتجسس لصالح الاتحاد السوفييتي السابق، وأعدما عام 1953.

(535). كيم فيلبي Kim Philby: بريطاني وعميل مزدوج للاتحاد السوفييتي. نشر مذكراته بعنوان «حربي الصامتة». توفي عام 1988 في موسكو.

(536). آلجر هيس Alger Hiss: مسؤول أمريكي بوزارة الخارجية. شارك في تأسيس الأمم المتحدة، اتهم بالتجسس لصالح الاتحاد السوفييتي عام 1948، وسجن لثلاث سنوات. لكنه دافع عن براءته حتى مماته عام 1996.

الليبرالية في عقيدتهم، فإنه لا يوجد ببساطة نظير إسلامي للماركسيين الذين شغلوا الحياة الأكاديمية الغربية يوماً ما، وتوقّعوا أن يفكّكوا النظام الرأسمالي الليبرالي من داخله.

أخيراً، يتخيّل ولبيك إسلاماً فرنسياً يكثر أتباعه بعدد كافٍ فيتمكنون من بناء حزب سياسي قوي على غرار «الإخوان المسلمين» في قلب أوروبا، أما في عالمنا، فلا يزال هذا السيناريو يبدو بعيداً نسبياً. غالباً ما يقرّ مثيرو الفزع الذين يتنبأون بسقوط الغرب الوشيك في يد خليفة إسلامي بأن الدول الإسلامية ليست قوية أو صاعدة جيوسياسياً، لكن هذا لا يهم لأن المسلمين في أوروبا ينجبون الكثير من الأطفال، بينما لا يفعل ذلك غير المسلمين. لذا، وبحساب هذا الزخم الديموغرافي البسيط، فإن الهلال الإسلامي سيحكم بريطانيا وألمانيا وفرنسا في نهاية المطاف. لكن في حين أن فارق الخصوبة حقيقي فعلاً، وأزمة اللاجئين السوريين تُظهر أن التغيير الديموغرافي يمكن أن يتسارع فجأة، فإن القضية تتعلق أيضاً بأن معدلات المواليد في الشرق الأوسط أصبحت تنخفض على مدى جيل كامل، متجهة إلى مستويات تقلّ عن الإحلال السكّاني المعتاد، مثل الغرب. والأكثر من ذلك، أن معدلات المواليد للمسلمين داخل أوروبا أعلى منها لدى السكان الأصليين، ولكنها تنخفض بشكل مطّرد أيضاً. لذا، ففي حين يمثّل الاستيعاب مشكلة كبيرة لأوروبا، وهو مصدر للتوتر المستمر والعنف والاضطراب السياسي، فإنه لا يزال يمثّل اتجاهاً سريعاً نحو شيء أكثر تعلّقاً بالوجود من الناحية الثقافية، ويدفع الأسلمة خارج الضاحية وخارج الغيتو، ليتحقق بذلك جزء من المستقبل الذي يحوّل الأقليات القلقة إلى أغلبية. (يتطلّب الوصول إلى تحوّل ديموغرافي حقيقي في أوروبا هجرة جماعية من إفريقيا جنوب الصحراء، معظمها مسيحي، وهذا هو موضوع الجزء الثالث من الكتاب).

في النهاية، قد يكون التقارب في معدلات الخصوبة بين الشرق الأوسط وأوروبا الغربية، وبين المهاجرين والسكان الأصليين في القارة نفسها، كافياً للحدّ

من أسلمة أوروبا، مع غياب نوع من الثورة الفكرية والثقافية الكبيرة، وغياب صعود المارسات والأفكار الإسلامية غير المرئي حتى الآن. إن مثل هذا الصعود ممكن، كما إن مواجهة الإسلام بالنسخة العلمانية من منافسه المسيحي القديم هو نوع من الاصطدام الغريب الذي قد يتشكّل فيه مستقبل غير متوقع، لكن شكل الإسلام الذي يمكن تخيّل إحلاله محلّ الليبرالية لم يُختَرَع بعد.

شبح اللاليبرالية

بعض هذا التحليل الذي يعرض نقاط ضعف المسلمين ينطبق على المنافسين المحتملين الآخرين الذين يناوؤون العالم الليبرالي. أولاً، هناك المشكلة الأيديولوجية، أي حقيقة أن منافسي الغرب المحتملين يفتقرون إلى مزيج من الحماسة والإلتحام والتماسك والتصوّف والنزعة المستقبلية، المزيج الذي يفضي إلى حثّ المنافسين على استلهام صور العالم الراسخة. (لا أفكر في الشيوعية والفاشية فحسب، ولكن قبلهما أيضاً: الليبرالية في تحدّيها النظام القديم، وقبل الليبرالية، هناك البروتستانتية والإسلام المبكّر والمسيحية المبكّرة). إن الإسلام، في الواقع، أقوى من غيره في هذا الصدد، فبالرغم من كل نقاط ضعفه الحضارية، إلا أن صورة العالم الإسلامي تلهم بالفعل حماسة صارمة وإيماناً حقيقياً، بينما في أماكن أخرى من العالم غير الغربي، هناك الكثير من الدّجل الفكري دون وجود يقين راسخ.

لنأخذ حالة روسيا في عهد فلاديمير بوتين مثلاً، وقد سعت مؤخراً للعودة إلى الدور الأيديولوجي الذي لعبته موسكو في ظل القياصرة، أي بوصفها مركزاً يحتشد حوله التقليديون من جميع أنحاء العالم، أو حصناً دينياً محافظاً ضد الليبراليين الثوريين في الغرب. من الواضح أن بوتين قد تمتّع ببعض النجاح في هذه المناورة السياسية، فلديه معجبون من بين أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا، وأصدقاء مستبدّون في جميع أنحاء العالم، وقد أدت تدخلاته في أوكرانيا ثم في

انتخابات أمريكا عام 2016 إلى فزع الليبراليين واندلاع موجة رهاب من روسيا Russophobia، مع استمرار الحديث عن تجدّد الحرب الباردة.

ولكن «**البوتينيّة**» Putinism، بوصفها نظرةً للعالم، ونظاماً ومعماراً حضارياً بديلاً، فإنها على الأغلب مجرد دخان ومرايا[537]. كانت تقليديّة القياصرة تدافع عن كيان سياسي قديم لا يزال قائماً، ومسيحية تقليدية لا تزال قوية، ونظام متجذر في ميراث تاريخي عميق حتى عندما صارت أيامه معدودة. أما روسيا اليوم، التي عوملت بوحشية من قبل الشيوعية ثم استولت عليها الأوليغارشية والأثرياء، فليست مجتمعاً تقليدياً بأي معنى قد يشير إليه هذا المصطلح، والشيء الوحيد الذي تشترك فيه مع العديد من حلفائها المحتملين في العالم النامي هو ازدراء المعايير الديمقراطية. كانت فكرة «**العرش والمذبح**»[538] في ظل حكم آل **رومانوف**[539]، لا تزال تتمتع بحق المطالبة بالشرعية السياسية، لكن لا يوجد مطالبة مماثلة يمكن لبوتين أن يدّعيها لسلطته، كما لا يوجد شيء يماثل غموض علاقته بوكلائه من الديكتاتوريين، سواء كانوا حكام آسيا الوسطى الأقوياء، أو بشار الأسد في سوريا. ولا يوجد نمط واضح ينتقل به نظامه عند وفاته، وسوف يأخذ خليفته السلطة عن طريق القوة الغاشمة أو يدّعي شرعيةً زائفة بانتخابات مزورة، إنها الضريبة التي يدفعها حتى الأعداء لمعايير العصر الليبرالي. وفي كلتا الحالتين، لن يكون هناك بديل واضح عن الليبرالية يمكنه أن ينجح، لن يكون هناك سوى العنف أو المحاكاة الهزليّة أو كلاهما.

ربما ثمة شيء ما في مرحلة جنينيّة داخل «**الديمقراطية غير الليبرالية**» يمارسه عدة رجال أقوياء من موسكو إلى اسطنبول بطرق مختلفة يمكن أن يتطوّر إلى منافس إيديولوجي خطير أمام الغرب. ولكن على عكس الأنظمة الشمولية في

(537). «دخان ومرايا» تعبير شائع في أمريكا الشمالية بمعنى التضليل، كما في التعتيم على الحقائق، أو تزيين المواقف غير الجديرة بالاهتمام.
(538). «العرش والمذبح» أي وحدة الكنسية والدولة في الكيان السياسي.
(539). آل رومانوف The Romanovs: البيت الإمبراطوري الذي حكم روسيا من 1613 إلى 1917

الثلاثينيات، أو على عكس جمهورية إيران الإسلامية بهذا الصدد، لم يدّع أيّ من هذه الأنظمة في الواقع مصدراً بديلاً للشرعية، أو يقدّم رؤية ما لمكمن السيادة. «الديمقراطية غير الليبرالية» في الممارسة العملية هي إما مجرد ديمقراطية ليبرالية ذات طابع قومي يفوق إلى حدّ معين ما تفضّله المعايير الغربية، أو هي ديمقراطية زائفة يسيطر عليها ديكتاتور لا يريد أن يعترف بعدم أحقيته في السلطة، لأنه ما يزال يسلّم ضمنياً بشرعية النظام الليبرالي الغربي الحديث. لنترك بوتين يُتوَّج قيصراً على كل روسيا، ولندع رجب طيب أردوغان يحيي الخلافة في تركيا تحت حكمه الشخصي، وبولندا والمجر تعيدان تشكيل نفسيها باعتبارهما ملكيّات مسيحية، ويمكننا عندئذ أن نبدأ الحديث عن سقوط عالم نهاية التاريخ «الفوكويامية». لكن ما يوجد في ما يسمّى بالديمقراطيات غير الليبرالية الآن هو مجرد شكل أكثر قوميةً أو محافظةً أو هو أدنى رتبةً مما هو موجود في الدول الغربية «الطبيعية». إنه نوع مختلف إلى حدّ ما من الانحطاط، على أكثر تقدير، وليس وريثاً ينتمي إلى «ما بعد الليبرالية»، كما أنه ليس جديداً بالضرورة، إذ كيف تكون المجر الديمقراطية التي يهيمن عليها حزب واحد في عهد فيكتور أوربان• مختلفةً عن نظام الحزب الواحد الذي هيمن على المكسيك فعلياً في معظم النصف الثاني من القرن العشرين؟ أو عن حكم الحزب الواحد الذي غالباً ما ميّز كوريا الجنوبية واليابان من منتصف القرن العشرين وحتى أواخره؟ من الطبيعي تماماً أن تنتج الأنظمة الديمقراطية أحزاباً قوية تلغي الإلتزام بالقواعد حفاظاً على بقائها في السلطة، ولا أحد يعتقد أن المكسيك عندما كانت تحت سيطرة الحزب الثوري التأسيسي[540] مثلت تحدياً أيديولوجياً للديمقراطية الليبرالية، وعلى الرغم من كل الأصوات الغاضبة التي تستهجن ما يسمى بالديمقراطية غير الليبرالية في ظل حكم أوربان، أو في ظل حزب بولندا القومي المسمّى «القانون والعدالة»[541]،

(540) الحزب الثوري التأسيسي (PRI) Institutional Revolutionary Party: حزب مكسيكي تأسس عام 1929. وحكم المكسيك طوال 71 عاماً، واتخذ خلال ذلك أكثر من اسم.

(541). حزب القانون والعدالة Law and Justice: حزب بولندي يميني قومي محافظ تأسس سنة

فإن الأمر نفسه قد ينطبق اليوم على أوروبا الشرقية بأكملها.

الشك في القرن الصيني

الصين حالة أكثر تعقيداً، فهي تعكس الموقف الروسي بمعنى ما، حيث لا تزال تصف نفسها باعتبارها دولة ماركسية لينينية، لكن لا أحد يصدق خطابها الرسمي، وهو ما يجعل استعراضاتها الأيديولوجية تمريناً على الكذب المستمر. ويمكنك في الوقت نفسه، أن ترى في الصين شيئاً أقرب إلى الشكل الذي قد يتّخذه النظام ما بعد الليبرالي، فهي في ظل نظام يتم فيه ترفيع التكنوقراطية رسمياً على المعايير الليبرالية والمبادئ الديمقراطية، نظام يَعِد بأن البيروقراطية الكونفوشيوسية التي تم تحديثها، وهي نسخة القرن الحادي والعشرين من تجارب الصين السابقة في «نظام الجدارة»[542]، يمكنها أن تحقق النمو والنظام، وربما الابتكار التكنولوجي على وجه الخصوص، بشكل أكثر فاعلية من الليبرالية.

لهذا السبب، فإن النظام الصيني يتمتّع، على عكس الإسلاموية، بإعجاب ناعم بين النخبة الغربية. إنهم ليسوا معجبين بحكم الحزب الواحد، تحديداً، ولكن النقاد ورجال الأعمال الذين يحترمون على الأقل الطريقة التي يمكن أن تمضي بها بكين إلى الأمام في تغيير سياساتها وإنجاز المشاريع الكبرى دون الاضطرار إلى سماع زمجرة المناظرات الديمقراطية. وبخلاف روسيا بوتين، فقد تمتعت الصين بمعدل نمو اقتصادي يعد إعلاناً دعائياً عن نظامها، من جهة، ومصدرَ قوةٍ ناعمة عالمية متنامية، من جهة أخرى. لذا فإن النخب في الدول النامية، في أفريقيا بشكل خاص، والتي ترى في «نظام الجدارة» عن طريق سيطرة حزب واحد نموذجاً يحتذى به، هي أقرب إلى فكرة النظام ما بعد الليبرالي الحديث، من فكرة الدول غير الليبرالية العميلة لموسكو.

2001، وهو يهيمن الآن على تحالف اليمين المتحد الحاكم.

(542). نظام الجدراة، أو سلطة الكفاءة Meritocracy: نظام حكم يعتمد على كفاءة الأداء والجدارة الشخصية. ظهر هذا المصطلح عام 1958، كما سيرد لاحقاً.

سيتم النظر في احتمال أن تَرِثَ الحضارةُ الصينية الأرضَ حقاً في الجزء الثالث من هذا الكتاب، لكن مستقبل الصين قد يوضح أيضاً فرضية مختلفة، وهي أن المستقبل القريب سيشهد نوعاً من عدم الانحطاط المتقارب بين القوى العظمى الصاعدة في العالم وإمبراطورياته القائمة، حيث تتردّى مستويات النمو والتقدم في العالم غير الغربي ويزداد العبث السياسي، وقد اتضح أن المشاكل التي نوقشت في الجزء الأول من كتابنا هذا، أي الركود والتصلّب في المجتمع المصاب بالشيخوخة، تنتظر المرور بالصين (والهند والبرازيل وتركيا ونيجيريا...) كذلك.

في هذا المستقبل، سيكون واقع الانحطاط كما وصفته متوافقاً مع الكثير من التعزيزات حول **«صعود البقية»**، ومع الحجج حول التقدم العالمي الحالي المرتبط بالمتفائلين الليبراليين مثل **«بانغلوس»**[(543)] جامعة هارفارد، الأستاذ ستيفن بينكر[(544)]. إذ يبدو من الناحية الظاهرية، أن حجج بينكر على أن «شيء تقريباً آخذ في التحسّن» وهي حجج أوردها في كتبه، مثل **«التنوير الآن»**[(545)] و**«أفضل الملائكة في طبيعتنا البشرية»**[(546)]، تتعارض مع أطروحتي، ولكن ليس بشكل ضروري أو كامل. ويمكن لتوجهات بينكر المتفائلة أن تصف بدقة المكاسب الحقيقية تماماً في الرفاهية البشرية التي حققتها الدول النامية طالما اقتفت أثر

---

(543). بانغلوس Pangloss: بانغلوس شخصية خيالية في رواية فولتير «كنديد». وهو أستاذ ومربٍ في بلاط البارون، وكان متفائلاً طبيعانياً يعتقد بأن العالم رائع فعلاً بقدر ما يمكن له أن يكون.

(544). ستيفن بينكر Steven Pinker: عالم لغويات وعلوم نفسية. أستاذ بجامعة هارفارد. من مؤلفاته «التنوير الآن». و«الإدراك البصري». و«غريزة اللغة». وهو من المفكرين المتفائلين. ويرى أن الحياة على الأرض تتحسّن بغض النظر عن كل الأحداث المؤسفة. ولهذا السبب يصفه المؤلف بأنه بانغلوس هارفارد.

(545). التنوير الآن: مسألة العقل والعلوم والإنسانيّة والتقدُّم Enlightenment Now: The Case for Reason, Science, Humanism, and Progress صدر عام 2018. ويخلص فيه بينكر إلى أن الصحة والازدهار والأمان والسلام والسعادة في حالة تنامٍ وازدياد في الغرب وفي العالم. مدلّلاً على ذلك بأرقام وإحصائيات.

(546). أفضل الملائكة في طبيعتنا البشرية The Better Angels of Our Nature صدر عام 2011. وفيه يخلص بينكر إلى أن معدلات العنف تنخفض باستمرار مع مرور الوقت متوقعاً غداً أفضل أمام البشرية.

أوروبا والولايات المتحدة وشرق آسيا في المسار الرأسمالي الليبرالي، لكن ما سيعبّر بدقة بعد ذلك عمّا ينتظر تلك الدول في نهاية رحلتها إنما هو الانحطاط.

بكلمات أخرى، وبدلاً من ذلك النوع من القفز الطويل الذي حدث عندما تجاوزت الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بريطانيا العظمى ساعيةً إلى الهيمنة العالمية والسيطرة التكنولوجية، فإن ما سنراه في القرن الحادي والعشرين هو التقارب فقط، حيث تخضع القوى الصاعدة والاقتصادات النامية اليوم لأحكام الشيخوخة نفسها، وللسُّبات نفسه الذي أصاب الاقتصادات الأكثر ثراءً منذ السبعينيات. ومن المرجح أن يكون هذا هو الحال على وجه الخصوص إذا كانت القراءة الأكثر تشاؤماً التي تفسّر ركودنا التكنولوجي الحالي صحيحةً، وأننا وقد وصلنا فعلاً إلى الحد الأقصى في مسار تغيير العالم، لا إلى مجرّد مرحلة من الخمود المؤقّت. وقد اقترح الكاتب المهتم بالتكنولوجيا تيموثي لي[547]، في هذه الصدد، أنه إذا كانت القفزة الحديثة العظيمة قد نتجت عن بعض التطورات والحلول غير القابلة للتكرار مرة أخرى، وعلى رأسها استغلال الوقود الأحفوري الذي عزّزه اختراع الترانزستور، فعلينا ألا نتوقع مستقبلاً من النمو السريع المستمر الذي تهيمن عليه آسيا، بل مستقبلاً تلتقي فيه «مستويات المعيشة التي تميز الحضارة ما بعد الصناعية الناضجة... على نمط مستدام»، والتي تسلك مسارات مختلفة لتحقّق «الركود المزدهر» نفسه.

لقد رأينا سابقاً نسخة من هذا عندما لم تستطع اقتصادات أوروبا، التي نمت بسرعة كبيرة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، أن تتجاوز الولايات المتحدة فعلياً بعد السبعينيات، أي عندما بدأ عصرنا الحالي يركن إلى الركود، ولكنها أصيبت بدورها بالركود هي الأخرى. وبنفس الطريقة، قد ترى الصين والهند أن

(547). تيموثي لي Timothy Lee: عالم الكمبيوتر الإنجليزي، والمعروف بكونه «مخترع الشبكة العنكبوتية العالمية».

مستوى نموهما قد تضاءل ما أن شرعتا تقطف الثمار المتدلّية[548]، وحققتا قدراً من المكاسب السهلة، وقد بدأت ضغوط التراجع الديموغرافي في تظهر آثارها في دول آسيا الأخرى أيضاً، وهذه الضغوط على الأرجح أقوى في الاقتصادات التي من المفترض أن تهيمن على «عالم ما بعد أمريكا» ممّا كانت عليه في الغرب المتقدم، لأن الانتقال إلى معدلات المواليد المنخفضة قد حدث بسرعة أكبر في العديد من هاته البلدان، بعد أن تم حثّها أحياناً، كما هو الحال في الصين، عن طريق برامج قاسية تهدف إلى السيطرة على التعداد السكاني، وخلقت وضعاً ربما تنتهي فيه القوى الجديدة إلى أن تشيخ قبل أن تصبح غنية.

إذا كانت معدلات النمو الاقتصادي قد تدهورت في شرق آسيا وجنوبها، فمن السهل رؤية نسخ أكثر قتامة من مشاكل العالم المنحطّ تحدق بالمجتمعات الآسيوية. لقد تفاقمت عزلة منتصف العمر والشيخوخة في المجتمع ما بعد الأسري بسبب ضعف العناية بها في شبكة الأمان الاجتماعي، كما تفاقمت مشكلة «جنوح الذكور» في الغرب لأسباب عديدة، في ظل وجود الملايين من فائض الشباب.

من النادر أن يكون النمو المخيب للآمال قائماً على مجرد الافتراض. في البرازيل وجنوب أفريقيا اللتين غالباً ما يرد ذكرهما كمثالين عن القوى العظمى المحتملة في المستقبل، كانت معدلات النمو الاقتصادي في السنوات العشر الماضية غير قابلة للتمييز عن مثيلاتها من معدلات النمو في أمريكا وأوروبا. الهند، من ناحية أخرى، كان أداؤها أفضل، وغياب النظام الاستبدادي الذي يقضي بإنجاب طفل واحد يعني أنها لا تكبر بسرعة مثل الصين، ولكن في السنوات القليلة الماضية، كان هناك تباطؤ هندي غير متوقّع، مرتبط جزئياً بالطريقة الخرقاء التي فرضتها

(548). إحالة إلى فكرة تايلر كاون عن «ثمار التاريخ المتدلية» في كتابه «الركود الكبير» الصادر عام 2011.

حكومة رئيس الوزراء ناريندرا مودي[549] المتعلقة بالضرائب وإصلاحات العملة. النكتة التي تقول: «إنه بلد المستقبل، وسيظل كذلك دائماً»، غالباً ما كانت تنطبق على البرازيل، وهي تتكرر أيضاً مع البلدان ذات المواقف المماثلة بسبب أنه من السهل (نسبياً) على البلدان الفقيرة التي تعاني من سوء الحكم أن تنمو بسرعة في الوقت الذي ينحسر فيه سوء إدارة الحكم، ولكن من الصعب جداً تحقيق تسارع يقود تلك البلدان إلى المنطقة الاقتصادية الجديدة التي يتطلبها الإفلات من الانحطاط. بهذا المعنى، قد تتحوّل قصة العولمة إلى قصة «بينكرية»[550] عن ارتفاع مستويات المعيشة وعن الركود الختامي، في الوقت نفسه، لأن المسارات تقود إلى الوجهة ذاتها، دون أن يجد أحد خياراً آخر يتبعه.

قد لا يكون هذا صحيحاً بالنسبة إلى الصين، وهي ربما كانت بالفعل على مسار آخر مختلف، لكن يجب أن تكون هناك، على أقل تقدير، شكوك أخرى تحوم حول حدود القصة الصينية. إن إحصائيات النمو الخاصة بها تبدو رائعة، ولكنها ليست جديرة بالثقة تماماً. هناك استقرار مشبوه بشكل خاص منذ عام 2015، عندما انخفض معدل نمو إجمالي الناتج المحلي إلى 7 في المائة من أعلى مستوى له في السابق بأكثر من 10 في المائة سنوياً، وتشير بعض مقاييس النشاط إلى أن معدل النمو الحقيقي كان في الواقع أقل كثيراً من الأرقام الرسمية للسنوات الخمس الماضية. وحتى الأرقام الرسمية تُظهر تباطؤاً يُخرج الصين من المسار الذي حققته اليابان وكوريا الجنوبية. نتيجة لذلك، أشار غريغ إيب[551] في تحليل حديث له نُشر بصحيفة «وول ستريت» عن شيخوخة الصين السريعة، إلى اعتمادها على الإنفاق الذي تقوده الدولة والمخصّص لتطوير البنية التحتية، وما خلفته تراكماته

---

(549). ناريندرا مودي Narendra Modi: رئيس وزراء الهند منذ عام 2014. وتتمثل التعديلات الضريبية التي قام بها في خفض ضرائب الشركات، وألغاء ضريبة الثروة، وزيادة ضرائب المبيعات.

(550). نسبة إلى ستيفن بينكر المشار إليه سابقاً.

(551). غريغ إيب Greg Ip: كاتب كندي-أمريكي، ويعمل حالياً في صحيفة وول ستريت جورنال. من مؤلفاته: «لا مخرج.. التدخّل الحكومي والأزمة المالية».

الكبيرة من ديون.

في الوقت نفسه، فإن الدولة البوليسية في الصين فعّالة بشكل مخيف، لكن سلطاتها التوسعيّة هي أيضاً علامة على الانقسامات الداخلية والتصدعات التي قد تنحرف بشكل مدمّر إذا بدأ النمو بالفشل حقاً. إن توطيد الرئيس شي جينبينغ* الأخير للسلطة على حساب النخبة الحزبية التي اتفقت على اختياره يُظهر مدى سهولة تحوّل نموذج «نظام الجدارة» والتكنوقراطيّة إلى الاستبداد الأوتوقراطي. وشبكة الصين التي تضم دولاً عميلةً عبارة عن خليط أكثر تنوعاً من أي نوع من التحالفات (أشبه بالناتو) قيد الإنشاء، مع وجود الكثير من الاستياء المناهض للصين يتحرّك وراء الكواليس، أما بالنسبة إلى قادة القوة «التي يحتمل أن تهيمن على العالم» قريباً، فإن النخبة الصينية تبدو متشائمة إلى حد ما. إن حروب رأس المال تتصاعد باستمرار، وأغلبية الصينيين الأثرياء ترغب في الهجرة، أما أولئك الذين يغادرون البلاد فإنهم يحذرون من مستقبل عصيب وأكثر قتامة. عندما انتقل المطوّر العقاري الصيني تشين تيانيونغ[552] إلى مالطا في أوائل 2019، نشر بياناً طويلاً (ولكنه اختفى بسرعة من الإنترنت الصينية) واصفاً اقتصاد الصين بأنه «سفينة عملاقة تتجه إلى الهاوية... وإذا لم تحدث تغييرات جوهرية، فمن المحتوم أن تتحطّم السفينة ويموت الرّكاب»، ولكن يبدو أن الحكومة الصينية تدرك تماماً الضغوط الهيكلية المفروضة على نظامها وكذلك القيود المحتملة على النمو المستقبلي. قد يكون هذا التحليل الذي كتبه بيتر نيل* عام 2015 من قبيل المبالغة، لكنه يستحق التأمل:

ربما تكون الصين على نحو محدّد هي المكان الأكثر تشاؤماً في العالم اليوم. عندما يرى الأمريكيون أن الاقتصاد الصيني ينمو بسرعة مذهلة (10 في المائة سنوياً منذ

(552). تشين تيانيونغ Chen Tianyong: مطوّر عقاري صيني في شنغهاي، وهو قاض ومحام سابق. رحل إلى مالطا دون التفكير في العودة، ونشر على وسائل التواصل الاجتماعي مقالاً من 28 صفحة بعنوان «لماذا غادرت الصين؟».

2000)، فإننا نتخيّل دولة واثقة تسيطر على مستقبلها. ولكن هذا لأن الأمريكيين ما زالوا متفائلين، ونحن عكسنا تفاؤلنا على الصين. أما من وجهة نظر الصين، فلا يمكن أن يتحقق النمو الاقتصادي بسرعة كافية. كل دولة أخرى تخشى أن تستولي الصين على العالم، ولكن الصين هي الدولة الوحيدة التي تخشى ألا تفعل ذلك... يمكن للصين أن تنمو بسرعة كبيرة فقط لأن القاعدة التي انطلقت منها منخفضة جداً، وأسهل طريقة تنمو بها الصين هي نسْخُ ما نجح بالفعل في الغرب دون تردّد. وهذا بالضبط ما تفعله الآن: تنفيذ خطط محدّدة عن طريق حرق المزيد من الفحم لبناء المزيد من المصانع وناطحات السحاب. ولكن مع ارتفاع عدد السكان الذين يدفعون أسعار الموارد إلى أعلى، لا توجد طريقة تجعل مستويات المعيشة في الصين تلحق فعلاً بأغنى البلدان، والصينيون يعرفون ذلك.

هذا هو السبب في أن القيادة الصينية مهووسة بالطريقة التي تُهدَّد بها الأشياء فتزداد سوءاً. كل زعيم صيني كبير عانى من المجاعة عندما كان طفلاً، لذلك عندما ينظر المكتب السياسي إلى المستقبل، فإن الكارثة ليست فكرة مجردّة، ويعرف الشعب الصيني أيضاً أن الشتاء على الأبواب. الغرباء مفتونون بالثروات العظيمة التي يتم تحقيقها داخل الصين، لكنهم لا يولون اهتماماً للأثرياء الصينيين الذين يحاولون جاهدين أن يقوموا بتحويل أموالهم إلى خارج البلاد، أما الصينيون الأفقر فإنهم يدّخرون كل ما في وسعهم آملين أن يكون ذلك كافياً.

والآن، قد لا تحدث كارثة في الصين فعلياً، وإذا لم تحدث، فستكون القوة الصينية خلال جيل واحد أكبر ممّا هي عليه اليوم، وستكون هناك تعديلات سياسية عالمية ضرورية انطلاقاً من هذه الحقيقة. لكن الصين القوية ليست مثل الصين المهيمنة، أو الصين التي يُنظر إليها على أنها نموذج ثقافي أو سياسي يتطلّع إليه العالم. إذا انتهى الأمر بالصين إلى اقتصاد آخر غني لكنه راكد، مع وجود نخبة غير موثوقة لا تكاد تتمسّك بالسلطة، فإنها لن تكون بلداً رائداً لديه بديله الخاص عن الليبرالية الغربية والذي تسارع بقية العالم إلى اقتفائه والاحتذاء به. ستكون

حالة أخرى تستحق الدراسة من حالات التقارب مع الديمقراطيات الليبرالية والديمقراطيات الزائفة والأنماط المحتملة من «نظام الجدارة»، وجميعها ينتهي به المطاف في نفس المكان، مثل أوليغارشية الأمر الواقع التي تسعى إلى إدارة الركود وما ينتج عنه من تبرّم واستياء.

الانحطاط بدافع عن نفسه

تشير الرغبة في مغادرة الصين إلى أن الانحطاط لا يزال مدافَعٌ عنه بشكل جيد، وإلى أن النظام الغربي لا يزال قادراً على إضعاف منافسيه المحتملين من خلال استقطابهم وتوظيفهم.

إن النظام الذي نصفه بـ«الجدارة»، بما يَعِد به من بناء النخبة عن طريق إيجاد الأفضل والأذكى في كل ركن من أركان المجتمع (أو في كل ركن من أركان الكوكب إذا تحدثنا عن المجتمع العالمي) يعلن عن نفسه بوصفه وسيلة لبناء أفضل طبقة عليا ممكنة، أي بناء النخبة الأكثر استحقاقاً فكرياً. ولكن سجل النخبة الغربية الفعليّ يقدّم على امتداد الجيل الماضي أسباباً للشك في هذا الادعاء المتباهي، ذلك أن «نظام الجدارة» حتى إذا كان زائفاً، فإنه قد يستمر في دعم وحماية النخبة غير الفعّالة، لأنه يستنزف الموهبة الحقيقية من المقاطعات والأطراف المحيطة بالمدن، ويحرم الخصوم والمتمردين المحتملين من وجود القادة الذين قد يتحدّون هيمنة النظام.

إن سيناريو استنزاف المواهب واستقطاب المنافسين هذا، ليس نظرية مؤامرة غريبة. إنه يظهر في أول وصف واضح لنظام الجدارة الحديث، وتحديداً في الكتاب الذي صاغ هذا المصطلح للمرة الأولى، وهو «صعود نظام الجدارة» من تأليف مايكل يونغ[553]، وهو عمل روائي نُشر عام 1958، في شكل كتاب عن التاريخ

---

(553). مايكل يونغ Michael Young : عالم اجتماع وسياسي بريطاني صاغ مصطلح «الجدارة» (ت. 2002)، ويصف كتابه «صعود نظام الجدارة» The Rise of the Meritocracy بؤس مجتمع المملكة

والتحليل السياسي كُتب نصّه عام 2034، أما مؤلف النصّ الخيالي فهو عالم اجتماع متعجرف يؤمن إيماناً عميقاً بالنظام الجديد وبالنخبة «الرائعة» التي كانت حصيلة اختبارات أجريت على السجل الاجتماعي ومُنحت بموجبها امتيازات معيارية للأعضاء المختارين، وهو يشرح مع اقتراب الخاتمة السبب في أن «نظام الجدارة»، على عكس الطبقة الحاكمة السابقة، لن يتم الإطاحة به أبداً، لأنه يستقطب مسبقاً ذلك النوع من الأشخاص الذين بإمكانهم الإطاحة به:

لقد شهد القرن الماضي إعادة توزيع القدرات بشكل واسع بين طبقات المجتمع، والنتيجة هي أن الطبقات الدنيا أصبحت خلواً من إمكانية القيام بثورة فعّالة، ربما تزدهر للحظة قصيرة، عن طريق التحالف مع خيبة أمل غريبة وعابرة تنتاب جزءاً من الطبقات العليا، لكن مثل هؤلاء الأشخاص المنبوذين لا يمكن أن يكونوا أكثر من أقليّة ناشزة، فالشعبويون لم يكونوا قوةً سياسية جادةً قط بأكثر من هذا المستوى، بينما النخبة الحقيقية تُعامَل بكل تميز واستحقاق يمكن أن يرغب فيه أي شخص من أعماق قلبه.

أعضاء الطبقات الدنيا الذين لا يتمتعون بأدنى درجة من الذكاء، لا يشكّلون تهديداً أكثر من كونهم مجرد رعاع، حتى لو كانوا متذمرين أحياناً، وزئبقيين أحياناً أخرى، فهم لا يمكن التنبؤ بأفعالهم أبداً، ولو أن آمال بعض المنشقين السابقين قد تحقّقت وبقي بعض الأطفال اللامعين من الطبقات الدنيا هناك، للتعليم والإلهام وتنظيم الجماهير، لكان لدي عندئذ قصة مختلفة لأرويها، أما القلة التي تقترح الآن مثل هذه الخطوة الجذرية فقد تأخرت مائة عام.

تكشف حاشية على هذا النص أن مؤلف هذا التحليل المتعجرف قُتل على يد حشد من الغوغاء الشعبويّين بعد ذلك بوقت قصير. لكن مايكل يونغ لا يكشف

المتحدة المستقبلي وقد أصبحت عقيدته المركزية هي الذكاء والجدارة. ما أدى إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين هما النخبة الجديرة بالحكم، والطبقة الدنيا المحرومة من حقوقها.

عمّا إذا كان أولئك الغوغاء قادرين على إثبات خطأ صلف المؤلف عن طريق القيام بشيء أهمّ من أعمال الشغب، تاركاً المجال مشرعاً أمام إمكانية أخرى، وهي أن الواقع الأساسي في نظام الجدارة يتمثّل، كما يجسّده ويصفه، في النخبة المعرفيّة التي يتطابق تفوقعها وخيلاؤها مع عراقة الأرستقراطيين القدامى، لكنها مشفوعة بأعداء شعبويين غير منظّمين إطلاقاً، ومنهزمين ذاتياً، ويمكن خداعهم بسهولة للقيام بما هو أكثر من مجرد إبداء التفاعل وإحداث الشغب.

ثمة نوعان من «**هجرة العقول**» يحافظان على هذا التوازن: أحدهما عالمي والآخر وطنيّ. تحدث هجرة العقول العالمية من خلال هجرة ذوي المهارات العالية، وهو النوع الذي لا يزال يحضى بدعم الأحزاب في الغرب الذي يقوم باستقطاب تلك المهارات، ويحدث ذلك لسبب وجيه، إذا ما فكرتَ فيه على أنه عملية يجد بواسطتها المهنيون المهرة أو الراغبون في الاحتراف في أمريكا اللاتينية وأفريقيا طريقهم إلى أوروبا وأمريكا الشمالية (مثال يلفت النظر: قد يكون هناك عدد من الأطباء الإثيوبيين في شيكاغو أكثر من عددهم في إثيوبيا)، أو يحاولون بها مساعدة أطفالهم في العثور على طريقهم إلى النخبة في الغرب، في حين أن البلدان التي تركوها وراءهم تحصل على قدر من التحويلات المالية التي تصلها مقابل ما خسرته من طبقتها القيادية الطبيعية التي هاجرت إلى المدن الغربية! لقد بارك فعالية هذه الصفقة، من الناحية العملية، كل اقتصادي محترف، لكن عواقبها السياسية ملحوظة أيضاً. إنها طريقة جيدة جداً لجعل منافسي العالم الغربي المحتملين أكثر ثراءً بعض الشيء، ولكن يصبحون في الوقت نفسه أقل ثراءً بالمواهب، وذلك عن طريق التخلّص من مواطنيهم الأكثر طموحاً، ومنحهم عضوية نخبويّة، وإلا حلّوا محلّهم يوماً ما.

ثمة شيء مشابه يحدث على المستوى المحلّي أيضاً. فـ«البرابرة» الأكثر رعباً في العالم الغربي اليوم ليسوا غزاة من السهوب البعيدة، إنهم البؤساء القادمون من

«حزام الصدأ»[554] الذين صوتوا لصالح ترمب، وأصحاب السترات الصفراء الذين أشعلوا النار في محلات الشانزليزيه، والإنجليز الصغار[555] الذين أجبروا بلدهم على خروج لم يكن متوقَّعاً من الاتحاد الأوروبي. إن قدراً كبيراً من تعليقات النخبة القلقة حول نظامنا المنحط يفترض أن هؤلاء المتمرّدين الداخليين قد يجعلون النظام يتهاوى من الداخل، وأن الشعبويين «من داخل البوابات» (بمساعدة الروبوتات الروسيّة والبلوتوقراط الأنانيين قصيري النظر) هم التهديد الوجودي الذي واجهته المؤسسات الغربية للمرة الأخيرة عندما كان الاتحاد السوفييتي على قيد الحياة، وأن الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي وتحالفات أمريكا في منطقة المحيط الهادئ، يمكن أن تتفكّك جميعها بفعل القومية، حيث يمكن أن يعود عالم الغاب الذي كان سائداً في ثلاثينيات القرن الماضي إلى الظهور فجأة.

لكن -وكما رأينا في الفصل الثالث- هناك القليل جداً مما يشير إلى أن الحركات الشعبوية مستعدة لممارسة السلطة بأي طريقة فعّالة. لأنها -بدلاً من ذلك- تشبه وصف الطبقات العاملة «الزئبقية» الذي ذكره الموظف المدني المتحذلق في رواية «مايكل يونغ»*: إنهم غير منظّمين، وهم ذوو قيادة تعيسة، ومتآمرون ومعادون للفكر بطريقة تقلّل من فعاليتهم، وعرضة للمخادعين والمتلاعبين، ويتأرجحون بعنف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دون العثور على قادة موهوبين أو برنامج واضح. إن التقدم المخيف لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي (بريكست)، والحكم الفاسد الذي مارسه دونالد ترمب، وسياسة الاحتجاج الهشّة التي تعكر صفو فرنسا... هي مجرد اضطرابات، لكنها ليست تحوّلات حقيقية، وهي لا تزال تشبه إشارة جاك برزون إلى «الجمود في عصرنا»، أكثر بكثير مما كانت عليه أحداث

(554). حزام الصدأ Rust Belt: تعبير في الاستخدام الشعبي يشير إلى منطقة شمال شرق الولايات المتحدة والبحيرات الكبرى وولايات الغرب الأوسط.

(555). الإنجليز الصغار Little Englanders: المنتمون إلى بريطانيا غير الإمبراطورية. كما تدعو لها حركة Little Englander، وتتركز في جنوب غرب ويلز.

مثل «**رحلة فلاديمير لينين إلى محطة فنلندا**»[556]، أو «زحف موسوليني على روما»*. إن مزيجاً من القلق والتطلّع يبدو مشاكساً ونزقاً ونوستالجياً، أو كأنه شعبوية تطلّ من الشفق الغربي، ووطنيّة تنبثق من الشيخوخة الحضارية، ورد فعل على الركود الذي لا يعدو كونه ركوداً في حدّ ذاته.

ومرةً أخرى، إن عالم الأحلام في رواية ميشيل ويلبيك* يمثّل تناقضاً مفيداً، حيث يكون الرئيس الإسلامي، مؤسّس الإمبراطورية الجديدة، مثل القوميين الأوروبيين في الثلاثينيات. لكننا نعرف في عالمنا أن ماري لوبان* لن تتمكن من استعادة الجزائر، أو **إعادة آل بوربون**[557]. إنها تريد فقط طرد المهاجرين وإعادة توزيع الثروة على المتقاعدين وأصحاب المقاطعات. حتى قوميو أوروبا الشرقية، الشعبويون الغربيون الأكثر تأثيراً وفاعلية من الناحية السياسية، لا يريدون في الواقع مغادرة الاتحاد الأوروبي، ويبدو في الغالب أنهم يريدون العودة بعقارب الساعة إلى لحظة الاستقلال الوطني التي تمتعت بها الدول الأعضاء حوالي عام 1975، مع هجرة أقل ومحاباة محليّة أكثر ممّا تسمح به قواعد الاتحاد الأوروبي. هكذا يروج الوعد بـ«**جعل (س) عظيمةً مرةً أخرى**» باعتباره وسيلة أكثر تمركزاً على العرق ethnocentric للقيام بتجربة التصلّب، باعتباره إضافة إلى القدرة على تقرير المصير في خضم حالة الركود، بالإضافة كذلك إلى جرعة جانبيّة من الفساد. قد يكون ذلك سيئاً، ولكنه لا يمثّل الثورة المضادة بعد.

ربما ينتظر «**شعبويّونا**» فرصة ظهور الزعيم الصحيح، والأزمة المناسبة، وتركيبة الرجل الصحيحة، واللحظة المواتية، لكي يصبحوا عملاء لتغيير النظام فعلياً. لكن من الممكن أيضاً أن يحمي «**نظام الجدارة**» النخبَ حقاً من التحديات الفعالة، وأن يبقى تشنّجنا الشعبويّ الحالي مجرد تشنّج لا غير، وسوف تعود بعده

---

(556). أثناء رحلته إلى روسيا عائداً من منفاه في سويسرا مرّ لينين بمحطة فنلندا بسانت بطرسبورغ قبل ثورة أكتوبر 1917. وما زال تمثاله في هذه المحطة (تم تشييده عام 1926) يحيي تلك الذكرى.

(557). آل بوربون House of Bourbon: سلالة ملكية أوروبية من أصل فرنسي. حكم ملوك بوربون فرنسا ونافار في القرن السادس عشر. وأقام فرعها الأسباني عرش إسبانيا. ثم نابولي وصقلية وبارما.

المؤسسة إلى السلطة دون قيود. وفي هذه الحالة، فإن التقارب بين القوى غير المستقرّة في العالم النامي، وبين القادة المصابين بالركود في العالم المتقدّم، يمكن أن يعمّم شكلاً جمهورياً زائفاً من الأوليغارشية، كما هو الحال في رؤية المثقف الشعبويّ الصديق، **مايكل ليند**[558]، لما قد يحمله القرن الحادي والعشرين. إذا ما هُزِمت الشعبوية:

إن الاحتمال الآخر... هو أن الحرب الطبقيّة اليوم ستنتهي عندما تقوم الأقلية الإدارية، مع ما لديها من شبه احتكار للثروة والسلطة السياسية والخبرة والتأثير الإعلامي، بقمع أغلبية الطبقة العاملة الأكبر عدديّاً والأضعف سياسياً، بشكل كامل وناجح. إذا كان هذا هو الحال، فقد تبدو أمريكا الشمالية وأوروبا المستقبلية إلى حد كبير مثل البرازيل والمكسيك، مع أوليغارشية متحيزة تتجمّع في عدد قليل من المناطق الحضرية العصرية، ولكنها محاطة بـمناطق نائية مهملة ومهجورة ومحتقرة.

لم يتناول هذا الفصل بعد ما يتّصل بـ«**تحدي الاستدامة**»، كما في تحدي تغيرات المناخ، واحتمال أن ينتهي الانحطاط أخيراً في عالم من «**النار والطوفان**»[559] (سيتم تناول أكثر سيناريوهات أزمة المناخ المنذرة بالفناء في القسم الأخير من هذا الكتاب)، لكن أقل هذه الاحتمالات خطورة، كما في توقعات «**اللجنة الدولية للتغيرات المناخية**»[560]، يشير إلى مستقبل يكون فيه تغير المناخ في الغالب عبئاً على البلدان الغنية بالإمكان إدارته، حيث يحيطها بالقلق والانزعاج ويتطلّب التكيّف والتخفيف من آثار تغير المناخ، دون أن يؤدي في الواقع إلى نهاية الحضارة

---

(558). مايكل ليند Michael Lind: كاتب وأكاديمي أمريكي يدافع عن تقاليد القومية الديمقراطية الأمريكية. من مؤلفاته: «المركز الراديكالي: مستقبل السياسة الأمريكية»، و«الأمة الأمريكية القادمة».

(559). النار والفيضان Fire and flood: استعارة توراتية تعبر عن العقاب الإلهي وتستحضر حكاية نوح والفلك.

(560). اللجنة الدولية للتغيرات المناخية Intergovernmental Panel on Climate Change: هيئة دولية تتبع الأمم المتحدة تكرس عملها للبحث في تغيرات المناخ وآثارها وسبل معالجتها.

كما نعرفها. ومن المرجح أن يكون ارتفاع درجات الحرارة، من ناحية أخرى، قوة تزعزع الاستقرار على نحو خطير في البلدان الأفقر في جنوب العالم، مثل أفريقيا والشرق الأوسط والهند، ما سيحدّ على الأغلب من نموها الاقتصادي، ويطغى على جهود التخفيف من آثار تغير المناخ، ويشجّع المزيد من النّخب في تلك المناطق على النزوح إلى لندن أو لوس أنجلوس، تاركة وراءها أناساً معرّضين للموت باستمرار!

في حالة مثل هذه (ومن باب **المصلحة الذاتية الميكافيلية، المنفصلة عن الدَّيْن الأخلاقي أو الالتزام الإنساني**)[561]، من الممكن أن يؤدي تغير المناخ إلى دعم هيمنة الغرب والعالم المتقدم. ويمكن للأزمة التي تم صنعها عن غير قصد من خلال التنمية الصناعية الغربية، أن تساعد الغرب المنحط -في واحدة من مفارقات التاريخ القاسية- على صدّ التحديات التي يتعرض لها من منافسيه لأنه سيفرض تكاليف بيئية أكبر على المستعمرات السابقة، مقارنة بالدول التي قادت أول موجة صناعية في العالم وهي المسؤولة عن الاحتباس الحراري. وهذا النمط نفسه موجود حتى في المناطق المتطورة، فحرائق الغابات تلاحق كاليفورنيا، ويمكن أن تغمر الأعاصير نيويورك، ولكن سيكون التخفيف والتكيف أسهل في مثل هذه الأماكن، بشكل عام، ومن السهل تحمل الحرارة، في شمال شرق أمريكا وشمال غرب المحيط الهادئ مقارنة بساحل الخليج الأمريكي، أو في «**وعاء الغبار**»[562] (الماضي، والمحتمل في المستقبل)، وكذلك في كندا وإنجلترا والدول الاسكندنافية مقارنة بإيطاليا واليونان وإسبانيا، أو في اليابان وكوريا الجنوبية مقارنة بجنوب شرق آسيا.

---

(561). يشير المؤلف إلى ما أصبح يعرف في الأدبيات الأيكولوجية بـ«تراجيديا المشاع» التي تعبر عن الاشتراك في استنزاف الموارد والتفرد بالمصلحة الذاتية. وهو ما يؤدي إلى الإضرار بمصلحة العالم المشتركة.

(562). وعاء الغبار Dust Bowl: المنطقة الوسطى من الولايات المتحدة. وقد تعرضت في الثلاثينيات إلى جفاف شديد وعواصف غبارية عنيفة امتد تأثيرها إلى كندا شمالاً.

على هذا النحو، يمكن للمرء أن يتخيّل المستقبل وقد أعادت تغيرات المناخ تشكيله، بأشبه ما يرى في الوقت الحاضر وأكثر من ذلك. سيكون كل مكان غني على وجه الأرض مثل أي مكان غني آخر، وكل مكان فقير مثل أي مكان فقير آخر، كما سيبدو النظام السياسي على المستوى الوطني نمطاً كسرياً fractal من النظام السياسي على المستوى الدولي. ستكون هناك نخبة تبدو قابلة للتبادل من بلد إلى آخر، وعجزاً ومعاناة إنسانية أينما وُوجهت تلك النخبة بالكراهية والمعارضة، وستظهر مناطق من الفوضى والاضطراب التي لا تهدّد المدن الكبرى حقاً، ولن توجد أمة أو حضارة ترسم مساراً مختلفاً بشكل جذري. هذه خلاصة مكثّفة ومفيدة تشير إلى معنى أن يستمر الانحطاط على الرغم من الاضطرابات الأخيرة، وأن يصبح عالمياً بشكل تدريجي، وقد يكون ذلك هو معنى «**الانحطاط المستدام**».

- لم هذا الفزع المفاجئ، هذا الارتباك؟

- لأن الليل قد حلّ ولم يأت البرابرة بعد.

وذلك أكثر احتمالاً مما تعتقد.

8

الإيفاء بحقّ الانحطاط

أريد الآن أن أجيب بإيجاز على الإحباط الذي ربما أحدثته نبرة الفصول السابقة، والذي يبدو أنه قد تنامى بين القراء الأكثر اعتدالاً والأكثر تكيّفاً وغير الخياليين. إن العالم الذي أصفه بأنه ربما يكون «منحطاً بشكل مستدام» هو، بعد كل شيء، عالم ثريّ وصحّي وطويل العمر، مثل أي مجتمع في تاريخ البشرية، وقد أزيلت عنه مظاهر القسوة والوحشية، وانخفضت فيه مختلف التفاوتات إلى حد كبير، وصارت فيه يد الاستبداد أخف أثراً على معظم الناس مما كانت في العديد من الحقب السابقة، وتضاءلت فيه احتمالات حدوث مآسٍ مروّعة. هناك بالطبع مشاكل وصعوبات، ومناطق من التعاسة والمعاناة والنفي واليأس، لكن وبالنظر إلى مجموعة الخيارات الممكنة ونهاية العالم المحتملة والتي تتربّص دائماً بالمستقبل، ألا يتعين علينا أن نتوق إلى استمرار النظام الحالي، منحطاً كان أم لا؟ إذا كان الأمر كذلك، وبدلاً من التحسر على العيوب الحتمية في وضعنا الحالي، ألا ينبغي لنا أن نعمل بجدية أكبر للاحتفاء بفضائله، ونقاوم أو نهمّش، أثناء ذلك، «أمنية الموت» (كالشعور بالندم الرومانسي في نهاية التاريخ، والتوق الخطير لغاية كبرى، والتوق الانتحاري لغزو بربري)؟

أعتقد أن احتفالاً مثل هذا سيكون من قبيل الخطأ، أو فإن هذا الكتاب ما كان له أن يوجد، إذ كان يكفي مثلاً أن تقرأ إطراء «بينكر» للحداثة ثم تتناول قرص

زولوفت[563] وتغطّ في نوم عميق. لكنني سأذهب إلى هذا الحد مع القارئ المتشكّك: إذا كان من الضروري عدم التعامل ببساطة مع الركود المزدهر على أنه أعلى التطلّعات البشرية، فمن المهم أيضاً أن يقوم نقّاد العصر المنحط بإيفاء الانحطاط حقّه.

مخاطر مناهضة الانحطاط

يبدأ هذا الحق بحقيقة أن الشكوى من الانحطاط، بحكم التعريف غالباً، هي سلعة فاخرة، وسمة من سمات المجتمعات، حيث يتم تسليم البريد، وحيث تعمل القطارات والطائرات دون أن تخلّ بمواعيدها، ويكون معدّل الجريمة منخفض نسبياً، وهناك الكثير من وسائل الترفيه في متناول يدك. لا نعرف (لا أنا ولا معظم القراء المحتملين لهذا الكتاب) نوع الخوف المتوطّن في الحالة الإنسانية في العصور الأقل امتيازاً وازدهاراً، في ظل ظروف سياسية غير مستقرة بشكل مزمن، أو ببساطة في ظل نوع من الأنظمة الاستبدادية التي تجعل أشكال **«الدولة البوليسية الورديّة»** أو **«الاستبداد الناعم»** تبدو -حسناً، لنقل- ناعمةً ويسهل تحملها. إن السلام العام والاستقرار النسبي ليسا شكلين من أشكال «الخير الأسمى»، لكنهما لا يزالان مهمّين، وفي بعض الأحيان يجد محتقروهما أنفسهم معاقبين بشدة عندما يكون العالم -كما يتوقون إليه- أكثر ديناميكية.

لا تؤدي كل محاولة للهروب من الانحطاط إلى مثل هذه العقوبة، لكن السنوات المائة الغربية الأخيرة من القلق الغربي حول هذا الموضوع تقدم الكثير من الأمثلة على الأسلوب الكارثي في السياسات التي تناهض الانحطاط، حيث يؤدي التوق إلى المعنى والفعل إلى أكوام من جثث **فردان**[564] **وباشنديل**[565]. أو

---

(563). زولوفت Zoloft : الاسم التجاري لدواء السيرترالين المضاد للإكتئاب.

(564). فردان Verdun: أطول معركة في الحرب العالمية الأولى. استمرت 11 شهراً. وقعت في فرنسا بين القوات الألمانية والقوات الفرنسية. قتل فيها سبعون ألف جندي فرنسي.

(565). باشنديل Passchendaele: من معارك الحرب العالمية الثانية بين القوات البريطانية والقوات

حيث تؤدي الرغبة في الهروب من الجمود والتأزّم السياسيين إلى ظهور الفوهرر ورايخ الألف سنة[566]، أوحيث يؤدي الحنين النوستالجي للاشتباكات الأيديولوجية الكبرى في الحرب الباردة إلى هستيريا ما بعد 11 / 9، وإلى مستنقع عسكري في صحراء الشرق الأوسط، وحرب عالمية رابعة تبدو خيالية ولكن خسائرها حقيقية جداً. إذا كان من الممكن لشعار الحضارة المنحطة أن يكون مقطعاً من الكاتب الإنجليزي الكاثوليكي هيلير بيلوك[567]، يقول:

«احتفظ دائماً بالممرضة، خوفًا من حدوث ما هو أسوأ».

فإن سياسة مناهضة الانحطاط لديها طريقتها للعثور على «ما هو أسوأ» في وجود انتظام يتلبّسه القلق والانزعاج.

هذا ما يجعل من المنطقي تماماً إلقاء نظرة باردة على المجتمعات المنحطة، للتعرّف على عيوبها وخيبات أملها وخطاياها السرية، والتعريف بالطريقة التي يمكن أن تنحني بها مساراتها نحو الفساد المريح، ونحو صنف عطيب من السلام، ومع ذلك فإن هذه المجتمعات تفضّل -مرحلياً- إحباطاتها وتأزماتها على العديد من البدائل الممكنة. خاصة وأن جملة آدم سميث القائلة: «ثمة قدر كبير من الخراب في الأمة» تنطبق أيضاً على الانحطاط. يمكن للعديد من العناصر في المجتمع أن تتحوّل إلى حالة ركود، ويمكن أن يكون هناك العديد من الإشارات إلى حالة الديستوبيا، قبل تحقّق الاحتمال الذي ينتهي به ازدهار الإنسان إلى الانطفاء بأي شكل من الأشكال.

الألمانية. وقعت في بلجيكا. قتل وجرح فيها أكثر من نصف مليون جندي، منهم 300 ألف جندي من البريطانيين.

(566). رايخ Reich الألف سنة: الرايخ الثالث في العهد النازي (وتعني كلمة رايخ: مملكة أو إمبراطورية في اللغة الألمانية).

(567). هيلير بيلوك Hilaire Belloc: مؤرخ وكاتب وشاعر بريطاني-فرنسي. أحد أكثر الكتّاب غزارةً في إنجلترا خلال أوائل القرن العشرين. (ت. 1953). من مؤلفاته: «الرأسمالية المؤمنة». و«المخرج: العدالة الاجتماعية».

ليس الأمر سهلاً دائماً، ولكن لا يزال بإمكان البشر أن يعيشوا بنشاط وسط حالة من الركود العام، وأن يكونوا منتجين وسط العقم، ومبدعين وسط التكرار، وأن يبنوا حياة إنسانية جيدة وكاملة تقدّم، في صورة العالم الأصغر [=الإنسان]، نقطةً مقابلة وتحدياً للعالم الأكبر المنحط. والمجتمع المنحط، على عكس الديستوبيا [المدينة الفاسدة] الكاملة، فهو يسمح لعلامات التناقض هذه بالوجود، ما يعني أنه في ظل الانحطاط، يظلّ من الممكن دائماً أن تتخيّل وتعمل سعياً إلى النهضة والتجديد. ولكن ليس هذا هو الحال على الدوام، بعبارة ملطّفة، إذا ما قامرت بالثورة، أو سرّعت حدوث الأزمة، أو فتحت الأبواب أمام البرابرة من الخارج أو الداخل.

إن أحد انتقادات المجتمع المنحط المتكررة هو –بالطبع– أن استقراره ليس أكثر من مجرد وهم، وأن الانحطاط المستدام ليس أكثر من تناقض اصطلاحي، وأن هذا الانحطاط يجعل الحضارة دائماً عرضة بشكل فريد للأزمات والغزو والدمار، وفي مثل هذه الحالة يكون من الأفضل المقامرة على الثورة، وعلى المخاطر اللاحقة، وعلى كل شيء، بدلاً من مجرد الجلوس في انتظار رصاصة الرحمة الحتميّة. لكن إبقاء الانحطاط حقَّه يتطلب أيضاً يحقق شكلاً من التوازن الصحي ملاحظة أن المجتمعات الديناميكية قادرة تماماً على تعريض نفسها للدمار، عندما تلامس الحد البيئي الأقصى دون أن تدرك ذلك (لم يكن هناك شيء منحط في ما يتعلق بسكان جزيرة الفصح [(568)]، ولم يكن هناك أحد أكثر ديناميكية مما في «لوراكس» الذي ألّفه الدكتور سوس) [(569)]، أو عندما تكتسب بعض المهارة التقنية التي لا تكون تلك المجتمعات مستعدّة للتعامل معها. ذلك لم يكن

(568). جزيرة الفصح Easter Island: جزيرة في جنوب شرق المحيط الهادئ تتبع تشيلي. وتشتهر الجزيرة بما يقرب من 1000 تمثال ضخم. صنفتها اليونسكو عام 1995 موقعاً تراثياً عالمياً. يذكرها المؤلف مثالاً على الاستقرار.

(569). د. سوس Dr. Seuss: هو ثيودور سوس جيزل T.S. Geisel، روائي وكاتب قصص أطفال ورسام كارتون أمريكي (ت. 1991). و«لوراكس» The Lorax من أشهر أعماله، وهو كتاب للأطفال عن تدمير المحيط البيئي. وفيه يتكلم لوراكس (الشخصية الرئيسية) باسم الأشجار.

انحطاطاً، ولكنه ديناميكية العصر الذري الذي كاد أن يدمّر العالم في 1962، أو في ما شهده من أحداث بعد ذلك. ليس الانحطاط بل هي الديناميكية، ديناميكية العالم الذي لا يزال يسعى إلى التطوّر، حيث تتزايد انبعاثات الكربون حتى مع انخفاضها في الغرب البطيء النمو، وهي التي ستصنع لنا الكارثة المناخية، إذا ما حدثت في نهاية المطاف. وكما تشهد ألف حكاية «فاوستية»، فإن التدمير يمكن أن يصبح بسهولة عقاباً غير متوقَّع يُجازى به الطموح البروميثي.

الإشراف على الاستقرار

مع أخذ هذا الخطر في الاعتبار، يمكن للمرء أن يثبت فرضية الانحطاط المستدام، لا باعتباره تراجعاً أو نهاية مخيبة للآمال، ولكن بوصفه حالة الجنس البشري الذي يحقق أخيراً توازناً صحياً بين البؤس الذي يخلفه الفقر المدقع ومخاطر «النمو من أجل النمو». ومن هذا المنظور، فإن ركود العالم الغني حالياً، على الرغم من كل ما يثيره من استياء وتبرّم، هو في الواقع أفضل طريقة لموازنة الاحتياجات المادية للإنسانية في مقابل ميلها نحو تدمير الذات. حيث يوفر الانحطاط المستدام فوائد وفيرة من الازدهار مع عدد أقل من المخاطر التي تقدمها العصور الأكثر اضطراباً لأنواع قادرة على الانتحار مثلنا. في الواقع، وفي انتظار اكتشاف «الأرض-2»[570] القريبة والجاهزة لسكنى الإنسان، يجب أن نكون ممتنين إذا توقّف النمو والابتكار، ويجب أن تكون البلدان الأكثر ثراءً راضية عن البقاء حيث نحن، مستمتعين بالمزيد من الأنشطة الترفيهية المثيرة التي لا تقاس بالناتج المحلي الإجمالي، ويجب أن يكون العالم النامي راضياً أيضاً عن الهدف من التقارب، حيث لا ينبغي أن يزعجنا الركود بعد هذه النقطة كثيراً، لأنه يعني أننا سنتجنّب جميع أنواع المخاطر. الركود التكنولوجي يعني أن الروبوتات

(570) الأرض2 Earth 2: الأرض الثانية أو الأرض المناظرة. فرضية علمية تقول بوجود كواكب أخرى تشبه الأرض صالحة لتوطّن البشر، في مقابل فرضية الأرض الوحيدة التي تقول بأن الأنظمة النجمية الأخرى تختلف جذرياً عن المجموعة الشمسية.

لن تقتلنا جميعاً أو حتى أن تسلبنا وظائفنا، والركود الفكري والديني والأيديولوجي يعني وجود القليل من التعصّب والحماقات الطوباوية، بينما يعمل التراجع الديموغرافي على نزع فتيل القنبلة السكانية، أما الركود الاقتصادي فيمكن أن يكون القوة الوحيدة القادرة على الحدّ من انبعاثات الكربون والحفاظ على تغير المناخ تحت السيطرة.

ستكون المهمة الحاسمة أمام الإنسانية في القرن الحادي والعشرين، من هذا المنظور، هي تحقيق أقصى استفادة من الركود المزدهر: تعلّم تهذيب توقّعاتنا والعيش وفق الموارد المحدودة، والتأكد من توزيع الموارد الموجودة بشكل أكثر عدلاً، وتحسين الأداء المؤسسي في الأطراف، واستخدام التعليم لانقاذ الناس -وخاصة الشباب- من سيطرة الواقع الافتراضي المعتم ومنحهم مكاناً تحت الشمس ينشطون ويبدعون فيه، ومعالجة حالات الشيخوخة المزمنة بطريقة أكثر إنسانية، ونبذل قصارى جهدنا لمساعدة البلدان الفقيرة على الانتقال بنجاح إلى وضعنا الحالي. وكلّ هذا يتطلّب القبول بأن الطفرة الاقتصادية التي شهدناها في مرحلة ما بعد الحرب لن تعود، والقبول بأن سباق الفضاء كان في الغالب مجرد سلوك فرضته الحرب الباردة، والقبول بأننا مجتمع متقدم في السّن لا يستطيع تحمل التجارب الاشتراكية الكبيرة أو أوهام مطاردة النمو، والقبول بأننا لن ننشر الديمقراطية بقوة السلاح، أو القبول، بعبارة أخرى، بأن حالات الاستياء والتبرّم التي تحفز المثاليين من الوسط، والشعبويين من اليمين واليسار، هي مجرد أشكال مختلفة من النوستالجيا (الحنين إلى الماضي)، والتي يمكن إدارتها ولكن لا يمكن إشباعها، وهي في النهاية مجرد عوائق أمام تحقيق الاكتفاء والرضا في شيخوخة حضارتنا.

أعتقد أنه من العدل أن نأخذ وجهة النظر هذه، بالرغم من عدم وضوحها، على أنها واحدة من المقدمات المهمة في عملية صنع السياسة الرئاسية الأمريكية الأخيرة. مثل ترمب وبيرني ساندرز بعد ثماني سنوات، أو مثلما ترشّحَ باراك أوباما

للرئاسة في عام 2008 بوصفه ناقداً للانحطاط، ومثالياً يَعِد بالعودة إلى حدود الستينيات الجديدة[571]، وقد قام آنذاك بغزوات من اليوتوبيا الليبرالية خلال سنوات حكمه الثماني، لكن طباعه الحقيقية كانت تكنوقراطية وإدارية، وكانت مقاربته في إدارة الانحطاط سمةً أساسية لحكومته، وتتلخّص في عبارة: «لا تفعل شيئاً غبياً»، وهي تتّصل بكل شيء، من الرأسمالية المالية والعولمة، إلى الصين والشرق الأوسط. وهو ما اعترف به أعداؤه ونقّاده، وقد أطلق عليها المحافظون اسم «إدارة الانحدار»، وأطلق عليها اليسار اسم «الليبرالية الجديدة»، ثم تفتّقت شعارات ترمب وساندرز الشعبوية من تلك الانتقادات بعد ذلك. لكن ساندرز خسر الانتخابات التمهيدية، وخسر ترمب التصويت الشعبي، وإذا كان أوباما نفسه على ورقة الاقتراع، فلربما كان سيتمتع (حسناً، أو ربما لا) بولاية ثالثة اليوم! لذا، قد يكون من السابق لأوانه الإعلان أن هذا النوع من الإشراف الإداري محكوم عليه بالهزيمة السياسية مسبقاً، وأن التمردات الشعبوية ستطيح بكفاءته الحَذِرة حتماً. ربما مع قادة مناسبين وبقليل من الحظ، سوف تعود النزعة الإدارية[572]، ربما سيتعلم التكنوقراط بعض الدروس من إخفاقاتهم الأخيرة، ربما تكون مهمة الحفاظ على الانحطاط هي المهمة التي يجب علينا، نحن المحظوظون والمعمّرون والمفسدون، أن نطالب قادتنا بمتابعتها.

هذه هي الإجابة المتفائلة لسيناريو مايكل ليند* التي انتهى بها الفصل السابق. وفي تنقيح تشاؤمه هذا، يبدو أنه من الأفضل -من خلال تلك الإجابة- أن تقوم «الأقلية الإدارية» بقمع التمردات الشعبويّة، وأن تحكم من خلال بؤر الطبقة الإبداعية والمحاور التي تتميز بالجدارة[573]، لأن الحفاظ على اقتصادنا «الكامل

---

(571). الحدود الجديدة New Frontier: المصطلح الذي استخدمه جون كندي في حملته الانتخابية عام 1960، واتخذه الحزب الديمقراطي شعاراً.

(572). نزعة إدارية Managerialism: توجه راسخ يؤمن بأن الإدارة يجب أن تعتمد على مفاهيم عميقة محدّدة سلفاً تتصل بالعمليات التسلسلية في إدارة الأعمال مثل التنظيم والتخطيط والمراقبة والمتابعة.

(573). يتميز بالجدارة Meritocratic، نسبة إلى نظام الجدارة Meritocracy.

النمو» ببساطة (وهذه العبارة مقتبسة من الخبير الاقتصادي ديتريش فولراث[574])، هو المهمة الأكثر أهمية بالنسبة إلى رجل الدولة. وعلى الرغم من جميع عيوب النخبة التكنوقراطية لدينا (مثل **التنوّع الرومني**[575]-الجمهوري، بالإضافة إلى ظاهرة الأوباميّة Obamanauts)، فإن لديها حوافز قوية للتأكد من أن وضعنا الذي نحسد عليه من نواح كثيرة، سوف يستمر لأطول فترة ممكنة، ويمكن أن يتمتّع به أكبر عدد ممكن من الناس.

إن قبول الحكم التكنوقراطي لا يعني أننا يجب ألّا نرغب أيضاً في الإصلاحات التي تساعدة الأشخاص الذين لا يتمتعون بوجود الانحطاط، والذين يعانون اقتصادياً أو جسدياً أو عاطفياً. أيجب علينا ذلك؟ لكن هذه الإصلاحات يجب أن تستقي الشكل «الوسطي»، أو «**الليبرالي الجديد**»، أو «**التكنوقراطي**» من مدارس أفضل، أو من برامج أفضل لعلاج المواد الأفيونية، أو من حوافز أفضل لاستثمار الشركات في أهم المدن. يجب أن تكون متدرجةً ومحسّنةً وحذرة. ليس لأن النزعة التحسينيّة[576] يمكن أن تعالج كل الأمراض، ولكن لأن البدائل الأكثر ثورية خطيرة للغاية، وتتطلب قاعدة «تحقيق الخير الأسمى من أجل الجميع» أن نحافظ على تشغيل النظام الحالي والسعي إلى استقراره في مواجهة أوهام اليوتوبيا أو مخاطر المخططات التي تسعى إلى التوسع اللامحدود.

أنا أصف هذه الرؤية ولا أؤيدها، لكن يجب أن أعترف أنني كنت قد أيّدت نسخة منها، وذلك عندما رفضت الإدلاء بصوتي لصالح دونالد ترمب عام 2016. إن ترمب، بكل تأكيد، هو آفة زائفة وغير فعالة من الانحطاط، لكنني لم

---

(574). ديتريش فولراث Dietrich Vollrath: أستاذ الاقتصاد بجامعة هيوستن. من مؤلفاته: «النمو الكامل: لماذا يعتبر ركود الاقتصاد علامة على النجاح؟».

(575). نسبة إلى ويلارد ميت رومني Willard Mitt Romney: عضو مجلس الشيوخ الأمريكي الأصغر سناً، عن ولاية يوتا، منذ عام 2019.

(576). النزعة التحسينيّة Meliorism: توجّه فكري يقول بأن التقدّم مفهوم حقيقي، وأن العالم يمكن أن يكون أفضل ببذل المزيد من الجهد.

أرفض التصويت له بسبب زيفه، بل رفضت ذلك لأنني كنت أخشى المخاطر المجهولة من الاضطراب والإخلال التي تحملها وعوده. لذا فقد اتبعت المنطق الموضح أعلاه، ومفاده: على الرغم من الاعتقاد بأن الشعبويين لديهم وجهة نظر، وعلى الرغم من وجود ما يكفي من الانتقادات الموجهة للانحطاط والتي تملأ هذا الكتاب، فعندما أتيحت لي الفرصة للمخاطرة بعودة التاريخ، رفضتُ المقامرة بها، مفضّلاً التكنوقراط وإشرافهم على أوضاع الركود، لأنني أخشى ما قد يرث مقاليد الحكم إذا ما سقطوا.

ربما شكّل ما يصدر عني من حذر هنا، وهو تجربتي الشخصية، كوني كنتُ كاتباً شاباً صغيراً في الفترة التي أعقبت 11/ 9، عندما قام العديد من المحافظين وبعض الليبراليين بإضفاء مسحة من الرومانسية على عودة التاريخ، ثم ندموا على الحرب التي تلت ذلك.

لقد قدّمت لي تلك التجربة نسخة أكثر اعتدالاً من الدرس الذي تنتهي به قصة «إيفلين وو»[577] عن الأرستقراطيين الكاثوليك الإنجليز في الأربعينيات من القرن الماضي، وهي ثلاثية **«سيف الشرف»** التي تتبع شخصية غاي **كراوتشباك**[578] ذا الميول الرومانسية أثناء سنوات خدمته العسكرية المكلّلة بالإحباطات خلال الحرب العالمية الثانية. وقبيل خاتمة الكتاب الثالث، عنوانه: **«استسلام غير مشروط»**، يتبادل كراوتشباك الحديث التالي مع يهودي هارب من وحشية الحرب أثناء عمله على إنقاذ اللاجئين في البلقان:

قال غاي: من السهل جداً القول بأن النازيين فقط هم من أرادوا الحرب.

---

(577). إيفلين وو Evelyn Waugh: روائي إنجليزي، ومن كتّاب السير الذاتية وأدب الرحلات (ت. 1966). من مؤلفاته: «أناس بعيدون». و«نبيذ السلام والحرب». وقد صدرت ثلاثيته المذكورة (سيف الشرف) Sword of Honour عام 1965.

(578). غاي كراوتشباك Guy Crouchback: الشخصية الرئيسية في رواية «سيف الشرف» وهو وريث أسرة أرستقراطية إنجليزية رومانية كاثوليكية. بعد فشل زواجه في إيطاليا يقرر العودة إلى إنجلترا مع بداية الحرب العالمية الثانية.

هؤلاء الشيوعيون أرادوا ذلك أيضاً. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكنوا بها من الوصول إلى السلطة. لقد أراد ذلك الكثير من أبناء شعبي لكي يتمكنوا من الانتقام من الألمان، وللإسراع بإنشاء الدولة القومية. يبدو أن هناك إرادة للحرب، رغبة في الموت، في كل مكان. حتى الرجال الخيرون اعتقدوا أن شرفهم الخاص ستنقذه الحرب. يمكنهم تأكيد رجولتهم بأن يَقتُلو أو يُقتَلوا، وهم سوف يقبلون المصاعب مقابل الحصول على أجر لأنهم أنانيون وكسالى. الخطر يبرر هذا الاستحقاق. أنا عرفت الإيطاليين، ربما ليس الكثير منهم، ولكنهم كانوا يشعرون بذلك. ألم يكن هناك أحد مثلهم في إنجلترا؟ فليغفر الله لي، لقد كنت واحداً منهم.

حتى الآن، وكما في العصور السابقة، لا يحتاج العالم المنحط إلى فائض من غاي كراوتشباك هذا، إنهم يُسرعون إلى البحث عن الحملة الصليبية التي يتوقون إليها ثم لا يجدون سوى الدم والموت وخيبة الأمل.

ظلال الديستوبيا

مع كل ما مرّ بنا، لا يزال الانحطاط بحاجة إلى نقّاد، إذ لا يبدو أن مسألة الاستدامة مقنعة إلا بهذا القدر، حتى لو لم تتحقّق الديستوبيا أبداً، فكلما طالت فترة الركود والتكرار، كلما زاد «العبث» و«اللاجدوى» اللذان يصفهما جاك برزون* بأنهما من سمات مثل هذه العصور التي تتدافع لتزاحم الفضائل البشرية الأساسية، أو كلما ضاق فضاء الخصوبة والصلاح، والذاكرة والابتكار، والإبداع والجرأة. إذا كانت محاولات الترنّح صعوداً إلى الأعلى انطلاقاً من الانحطاط يمكن أن تخاطر بكارثة، فإن الانجراف غير المقاوم للانحطاط سيؤدي، ببطء وبشكل مريح، إلى منطقة معتمة، وإلى مشهد ما-بعد-الإنسان، الهمجيّ بقدر ما هو متحضّر، والذي تستر نعومتُه مرضَه حتى مماته.

يمكن لهذا الانجراف -دون منتقدين ودون مقاومة- أن يستمر إلى مسافات

طويلة دون أن يلاحظ أحد تماماً إلى أي مدى. إن أشكال الديستوبيا الحقيقية تتميّز -جزئياً- بحقيقة أن العديد من الأشخاص داخلها لا يدركون أنهم يعيشون في واحدة من تلك الأشكال، لأن البشر قادرون على التكيف بما يكفي لأخذ حتى المقدمات السخيفة واللاإنسانية على أنها أمر مسلم به. هناك سبب في أن «همجي» **ألدوس هكسلي**[579]، والذي نشأ خارج الدولة العالمية، يمكنه التعبير عن رأي نقدي متكامل، أما الشخصيات الأخرى في «**عالم جديد شجاع**» فإن موقفها لا يتعدّى على الأغلب عدم الاستقرار والنفور والمقاومة الشخصية. وبالمثل، إذا شعرنا بأن عناصر نظامنا كانت -فلنقل- ديستوبيّة، من نجم تلفزيون الواقع في البيت الأبيض إلى أجهزة المراقبة التي ندمن عليها ونحملها دائماً في جيوبنا وبين أيدينا، ومن المخدرات وحالات الانتحار في مناطقنا النائية المتدهورة إلى تعقيم الكلاب في مدننا الغنية، فمن الممكن عندئذ أن ينظر شخص من الخارج إلى انحطاطنا ويحكم عليه بشدة أكثر مما أستطيع أن أفعل. قد يقول مسافر عبر الزمن جاء من الماضي، ثم قضى ساعةً -على سبيل المثال- في تصفّح مواقعنا الإباحية، أو أمضى أمسية في مشاهدة الأخبار على قنوات الكابل، أو يوماً في عيادة المعالجة من آثار الأفيون، أنّ المستقبل -ببساطة- شيء «ديستوبيٌّ» بائس.

لذا، فإن تبنّي الانحطاط بوصفه توجّهاً وهدفاً، هو المخاطرة دائماً بأن تكون (حتى دون أن تدرك ذلك)، نظيراً يعادل **مصطفى موند**[580]، القيّم على إدارة الدولة في رواية هكسلي، والذي يتعاطف مع نقّاد دولته الديستوبية مبتهلاً من أجل شفائهم من جميع العلل التي لا يعالجها حقاً إلا «**عالمه الجديد الشجاع**»، أي أن تكون مدافعاً سلساً عن الاستقرار من أجل الاستقرار، وعن «الحضارة» باعتبارها إلغاءً لخصائص الطبيعة البشرية من أجل رخاء الإنسان! وهناك نسخة

(579). هو الإنسان الوحيد في رواية ألدوس هكسلي الذي وُلد ولادة طبيعية. وهذا ما جعله مختلفاً عن غيره من مجتمع «عالم جديد شجاع».

(580). مصطفى موند Mustapha Mond: هو أحد الرجال العشرة الذين يديرون الدولة في رواية هكسلي، وهو مسؤول المراقبة.

من هذا التعاطف تُخطِر كلّ دفاعاتنا عن الوضع الحالي بما تحتاج إليه من معلومات، أو وفقاً لصوت الرّاوي: «أفترضُ أنك تريد إعادة الجدري... أراهن أنك تفتقد الطاعون... أنت تحنّ إلى محاكمات الساحرات، ألستَ كذلك؟»، إنه صوت سيظل قابعاً هناك، معتدّاً بنفسه حتى النهاية، إذا أصبحت «عناصر مجتمعنا الديستوبية» أكثر عالمية، ولكننا احتفظنا بما لدينا من ثروات وحافظنا على الاستقرار الذي نعيشه! لذا... يجب أن يتم الوفاء بذلك، لا من خلال تخيّلات الحروب العالمية النبيلة، أو بواسطة **تايلر دوردن**[581] القادم من «نادي القتال»* والذي يخطط لتفجير جميع شركات بطاقات الائتمان، وأدوات «إيكيا»* ومنتجاتها، بل من خلال الأمل في أنه حيثما يكون هناك استقرار، فلربما كان هناك تجديد بمرور الوقت، ذلك أن الانحطاط لا يجب أن يفسح المجال أمام الانهيار لكي ينجو، إذ يمكن بدلاً من ذلك أن يتم تجاوزه، وأن النهضة يمكن أن تحدث دون معاناة البؤس بحلول عصر مظلم.[582]

في الوقت نفسه، من الخطأ أيضاً المبالغة في تقدير تأثير نقّاد الحضارة، فالعصر المظلم يأتي بشكل عام، من خلال الحرب أو الكارثة أو نهاية العالم، سواءً رحب به نقاد الانحطاط أم لا. لا شيء يدوم إلى الأبد، لا الانحطاط القاسي الذي تعيشه إمبراطورية العالم الأخيرة، ولا نسختنا الخاصة من السلام الروماني. وسوف يتناول الجزء الأخير من هذا الكتاب وفيات الانحطاط المحتملة، والطرق التي قد تسقط بها روما عصرنا، أو تتغيّر، أو ربما تولد من جديد.

---

(581). تايلر دوردن Tyler Durden: الراوي في «نادي القتال» للكاتب تشاك بالانيوك (1996). وهو مصاب بالأرق وانفصام الشخصية، حيث لا اسم له أثناء النهار (يسمى «الراوي» في الفيلم)، ثم يصبح تايلر دوردن الفوضوي والكاريزمي أثناء الليل.

(582). يجري المؤلف هنا نوعاً من المماثلة بين المجتمع الهكسلي والمجتمع الأمريكي، من حيث الدفاع بقوة عن الثروة العامة واستقرار الدولة. ويتطلب ذلك ادماج (أو استقطاب أو تجنيد) المناهضين، حتى إذا فقد المجتمع ملامحه الإنسانية، أملاً في تشكّل هذه الملامح مستقبلاً بعد تجاوز الانحطاط.

الجزء الثالث

وفيات الانحطاط

9

الكارثة

في فيلم ميل غيبسون «أبوكاليبتو»[583]، وهو فيلم عام 2006 المحموم الذي صنعه رجل هبط إلى جحيمه الشخصي[584]، قُدّمت لنا رؤية عن حضارة أمريكا الوسطى الخيالية، هي عبارة عن مزيج من الأزتك والمايا[585]، قبل الغزو الإسباني مباشرة، حيث يتم سرد القصة بعيني صيّاد يدعى «مخلب الفهد» Jaguar Paw، كان يعيش حياة «عَدَنيّة» مع قبيلته في غابة بدائية قبل أن يتم اختطافه وقتل أفراد عشيرته على يد مجموعة من المحاربين من المدينة. ثم سيق من الغابة إلى حقول مزروعة، عبر الأحواز، حتى وصل إلى المدينة التي يظلّلها هرمٌ عالٍ، حيث سيُقدَّم قرباناً بشرياً. إنه يشهد حضارة في حالة انحلال، تعاني من المرض، والتفسّخ الاجتماعي، والدمار البيئي، وينفّذ نظامها السياسي عمليات قتل طقوسيّة هي جزء من إيمانه الخرافي، في محاولة يائسة للهروب من وطأة الخطايا.

ونظراً لأننا نعلم أن الأسبان كانوا يتربّصون وراء الكواليس، فإن هذه الصورة عن أمريكا الوسطى قبل السقوط تتناسب مع عبارة استهلّ بها غيبسون الفيلم،

(583). أبوكاليبتو Apocalypto: فيلم مغامرات ملحمي أمريكي تدور أحداثه قبيل الغزو الأوروبي. من إخراج ميل جيبسون. يضم الفيلم ممثلين أمريكيين ومكسيكيين من أبناء السكان الأصليين.

(584). كان غيبسون آنذاك قد أصبح مدمناً على الكحول وأصيب بالاكتئاب الهومي. وكان يعتقد أن حياته انتهت.

(585). الأزتيك Aztec هم السكان الأصليون الذين عاشوا في وسط المكسيك. والمايا Maya هم السكان الأصليون الذين عاشوا في جنوب المكسيك وشمال أمريكا الوسطى منذ عام 2600 ق.م.

وهي عن المؤرخ ويل ديورانت[586]، تقول: «لا يتم غزو حضارة عظيمة من الخارج حتى تدّمر نفسها من الداخل».

هذا الفيلم رائع، لكن العبارة الاستهلالية خاطئة، والتاريخ الحقيقي لأمريكا قبل كولومبس ليس مثالاً على ما ذهب إليه ديورانت، بل يناقضه. كانت هناك مشاكل في الإمبراطوريات الأصلية العظيمة بالطبع، الكثير من نقاط الضعف والفساد والانقسامات الداخلية التي تمكن **هيرنان كورتيس**[587] **وفرانسيسكو بيزارو**[588] من استغلالها. ولكن لا يوجد دليل مؤكد على أن إمبراطوريتي **الأزتك أو الإنكا**[589] كانتا بشكل عام في أقصى مراحل وجودهما انحطاطاً، ولا معنى للقول بأن سقوط مونتيزوما[590] أو الإنكا العظيمة كان متوقعاً بطريقة ما بمجرد الاستناد على ما كان يحدث فيهما في مرحلة ما قبل كولومبس.

يمكن القول بدلاً من ذلك، أن الإمبراطوريات الأصلية قد سقطت لسببٍ لم يكن من الممكن توقّعه أو التنبؤ باستقراء اتجاهاته في مرحلة ما، كما في الفترة من 1350 إلى 1475 على سبيل المثال، حتى لو كان أحد المستقبليين المتعلّمين في **تينوختيتلان**[591] في السنوات التي سبقت كورتيس قد تخيّل بطريقة ما إمكانيةَ وجود غزاة ماهرين تقنياً قادمين من الشواطئ البعيدة، نظراً للموضع الذي كانت عليه المعرفة آنذاك (على جانبيّ المحيط الأطلسي معاً)، حيث لم يكن بإمكان أحد

---

(586). ويل ديورانت Will Durant: مؤرخ وفيلسوف أمريكي، أشهر أعماله «قصة الحضارة» في 11 مجلداً كتبها، وتم نشرها بين عامي 1935 و1975، ومن أعماله المعروفة أيضاً «قصة الفلسفة».

(587). هيرنان كورتيس Hernán Cortés: قائد الغزو العسكري الأسباني الذي تسبّب في سقوط إمبراطورية الأزتيك في القرن السادس عشر.

(588). فرانسيسكو بيزارو Francisco Pizarro: قائد عسكري أسباني كان على رأس الحملة التي غزت البيرو.

(589). الإنكا Inca: أكبر إمبراطوريات أمريكا قبل الغزو الأوروبي، وكانت عاصمتها مدينة كوسكو (البيرو).

(590). مونتيزوما الثاني Montezuma II (1466- 1520): إمبراطور الأزتك التاسع، اشتهر بمواجهته الغزو الإسباني بقيادة هيرنان كورتيس.

(591). تينوختيتلان Tenochtitlan: المركز التاريخي القديم لإمبراطورية الأزتيك، وشكّلت في ما بعد مدينة مكسيكو، عاصمة المكسيك.

التنبؤ بالدور التاريخي العالمي الذي لعبته جيوش الميكروبات التي جاءت مع الغزاة، ودمّرت مجتمعات السكان الأصليين وأعدّتهم للإنهيار قبل أن تُجهِز عليهم الضربات العسكرية بعد ذلك. إن درس عام 1492 وعواقبه لا يكمن في أن سوء الحكم وتقديم القرابين البشرية يستدعيان الغزو ويؤديان إلى الفناء. الدرسُ المستفاد هنا هو أن أيّ نظام حضاري، سواءً أكان منحطاً أم لا، لن يكون نظاماً مستداماً إلا إذا وصل إلى مرحلة معينة من التطور السليم، أو أنه سيكون محكوماً عليه بالفناء، بطريقة لا يمكن التنبؤ بها عن طريق الاستقراء البسيط، أو التحليل الاجتماعي.

يعتبر اللقاء بكولمبس مثالاً صارخاً بشكل خاص، لكن التاريخ البشري يقدم الكثير من الحالات التي تستحق الدراسة عن النهايات المروّعة غير المتوقعة، والتي عندما تحلّ لا يقابلها سوى القليل من الاهتمام بالوضع الداخلي للمجتمع، فتسحق أمامها القادر على الصمود والمنحط على حدّ سواء. تماماً كما عجز قارئ المستقبل في الأزتك عن رؤية الميكروبات الأوروبية قادمةً، أو كما لم يكن بمقدور محلّل السياسة الرومانية في عصر الأنطونيين[592] التنبؤ بتأثير الأوبئة المدمرة على الإمبراطورية، أو كما لم يرى أحدٌ من «خبراء» باريس في القرن الثالث عشر أسوأ ما في الطاعون قادماً وهو يحمل معه انهيار نظام العصور الوسطى العليا.[593]

لذا، يجب أن يبدأ أي نقاش حول الكيفية التي يمكن أن ينتهي بها انحطاطنا، من الإقرار بأن القاتل قد يكون شيئاً غير مرئي تماماً. هناك نزعة ما تتجمّع الآن على نحو غير مرئي، وبعض التحوّل الذي لم يحدث بعد، وشيء من الكارثة التي ستبدو -بإدراكها بعد فوات الأوان- أنها أساساً عشوائية وليست شرطيّةً ولا علاقة له بأي سمة محددة من سمات عصرنا. أو يمكن لعصرنا، بدلاً عن ذلك، أن

(592). الأنطونيين Antonines: سلالة من سبعة أباطرة رومانيين حكموا الإمبراطورية الرومانية من 96 إلى 192. أشهرهم ماركوس أوريليوس.

(593). العصور الوسطى العليا High Medieval هي الفترة الممتدة من 1000 إلى 1250م في التاريخ الأوروبي.

يصل إلى نهاية منذرة بالفناء مرتبطة بمهارتنا التكنولوجية، لكن هذا لا يزال يحدث بشكل عرضي تماماً، أو كعمل إرهابي، أو تخريب خارج عن نطاق السيطرة. إنه خطَرٌ لم يواجهه الأزتيك والرومان، لك نحد الذين نواجهه، حيث تدلّ إنجازاتنا على أننا حتى في ظل ظروف الركود، وحتى بدون تحقيق وثبة نحو نوع من الذكاء الاصطناعي يدمّر العالم (وهو ما يخشاه بعض الذين يتابهم القلق في وادي السيليكون)، يظلّ لدينا الكثير من أسلحة القتل الحضاري المختلفة التي تنتظر استخدامها أو ربما تنفجر تلقاءَ نفسها. لقد بنينا من الأسلحة، ووجهناها لبعضنا بعضاً، ما يمكن أن يقضي على الملايين أو المليارات في لحظة واحدة. إن طائراتنا وقطاراتنا وسياراتنا صارت نواقل لا نهاية لها تحمل الأمراض الفتاكة التي تنتقل بسرعة أكبر بين المجتمعات أكثر من أي وقت مضى، كما تعتمد طريقة حياتنا على بنية تحتية تكنولوجية يمكن للكوارث المختلفة أن تضعها أمام «اختبار وجودي»، وكلما زاد الأفق الزمني أمام الانحطاط المستدام، زاد احتمال حدوث انفجار عرضي، كما في انهيار من نوع «مشكلة العام 2000»[594]، أو في قصف نووي متبادل يحدث بسبب خلل في أنظمة الإنذار المبكر، وفشل بعض ضبّاط الخطوط النووية في الحفاظ على هدوئه، أو في اجتياح يقوم به فيروس «كابتن تريبس» كما أوحى به «ستيفن كينغ»[595]، أو في نهاية لعبة «سكاي نت» المخيفة في «بالو آلتو»[596]... أو النيزك، بالطبع... لكن هل كانت الديناصورات منحطّة؟ للأسف، سجلاتها لم تنجُ.

---

(594). مشكلة عام Y2K 2000 : خلل في برمجة الكمبيوتر كان من المتوقع أن يؤدي إلى فوضى شاملة في البيانات على مستوى العالم بنهاية 1999 وحلول 2000.

(595). كابتن تريبس Captain Trips: الاسم العامي لسلاح بيولوجي فيروسي يقضي على 99.4 في المائة من البشر في كتاب الرسومات The Stand (5 أجزاء) المقتبس عن رواية بالعنوان نفسه صدرت عام 1978، للروائي الأمريكي ستيفن كينغ Stephen King.

(596). سكاي نت Skynet: شبكة ذكاء اصطناعي مدركة وذاتية التطوّر، تبدأ حرب إبادة ضد البشر، في فيلم ترميناتور Terminator من ستة أجزاء، صدر الأول عام 1984، وصدر الأخير عام 2019. ويربطها المؤلف في العالم الواقعي بشركة بالو آلتو Palo Alto هي شركة أمن سيبراني متعددة الجنسيات مقرها الولايات المتحدة، وتقدم خدماتها لأكثر من 150 دولة حول العالم.

فلننتقل بعد هذا التمهيد المهم، إلى سيناريوهات التغيّرات الكارثية الأكثر منطقية وتوقعاً، السيناريوهات التي تتبع خطوط اتجاه محدّدة بدلاً من الهبوط على الشاطئ مع الغزاة المدرّعين أو الاجتياح مثل وباء الزومبي في يوم مشمسٍ صافٍ. ويعني هذا الحديث ثلاثة احتمالات على وجه الخصوص: عدم الاستدامة الاقتصادية المحتملة في عالم هَرِم يموّل ازدهاره بزيادة العجز، إنها سيناريوهات تغيّرات المناخ الأكثر كآبة، وسيناريوهات عدم الانحطاط الفريد في أفريقيا.

لقد ألهم الاحتمال الأول ما صار بعد فوات الأوان قلقاً لا مبرر له أثناء تداعيات الأزمة المالية عام 2008، عندما كان الاعتقاد بأن «ما يسري على اليونان، يسري على الغرب بأكمله» سبباً في الخوف الذي شاع بين «صقور العجز»[597]، وكان الجميع -من المصرفيين الألمان إلى جمهوريي حزب الشاي- ينصحون بضرورة التقشّف المطلقة. كان في هذا الأسلوب من التفكير قدر كبير من القوة البديهية، ولكنه أخفق في فهم الحقائق، وتحديداً غياب التضخّم التام الذي تنبأ بأنه سيأتي من الإنفاق التحفيزي والتيسير الكمي[598]. لذا فقد انقلب الإجماع اليوم، بما في ذلك اليمين الأمريكي الذي دالّسه ترمب[599]. يذهب التفكير الأذكى إلى أن البنوك المركزية كانت متشدّدة في سياساتها النقدية بعد الأزمة ولم تكن متساهلةً تماماً[600]، بحيث أن القيد الحقيقي على العجز يعود إلى

(597). صقور العجز Deficit hawks: الأشخاص الذين يدافعون عن إبقاء الميزانية الحكومية تحت السيطرة، ويهاجمون «الإنفاق بالعجز»، ويدعون إلى زيادة الإيرادات ولو من خلال فرض المزيد من الضرائب.

(598). الإنفاق التحفيزي stimulus spending : هو بشكل عام محاولة استخدام السياسة النقدية (أو سياسة الاستقرار) لتحفيز الاقتصاد. كما قد يشير إلى التسيير الكمي quantitative easing في إدارة السياسة المالية، حيث يقوم البنك المركزي بشراء السندات الحكومية أو الأصول المالية الأخرى من أجل ضخ الأموال في النشاط الاقتصادي وتفعيل أدوات السياسة النقدية القياسية.

(599). استخدم المؤلف في الأصل كلمة Trumpified للتعبير عن الازدراء، وهي كلمة مشتقة حديثاً نسبةً إلى الرئيس دونالد ترمب. وتعني التهكّم بمحاولة تنفيذ أفكار ترمب على أرض الواقع.

(600). في السياسة النقدية المشدّدة Tight Monetary Policy تقلّل اجراءات الاحتياطي الفدرالي من

معدل التضخّم، لا إلى نسبة الدين التعسّفي من الناتج المحلي الإجمالي، وأن اليونان قد أفلست بسبب بارانويا التضّخم في ألمانيا مثلما بسبب ما شهدته من إسراف مفرط. وفي الوقت نفسه، فإن الخوف من أننا «نطبع وننفق» لنمهّد طريقنا إلى الكارثة، يقتصر على مجموعة متضائلة من «صقور العجز»، والباحثين عن الذهب، وأنبياء الكارثة المحترفين، أي على نوع من أولئك الأشخاص الذين نجحوا في التنبّؤ بثلاثة عشر حالة من فترات الركود الثلاثة الأخيرة!

إذا كان «التفكير الذكيّ» صحيحاً، فإن السياسة المالية والنقدية الغربية، بمعزل عن اندفاعنا نحو الكارثة، هي جزء من النظام الذي قد يحافظ على انحطاطنا إلى أجل غير مسمّى.

وإذا كانت هناك قوة هيكلية عميقة (مثل شيخوخة السكان) تعمل على إبقاء التضخّم تحت السيطرة حتى عندما تنخفض البطالة، فلا يوجد سبب يمنع التكنوقراط لدينا من التلاعب بالعرض النقدي لتجنّب فترة ركود أخرى على الرغم من أننا قد لا نحصل على طفرة دراماتيكية أخرى، كما حدث في أستراليا التي مرّت كما يُزعم بثمانية وعشرين عاماً دون أن يشهد اقتصادها حالة للركود.

إذا كان من المقرّر أن تظل أسعار الفائدة منخفضة في كل مكان، فلا يوجد سبب يمنع الولايات المتحدة من تحويل ديونها إلى نقود إلى هذا الحد أو ذاك، فمع توظيف سندات الخزانة[601] لدينا، باعتبارها نوعاً من الإصدار الحديث من بنك ميديتشي[602] القديم، كما اقترح براد ديلونغ[603]، الخبير الاقتصادي والأستاذ

العرض النقدي، بينما تزيد في السياسة النقدية الفضفاضة (أو الموسَّعة) Loose Monetary Policy لفرض تحفيز النشاط الاقتصادي وتعزيز النمو.

(601). سندات الخزانة Treasury bond في الولايات المتحدة هي سندات الدين الحكومية الصادرة بآجال استحقاق تزيد عن 20 عاماً، بحيث تربح السندات فائدة دوريّة حتى تاريخ الاستحقاق، حيث يُدفع للمالك عندئذ مبلغاً يساوي أصل الدين.

(602). بنك ميديتشي Medici Bank: مؤسسة مالية أنشأتها عائلة ميديتشي الإيطالية خلال القرن الخامس عشر، وصارت أكبر بنك في أوروبا.

(603). براد ديلونغ Brad DeLong: مؤرخ اقتصادي وأستاذ الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا. شغل

بجامعة كاليفورنيا، ولأنها أيضاً: «**مكان آمن ومستقر لإيداع أموالك حتى لو لم تحصل على عوائد كبيرة**». إذا كانت القيود طويلة المدى على العجوزات والعرض النقدي لا ينطبقان على اقتصاد هرِم وراكد، فيمكن عندئذ دعم ركودنا إلى أجل غير مسمّى.

لكن «التفكير الذكي» يمكن أن يكون مخطئاً، فالولايات المتحدة تقع في منطقة اقتصادية غير عادية تماماً، وتشهد عجزاً في ميزانيتها، وقد تجاوزت نسبة الدين إلى الناتج المحلي الإجمالي 100 في المائة في وقت السلم لأول مرة على الإطلاق، مع وجود تكاليف الإنفاق على السكان المسنّين المتوقَّع زيادتها بسرعة، والدمج بين إقراض القطاع الخاص والتزامات المعاشات التقاعدية العامة، والفجوة بين ما يتم تحصيله من ضرائب وما هو مستحق. لقد ابتعدنا بمقدار ثلاثة عشر عاماً عن الأزمة الاقتصادية العالمية التي لم يكن من المفترض أن تحدث، والتي تأثرت بالعواقب غير المتوقّعة لالتزامات الديون الخاصة التي تعهد بها أصحاب المنازل والبنوك دون مراعاة الأخطار، كما أن خطأ «صقور العجز» في الاستجابة لتلك الأزمة لا يعني بالضرورة أنهم سيكونون مخطئين إلى الأبد.

علاوة على ذلك، فإن كل ما كتبته في الفصول السابقة حول الاستقرار السياسي المحتمل في الراديكالية الأدائيّة والجمود العملي، هو فرضية لم يتم اختبارها من خلال ركود عميق أو أزمة اقتصادية أخرى. إذا أنتجت تداعيات الركود الكبير الأخير ترمب وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، والاشتراكية الجديدة واليمين المتطرف الجديد، فمن المحتمل بالتأكيد أن تصدّعاً آخر سوف يحدث ويأخذ العناصر التافهة من شعبويّة اليوم ليجعلها عوضاً عن ذلك فظيعة ومريعة.

لكل ذلك، يمكنك أن تتخيّل، في صورة سيناريو واحد، خللاً ذريعاً يحدث في

منصب نائب مساعد وزير الخزانة الأمريكية في إدارة كلينتون. من مؤلفاته: «نضخم أمريكا في زمن السلم»، و«فقاعة سوق الأسهم عام 1929».

المستقبل القريب يبدأ مع استمرار التباطؤ الاقتصادي الصيني الحالي وتفاقمه، إلى أن تبدو الصين راكدةً مثل أجزاء معيّنة من أوروبا، ثم يتفاعل هذا الجمود مع التوازن الديموغرافي المتدهور بسرعة في الصين، ومع القمع والاستياء في أماكن مثل شينجيانغ وهونغ كونغ، الأمر الذي سيخلق بالتالي مزيجاً من الضغط الاقتصادي والمالي الذي يزعزع استقرار النظام في بكين (وربما يجعله أكثر عدوانية). ثم تخيّل بعد ذلك أن الانكماش الاقتصادي في الصين يقلّل أيضاً من الكثير من مشاريع الاستثمار الخارجي التي حافظت على مواقعها، مثل وادي السيليكون، وهي فقاعات لا قيمة لها سوى ما لديها من رأس مال مخصّص لدعم الشركات الخاسرة. وعند هذه النقطة سيتضح لك أن الأموال الصينية إنما كانت تدعم فعلاً فقاعةً تكنولوجية سوف تنفجر لاحقاً، لتأخذ معها «أوبر» ومجموعة أخرى من العمليات الشبيهة.

ونظراً لأهمية التكنولوجيا في الاقتصاد الحديث، فإن ذلك يحشر الولايات المتحدة في ركود كارثي، حيث تنهار الشركات ذات المديونية المفرطة وتتداعى ميزانيات الدولة، بينما قد لا تستجيب واشنطن من الأساس، لأن الكونجرس أكثر استقطاباً وازدحاماً ممّا كان عليه في 2007- 2009، ولا يمكن لأيّ من عمليات الإنقاذ المالية وحزم التحفيز المتنوعة التي تم تمريرها في ذلك الوقت أن تمر عبر الهيئة التشريعية هذه المرة. لذا، وبدلاً من الاستجابة المعيبة والفعّالة إلى حد ما، والتي خفّفت من «**الركود الكبير**»، فإنك تحصل على شيء أشبه بالخداع والحمق الذي أعقب انهيار عام 1929.

وبالمثل، عندما تنتشر العدوى إلى أوروبا تكون القارة منقسمة أكثر مما كانت عليه في 2009-2010، عندما كان الإجماع المؤيد للاتحاد الأوروبي أكثر ضعفاً، وبدلاً من أن تجبر برلين وبروكسل الأطراف الأخرى لقبول شروطهما الاقتصادية، فإنك ترى الحكومات الفاشلة في كل مكان. وهكذا، من خروج اليونان Grexit إلى خروج إيطاليا Italexit ثم رحيل فرنسا، يشهد الاتحاد مرحلة

من تعميق الانكماش الاقتصادي، مع تزايد الحواجز التجارية وتقلّص الاقتصادات، الأمر الذي يغذّي الاضطرابات السياسية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، ويولّد بالتالي أزمة لاجئين أخرى، ما يزيد من تمكين أقصى اليمين، حتى مع عندما تؤدي الأزمة الاقتصادية إلى المزيد من تمكين أقصى اليسار.

تتفاعل في مرحلة لاحقة كل هذه التطورات، في أوروبا والولايات المتحدة، مع الإنترنت وعناصرها المتطرفة بطريقة تثبت أنه عندما ترتفع بطالة الشباب بشكل كافٍ، يمكن أن يكون موقع «يوتيوب» و«تويتر» متطرفين حقاً حتى في المجتمعات المسنّة، والمدن والجامعات التي يمكن أن تمتلئ بشكل دائم بالمتظاهرين حتى عندما تكون هناك برامج ترفيهية لا حد لها على شاشاتهم. لقد تزايدت حملات القصف، وانتشرت أعمال الشغب، ووجد اليسار الأمريكي «شافيزه»[604] الخاص، بينما وجد اليمين الأمريكي نسخة أكثر فاعلية من ترمب، ويتنافس الفاشيون والماركسيون على السلطة في أوروبا، وتخوض الصين حرباً ضد جيرانها للهروب من الاضطرابات الداخلية. إذا وضعنا كل هذه الظواهر معاً، لا نعود نشهد فجأةً تلك الثلاثينيات الافتراضية، أو صورة محاكاة الماضي الزائفة على الإنترنت أو في تلفزيون الواقع، ولكننا نشهد «عودة التاريخ»، وانتهاء الانحطاط بشن الحروب وهيمنة النزعة الاستبدادية وانتشار البؤس البشري.

خطّ الاستواء غير الصالح للسّكنى

كانت تلك محاولة لتخيّل الكارثة، أو على الأقل تخيّل عام 1929 آخر وتداعياته الأيديولوجية، مع وجود بعض المتغيرات السياسية والاقتصادية على أرض الواقع، لكن المتغيّر الذي من المرجح أن يضع حداً للانحطاط ليس مالياً أو

(604). هوغو شافيز Hugo Chavez: رئيس فنزويلا منذ عام 1999 حتى وفاته عام 2013، باستثناء فترة وجيزة في أبريل 2002. كان يسعى إلى استعادة تقاليد النضال اليساري وتحالف القوى اليسارية في العالم.

سياسياً، بل هو متغيّر مناخي.

إذا قمنا باستطلاع لآراء معظم الغربيين المتعلّمين حول الكيفية التي ستنتهي بها حضارتهم، فسوف يشيرون إلى ارتفاع درجات الحرارة في العالم، وارتفاع مستويات سطح البحر، وانتشار الحرائق وذوبان الجليد، وإلى المدن التي غمرتها الفيضانات، وموجات الحرارة التي أصبحت مجرد طقس. ومثلما عرضت بإيجاز مسألة «قابلية إدارة المشكلة» في فصل سابق، فإن مدى إجماع الخبراء الفعلي، مع عدم تبرئة «المُنكرين»، يشير إلى مستقبل تكون فيه تكاليف تغيّرات المناخ باهظة الثمن ولكن يمكن التحكم فيها بالنسبة إلى البلدان الغنية، مع وجود مسارات كافية للتخفيف من حدتها والتكيف معها لجعل درجات الحرارة المرتفعة مصدراً لعدم الاستقرار في العالم النامي وللمعاناة من الكارثة، ولكنها لن تكون كارثة عالمية.

من الواضح أن هناك سيناريوهات مناخية من شأنها أن تهدّد بحدوث كارثة على نطاق لا يتناسب مع نموذج الانحطاط المستدام. إن ارتفاع درجة حرارة العالم بمقدار ثلاث درجات مئوية عام 2100 يبدو مختلفاً تماماً عن عالم تتفاعل فيه أنظمة الانبعاثات وتغذية المناخ المرتدة لتعطي ست أو سبع درجات من الاحترار، وقد لا يُغرِق السيناريو الأخير مانهاتن، لكن من المحتمل أن يوسع بشكل دراميّ مناطق الأرض غير الصالحة للسكنى أو التي لا تكاد تكون كذلك، ما يرفع الضغط الحراري في المناطق الدافئة بما يتجاوز قدرة تكييف الهواء على التعويض، ويدمّر في الوقت نفسه بيئة إنتاج الغذاء على طول الحزام الاستوائي، على أن الأمر لا يحدث في تلك الأقاليم فحسب، كما يقول ديفيد والاس-ويلز[605] في كتابه المتشائم «**الأرض غير الصالحة للسكنى: قصة مستقبل**»، حيث

(605). ديفيد والاس-ويلز David Wallace-Wells : كاتب أمريكي يهتم بتغيرات المناخ، صدر كتابه «الأرض غير الصالحة للسكنى: قصة مستقبل» The Uninhabitable Earth: A Story of the Future عام 2019. وكان في الأصل بحثاً نشره عام 2017.

سيؤدي ارتفاع درجات الحرارة إلى «موجات جفاف غير مسبوقة وأمطار غير مسبوقة تنتج فيضانات عبر مناطق إنتاج الغذاء في العالم»، بما في ذلك «بعض المناطق الأكثر اكتظاظاً بالسكان في أستراليا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ومناطق سلّة الخبز في الصين». لا يمكن أن يتحول إنتاج الغذاء ببساطة إلى الشمال في ظل هذا السيناريو لأن التربة في سيبيريا وكندا لن تدعم المستويات الحالية للإنتاج الزراعي. لذا، وفي ظل غياب المزيد من الثورات التكنولوجية التي قد لا يتمكن المجتمع المنحط من إنتاجها، فإن هذا من شأنه أن يضمن أن المجاعات الهائلة التي ادّعاها المنذرون بالخطر في حقبة الستينيات سوف تتبع زمن الاكتظاظ السكاني، وأن الثورة الخضراء التي ساعدت على تعطيلها، سوف تصل بعد قرن أو أكثر بكثير نتيجةَ ارتفاع درجات الحرارة بشكل مستحيل.

سوف يموت الناس في هذه المجاعات، لكنهم سيتحركون أيضاً بالطريقة التي كانوا يتحركون بها سابقاً، ولكن الأكثر من ذلك أنهم لن يكونوا في المناطق الاستوائية، بل في بلدان الشمال الأكثر ثراءً والأكثر برودة. ليس من الضروري أن يتحقّق عنوان «والاس-ويلز» الرهيب تماماً ليكون هناك جزء من الأرض غير صالح للسكنى، أي الحزام الذي يمتد على طول خط الاستواء، أو الصحراء الكبرى التي تزحف على المناطق التي يعيش فيها مئات الملايين من الناس اليوم. النتيجة هي ما يسميه بيل ماكيبين[606]، أحد أكثر مذيعي المناخ بلاغةً، «انكماشَ» الكوكب: «حتى الآن، كان البشر منذ بداياتنا في إفريقيا، ينتشرون في جميع أنحاء العالم، ببطء في البداية، ثم أسرع فأسرع. لكن فترة من التقلّص تبدأ في الظهور عندما نفقد أجزاء من الأرض الصالحة للسكنى».

إن هذا التقلّص بدرجة كافية من شأنه أن يسرّع الهجرة الجماعية إلى النقطة التي تتوقف فيها عن كونها قابلة للإدارة من الناحية السياسية. في أزمة اللاجئين

(606). بيل ماكيبين Bill McKibben: كاتب وعالم بيئة أمريكي، يهتم بظاهرة الاحتباس الحراري. من مؤلفاته: «نهاية الطبيعة»، و«الاقتصاد العميق»، و«لنقاوم الاحتباس الحراري الآن».

السوريين، التي لعب فيها الجفاف دوراً داعماً، كان لديك نظرة مسبقة عن كيفية قيام الهجرة بقلب الأوضاع السياسية الطبيعية في العالم المتقدم. وإذا كانت تلك الأزمة قد ساعدت على تحفيز خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وعلى فوز ترمب وظهور العديد من الانتصارات الشعبوية الأخرى في جميع أنحاء القارة الأوروبية، فليس من الصعب أن نرى كيف يمكن لنمط نشط وبأمد طويل يمتدّ إلى عدة عقود من الهجرات المناخية أن يضع ضغوطاً على العالم المتقدم بحيث لا تكون مؤسساتنا الصلبة وتحالفاتنا السياسية ببساطة مستعدة لتحملّه، وبعبارة أخرى، حتى «إذا» كانت معظم البلدان الغنية قادرة على التخفيف من وطأة التغيرات المناخية والتكيف معها (وهذه الـ«إذا» تشي بأن شخصاً ما قد يشكّك في كفاح كاليفورنيا وجديّتها في التعامل مع حرائق الغابات بشكل معقول)، وحتى إذا لحق الدمار ببقية أنحاء العالم، فإن الأزمة ستعود إلى ديارهم بغض النظر عن ذلك، وستحملها معها الملايين من اللاجئين الزاحفين إلى الشمال.

مثل هذه الأزمة المندفعة إلى الأمام، مثل هذه الضغوط والتوترات، لن يتم توزيعها بالتساوي على المجتمعات التي أسميها منحطة. سيظل لدى الولايات المتحدة محيطات تحميها، وسوف تظل تشارك نصف الكرة الأرضية مع آمريكا اللاتينية، حيث استقر معدّل النمو السكاني وبدأ زمن الانحطاط الديموغرافي، وسوف ترسل كارثة المناخ في الكاريبي أو الأمازون، دون شك، مهاجرين أكثر فأكثر إلى الشمال، بالطريقة نفسها التي حفّز بها عنف العصابات في أمريكا الوسطى حركة اللاجئين مؤخراً، ولكن ستظل هناك بعض القيود الجغرافية والديموغرافية على تلك الهجرة، والتي من شأنها حماية أمريكا الشمالية والولايات المتحدة من أعنف أنواع التحدي الذي يواجه أنظمتها.

إن أوروبا في وضع مختلف تماماً، لأن نسختها من الانحطاط في حالة توازن غير مستقر مع جيرانها بدرجة أكبر بكثير، ليس فقط مع الشرق الأوسط المسلم، وهو مصدر الكثير من القلق الحالي، ولكن قبل كل شيء، مع المكان الذي يولد فيه

مستقبل البشرية، يوماً بعد يوم، وطفلاً تلو الآخر، أعني: قارة إفريقيا.

الهجرة الأكبر

في عالم يمكن أن تبدو فيه الثقافة والمجتمع متقاربين ويلتقيان في نقطة ما، نجد أن أفريقيا تخرج عن هذا التعميم. إنها فقيرة نسبياً في عالم من الثروات، ولا تزال تمزقها الحرب في عالم يسوده السلام أكثر مما كان في الماضي، وهي متديّنةٌ بشكل متزايد بدلاً من أن تكون علمانية، وفتيّة في عالم هَرِم، وخصبةٌ في عصر العقم والانحدار الديموغرافي. إن وضع القارة أكثر تعقيداً وأملاً ممّا توحي به صور الغرب النمطيّة في كثير من الأحيان، حيث يتعايش النمو والتصنيع والتقدم السياسي مع الفساد والانحلال والحرب الأهلية. وهذا يعني أن استثنائيتها يمكن أن تجعل منها مصدراً للتجديد، أو مكاناً يتشكّل فيه بديل حقيقي عن الحداثة المعاصرة (سيتم تحليل هذا الاحتمال في الفصل التالي)، لكن هذه الاستثناءات نفسها يمكن أن تخلق أيضاً أزمة دائمة، حيث تلعب القارة التي نشأت فيها البشرية دوراً حاسماً في فترة انهيار العالم المتقدم.

تضمن الأرقام وحدها نوعاً ما من الدور الأفريقي الرئيسي في أي شكل يتّخذه المستقبل البشري. في عام 2004 توقّعت الأمم المتحدة أن يستقر عدد سكان أفريقيا بحلول عام 2100 بنحو ملياري نسمة، وهو توقع جريء حول إمكانية التقارب، وحول المشاركة الأفريقية الكاملة في التراجع الديمغرافي، وشيخوخة العالم السريعة، لكن الأفارقة لم يتعاونوا، وقد تم تعديل ذلك التوقع بزيادة مخرجاته منذ ذلك الحين، وبحلول عام 2018، صارت الأمم المتحدة تتوقّع أن يصل عدد سكان أفريقيا إلى أربعة مليارات ونصف المليار بحلول مطلع القرن المقبل.

إجمالاً، من الممكن بحلول عام 2100، أن يكون اثنان من كل خمسة في مجموع البشر من الأفارقة أنفسهم، مع أنهم قد لا يكونون جميعاً في إفريقيا. إن القارة

كبيرة، وهي في بعض النواحي قليلة السكان، وزحف مليار شخص باتجاه الشمال أمر غير محتمل إذا لم تتحقّق أسوأ سيناريوهات المناخ، لكن شيئاً ما سيحدث عندما تضيف أفريقيا مليارات البشر ويتقلّص عدد سكان أوروبا الأغنياء والمسنّين بمقدار مائة مليون أو أكثر. في أواخر التسعينيات، كان عدد السكان في أوروبا يتساوى مع عدد السكان في أفريقيا تقريباً، أما بعد مائة عام، فيمكن أن يكون هناك سبعة أفارقة مقابل كل أوروبي واحد، وحتى مع وجود البحر المتوسط والصحراء كعائق طبيعي، فإن هذا النوع من التوازن لا يمكن أن يستمر على نحو معقول. بشكل أو آخر، ومع احتمال إدارة الوضع أو عدمه، فإن أوروبا الأفريقية (أورو-أفريقيا) Eurafrica قادمة لا محالة.

في سيناريو قابلية الإدارة الذي استقصاه **نوح ميلمان**[607] بشكل مفيد في مقال له بمجلة «بوليتيكو» عام 2015، فإن الهجرة من إفريقيا إلى أوروبا تشبه الهجرة المكسيكية إلى الولايات المتحدة من السبعينيات إلى أوائل القرن الحادي والعشرين. وقد كتب ميلمان خلال تلك الفترة قائلاً: «تضاعف عدد سكان المكسيك، ونما بنحو 60 مليون شخص... بالإضافة إلى 10 ملايين هاجروا إلى الولايات المتحدة. وبتطبيق نسب مماثلة على إفريقيا وأوروبا، من الآن وحتى عام 2050، من المتوقّع أن يهاجر ما يقرب من 200 مليون أفريقي إلى أوروبا، حيث سيصبح مفادُ التّعداد شخصاً واحداً من المهاجرين الأفارقة بين كل أربعة أو خمسة أوروبيين».

هل تستطيع أوروبا دمج هذه الأنواع من الأرقام بنجاح، دون انهيار سياسي واستبداد وعنف إثنيّ وحرب أهلية؟ دعونا نتفق على أن الإجابة قد تكون نعم، سواء في ظل شروط مستمرة من الانحطاط التعس ولكن المستقر، أو وسط نوع من النهضة الأوروبية-الأفريقية التي تعمل فيها الهجرة الجماعية على تجديد نشاط

(607). نوح ميلمان Noah Millman: محلل وناقد سياسي-اقتصادي، ينشر في عدة صحف ومجلات مثل «ويك» والجمهوري الجديد والسياسة الخارجية.

الغرب.

لكن لنعتبر الآن أن تلك الأرقام المكسيكية تنتمي إلى فترة كانت فيها المكسيك نفسها هادئة سياسياً إلى حد ما، وكانت أيّ كوارث طبيعية أو مشاكل بيئية تعتبر محليةً خاصة بمنطقة ما ولم تكن عامة. في حين أن ما نتوقعه في السيناريو الكارثي، هو أن الهجرة الأفريقية إلى أوروبا (والهجرة غرباً من الشرق الأوسط وجنوب آسيا) لن تكون مدفوعة بالحوافز الاقتصادية فقط، بل ستكون جزءاً من تراجع كبير عن أكثر الأجزاء سخونة في العالم، ستكون هجرة يائسة لا تسعى إلى الفرص بل إلى البقاء على قيد الحياة.

سوف يصبح هذا النوع من الهجرة، بدرجة معينة، حدثاً تاريخياً عالمياً حقيقياً، وتحولاً مفصلياً من عصر إلى آخر. لنتخيّل أن العالم جنوب وشرق إيطاليا واليونان قد انقلب إلى حالة من الفوضى العامة، وأصبحت الصراعات المروعة مثل الحرب الأهلية الكونغولية، أو المحنة الحالية في سوريا وليبيا واليمن، نموذجاً عن انهيار الدولة في كل مكان تقريباً، ومثالاً على المجاعة والأمراض والتطهير العرقي، مع استمرار الحركة باتجاه الشمال من جميع الأنحاء التي تتفاقم فيها الفوضى. لنتخيّل العواقب الاقتصادية على العالم بأسره، حيث يساعد الركود على انتشار الأزمة، وتفشل دورة المحاصيل، وينخفض الاستهلاك، وتفشل الأسواق في عالم متداخل. ولنتخيّل أخيراً التطورات المحتملة في أوروبا، والتي قد تؤدي إما إلى حدوث انهيار في السلطة السياسية، وإعادة تشكّل السكان الأصليين على أساس عرقي في مواجهة المهاجرين، وظهور مدن ضخمة جديدة تواجه الضواحي والأرياف، وإما إلى نوع آخر من التبّني السريع لنموذج الاستبداد التقني الذي تعود ريادته إلى الصين، حيث تتوقف الديمقراطية الليبرالية عن الانهيار وتسقط ببساطة، لتحلّ محلها دولة المراقبة البيروقراطية.

إذا حدث شيء من هذا القبيل، فسوف نلتفت إلى الوراء لنلقي نظرة على اضطرابات عهد ترمب، ونعيد مشاهدتها، لا بوصفها عرضاً مسرحياً كما كانت تبدو غالباً، ولكن باعتبارها نوعاً من التدريب على مأساة تلوح من بعيد. إنها مقولة كارل ماركس حول تكرار التاريخ بوصفه مأساةً تليها ملهاة هزلية، ولكن بطريقة عكسيّة. وبما هو أكثر من السيناريو الأول، أي سيناريو الأزمة الاقتصادية، فإن سيناريو أزمة المناخ والهجرة الجماعية، يكشف عن أن الدوافع التي تنتمي اليوم (رسمياً على الأقل) إلى التطرّف السيء السمعة سوف تصبح لاحقاً شبه عالمية. في مشهد من الكارثة المستعرة والهجرة المستمرة، ستفقد مفاهيم الإصلاح والتجديد والنهضة أهميتها تماماً، وما سيتمّ السعي إليه، بشكل مفهوم جداً، هو نوع من خيار **أغسطس**[608] أو **دقلديانوس**[609] بالنسبة إلى الغرب، أي البحث عن شخصية أو شخصيات قادرة على فرض النظام، وضمان السلامة العامة، وضمان استمرارية الحكومة عندما يبدو أن كل شيء آخر يذوب في الهواء الذي يزداد احتراراً بسرعة.

في السيناريو الذي أتخيّله، ستكون تلك الرغبة أقوى في أوروبا من أي مكان آخر، طالما أن ضغط الهجرة سيكون أثقل وطأةً هناك، لكن ذلك الضغط سيجعل مهمة أغسطس المحتمَل أكثر صعوبة، وستكون الانقسامات الأوروبية الموجودة مسبقاً أكثر كذلك. لذا، قد تواجه أوروبا نوعاً من التجزئة المفرطة، وتجد نفسها عائدة لا إلى النظام الوطني قبل الاتحاد الأوروبي فحسب، ولكن أيضاً إلى النظام الإقليمي والمحلي الذي استغرق قروناً من البناء لكي يتم احتواؤه قومياً، سيكون هناك ألف «بريكست» أو حالة انشقاق، إذا صح التعبير. وفي الوقت نفسه، قد

(608). أغسطس Augustus: أول إمبراطور روماني. حكم بين 27 ق.م. حتى وفاته عام 14م.

(609). دقلديانوس Diocletian: إمبراطور روماني بين 284 و305. ويفاضل المؤلف بين أغسطس ودقلديانوس على أساس بدء التأسيس وفرض النظام والتوسّع (ما يميز الأول) أو انتزاع السلطة وإعادة التنظيم (ما يميز الثاني).

تكون مجتمعات المهاجرين وأحياؤهم في المدن كبيرةً بما يكفي للقيام بحالات انشقاق خاصة بهم، ما يحوّل معاقلهم الإثنيّة الحالية إلى أساس تقوم عليه دويلات «أورو-عربيّة» Eurabic و«أورو-أفريقية» Eurafrican في المستقبل.

في نهاية المطاف، وعلى مدى أفق زمني طويل بما يكفي، قد تتشكّل دول قومية جديدة، أو قديمة-جديدة، أو إمبراطورية أوروبية جديدة من هذه الشظايا، لكنها ستبدو مختلفة عن انحطاط الاتحاد الأوروبي الشاسع كما بدت الممالك الفرنسية القديمة Frankish kingdoms في أوائل العصور الوسطى بالنسبة إلى العالم الروماني في القرن الرابع. وفي الأثناء، فإن القوة الوحيدة القادرة على توحيد أوروبا المفككة، التي تعادل الأساقفة والرهبان الذين تولوا الحكم الروماني في العصور القديمة المتأخرة[610]، قد تكون قوى الشركات، شركات التكنولوجيا قبل كل شيء، والتي ستكون مقراتها في الولايات المتحدة أو الصين، حيث ستستمر في إرسال الأقمار الصناعية الضرورية، واستخراج مدفوعات «البيتكوين»[611] أو «الليبرا»[612] من المواطنين والمهاجرين على السواء، مع الحفاظ على نوع من الاتصال الافتراضي بعالم سابق كان قد انتهى إلى الأبد.

في غضون ذلك، سوف تتحمّل القوى العالمية الأخرى الطريقة التي تحمّلت بها بيزنطة[613] شفق العالم الكلاسيكي، كمعقل أو كحصن يتم فيه عزل القوى التي

---

(610). العصور القديمة المتأخرة Late antiquity: من العصور القديمة الكلاسيكية إلى العصور الوسطى في أوروبا والشرق الأدنى ومنطقة البحر المتوسط. أي من نهاية القرن الثالث مع انهيار الإمبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن السابع مع الفتوحات الإسلامية المبكرة.

(611). بيتكوين Bitcoin: عملة رقمية، بدون بنك مركزي مسؤول عن تفاعلاتها. يتم تداولها بين المستخدمين دون وسطاء عن طريق نظام تشفير شخصي وتعاقد بين الأطراف.

(612). ليبرا Libra: نظام دفع مالي اقترحته الفيسبوك يُتداول بالاعتماد على عملة خاصة عن طريق التشفير بين المستخدمين.

(613). حكمت الإمبراطورية البيزنطية معظم شرق وجنوب أوروبا خلال العصور الوسطى. وفيها تم حفظ ونسخ المخطوطات الكلاسيكية، ولهذا السبب تعتبر السلف المباشر للنهضة الأوروبية. وقد تمثّلت قوتها في بناء الأسوار الدفاعية العالية حول المدينة بطريقة جديدة ومحكمة، وهو ما يشير إليه المؤلف هنا.

تعمل على انهيار الدولة وحجزها في خليج تحيط به الأسوار، بالمعنيين الرمزي والحرفي، وربما يقع أيضاً تحت قوة المراقبة التي تحيط بكل شيء من أعلى[614]. وقد تجد الولايات المتحدة آنذاك «أغسطس» الذي يخصّها، أو قد تتجه إلى إنشاء نوع من المكتب السياسي المستنير، وتدمج قوة المؤسستين المتبقيتين غير المنحطتين في البلاد، وادي السيليكون والجيش، في نظام واحد يكون قد احتفظ بالأشكال الجمهورية بالطريقة التي تحافظ بها الصين حالياً على الأشكال الماركسية، كأوهام مغرية وإيماءات بلاغية لا يصدقها أحد. ستوسع الصين إمبراطوريتها، بينما ستقع الهند، القريبة جداً من الحزام غير الصالح للسكنى، في الفوضى نفسها التي تعمّ الدول المتحاربة مثل أوروبا، أما اليابان وأستراليا فستتحولان إلى ملاجئ، وتكونان عميلتين أيضاً للإمبراطوريتين الأمريكية والصينية المتنافستين.

وعلى الرغم من استمرار الهواتف الذكية، فإن الركود التكنولوجي سوف يمهّد الطريق أمام التراجع في كثير من أنحاء العالم، في حين أن التقدم الرئيسي الوحيد في الإمبراطوريات الاستبدادية سيكون في المراقبة والرصد، في محاولة لمنع الفوضى العالمية من اختراق حصون الأثرياء، وهي الأماكن التي سيكون فيها الانحطاط آنذاك ما زال مستداماً.

ومن العوالم التي تفتقد القانون ونظام الدولة، ستظهر أشياء جديدة، كما خرج الإسلام من الصحراء ليغيّر البحر الأبيض المتوسط في ما بعد الحقبة الرومانية، وكما شرع زعماء القبائل في فرنسا وألمانيا بعد انحسار الهيمنة الرومانية يصنعون بدايات أوروبا.

لن يستمر الانهيار إلى الأبد، وسيكون العصر المظلم مؤقتاً. لكن الكارثة ستظل حقيقية، وليست افتراضية فقط. سيكون هناك عدد من القتلى لا يمكن حصره، والكثير مما نعتبره الآن من المسلّمات سوف يتلاشى ويضيع، وبسبب عدم القدرة

(614). كما في سجن «بانوبتيكون»، انظر الفصل السادس.

على التنبؤ بتغيرات المناخ، فقد يكون هناك المزيد من الأحداث الصادمة في كل مرة تتأهب فيها الحضارة الإنسانية للوقوف على قدميها من جديد. وبغض النظر عمّن يرِثُ أو عمّا يورَّث، فإن مؤرخي المستقبل سيرسمون خطاً ضبابياً يثير الجدل، وهدفاً متحركاً يتفقون عموماً على أنه حقيقي، ويقولون: **«هنا انتهت الحداثة المتأخرة، هنا انحسر خريف الغرب أمام الشتاء، هنا كُسر مسعى الحضارة العالمية على عجلة الطبيعة»**.

كتابةٌ على الجدار

إذا كانت هذه هي الطريقة التي تنتهي بها قصة انحطاطنا، فسيكون هناك عنصر أخلاقي يؤدّي دوراً ما بعد كل شيء هنا، وهو الإحساس الذي يتناسب فيه سقوطنا مع اقتباس ويل ديورانت ورؤية ميل غيبسون بشكل غريب. لأن تغيرات المناخ والاختلالات السكانية والهجرة الجماعية ليست مشاكل تتساقط علينا مثل تساقط الميكروبات الأوروبية على سماء أمريكا الوسطى الزرقاء الصافية، كما أنها ليست عرضيّة مثل «**مشكلة العام 2000**»، أو مثل كوارث الإطلاق النووي التي يمكن التخوف منها ولكن لا يمكن التنبؤ بها تماماً. بدلاً من ذلك، تمثّل هذه المشاكل تحديات تنبع من الاتجاهات التكنولوجية والاقتصادية طويلة المدى، ومن أنماط السلوك البشري طويلة المدى أيضاً، وهذا بدوره يعني أنها أنواع الاتجاهات التي كان ينبغي لحضارة قوية ومتقدمة وغير منحطة أن تواجهها مسبقاً وتضع حداً لها قبل أن تقودها إلى التعثر والسقوط.

إذا أطاحت الهجرة الجماعية بالنظام السياسي الغربي في نهاية المطاف، فستكون هناك قصة تحذيرية يرويها الرجعيّون منذ تلك اللحظة فصاعداً، حيث لم تستطع النخب الحمقاء في أمريكا وأوروبا رؤية أن موقفها الرّخو إزاء الهجرة، ولامبالاتها بأبسط جانب يمكن تخيّله من جوانب ازدهار الإنسان، أي معدل المواليد، إنما كانا نوعين من الانحطاط الذي استحق بدرجة مذهلة ما لحقه من دمار عقب ذلك.

ولكن، إذا كانت هذه الهجرة الجماعية قد ترتّبت فعلاً عن التغيرات المناخية التي جعلت جنوب الكرة الأرضية لا يكاد يكون صالحاً للسكنى، فسيكون لدى تكنوقراط المستقبل حجة قوية مفادها، في الواقع، أن الانحطاط الذي تم احتسابه حقاً كان جموداً سياسياً جعل من المستحيل على الحكومات التصرف إزاء سياسة المناخ بشكل جماعي أو فردي (سوف يجادلون على نحو خاص بأن انحطاط المؤسسات المحافظة، والأحزاب السياسية المحافظة، والمفكرين المحافظين في الولايات المتحدة هو الذي ساعد على إحداث الكارثة غير الضرورية)، وفي مكان ما بين هذين المنظورَين سيكون هناك أكثر من «كاساندرا»[615] في الركود التكنولوجي، لإثارة الجدل حول أن المشكلة لم تكن في الانحطاط السياسي بقدر ما كانت في وتيرة الابتكار البطيئة للغاية، وفي فشل إمكانيات الطاقة النظيفة الموعودة أو في تقنيات الهندسة الجيولوجية وعجزها عن الظهور في الوقت المناسب. إنه نوع من الانحطاط مختلف عن النوع السياسي أو الثقافي، أو هو عنصر إضافي في المزيج الذي أضعف الحضارة الحديثة المتأخرة.

أعتقد أن عنصر التاريخ بوصفه يؤدي دوراً أخلاقياً في كل هذه السرديات هو تحديداً ما يجعلني متشككاً في أن الكارثة ستحل، أو أنها ستحلّ بدرجات الحرارة العالية شبه المتوقّعة (جزئياً)، بالإضافة إلى اختلال التوازن السكاني، والهجرة التي تساوي أزمة سياسية واقتصادية قاتلة كما وصفها هذا الفصل. ولكن ربما تكون هذه هي مشاركتي الضرورية في الانحطاط من ناحية عملية، إلى مدى معيّن، بصفتي – أولاً– عضواً في التوجّه المحافظ المنحط، وقد تشربتُ الكثير من الشكوك حول تغيرات المناخ على مرّ السنين، وبصفتي –ثانياً– عضواً في مجتمع منحط، فلا أستطيع رفع عيني لرؤية الحقيقة، ومعرفة أن عبارة: «صارت أيام المملكة معدودة ولسوف يرثها أعداؤها» قد كُتبت فعلاً على الجداران.[616]

---

(615). كاساندرا Cassandra : هي ابنة بَرْيام، ملك طروادة، التي مُنحت موهبة التنبؤ، وقدّر عليها ألا يصدقها أحد، وتعني الكلمة عموماً القدرة على التنبؤ بالنوازل.

(616). انظر الفصل السابع حول «الكتابة على جدران القصر».

10

النهضة

في صيف عام 2017، ألقى دونالد ترمب خطاباً في بولندا دفاعاً عن الحضارة الغربية، وقال: «السؤال الأساسي في عصرنا هو ما إذا كان لدى الغرب إرادة للبقاء. هل لدينا ثقة في قيمنا فندافع عنها بأي ثمن؟ هل لدينا احترام كافٍ لمواطنينا فنحمي حدودنا؟ هل لدينا الرغبة والشجاعة للحفاظ على حضارتنا في وجه أولئك الذين يريدون تخريبها وتدميرها؟»، إذا كان الأمر كذلك، واصل قائلاً: «يجب أن نعمل معاً لمواجهة القوى، سواء جاءت من الداخل أو من الخارج، من الجنوب أو من الشرق، القوى التي تهدّد مع مرور الوقت بتقويض هذه القيم ومحو روابط الثقافة والإيمان والتقاليد التي تجعلنا ما نحن عليه».

غني عن القول أن الخطاب لم يحظ بإعجاب عالمي، وقد شجبه منتقدو ترمب، على الفور، باعتباره «**بياناً للبارانويا العرقية والدينية**»، وخيانة للالتزام الأمريكي بالقيم العالمية، أو نوعاً من «صافرة الكلاب»[617] كان يدعو بها مؤيديه من اليمين المتطرف. كانت المشكلة هي اصطفائية الخطاب وشوفينيته، فأن تُحيي الحديث عن «الغرب» في عصر ازدهرت فيه الأفكار الأوروبية مثل الليبرالية والديمقراطية والرأسمالية على الصعيد العالمي، هو أن تربط نفسك بشكل حاسم بالتعريف

(617) في الصافرة المستخدمة لتدريب الكلاب وتوجيهها تردّدات صوتية لا تلتقطها آذان البشر.

العنصريّ أو الدينيّ الذي يدلّ على معنى أن تكون غربياً. كانت تلك خطوة رجعية، ونموذجاً نمطياً يعبّر عن ترمب، ومساراً ثقافياً وسياسياً مسدوداً.

بطريقة ما، كان الخطاب والشجب الذي قوبل به مهمّيْن، وكانا بطريقة أخرى عديمَيّ الفائدة تماماً. مهمّان أولاً، لأنهما قاما بتكثيف واحد من مآزق عصرنا، بين الأشخاص الذين يتصورون أن موارد الماضي المتلاشي يمكن أن تنعش أوروبا وأمريكا، والأشخاص الذين يعتقدون أن المشكلة الوحيدة الممكنة في مجتمعنا العالمي هي أنه ليس عالمياً كما ينبغي. وعديما الجدوى ثانياً، بسبب الفراغ الأساسي في موقف كل جانب منهما، نزعة تقليدية فارغة يدافع عنها شخص بلا مبادئ وانتهازيٌّ من تلفزيون الواقع، في مقابل كوزموبوليتانية رقيقة هي في الحقيقة مجرد أيديولوجية غربية لا تعبر عن أكثر من البروتستانتية الليبرالية بالإضافة إلى حب الأطعمة الإثنية.

لا نهضةَ ممكنةٌ ما دام هذا المأزق مستمراً. هناك من جهة أولى، دفاعٌ عن الطابع التاريخي المسيحي والأوروبي في الغرب الذي يختصر تلك الحضارة في شعار «لنجعل أمريكا عظيمة مرةً أخرى»، وفي المشروع المحافظ على التراث والغارق في نوستالجيا الحنين إلى وهج الماضي. وهناك من جهة أخرى، رؤية عن حضارة لا ذاكرة مشتركة لها، ولا جذور دينية، ولا ميزات تتجاوز إجراءاتها السياسية، ولا وعي ذاتيّ بغطرسة مؤسستها المتقوقعة وأميّتها التاريخية. إنها نزعة محافظة مع عدم وجود رؤية لكيفية تفعيل نفسها، فلا دفاع لديها بالتالي سوى الجدار، والخندق، والسور. وهي نزعة ليبرالية لا تدرك إلى أي حدّ ضئيل تشبع رغبات الإنسان، ولا إلى أي حدّ هي غير منيعة من أثر التحديات الحقيقية إذا ما برزت أمامها.

رؤى «أورو-أفريقية»

غير بعيد عن الوقت الذي كان فيه ترمب يلقي خطاباً عن حضارةٍ يجسّد هو بالذات ما تشهده من انحطاط، ذهب كاردينال أفريقي إلى جنوب فرنسا

للمشاركة في قدّاس تكريمي لشهداء حرب **ڤونديه**[618]، وهم آلاف من الكاثوليك، معظمهم من الفلاحين، قُتلوا على أيدي الجيوش الثورية الفرنسية في سبعينيات القرن الثامن عشر عندما ثاروا ضد حكومة باريس الديكتاتورية وضد عهد الإرهاب[619]. وُلد **الكاردينال روبرت سارا**[620] عام 1945 في غينيا التي كانت آنذاك جزءاً من غرب أفريقيا تحت الحكم الفرنسي، وارتقى من فقر الريف ليصبح كاهناً، وأسقفاً، ثم زعيماً للأسقفية الأفريقية، قبل أن يرتقي أكثر ليصبح كاردينال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وزعيم الجناح التقليدي للكنيسة.

لكن النزعة المحافظة في عظته أمام نصب ڤونديه التذكاري أثارت تناقضاً رائعاً مع النزعة المحافظة في خطاب ترمب، ففي حين قدّم ترمب رؤيةً للغرب بدا أنها تنتمي إلى مرحلة شباب **«سارا»**، وصوّر أوروبا على أنها حصن دفاعي يحتمل أن يصبح محاصراً من **«الجنوب والشرق»**، فإن سارا، وهو رجل من «جنوب» الكرة الأرضية، أخبر مستمعيه في ذلك القدّاس، قصةَ شهداء ڤونديه الفرنسيين التي كانت متّصلةً بروابط الإيمان لدى مسيحيي أفريقيا والشرق الأوسط الذين كانوا بدورهم يعانون من **«الاضطهاد الإسلامي»**[621] والإمبريالية الثقافية الجديدة من الحكومات الأوروبية العلمانية التي تسعى إلى فرض العقم الغربي على خصوبة إفريقيا. لكن أفريقيا، قال سارا: «مثل ڤونديه، سوف تقاوم! يجب أن تكون

---

(618). حرب ڤونديه Vendée: حرب أهلية فرنسية حدثت عام 1793 بين الجمهوريين والملكيين أثناء الثورة الفرنسية راح ضحيتها أكثر من 200 ألف شخص.

(619). عهد الإرهاب The Reign of Terror: الفترة التي تلت إنشاء الجمهورية الفرنسية الأولى بعد الثورة. ووقعت فيها سلسلة من المذابح وصدر فيها 16594 حكماً بالإعدام دون محاكمة، مع موت 10000 أخرين في السجون.

(620). روبرت سارة Robert Sarah: أسقف غيني في الكنيسة الكاثوليكية، كردينال منذ 2010، عمل سكرتيراً لمجمع التبشير بإشراف البابا يوحنا بولس السادس، ثم رئيس المجلس البابوي في عهد البابا بنديكتوس السادس عشر.

(621). ما يقوله المؤلف عن الكاردينال سارا هو مجرّد ادّعاء، لأن روبرت سارا بالرغم من مسيحيّته ودوره المتقدّم فيها إلا أنه نشأ في غينيا بين أغلبية مسلمة، وهو يقول حرفياً: «الإسلام في بلدي دين أخويّ مسالم»، ويعتبر من المدافعين عن وسطيّة الإسلام وسماحته. ولا يحتجّ -مثل المسلمين أنفسهم- سوى على تيارات التطرّف المدانة إسلامياً.

العائلات المسيحية في كل مكان هي رأس حربة الثورة ضد دكتاتورية الأنانية الجديدة هذه!»، وليست إفريقيا وحدها، بل المسيحيون الأفارقة والمسيحيون الأوروبيون معاً: «**أنتم يا شعب فرنسا، أنتم يا شعب ڤونديه، متى ستنهضون بأسلحة الصلاة والإحسان السلمية دفاعاً عن إيمانكم؟ يا أصدقائي، إن دماء الشهداء تجري في عروقكم، كونوا مخلصين لها! نحن جميعًا أبناء شهداء ڤونديه روحانياً!**».

بدلاً من ثنائيّات المحافظة الشعبوية والعالمية العلمانية، اقترح سارا بكلمات أخرى رؤيةً للمستقبل يحتضن فيها إيمانُه، أي المسيحية الكاثوليكية، وبشكل مؤثّر، السيناريو الأورو-أفريقي الذي عددناهُ من الناحية المبدأية في الفصل الأخير تهديداً يزعزع استقرار الغرب. لقد تخيّل أن رفاقه الأفارقة يقودون إحياءَ وإثراءَ جزءٍ من الميراث الغربي، أي الجزء المسيحي، حتى عندما سأل المسيحيين الأوروبيين الانضمام إليه في الدفاع عن التميّز الثقافي الأفريقي ضد القادة الغربيين (بما في ذلك الرئيس الفرنسي الحالي إيمانويل ماكرون) الذين يرتعبون من معدلات المواليد الأفريقية، ويفضلون أن تستسلم القارة أمام الانحطاط الأوروبي. لقد تصوّرَ الروابط بين الشمال والجنوب لا باعتبارها تهديداً للشمال، أو فرصةً لإعادة تشكيل الجنوب على صورة الشمال، ولكنه رأى فيها إمكانية إحداث تشكيلات جديدة تماماً، تشكيلات تتجاوز الأعراق ومن شأنها أن تستعيد ماضي أوروبا وتؤدّي إلى إعادة تشكيل مستقبل الألفية الثالثة في القارتين.

طالما أن التشكيلات الجديدة التي فكّر فيها الكاردينال تتضمن فكرياً الكاثوليكية الرومانية الأورو-أفريقية التقليدية بشكل بارز، فقد يفضّل القارئ الأكثر علمانية الجمود والركود، لكن نموذج سارا ليس قابلاً للتطبيق على الدين التقليدي فقط. وإذا كان الخطر الأكبر الذي يهدّد استقرار الانحطاط يتمثّل في الهجرة الجماعية من جنوب الكرة الأرضية، فإن جنوب الكرة الأرضية يحمل في الوقت نفسه مفتاح العديد من سيناريوهات النهضة. قد يكون ذلك بسبب أن

الغرب المنحط لا يستطيع أن يتخيّل غير الغربيين إلا على أنهم ليبراليون معاصرون مندمجون تماماً، أو إرهابيون وثيوقراطيون، أو مصدر تهديدات غربية لا مبرر لها، ولكن ربما يمكن تخيّل شيء آخر كما فعل أشخاص مثل سارا، يقفون فعلياً على الضفّتين معاً من الانقسام الأوروبي-الأفريقي. ربما يمكن أن تنقذ رؤى المستعمَرين شعوبَهم والمستعمِرين السابقين معاً من تصادم فوضوي وكارثي، وتقود الطريق إلى شيء جديد وجيّد بدلاً من كل ذلك.

هناك أمثلة أخرى من هذا الخيال الأورو-أفريقي، إلى جانب رؤية الكاردينال سارا الكاثوليكية. بعد الحرب العالمية الثانية، وفي الأيام الأخيرة التي عاشتها الإمبراطوريات الأوروبية القديمة، أثار قادة العالم المحتملون آنذاك (العالم الذي سيُصبح مستعمَراً بعد ذلك) جدلاً حول نوعية العلاقة التي قد تربط في نهاية المطاف قارة أفريقيا أو منطقة البحر الكاريبي المستقلتان بحكامهما الأوروبيين السابقين. كان معظمهم -لا كلّهم- يؤيدون الفصل البسيط. اثنان من المعارضين هما إيمي سيزير[622] من المارتينيك، وليوبولد سيدار سنغور[623] من السنغال (وهما موضوع كتاب رائع بعنوان «زمن الحرية: الزّنوجة وإنهاء الاستعمار ومستقبل العالم»، من تأليف المؤرخ غاري وايلدر[624])، وكلاهما من السياسيين المثقفين الذين جمعوا بين مناهضة الإمبريالية والرغبة في نوع من الاتحاد السياسي المستمر مع الجمهورية الفرنسية، وهو نوع من المشروع السياسي «الفيدرالي» الذي كان من شأنه أن يمكّن الأفارقة والأوروبيين من العيش على قدم المساواة في ظل

(622). إيمي سيزير Aimé Césaire: شاعر ومفكر سياسي وكاتب مسرحي مارتينيكي-فرانكفوني. أحد مؤسسي «حركة الزنوجة»، وأول من صاغ كلمة négritude في اللغة الفرنسية. من أعماله المعروفة: «خطاب عن الاستعمار». (ت. 2008).

(623). ليوبولد سيدار سنغور Léopold Sédar Senghor: شاعر وسياسي ومنظر ثقافي سنغالي. أول رئيس للسنغال (1960–1980). نظّر لحركة الزنوجة. وأسّس حزب الكتلة الديمقراطية السنغالية. (ت. 2001).

(624). غاري وايلدر Gary Wilder: أنثروبولوجي وأستاذ جامعي بمركز الدراسات العليا بجامعة مدينة نيويورك. من مؤلفاته: «مستقبل العالم»، و«الدولة القومية الإمبراطورية الفرنسية: الزنوجة والإنسانية الاستعمارية بين الحربين العالميتين».

حكومة واحدة وتحت العلم نفسه.

نجح هذا المشروع من الناحية التقنية في جزر المارتينيك الصغيرة التي ظلت مقاطعة فرنسية، أما في العالم الاستعماري الأوسع، كما كان مقدَّراً مسبقاً، فقد رفضه المستعمِرون الأوروبيون لأنه طالبهم بالتنازل عن الكثير من سيادتهم، كما رفضه المستعمَرون الأفارقة لأنه لم يصل إلى حدّ الوعد بالتحرّر، ومع ذلك، كان المشروع المحكوم عليه بالفشل ذو طابع نبوئي أيضاً، بما أوحى به من إعادة التقارب الحتمية بين أوروبا ومستعمراتها السابقة، والحاجة إلى توليفة من الشمال والجنوب، من الأبيض والأسود، لم يتطلّع إليها نقّاد ما بعد الكولونيالية الغربيون، ولا المدافعون عنها من المحافظين.

لقد جسَّد سيزير وسنغور هذه التوليفة ثقافياً لكونهما فرنكوفونيين أحبّا التشريع الأوروبي وآمنا بـ«**معجزة الحضارة اليونانية**»، حتى عندما أثارا الجدل حول عبقرية الحضارة الأفريقية المميّزة، الزُّنوجة التي تحوّلت من تسمية ازدرائية قديمة إلى احتفاء بأفريقيا القديمة وأفريقيا المستقبل، أو الأفرو-مستقبلية[625]. (عندما حكم سنغور السنغال، أمضى فترة رئاسته يترجم «جيرارد مانلي هوبكنز»[626]، و«ت.س. إليوت»[627] و«و.س. يتس»[628] إلى الفرنسية). كما أنهما تصوّرا هذه التوليفة سياسياً لكونهما جهوريّيْن فرنسيّيْن يميلان إلى الماركسية، وقد جادلا بأن مُثُل الغرب الشاملة، والتي لم ترق إليها الحكومات الغربية فعلياً، يمكن أن تخلق يوماً ما مظلّة جمهورية قادرة على استيعاب جميع الأعراق في كل من إفريقيا وأوروبا، وستصبح الإنسانية تحتها، بعبارة سيزير: «متّحدة ومتنوعة ومتعددة ومتناغمة أكثر من أي وقت مضى».

---

(625). المستقبلية الأفريقية أو الأفرو-مستقبلية Afro-futurism: توجّه فكري وفلسفي وجمالي يربط أفريقيا القديمة بالمستقبل والتطور العلمي. صاغ المصطلح مارك ديري عام 1993.
(626). جيرارد مانلي هوبكنز Gerard Manley Hopkins: شاعر إنجليزي (ت. 1889).
(627). ت.س. إليوت T. S. Eliot: شاعر ومسرحي وناقد إنجليزي (ت. 1965).
(628). دبليو.س. ييتس W. B. Yeats: شاعر وكاتب إيرلندي (ت. 1939).

لم يتحقّق هذا الحلم، فالمؤسسات عبر-القومية التي نمتلكها ضعيفة وفاسدة، والثقافة العالمية التي تربط أوروبا بمستعمراتها السابقة هي ثقافة قاسم مشترك في حدّها الأدنى من نجوم البوب وأفلام الأبطال الخارقين، وليست مزيجاً من غوته والزّنوجة المتصوَّرة منذ ستين عاماً. أما من ناحية أخرى، فإن الحلم لم يفشل تماماً، إذ هناك على سبيل المثال، بعض الأشكال الفنية الغربية التقليدية، وهي ليست أقل من الديانة الغربية التقليدية التي يتحلّى بها الإفريقي روبرت سارا، وقد احتفظت تلك الأشكال الفنية بالحياة والحيوية في ظل الانحطاط بسبب العبقرية التوفيقيّة [بين المعتقدات] التي أظهرها المستعمَرون السابقون، من تشينوا أتشيبي[629] إلى ف.س. نايبول[630]، على سبيل الاستشهاد بأمثلة من الروائيين. وحتى في ثقافة البوب، ما هو الأنجح والأكثر إثارة للاهتمام من أفلام الأبطال الخارقين التي لا نهاية لها، مثل «الفهد الأسود»* الذي -ما لم يكن سطحيّاً- فهو لا يزال أنشودة رائعة تتغنّى بالمستقبليّة الأفريقية التي وجدت جمهوراً صاخباً في الغرب؟

إن مثال «واكاندا»[631] مثير للاهتمام بشكل خاص لأن مملكة «مارفل»* الخيالية الخفيّة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى مختلفة تماماً عن الصور النمطية المعروفة عن التخلّف الأفريقي، وكأن اختراع واكاندا قد تمّ من قبيل التأنيب والتعبير عن الرفض، كما يبدو واضحاً، ولكنها تختلف أيضاً بشكل مدهش عن النظام الليبرالي الحديث كما نعرفه، مع وجود التقنيات التي تتجاوز تقنياتنا، ورسوخ البنية السياسية والثقافية التي تفتخر بأنها غير ليبرالية، بل هي في الواقع ملكيّة وثيوقراطية.

لا يقتصر الأمر على ذلك «الفهد الأسود» إذن، أو لنقل بطريقة سطحية مباشرة يفرضها علينا تميّز هذا الفيلم الرائج، أن الاستنتاج يخلص إلى التوق إلى نهضة

---

(629). تشينوا أتشيبي Chinua Achebe: روائي وشاعر وناقد نيجيري. من أشهر أعماله: «أشياء تتداعى».

(630). ف.س. نايبول V. S. Naipaul: روائي وكاتب بريطاني يعود أصله إلى ترينيداد. توفي سنة 2018.

(631). واكاندا Wakanda: المملكة الأفريقية المتخيّلة في فيلم «الفهد الأسود».

خارج إفريقيا، إلى مستقبل يتخذ شكلاً أفريقياً ويكون ديناميكياً أكثر من كونه ديستوبياً، كما لو أنه شعار يقول: «لنجعل إفريقيا عظيمةً»، وبعد ذلك «لنجعل العالم عظيماً مرةً أخرى». إن الجوانب المختلفة لما تمثّله واكاندا من استثنائية تشير أيضاً إلى الطرق المختلفة التي قد تحدث بها النهضة في نهاية المطاف، وإلى التحولات التكنولوجية والسياسية والدينية المختلفة التي قد تغير المسار، وتقود حضارتنا أو ورثتها للخروج من الانحطاط.

عودة المستقبل

لنبدأ بالحل التكنولوجي للانحطاط، لأنه الحل الذي تتوقعه ثقافتنا بشكل ضمني، وخاصة ثقافة النخبة لدينا. سيشمل هذا الحل نهاية الخمود أو التباطؤ أو الركود التكنولوجي، وبدء مجموعة من الابتكارات الكبرى التي قد تكون وشيكة الحدوث أو هي تحت التطوير في الوقت الحالي، والتي ستحفّز النمو الاقتصادي، وتؤدي إلى تغيير ثقافي كاسح، وتخلق أشكالاً جديدة تماماً من المناظرات السياسية والأيديولوجية.

من السهل تخيّل الأمثلة لأنه قد تمّ التنبؤ بها على نحو يوحي بالثقة طوال الزمن الذي عشته. (1) ثورة في الطاقة تقلّل تكلفة النقل بشكل جذري، وتؤدي إلى تشويش كبير في سياسات المناطق المنتجة للطاقة في العالم (وفي كل مكان آخر، بالنتيجة). (2) ثورة في الروبوتات تقلّل بشكل جذري من حجم العمل البشري المطلوب لتكديس الثروة، مع نتائج طوباوية خيالية (رؤية كينز* لأسبوع عمل قصير تصبح حقيقة واقعة، وتصبح أوقات الفراغ ترتيباً مسبقاً في الحياة)، وعواقب أخرى مزعزعة للاستقرار (الأثرياء يواصلون العمل لأسباب تتعلق بالمنافسة، والبطالة الجماعية تلاحق الجميع). (3) ثورة في الطبّ والتكنولوجيا الحيوية تغيّر الطريقة التي نؤدي بها كلّ شيء تقريباً، من خلال إطالة فترات الحياة (بدءاً من العلاجات الموعودة منذ فترة طويلة لمرض الزهايمر والسرطان)،

وإعادة كتابة التكاثر[632] (اليوم، «كريسبر»[633]، ثم الأرحام الاصطناعية[634] في اليوم التالي)، وتمكين الهندسة الوراثية في نطاق تغيير الأنواع. (4) ثورة في السفر إلى الفضاء توفر لنا سياحة فضائية حقيقية، وقواعد على القمر، وفي النهاية إنشاء مستوطنة على سطح المريخ. (5) ثورة في الذكاء الاصطناعي ودراسة الوعي تفعل الشيء نفسه أيضاً، عن طريق تمكين البشر من مغادرة العالم الفيزيائي بأبعاده المعروفة.

على الرغم من خيبات الأمل في العقود القليلة الماضية، فإن الافتراض الضمني لدى معظم المستقبليين هو أن واحداً أو أكثر من هذه السيناريوهات يعتبر حتمياً ولا مفر منه. عندما تبحث عن أشخاص في ثقافتنا لا يزالون يتحدثون مثل طوباويّ العصر الفيكتوري[635]، ستجد غالباً رؤى تجمع معاً كل تلك التطلّعات الممكنة. في عام 2014 طلب كيفن كيلي[636]، وهو محرر مؤسّس في مجلة «وايرد»[637]، من متابعيه على تويتر أن يكتبوا «وصفاً من 100 كلمة لمستقبل تكنولوجي معقول في غضون 100 عام» بحيث يرغبون في العيش فيه. وكانت الردود التي نشرها تحتوي على بعض القواسم المشتركة وتصوّر اقتصادَ ما بعد

---

(632). إعادة كتابة التكاثر rewriting reproduction: تجارب استنساخ من نفس الجنس باستخدام الخلايا الجذعية و«كريسبر» وإعادة تنظيم وظائف الجينات من خلال إعادة ترتيب سلاسلها.

(633). كريسبر CRISPR: اختصار «التكرارات العنقودية المتناظرة القصيرة منتظمة التباعد» Clustered Regularly Interspaced Short Palindromic Repeats، وهي عائلة من سلاسل الحمض النووي الموجودة في جينومات الكائنات بدائية النواة مثل البكتيريا. ويتم استخدامها في تعديل جينومات الكائنات الحية، وتطبيقات البحث الطبي والحيوي، وأبحاث معالجة الأمراض المعقدة مثل الزهايمر أو السرطان.

(634). الأرحام الاصطناعية Artificial wombs: حواضن مصطنعة تحاكي وظائف الأرحام الطبيعية وعمل المشيمة لاستكمال نمو المواليد الخدّج.

(635). العصر الفيكتوري Victorian era: فترة حكم الملكة فيكتوريا من عام 1837 حتى وفاتها عام 1901. تأجّجت في ذا العصر هيمنة المعايير الدينية ومناهضة العقلانية. ولكنه شهد من الناحية الواقعية ظهور عدد من الابتكارات العلمية وخاصة الطبية منها.

(636). كيفن كيلي Kevin Kelly: كاتب ومصور وناشط في مجال الحفاظ على البيئة. وهو المحرر التنفيذي المؤسس لمجلة وايرد Wired .

(637). وايرد Wired: مجلة شهرية أمريكية تعنى بالرقميات وعالم الإنترنت، تصدر منذ 1993.

الندرة"**" المترف، ومجتمعاً يتّجه نحو شكل أو آخر من أشكال ما بعد الإنسانية. هذا أحد الأمثلة:

2030: تنهار آخر صروح الطاقة غير المستدامة والسياسات المالية تماماً مع ظهور منتجات «الذكاء المضمّن»[639]. إن الرياح تلائم أشرعتنا، وملايين من البشر يتنقلون بسرعة من كونهم عبيداً أجراء إلى شركاء في اقتصاد لا مركزي ومستدام قائم على الشراكة[640]، ما يوفر لهم الوقت لابتكار عدد لا حصر له من الحلول الجماعية. 2060: ازدهار التنوع البيولوجي. التحكم المباشر في الوعي. يمكنكَ أن تعيش فعلياً على سطح المريخ أو القارة القطبية الجنوبية أو «اطلنطس الجديدة» أو في حزام الكويكبات[641]. ويختار الكثيرون الحياة في «خوادم العقل»[642] الموزّعة فيعيشون قروناً في أسبوع واحد. 2090: السأم لا يمكن تصوّره. عدد السكان الواعين 1020. استعادة الموطن الأحيائي[643]. 2114: تبدأ «الأرض الثانية».

(638). اقتصادَ ما بعد الندرة Post-scarcity economy: وضع اقتصادي مستقبلي يمكن من الناحية النظرية أن يتم فيه إنتاج السلع بحد أدنى من العمالة البشرية، وتُعرض للمستهلكين بثمن بخس جداً أو ربما مجاناً

(639). الذكاء المضمّن Embedded intelligence: نظرياً هي إحدى أساليب العولمة التقنية وتتلخص في القدرة الذهنية التي تمكّن العملية الإنتاجية أو الخدمية من الاكتفاء بالإمكانيات الذاتية الفعلية عن طريق إعادة التوظيف الرقميّ للمعلومات المتاحة عالمياً وتكنيفها ومعالجتها لغرض تحسين الإنتاج وتجويده وإطالة أمده، بما يحقّق قبول المنتَج واستحسان المستهلكين. أما من الناحية العملية فهي مجرّد دليل يتم الاستئناس به لخلق المزيد من التصورات ومشاريع التطوير.

(640). اقتصاد الشراكة Opt-in economy: المساهمة في الملكية و/أو الإدارة بقيمة العمل و/أو بنسبة من رأس المال، بدلاً من معادلة العمل بالمال في اقتصاد الأجرة.

(641). حزام الكويكبات Asteroid belt: منطقة في النظام الشمسي على شكل حلقة قريبة من مداري المشتري وزحل وتحتوي على عدد كبير من الأجسام الصلبة، يصل بعضها إلى حجم الكوكب الصغير بقطر حوالي 1000 كم.

(642). خوادم العقل Mind servers: الطرف المقابل في التداول الرقمي والذي يغذّي متطلبات المستخدم مصدرياً دون أن يظهر على سطح الاستخدام. وفي التصوّر المذكور أعلاه فإن «خوادم العقل» توفّر بيئة اصطناعية بديلة تغير الإحساس بالزمن.

(643). الموطن الأحيائي (الحيّوم) Biome: مساحات شاسعة من النباتات والحيوانات في على حالتها الفطرية كمثال على التكيّف الطبيعي والنظام البيئي البيو-جغرافي.

وهذا مثال آخر:

حوّل الاهتمامُ بالخلود التركيزَ المبنيّ على تفكير قصير المدى إلى أهداف طويلة المدى. لقد بزغ فجر عصر جديد من المسؤولية. ولم يكن إجراء تحويرات على الجسد وتجديد الشباب سوى فيروس (مع وجود خيارات غريبة أخرى متاحة في السوق الحرة)، وقام العديد من الأشخاص بتغيير مظهرهم كلّ أسبوع لمواكبة أحدث الاتجاهات، فأدّى ذلك إلى إلغاء أي حكم على أساس الجنس والعرق، ما يعني أننا أصبحنا نميّز الكيانات من خلال الخبرة والتجربة فقط. ومنذ أن حصدت الروبوتات الطعام الذي نحتاج إليه، وبنت لنا المنازل في مجموعات قَبَليّة اختيارية، ومع وجود الهياكل الحكومية التي نختارها بأنفسنا، صار البشر أحراراً في تخيّل وإنشاء عوالم طوباوية فنية، أكثر من أي وقت مضى.

كان أحد موضوعات هذا الكتاب هو تضييق الآفاق الأيديولوجية، والطريقة التي فقدت بها الطوباوية السياسية والمثالية الدينية هيمنتها على الخيال المعاصر، لكن نوعاً من الطوباوية التقنية الخالصة، المؤصّلة بنوع من الدين العلماني، لا يزال -كما هو واضح- موجوداً بين الأشخاص الذين يعملون في أحدث مجالات التقنية وأكثرها دقّة. إنهم لا يؤمنون بأن الله يمكن أن ينقذنا، ولا السياسة أيضاً، لكن البعض منهم ما يزالون يعتقدون أن العلم وحده سوف يكفي للقيام بالخدعة، وأننا يمكن أن نكون مثل الآلهة من خلال قوة التكنولوجيا الرقمية وحدها، وأنهم إذا تمسكوا لفترة طويلة بما يكفي لرؤية ذلك، فسوف تتغير أجسادهم، ويتم تلقيم عقولهم إلكترونياً، وتتحرّر أنفسهم، ويصبحون متمكّنين محصّنين بشكل شبه دائم.

يمكن للمرء أن يكون متشككاً في هذه الطوباوية ويظلّ يرى أنها بذرة محتملة لبعض التطورات التكنولوجية التي تصوّرها مراسلو كيفن كيلي، وربما كنا ببساطة في عنق الزجاجة بالنسبة إلى الأجيال القليلة الماضية، وحققنا إنجازات

علمية مهمة لم تترجم (حتى الآن) إلى أوضاع عمليّة تغري المجتمع، ولكننا سوف نخرج عند نقطة معينة من عنق الزجاجة، وسيتضح لنا أن عصرنا كان مقدمة ضرورية لتسارع متجدّد، ما يمنحنا في النهاية سيارات ذاتية القيادة (هديةً من أوبر)، ومستوطنةً في المريخ (مقدمةً من سباق الفضاء بين «إيلون ماسك» و«جيف بيزوس»)، وإطالة عمريّة كبيرة (من مختبر غوغل الخاص بالعمر الطويل، أو من بعض فاحشي الثراء الآخرين الذين لا يستطيعون تخيّل مغادرة هذا العمر القصير الفاني).

كل هذا يمكن أن يحدث على نطاق يغيّر العالم دون أن تتحقق السيناريوهات الطوباوية فعلاً. قد تكون «أرضنة المريخ»[644] وتحوّل الإنسان إلى نوع يعيش بين كواكب متعدّدة أمراً بعيد المنال في الوقت الحالي، ولكن مجرد الذهاب إلى المريخ سيكون قفزة أكبر من أي شيء آخر حققناه منذ نيل أرمسترونغ. ربما لا تكون مشكلة الوعي الصعبة قابلة للحلّ عن طريق فحوصات الدماغ وزيادة فعالية المعالجة، وربما لن نقوم فعلاً بتلقيم أدمغتنا إلكترونياً، لكن هذا لا يعني أن أشكال الذكاء الاصطناعي لا يمكنها تحويل الاقتصاد جذرياً، وجعل العديد من أشكال العمل البشرية، إن لم يكن معظمها، باليةً قديمة. من غير المحتمل أن يعيش قطب وادي السيليكون إلى الأبد في جسده الحالي، ولكن في عالم ما يزال مستقراً وغنياً ومتقناً من الناحية العلمية، قد يكتشف شخص ما كيفية الوصول إلى إطالة العمر، وخلق الأرحام الاصطناعية، وتوظيف الانتقاء الجيني لاكتساب القوة أو السرعة غير العادية أو المظهر المختلف، وتربية الكائنات المهجّنة من الإنسان والحيوان، وغير ذلك من السيناريوهات الأخرى التي انتمت طوال السنوات الماضية إلى عالم الخيال العلمي «الوشيك الحدوث».

إذا حدثت بعض هذه الابتكارات بنوع من التتالي الذي ميّز الثورات الصناعية،

---

(644). أرضنة المريخ Terraforming Mars، أو «تأريض» المريخ: إعادة تشكيل المريخ على صورة الأرض وتحويله إلى مكان قابل للاستيطان يستضيف البشر وأشكال الحياة الأرضية الأخرى على نحو دائم.

بالإضافة إلى حدوث ابتكار في التنقّل والتكنولوجيا الحيوية والأتمتة بشكل متزامن، كما حدث غالباً قبل سبعينيات القرن الماضي، فإن التحوّلات السريعة الأخرى ستتبعها حتماً. ستتغير المؤسسات الاجتماعية البشرية بشكل كبير، وبعبارة ألطف، إذا كان من الممكن تربية الأطفال في أحواض، ومن الممكن أن يعيش الناس حتى يبلغوا 125 عاماً، فسوف تتعثر نقاشاتنا السياسية والاقتصادية ما أن يبدأ الأثرياء فجأةً في الانتفاع من التقنيات والعلاجات التي يبدو أنها تشكّك في الطبيعة البشرية المشتركة. إذا كانت عملية الأتمتة المتزايدة التي تدفع 5 في المائة أو 10 في المائة من القوى العاملة إلى الخمول قد أعطتنا الاضطرابات الشعبويّة اليوم، فتخيّلوا ما سيفعله ذلك النوع من الأتمتة الذي يجعل 40 في المائة من القوى العاملة البشرية زائدة عن الحاجة بالنسبة إلى النظام الغربي الحالي.

تخيّلوا كذلك ما الذي ستفعل هذه الابتكارات بالنظام الجيوسياسي إذا كانت كلّها صادرة عن جمهورية الصين الشعبية! هناك مستقبل محتمل يتضح فيه أن عنق الزجاجة الحقيقي، أي المصدر الحقيقي وراء حدث الانحطاط التكنولوجي المؤقت، لم يكن الكفاءة التكنولوجية بقدر ما كان ندرة الطموح المجتمعي والحوافز المركزية، وغياب الحساسية إزاء الاعتبارات الأخلاقية. في هذا السيناريو، سيكون العلماء الصينيون، المدعومون والمشجَّعون من قبل حكومة طموحة وغير مثقلة بالهواجس المسيحية المتبقية بشأن أشكال معينة من التجارب، هم الذين سيُقدِمون على هذه القفزة الكبيرة، بدءاً من أبحاث «كريسبر» اليوم، إلى ابتكار رجال خارقين أقوى من البشر في الغد، وفجأة سيدخل العالم سيناريو آخر خارجاً عن الخطّ الزمني في رحلات «ستار تريك» و«حروب تحسين النّسل»[645] المتوقّعة، مع ظهور زمرة على غرار «خان نونيان سينغ»[646] تتولى مقاليد السلطة

---

(645). حروب تحسين النسل Eugenics wars: جزء من سلسلة الصراعات في عالم «ستار ترك» الخيالي.

(646). أي مع مجموعة على شاكلة خان نونيان سينغ Khan Noonien Singh وهو شخصية خيالية من شخصيات «ستار تريك: السلسلة الأصلية» (1967)، ثم ظهرت في جزء من أفلام «ستار تريك»

في بكين وبقية العالم، وهي من يقرّر: إما التكيّف أو الاستسلام أو المقاومة.

بالنسبة إلى المقاومين، لن تنطبق كلمة النهضة بشكل طبيعي على عالم بدا أنه يسير في اتجاه «ديستوبي»، ولكن إذا خسرنا «حروب تحسين النسل»، فقد يصف الفائزون الخارقون صعودهم وانتصارهم بعزوها إلى النهضة، وسيحتاج حتى المقاومون آنذاك إلى كلمة أخرى، إلى جانب الانحطاط، لوصف المستقبل الذي تمت هندسته جينياً. قد نتحرك في اتجاه خطير، وربما يكتنفه الشرّ، لكننا سنكون في طور الحركة، دون أن يظل الركود والانجراف والتكرار هي السمات التي تميّز عصرنا.

ليس هناك شيء من الناحية الفعلية أكثر تميّزاً في المجتمع الديناميكي من صراع أخلاقي جديد تم تحفيزه بنوع من التغيير التكنولوجي والاقتصادي. لذا، وبهذا المعنى، فإن الحرب بشأن ما يجب فعله بعلم تحسين النسل[647] الجديد ستعيّن أبعاد نهاية الانحطاط بشكل أكثر وضوحاً من قفزة علمية مفترضة تكون أقل تعقيداً من الناحية الأخلاقية.

هل توجد حياة بعد الليبرالية؟!

إذا كان التسارع التكنولوجي سيؤدي حتماً إلى صراعات سياسية وأيديولوجية جديدة، فماذا لو سارت عملية «الصعود من الانحطاط» في الاتجاه المعاكس، وحدث تغيير سياسي أو إيديولوجي دراماتيكي قبل كل شيء آخر؟ كما رأينا، من الأسهل الإعلان عن أزمة في النظام الديمقراطي الليبرالي بدلاً من التفطّن الفعلي للبدائل القابلة للتطبيق من الليبرالية أو الديمقراطية أو الرأسمالية. مع ذلك، وكما هو الحال مع التقدم التكنولوجي والعلمي، ربما نكون في فترة التحضير والتمهيد

عاما 1982 و2013.

(647). علم تحسين النسل Eugenic science، أو Eugenics: أبحاث تحسين الجنس البشري عن طريق التزاوج الانتقائي لتثبيت (أو إلغاء) بعض السمات الوراثية.

التي يتم فيها التنظير تدريجياً للبدائل ما بعد الليبرالية، وفي غضون جيل أو نحو ذلك، ستبدأ تلك البدائل في إعادة تشكيل العالم، بمعزل عن المدونات وتغريدات تويتر والكتب.

أحد الاحتمالات هو ما اقترحه **باتريك دينين**[648] بعنوان: «**لماذا فشلت الليبرالية؟**»، ولعله الأبرز في تشخيص انحطاطنا السياسي في حقبة ترمب. ومثل معظم هذه النصوص، فإن الأمر يتعلق بالنقد أكثر منه باقتراح وصفات المعالجة، لكن دينين ينتهي برؤية تقترح سياسة ما-بعد-ليبرالية جديدة يمكن وصفها بالثورة المحلية، حيث يتم التخلّص من التصلب الأوليغارشي في مؤسسات العالم المتقدّم من خلال إعادة تأسيس المجتمعات الفاضلة على نطاق أكثر إنسانية وعضوية.

لن تتناسب هذه المجتمعات مع نمط أيديولوجي بسيط، قد تشمل كل شيء بدءاً من الإصدارات الجديدة من **الكومونات الطوباوية**[649] في القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، إلى التجارب التحرّرية مثل **مدن الميثاق**[650]، إلى محاولات إعادة بعث **المجتمعات الرهبانية**[651] التي نشأت في ظل انحلال إمبراطورية روما، إلى مشاريع الإحياء البسيطة في ديمقراطية الاجتماعات

---

(648). باتريك دينين Patrick Deneen: مُنظر سياسي أمريكي، وأستاذ العلوم السياسية. من مؤلفاته: «أوديسّا النظرية السياسية»، «الإيمان الديمقراطي»، «لماذا فشلت الليبرالية؟».

(649). الكومونات الطوباوية Utopian communes: تصورات ومشاريع التأسيس المجتمعي الطوباوي في الثقافات الغربية، مثل «المدينة الفاضلة» التي نشرها توماس مور عام 1516، وقد سعت حركات اجتماعية وثورية كثيرة في العصر الحديث وخاصة في ستينيات القرن العشرين إلى تأسيس مجتمعاتها المثالية الخاصة.

(650). مدن الميثاق Charter cities: الصيغة الأمريكية من «مدن الميثاق» هي مجتمع محلي صغير يحكم نفسه بنفسه، ويحتكم إلى توافقاته الخاصة بدلاً عن تغليب قانون الدولة العام. وقد تم توظيف هذا المفهوم حديثاً بحيث أصبحت هناك 125 مدينة في ولاية كاليفورنيا وحدها عام 2020 توصف -بهذا القدر أو ذاك- بأنها «مدن ميثاق».

(651). المجتمعات الرهبانية Monastic communities: هي المجتمعات التي كان يعيش فيها الرهبان، وفق نظام ملزم يسوده نمط ديني محدّد، ويكون في الغالب منعزلاً -جزئياً أو كلياً- عن بقية المجتمع. وهناك أمثلة حديثة في الدول الغربية لهذه المجتمعات.

المدينيّة[652]، وغيرها من أشكال التوكفيلية[653] المتلاشية. ويقترح دينين في وصف مسار هذه «**المجتمعات المتعمّدة**»[654]، أنها قد توجد في البداية متعايشة مع نظام ليبرالي واسع، وتستفيد بشكل مستدام من حمايته وإن كانت على قدر من الانحطاط. لكنها على المدى الطويل، قد تقدّم بديلاً كاملاً عن شعور عصرنا بإمكانياته الأخرى المفقودة، يقول:

[مبدئيًا]، سيتم اعتبارها [أي تلك المجتمعات] خيارات بديلة ضمن الإطار الليبرالي، وبينما يحيط بها الشك في الثقافة الأوسع، سوف يُسمح لها بالوجود إلى حد كبير، طالما أنها لا تشكّل تهديداً للأعمال الرئيسية في النظام الليبرالي. ومع ذلك، فمن المحتمل من الدروس المستفادة في تلك المجتمعات أن تنشأ نظرية سياسية ما-بعد-ليبرالية قابلة للتطبيق، نظرية تبدأ بافتراضات أنثروبولوجية مختلفة جذرياً، ولا تنبثق عن حالة طبيعية مفترضة، أو تنتهي بدولة وسوق متداخلين، بل تنبني بدلاً من ذلك على حقيقة العلاقات الإنسانية، والتواصل الاجتماعي، والقدرة المكتسبة على التضحية بمصلحة الفرد الشخصية الضيقة، لا لتحويل الإنسانية إلى حالة مجرّدة، بل من أجل مصلحة البشر الآخرين. أما مع زوال النظام الليبرالي، فلن يُنظر إلى مثل هذه الثقافات المضادة على أنها «خيارات» ولكن باعتبارها ضرورات.

إذا كان دينين على حق، فمن المنطقي البحث عن نهضة سياسية في أماكن بعيدة

---

(652). ديمقراطية الاجتماعات المدينية Town-meeting democracy: شكل من أشكال الديمقراطية المباشرة، وفيه يجتمع معظم أو كل أفراد المجتمع معاً لتشريع السياسات وإصدار القوانين والبت في القضايا العامة حيث يكون الجميع متساوين يتمتعون بسلطة القرار. وقد شهدت الولايات المتحدة تاريخياً، كما في ولاية نيو إنغلاند، العمل بهذا النمط.

(653). نسبة إلى توكفيل Tocqueville: فيلسوف ومؤرخ فرنسي (ت. 1859)، ركّز في كتاباته على تحليل مستويات المعيشة وظروف الأفراد الاجتماعية، وعلاقة المجتمع بالدولة وبالسوق. من مؤلفاته «الديمقراطية في أمريكا» و«النظام القديم» و«الثورة».

(654). المجتمع المتعمَّد Intentional community: مجتمع مصمَّم مسبقاً بأسلوب حياة محدّد، لضمان تماسكه الاجتماعي وتقسيم العمل بين أعضائه، يشترك في الموارد ويتساوى في العوائد، فهو بهذا المعنى أقرب إلى «الكومونة».

عن مراكز السلطة الرسمية. قد تكون النزعة الجماعاتيّة* الدينية لدى المورمون[655] في ولاية يوتاه، على سبيل المثال، أكثر صلة بمستقبل العالم من أي شيء يحدث في لندن أو باريس أو واشنطن. إن نجاح الدولة-المدينة، مثل سنغافورة، قد يقدّم نموذجاً سياسياً للقرن القادم يكون أكثر صلة بالمستقبل من المؤسسات الوطنية والإمبريالية التي تئنّ اليوم. أولئك **التحرّريون** Libertarians الذين تعرضوا للسخرية كثيراً، والذين حاولوا جعل نيوهامبشاير «دولة حرة» من خلال الهجرة الأيديولوجية إليها، أو أولئك الأثرياء من أصحاب المليارات في وادي السيليكون الذين يتخيّلون «**مستوطنات البحار**»[656] طريقةً لبناء مؤسسات سياسية جديدة على أرض تم استصلاحها بعد استعادتها من بوسيدون[657]، ربما كانوا في الواقع أصحابَ رؤية. قد يكون الصغير جميلاً، وقد يعني الخروج والنفي الداخلي صنعَ العالم من جديد في نهاية المطاف.

ولكن من الممكن أيضاً ألا تنجح التجارب المحلية حقًا في مجتمع جماهيري أو في عالم صنعته العولمة بدون ثورة شاملة. قد يظل حجم هذه التجارب أصغر من أن يُقاس، وقد يكون ضعفها المستمر أمام قوى أكبر وأعداء أقوياء هائلاً جداً. إن تصوّر دينين النقدي عن النظام الليبرالي يوحي بأنه لا يسمح بأي منافس في النهاية، أما روايتي الخاصة عن المجتمع المنحط فتشير إلى أن الانحطاط مغرٍ دائماً حتى بالنسبة إلى منتقديه، وفي هذه الحالة، يحتاج أي بديل إلى أن يبدأ بمؤسسات تتمتع بسلطة أكبر ونطاق أكبر، كما يحتاج إلى أن يأخذ شكل التجديد الوطني العام، لا أن يكون مجرد تجديد محلي، لأن الدولة-الأمة فقط هي التي لديها الحجم

---

(655). المورمون Mormons: جماعة دينية ثقافية تأسست في عشرينيات القرن التاسع عشر. وهي فرع ديني مسيحي يدين بالمرمونية. وتفرّعت عنها مجموعات أخرى صغيرة. ومن بين اختلافاتهم عن غيرهم من الطوائف المسيحية أنهم يؤمنون بحق تعدد الزوجات.

(656). المستوطنات البحرية Seasteading: تجمعات مدنية صغيرة يتم إنشاؤها في البحار، ولا تتبع دولةً محدّدة. بينما ينظر إليها الأثرياء وسيلةً للتهرب من الضرائب. ولم تظهر حتى الآن مستوطنة في أعالي البحار تم الاعتراف بها دولةً ذات سيادة.

(657). بوسيدون Poseidon: إله البحر والعواصف والخيول في الميثولوجيا اليونانية.

والفعالية المناسبين لتجربة الأشكال السياسية المختلفة دون حلها أو سحقها.

هذه هي أوضح إجابة من اليمين السياسي على الانحطاط في الوقت الحالي، متجسّدة لا في المحاولات المختلفة لإسناد «الترمبية»[658] ثقافياً فحسب، بل كذلك في وثائق مثل بيان باريس عام 2016[659] الذي اتّحدت فيه مجموعة من مفكري القارة من ذوي الميول اليمينية للقول بأن «أوروبا الحقيقية مجتمع من الأمم»، وليست الاتّحاد الأوروبي العالمي في هيئته الرسميّة، وأنه من خلال نوع من المجتمع الوطني الذي «يتنافس مع الأمم الأخرى»، من جهة، و«يفخر بحكم نفسه بطريقته الخاصة»، من جهة أخرى، يمكن للثقافة الأوروبية أن تتجدّد.

في هذه النظرية، تعيد النزعة الوطنية[660] تقديم العديد من الأشياء التي تنحلّ في ظل الانحطاط، مثل الذاكرة التاريخية والدينية التي تتطلبها العظمة الفنية الحقيقية، والدعم المجتمعي الذي يتطلبه الزواج وتأسيس الأسرة والازدهار البشري العادي، والشعور بالمنافسة والهدف المشترك الذي يتطلبه تحفيز التقدّم التكنولوجي، والروابط المشتركة التي تمكّن الحكومة الرشيدة من الانتصار على الانقسام والتجميد. وفي هذه الحالة، فإن التجارب الوطنية التي تظهر حول

---

(658). الترمبية Trumpism: ظاهرة دونالد ترمب متمثلةً في الأيديولوجيا السياسية، والمشاعر الاجتماعية، وأسلوب الحكم، وآلية اكتساب السلطة، والطابع الشعبوي، التي رافقت صعود ترمب وتوليه مقاليد الرئاسة في الولايات المتحدة.

(659). بيان باريس Paris Statement: اتفاقية المعاهدة الدولية بشأن تغيّرات المناخ، وقعت عليها 196 دولة، ودخلت حيز التنفيذ في نوفمبر 2016، وأعلن ترمب انسحاب الولايات المتحدة منها في يونيو 2017.

(660). يأتي استخدام المؤلف لمفهومي الوطنية و/أو القومية Nationalism متداخلاً، ومتضارباً أحياناً، ومن هنا وجب هذا التنويه. فكلما تعلق الأمر بالدول الأوروبية (الغربية بشكل عام) نستخدم كلمة «وطنية» بمعنى «الدولة» أي الكيانات التي يتطابق فيها الشكل السياسي مع الشكل الاجتماعي/اللغوي في معظم الأحيان. أما القومية فنطلقها على الأمم المشتّتة بين أكثر من دولة وتسعى إلى توحيد كيانها، سواء أكانت أثناء ذلك في شكل أقليات ضمن دول، أو في شكل دول مستقلة (أي في غياب التطابق بين الشكل السياسي والشكل الاجتماعي). في الحالة الأولى يُنسب المفهوم إلى كلمة «وطن» (بدلالته الجغرافية السياسية)، وفي الحالة الثانية يُنسب إلى «قوم» (بدلالته الاجتماعية اللغوية). ويعود هذا إلى اختلاف التوظيف الدلالي الحديث بين اللغة العربية وبين الإنجليزية وغيرها من اللغات.

العالم، مهما بدا بعض قادتها فجّاً، ومهما كانت تكتيكاتهم ديماغوجيةً، قد تأخذ في النهاية شكل الأدوات السياسية التي تسعى إلى النهضة.

إن النموذج الضمني هنا، بشكل يثير الدهشة، وبالنظر إلى تاريخ اليمين في معاداة السامية، هو «أمة إسرائيل»[661]، آخر معقل من معاقل «قومية» القرن التاسع عشر، والجمهورية العرقية-الدينية الغربية في عصر علماني وعالمي، والدولة التي يجعلها خليطُها من معدلات المواليد العالية والتديّن المرن والكفاءة التكنولوجية دولةً غير منحطّة ببعض الطرق المثيرة للاهتمام. قام المنظّر الرائد في التجديد القومي، المفكر الإسرائيلي يورام حازوني[662]، في كتابه الأخير «فضيلة القومية»، بمحاولة جريئة لبناء نوع من التقاليد القومية «اليهودية-البروتستانتية-الأنجلوأمريكية» التي يقول بأنها دُفنت من قبل الإمبريالية الكاثوليكية المنهارة في المشروع الأوروبي الحالي. (يقول هازوني أن المعتدين الألمان الذين دمروا أوروبا في القرن العشرين، أشخاص إمبرياليون، وليسوا قوميين، لذلك عزلوا الكابوس الهتلري عن مشروعه القومي بشكل افتراضي)، وتمثّل هذه المحاججة ارتباطاً فكرياً يعبّر عن التآلف غير المتوقّع بين الحكومات القومية في أوروبا الشرقية وبين إسرائيل بنيامين نتنياهو، حيث تتطلّع الأولى إلى النموذج الإسرائيلي وهي تحاول أن تتلمّس طريقها نحو شكل فعّال، وربما ما بعد ليبرالي، من الديمقراطية القومية.

---

(661). ما يقوله المؤلف هنا عن «أمة إسرانيل» يبدو حشواً لا معنى له في سياق موضوعه. وهو مجرّد تكرار فجّ لآراء البروباغاندا الصهيونية بطريقة تدّعي التحليل والالتزام بالمنهج العلمي. وقد حافظنا عليها من باب الأمانة العلمية. لأن مثل هذه الآراء مردود عليها بوضوح. وهي لا تنفي الأساس الذي قامت عليه هذه الدولة أي تشريد الشعب الفلسطيني. ومصادرة واحتلال أرضه. وتمكين العصابات الصهيونية من تأسيس دولتها في الشرق العربي الأدنى. يجب الحديث عن «صهيونيّة إسرانيل»، لا عن يهوديتها. فاليهود يوجدون بشكل طبيعي في أكثر من دولة عربية بوصفهم مواطنين، ولا علاقة لهم بهذا الكيان المصنع.

(662). يورام حازوني Yoram Hazony: فيلسوف ومنظر سياسي من إسرانيل. رئيس معهد هرتزل، أسّس مركز شاليم للدراسات في القدس عام 1994 صدر كتابه المشار إليه («فضيلة القومية» The Virtue of Nationalism) عام 2018.

هذا النوع من المسار المتقاطع غير المتوقَّع يستند إلى شيء مشترك مع السيناريوهات «الأورو-أفريقية» التي افتتحتُ بها هذا الفصل، بمعنى أنه يحمل إشارات إلى مجموعة من الاصطفافات والتفاعلات والصراعات أكثر اختلافاً عمّا نراه في حالات الجمود في عصرنا، لكنه يُفهَم أيضاً من قبل اليسار السياسي على أنه اصطفاف جديد وراء النزعة السلطوية والشوفينية، ووراء والقسوة تجاه الغرباء، وهي من وجهة نظر المثقفين اليساريين، المكان الذي تتصدّره «القومية» دائماً، حتى إذا رأيتَ بعض التماثيل الجميلة والهندسة المعمارية على امتداد الطريق. إن «النهضة» التي تقودها القومية، في هذه الحالة، ستكون بمثابة «نهضة» يقودها علم تحسين النسل الصيني، أو هي بمثابة تحوّل، لا شك في ذلك، ولكنها لا تستحق اسم «نهضة».

من هنا جاء رد اليسار السياسي على الانحطاط الذي نعيشه، والذي لم يكن رفضاً للعولمة والنزعة العالمية، بل هو تعميقُ كليهما في صورة أممية اشتراكية جديدة، وثورة في التضامن الاقتصادي والسياسي تتجاوز شرور الرأسمالية والقيود الأخلاقية للنظام الليبرالي الحالي. إذا كانت النخبة العالمية قد فشلت وأنتجت ردَّ فعل قوميّ عنيفاً، فإن الإجابة يجب أن تكون طبقة حاكمة أكثر يساريةً، وسياسة جماهيرية أكثر نشاطاً، وأشكالاً أكثر فعاليةً وتكاملاً من الحكومة عبر-الوطنية[663]، سواء على نطاق الاتحاد الأوروبي، أو على نطاق أكبر تتطلّبه معالجة تغيرات المناخ، دون العودة إلى الأساطير القومية.

إذا كان الاقتصادات الليبرالية الجديدة قد أنتجت الكثير من الخاسرين، وخيبةَ أمل لا تُحتمل، فإن الإجابة لا تكمن في رفع الجدران وتشديد الحدود، بل في السيطرة العقلانية على تعاملات السوق بشكل كامل، تماماً كما أراد الماركسيون

---

(663). الحُكم عبر الوطني Transnational governance: إدارة سياسية تجمع كيانات إقليمية أو وطنية مستقلّة، ومتجاورة غالباً، تحت هيئة واحدة، كما في الاتحاد الأوروبي، ما يعني أيضاً دمج توحيد مواقفها السياسية وتقريب أوضاعها الاقتصادية وما يتطلبه ذلك من أدوات (مثل التفويض، إصدار العملة، سياسة البنوك المركزية، ...إلخ).

دائماً، وإخضاعها بطريقة شاملة للمنطق الأخلاقي الذي تشترطه عدالة إعادة التوزيع. إذا بدا الناس غير سعداء ومتذمرين في عصر الحداثة الأخير، وغير قادرين على تكوين أسر وروابط دائمة، للوصول إلى السعادة الحقيقية، فإن الإجابة لن تكون في العودة إلى المعتقدات الدينية البالية، أو الاستسلام من جديد للسيطرة الأبوية، بل في إزالة كل العقبات الاقتصادية أمام ازدهار الإنسان، وذلك لإنقاذ البشر من القيم المدمّرة التي تعلّمها الرأسمالية وتشترطها.

إن أقرب يساريّ لهازوني، أو مثقّفي «بيان باريس»، قد يكون يانيس فاروفاكيس[(664)]، بوصفه منظّراً سياسياً نشطاً يعبّر عن هذا التوجّه، وهو سياسي ومفكّر يوناني، وزعيم حزب اليسار الشعبوي في بلاده، وقد كانت إجابته على «بيان باريس» هي الإعلان عن حركة **«الديمقراطية في أوروبا- 2025»**، المعروفة اختصاراً باسم DiEM25 [(665)]، والتي تتصوّر أوروبا متجدّدةً باتباع نهج أكثر تكاملاً وتوحداً وديمقراطيةً، رافضةً «الشرنقة» الوطنية لصالح أدوات حُكم أقوى على مستوى القارة تكون مسؤولةً أمام كل مواطن أوروبي أينما كان، لا في بروكسل وبرلين فقط. إن هذه الأممية تجسّد أكثر من مجرد ذكرى الأممية الاشتراكية القديمة، لأن فاروفاكيس يجادل صراحةً بأن مؤلفيّ **البيان الشيوعي**[(666)]، على الرغم من كل أخطاء تلاميذهما، قد وضعا الأجندة التي يجب أن تستمر في قيادة التوجّه اليساري المعاصر، يقول:

---

(664). يانيس فاروفاكيس Yanis Varoufakis: خبير اقتصادي وسياسي يوناني أسترالي، وأكاديمي سابق. كان فاروفاكيس عضواً في البرلمان اليوناني عن أثينا من يناير إلى سبتمبر 2015. ثم استعاد مقعده البرلماني في يوليو 2019. من مؤلفاته: «التقشف وخطر الاستقرار العالمي». و«اللاحتمية الاقتصادية». و«الاقتصاد السياسي الحديث».

(665). الديمقراطية في أوروبا Democracy in Europe Movement 2025. وتعرف اختصاراً بـ 25DiEM. حركة سياسية تقدّمية تنشط في الدول الأوروبية تدعو إلى «دمقرطة الاتحاد الأوروبي». محذرةً من أنه سينفكّك قريباً، ما لم يقم بهذه الخطوة.

(666). البيان الشيوعي The Communist Manifesto: البيان الذي نشره كارل ماركس وفريدريك إنغلز عام 1848. بتكليف من الرابطة الشيوعية. ونُشر في لندن مع بدء اندلاع ثورات 1848.

بينما نحن مدينون للرأسمالية لأنها قلّلت جميع الفروق الطبقية في الهوة بين المالكين وغير المالكين، ويريدنا ماركس وإنغلز أن ندرك أن الرأسمالية قد تطورت بشكل غير كافٍ لكي تصمد أمام التقنيات التي تنتجها. من واجبنا التخلّص من تصوّرنا القديم عن وسائل الإنتاج المملوكة ملكية خاصة وأن نفرض التحوّل، وذلك ما يجب أن يستتبع الملكية الاجتماعية التي تشمل الآلات والأرض والموارد. والآن، عندما يتم إطلاق العنان للتكنولوجيات الجديدة في المجتمعات الملتزمة بعقد العمل البدائي، سيتبعها البؤس على نحو شامل. نقرأ في كلمات البيان التي لا تُنسى: إن المجتمع الذي استدعى «**وسائل الإنتاج والتبادل الضخمة هذه يشبه الساحر الذي لم يعد قادراً على التحكم في قوى العالم السفلي التي استدعاها بتعويذاته**». سيتخيّل الساحر دائماً أن قوى التطبيقات ومحركات البحث، والروبوتات والبذور المعدّلة وراثياً سوف تجلب الثروة والسعادة للجميع. لكن... فقط من خلال إلغاء الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج الضخم واستبدالها بنوع جديد من الملكية المشتركة التي تعمل بالتزامن مع التقنيات الجديدة يمكننا أن نقلّل من عدم المساواة ونجد السعادة الجماعية.

إن السعادة الجماعية هي ما يبدو شيئاً جوهرياً في هذه المسألة وما يميزها من قوة. فالبديل الماركسي الجديد يقدّم نفسه، على أحد المستويات، بوصفه علاجاً ذهنياً-عملياً لما يعتمل اليوم من سخط واستياء، حيث يمكننا عن طريق ترويض الرأسمالية فقط أن نقلّل من عدم المساواة، ويمكننا عن طريق ترويض الرأسمالية فقط أن نستعيد الديمقراطية، ويمكننا عن طريق ترويض الرأسمالية فقط أن نتجنّب كارثة المناخ، ويمكننا عن طريق ترويض الرأسمالية فقط أن أن نموّل الابتكارات المفيدة بدلاً من كل تلك «التطبيقات» و«محركات البحث». ولكن على مستوى آخر، وهو المستوى الذي يجيب بشكل معقول أكثر على تحدي الانحطاط، فإن الاشتراكية الجديدة تقدّم نفسها بوصفها وسيلةً للتجديد الأخلاقي والثقافي، وإجابة على الاستياء نفسه من «**نهاية التاريخ**» الذي يريد

هازوني والقوميون الآخرون الإجابة عليه بالذاكرة والتقاليد والهوية.

يبدأ المخطط الاشتراكي التمثيلي، على هذا النحو، كما في مقال من صحيفة الغارديان الأسترالية يتخيّل الحياة عام 2050 «بعد فشل الرأسمالية»، بالهيكل الاقتصادي للنظام الجديد، حيث التعليم المجاني، والاتحادات الائتمانية التي يديرها المجتمع، والعمل الذي لا يتجاوز الثلاثين ساعة في الأسبوع، واستبدال وظائف الشركات بأعمال في القطاع العام، والدخل المضمون، لكن هذه الحياة سرعان ما تنتقل إلى الجوانب المجتمعية والجمالية للمجتمع الاشتراكي المتخيّل، والسهولة المكتشفة حديثاً لتحقيق التوازن بين العمل والأسرة، وانتشار «الفِرَق المجتمعيّة» المخصّصة للفنون والأفكار. هناك نية مماثلة تشي بغزارة من المقالات الحديثة التي تجادل بأنه مهما كانت الصعوبات مع الهيمنة السوفيتية، فإن النساء في ظل اشتراكية أوروبا الشرقية كن على قدر من الاكتمال، جنسياً ورومانسيًا، أكثر من نظرائهن الغربيّات اليوم، لأن النظام الأبوي والرأسمالية معاً انتهت بنا إلى استقطاب الجنسين، لكن الرؤية الاشتراكية ستوفّق بينهما.

مثل ماركس نفسه، فإن تخيُّل أن الرجل المتحرّر من الرأسمالية قد يصبح مجتمعَ نفسه، كأن يكون صياداً أو سمّاكاً أو مزارعاً في النهار ومثقفاً في الليل، كذلك يتصور نقاد الرأسمالية اليوم تحرير البشر من استبداد العمل ويرونهم يتألّقون سعداء بمعارفهم السطحية، ولديهم ما يكفي من الوقت من أجل استعادة جميع المساعي الخيّرة التي يبدو أنها تتحلّل في مجتمعنا، وما يكفي من الوقت أيضاً من أجل أن ينجزوا اكتشافهم الكامل لهويتهم الحقيقية داخل تشابك العرق والجنس الذي يستحوذ على الكثير من اهتمام اليسار. ومثل خصومهم المحافظين والرجعيين، فإن الراديكاليين من اليسار ينظرون إلى مشاكل التضامن والغاية المشتركة باعتبارها المشاكل الأساسية في عصرنا، حيث ستنقذنا «الصفقة الخضراء

الجديدة»[667] من الاحتباس الحراري، والأهم من ذلك أنها ستجمعنا معاً في إطار عمل مشترك، وتمنح كل رجل وامرأة، وكل إنسان غير ثنائي، هدفاً كريماً، وتخلّصنا من الانقسام والارتباك ومن الانحطاط نفسه.

الحلّ الديني

يبدو مثل هذا التجدّد السياسي - كما تم وصفه- دينياً تقريباً، فمهما كان قادة الثورة الاشتراكية الناجحة يناهضون سلطة رجال الدين، إلا أن هذه الثورة ستبقى دينيةً في بعض مستوياتها، لأن كلّ ثقافة لديها بعض المشاعر الدينية في عمقها، بل حتى الثورات السياسية «العلمانية» تميل إما إلى تغذية المشاعر الدينية (كما غذّت الثورات الليبرالية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أنواعاً مختلفة من البروتستانتية [668] المنشقّة)، أو تسعى إلى استبدال الدين بميتافيزيقية بديلة، وبتصوّر بديل عن التاريخ المقدَّر وعن الفناء النهائي.[669]

ولكن ألا يكون من الأبسط، إذن، أن نتخيّل الثورة الدينية (بدلاً من الثورة السياسية) على أنها الطريق الأكثر احتمالاً للخروج من الانحطاط، سواء على مستوى الصحوة الكبرى[670]، أو مستوى الإصلاح أو الإصلاح المضاد[671]، أو

(667). الصفقة الخضراء الجديدة Green New Deal: إطار عمل اقترحته الولايات المتحدة لمعالجة تغيرات المناخ. تشمل مجموعة أفكار حديثة مثل الطاقة المتجددة وكفاءة الموارد وبعث «الصناعات الخضراء» التي تغيّر البنى التحتية تدريجياً. كما استنّ الاتحاد الأوروبي «صفقة خضراء أوروبية» عام 2019.

(668). كان أول ظهور الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر الميلادي على يد الراهب الألماني مارتن لوثر.

(669). الفناء النهائي (أو آخر الزمان) Eschaton: التصوّر اللاهوتي المسيحي لنهاية الحياة الطبيعية وفناء البشرية.

(670). الصحوة الكبرى Great Awakening: هي عدة موجات من الإحياء الديني في التاريخ المسيحي الأمريكي، كما في أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن العشرين. وتتميز كل واحدة من هذه الموجات بالدعوة إلى إحياء التقاليد، وغالباً ما يقوم بها قساوسة بروتستانت إنجيليين.

(671). الإصلاح Reformation والإصلاح المضاد Counter-Reformation: من الناحية التاريخية هو الإصلاح البروتستانتي ورد الفعل الكاثوليكي، وما انتهى إليه الصراع بين الطرفين من حروب دينية. وقد خلفت هذه المواجهات تاريخاً كاملاً من المحاكمات والمحاكم والردود والأدبيات التي ما زالت

حتى على مستوى بدايات المسيحية والانتقال من عالم روما الوثني إلى عصر التوحيد؟

إن أبسط وسيلة للإحياء الديني ستكون بطيئة الحركة، ألا وهي التحوّل من خلال التغيير الديموغرافي، مع انعطاف مسار الثقافة من معدلات المواليد التفاضلية[672]، حيث تتلاشى العلمانية وأشكال الإيمان الضعيفة تدريجياً.

هناك سوابق حديثة، وإن كانت متواضعة، لمثل هذا التغيير. جزء كبير من الديناميكيات الدينية المتبدلة في أمريكا في سبعينيات القرن الماضي (مثل تراجع الخط البروتستانتي الرئيسي وحيوية **البروتستانتية الإنجيلية**[673] المتزايدة)، يمكن تتبّعه في الواقع وصولاً إلى انعطاف معدلات المواليد البروتستانتية الليبرالية والمحافظة في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، أي في فترة الجدل الأصولي-الحداثي[674]. والأمر نفسه بالمثل، في اليهودية الأمريكية[675] اليوم، فتمايز معدل المواليد الاستثنائي بين الأرثوذكس وأبناء عمومتهم من الإصلاحيين والمحافظين يؤكّد أن مستقبل اليهودية سيكون أكثر ورعاً مما كان متوقعاً قبل جيلين.

شائعة حتى اليوم.

(672). معدلات المواليد التفاضلية Differential birthrates: فروق ناتج الخصوبة في ظل أوضاع عامة تصنعها عوامل العرق واللون والبيئة والمستوى الاقتصادي والأعراف والمكانة والخصائص النفسية.

(673). البروتستانتية الإنجيلية Evangelical Protestantism: حركة تجديدية كبيرة في المسيحية البروتستانتية تعود أصولها إلى عام 1738، تؤمن بأن الإنجيل هو المصدر الوحيد للعبادة، وتأخذ بظاهر الآيات دون إضفاء تأويلات متغيرة عليها. وقد نشطت الحركة مع ما يعرف بالصحوة الكبرى في بريطانيا والولايات المتحدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

(674). الجدل الأصولي-الحداثي Fundamentalist–Modernist controversy: خلاف ثقافي كبير نشأ في الأوساط البروتستانتية، في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية. الأصوليون من جهة، وكانوا يقولون بالصلاحية الخالدة لمجمل العقيدة الأرثوذكسية. والحداثيون من جهة أخرى، ويقولون بضرورة استجابة الدين للاكتشافات العلمية الجديدة وضغوط العصر الأخلاقية.

(675). اليهودية الأمريكية American Judaism: عقيدة اليهود في الولايات المتحدة. وغالبيتهم من أصول أشكينازية، ويميل عدد كبير منهم إلى تبني تصورات اللاأدرية والإلحاد. أما وجهة نظر المؤلف عن «الورع اليهودي» فهي رؤية خاصة تتعارض مع نتائج الاستبيانات المنشورة، وسيعود لاحقاً ليقزّ بهامشية رأيه في هذه المسألة.

ومع ذلك، فإن هذه الاتجاهات أقرب إلى أن تكون هامشية، لأن الإحياء الديني التحوّلي[676]، سيتطلب بالفعل تفاوتاً أكبر في مستوى الخصوبة، ليس داخل التقاليد الدينية فحسب، بل وبين السكان المتدينين بشكل عام والعلمانيين، وكذلك الذين يتوسّطون هذين الطرفين. لكن هناك نسخة من الفجوة موجودة بينهم مسبقاً تتمثل في توسّع نطاق العقود القليلة المقبلة، مع عواقب ثقافية كبيرة في سبعينيات القرن الحادي والعشرين، وهو أمر لا يمكن تصوّره بسهولة.

لقد كتب بعض العلمانيين القلقين كتباً كاملة ليثبتوا، لهذا السبب بالذات، أن الدينيّ يمكنه أن يرث العالم الحديث. من بينهم **إريك كوفمان**[677] الذي كتب قائلاً: «في الحقيقة، يجب أن تسرع العلمانية لكي [تصل إلى حيث] تقف مراوحةً مكانها (بمعنى اجتذاب المتحوّلين [عن عقائدهم] من خصومها الدينيين المتكاثرين) وعليها أن تركض إذا أرادت أن تنجح».[678]

لكن بوصفي شخصاً يتنقّل ذهاباً وإياباً بين العالمَيْن الديني والعلماني، فإنني أحترم بشكل كافٍ جاذبية عدم الإيمان، والميل إلى **«توبة الخوف»**[679] بين أطفال المتديّنين الورعين، للاشتباه في أن معدلات المواليد التفاضلية يمكن أن تكون الطريقة التي ينتهي بها الدين راكضاً لكي يراوح مكانه. وفي الواقع، كانت هذه على الأغلب قصة العقود القليلة الماضية، فالمحافظون الدينيّون ينجبون عدداً أكبر من الأطفال منذ أجيال عديدة، وقد حقّقوا في أحسن الأحوال مرونة مؤقتة في

---

(676). الإحياء الديني التحوّلي Transformative religious revival: هو -من وجهة النظر المسيحية- تحالف الكنائس ذات الخلفيات الطائفية المختلفة (كما في دمج الكرازة الأنجيلية والعنصرية والمسكونيّة في مطلع هذا القرن).

(677). إريك كوفمان Eric Kaufmann: أستاذ أكاديمي كندي بجامعة لندن، متخصص في دراسة الديموغرافيا الدينية والأخوية البروتستانتية العالمية، ومقرها أيرلندا الشمالية.

(678). يقول كوفمان في كتابه أيضاً (ص93): «لقد ربحت العلمانية الغرب بينما كان العالم يزداد تديناً. يبدو أنه من المقدّر، سواء في أمريكا أو في العالم، أن العلمانية ستفشل على المدى الطويل».

(679). توبة الخوف Attrition: هي في اللاهوت المسيحي ندم ناقص، في مقابل Contrition أي الندم الكامل.

عالم تكون فيه كلّ عقيدة مؤسّسة[680] تقريباً أضعف في العالم المتقدم ممّا كانت عليه قبل ستينيات القرن الماضي.

ربما ما زلنا في حاجة إلى شيء آخر هنا، إلى حافز مهم أو تحوّل فكري لتغيير المشهد الديني حقاً، سواءً أكان ذلك ضعفاً مفاجئاً في سيطرة ما يسميه الفيلسوف توماس ناغل[681] «مفهوم الطبيعة المادي الدارويني-الجديد» على إنتلجنسيا الغرب، أو كان بعض التطورات السياسية أو العلمية غير المتوقعة التي تعيد تشكيل الطريقة التي يفكر بها الإنسان الحديث في المجتمع أو الكون، أو (كما هو الحال في محاولات التجديد الأمريكية السابقة) يمكن أن يكون مجرد ما تقوم به بعض المجموعات الجذابة (الكاريزمية) والمحدّدة من القادة الدينيين والوعّاظ وزرّاع الكنائس[682]، من تأثير على مجتمع يتضّح أنه حقل تبشيريّ أكثر خصوبة، وأكثر جوعاً ويأساً من الناحية الروحانية، ممّا يبدو عليه الآن.

أو أن شيئاً آخر غريباً يمكن أن يحدث، بالطبع، طالما أن الثورات الدينية الكبرى والصغرى في التاريخ الغربي قد انبثقت عن أحداث (عن رؤى وإلهامات ومعجزات) خارج حدود الأنماط التاريخية «العادية». يمكن للمرء أن يدرك متأخراً الأسباب التي تفسّر لماذا ظهرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، أو لماذا هيمن الإسلام على الشرق الأوسط، ولكن لم يكن بإمكان أحد أن يتنبأ بشكل هذه التحولات مسبقاً، أو باحتمال حدوث شيء على هذا المنوال مرة

---

(680). العقيدة المؤسّسة أو العقيدة التأسيسيّة Institutional faith: العقيدة كما تبدو في شكلها الاجتماعي، من خلال نظام العبادات وأداء الشعائر والطقوس، كما هو الحال في الأديان الإبراهيمية الثلاث، وتتميز عادة بإفراز سلطة تراتبية، وقواعد تشريعية تنظّم السلوك. وهي تختلف عن عقيدة الفطرة.

(681). توماس ناغل Thomas Nagel: فيلسوف أمريكي، وأستاذ فخري في الفلسفة والقانون بجامعة نيويورك، يهتم بنقد التفسيرات المادية الاختزالية للعقل، ويعارض النظرية الداروينية الجديدة في نشأة الوعي.

(682). زرّاع الكنائس Church planters: مسيحيون يقومون بإنشاء كنائس محلية جديدة في مجموعات سكانية نائية أو لا يتوفرون على كنيسة خاصة تؤدي لهم خدماتها الدينية، وترعى كل كنيسة عملية «زرع» كنيسة جديدة في منطقة أخرى وهكذا.

أخرى، مثل ظهور بعض الإيمان الديني الجديد كلياً للتنبؤ بنهاية تاريخنا الحالي، وفتح هوة بين عصرنا وأي عصر يخلفه، أي عصر يكون مصاباً بـ«الدّوار» -كما وصفه مؤرخ العصور القديمة المتأخرة بيتر براون[683]- باعتباره «فاصلاً» بين العالمين الكلاسيكي والمسيحي... حسناً، لا أحد يعرف هذه الاحتمالات سوى الله وحده.

عودة الوثنية في الغرب

في ما يلي بعض السيناريوهات التي لا تتطلب هبوط بعض الوحي الجديد، وسيكون السيناريو الأول على العكس من الثورة المسيحية في العصر الروماني، ومن توطيد شكل كامل من الدين «بعد-المسيحي» في العالم الغربي.

يوجد بالفعل اتجاه ديني قوي من «ما-بعد-المسيحية»، وهو مرئيّ في أماكن مختلفة من ثقافتنا، ولكنه لم يتخذ شكلاً ثقافياً متماسكاً تماماً. من المفيد وصفه بأنه وثنيّة جديدة غير مكتملة، ولا أعني عبادة أوزوريس أو أودين حرفياً، ولكن الاعتقاد العام في الإله المحايث (القائم بذاته) في واقع فوق-طبيعي، والمتشابك مع العالم المادي بدلاً من الوقوف خارجه باعتباره إلهاً خالقاً.

يأخذ هذا الاتجاه الوثني في الوقت الحاضر عدة أشكال مختلفة. هناك تقليد رفيع المستوى من وحدة الوجود (أو الحلوليّة) الفكرية والجمالية، والتي تتضمن أسماء مختلفة مثل سبينوزا[684] ونيتشه[685] وإيمرسون[686] وويتمان[687]، وتظهر بين الكثير من الكتّاب المعاصرين، وهم من الروحانيين ولكنهم ليسوا متدينين،

---

(683). بيتر براون Peter Brown: مؤرخ وباحث أعاد النظر في تقويمات العصور القديمة المتأخرة، وجدّد تصنيفاتها التاريخية، وتتركز أعماله في دراسة الثقافة الدينية في الامبراطورية الرومانية وأوائل العصور الوسطى في أوروبا، والعلاقة بين الدين والمجتمع.

(684). سبينوزا Spinoza (1632- 1677): فيلسوف هولندي، من مفكري عصر التنوير الأوائل.

(685). نيتشه Nietzsche (1844- 1900): فيلسوف وشاعر ألماني.

(686). إيمرسون Emerson (2803- 1882): فيلسوف وشاعر أمريكي.

(687). ويتمان Whitman (1819- 1892): شاعر وكاتب أمريكي، يلقب في أمريكا بأبي الشعر الحر.

ومن الغنوصيين ولكنهم ليسوا مسيحيين، ومن المؤمنين بوحدة الوجود ولكنم ليسوا مؤلِّهين، من سام هاريس[688]، إلى باربرا إهرنريتش[689]، إلى الراحل هارولد بلوم[690]، إلى عميد كلية الحقوق السابق بجامعة ييل أنتوني كرونهان[691]، مؤلف الاعتذار الديني الطويل: **«اعترافات وثنيّ وُلِد من جديد»**.

بعد ذلك، هناك المزيد من الاعتناق الثقافي المتوسط لروحانية العصر الجديد[692] ودين الاختيار الذاتي[693]، اللذان يؤكدان على السعي وراء التجربة الروحية باعتبارها وسيلة للصحة والثروة والسعادة في هذه الحياة، على طريقة «أوبرا وينفري»[694]، و«طعام، صلاة، حب»[695]، و«ديباك شوبرا»[696] في اعتناق «الدين الحديث» المتأخر[697] الذي ينبثق من مزيج من المصادر الدينية، الغربية والشرقية، ولكنه يركز في الغالب على شكل علاجي من الإيمان، حيث

---

(688). سام هاريس Sam Harris: فيلسوف وعالم أعصاب أمريكي، ينتقد الأديان، وخاصة الإسلام.

(689). باربرا إهرنريتش Barbara Ehrenreich: كاتبة وناشطة سياسية أمريكية، تنتقد الأديان، من مؤلفاتها: «العيش مع إله بريّ».

(690). هارولد بلوم Harold Bloom: ناقد أدبي أمريكي وباحث في تاريخ الأديان، يؤكد على التعارض بين اليهودية والمسيحية.

(691). أنتوني كرونمان Anthony Kronman: حقوقي مهتم بالنظرية الاجتماعية، ويسعى في كتابه المشار إليه إلى التوفيق بين الإيمان والعالم والبحث عن «روحانية إنسانية».

(692). روحانية العصر الجديد New Age spirituality: ممارسات (غير دينية) نشأت في النصف الثاني من القرن العشرين، تتداخل فيها الآراء الميتافيزيقية المستقاة من مصادر مختلفة، والآراء العلمية (أو شبه العلمية) المستقاة من الفيزياء وعلم الفلك وعلم النفس، بالإضافة إلى الفلسفات والأديان الشرقية التقليدية.

(693). دين الاختيار الذاتي (أو الدين الذاتي) self-religion: توجّه اختياري قريب من «روحانية العصر الجديد» يعتمد على التفسير الشخصي والاهتمام بالأفكار التي ترقى إلى مستوى الاعتقاد لغرض تحسين الذات روحياً وبعمق دون الالتزام بأي دين محدّد.

(694). أوبرا وينفري Oprah Winfrey: إعلامية وكاتبة ومنتجة تلفزيونية وممثلة أمريكية.

(695). طعام، صلاة، حب Eat, Pray, Love: فيلم درامي رومانسي أمريكي (2010) عن مذكرات إليزابيث جيلبرت الصادرة عام 2006 بنفس العنوان.

(696). ديباك شوبرا Deepak Chopra: كاتب هندي-أمريكي مدافع عن الطب البديل، ويعتبر شخصية بارزة في حركة «العصر الجديد».

(697). مجموع الأفكار ووجهات النظر الفردية والجماعية في عصر الحداثة المتأخرة Late modernity والتي تتعارض مع الأفكار والمعتقدات الشائعة في اللاهوت التقليدي والمعاصر.

يكون الغرض من الصلاة والتأمل هو السعادة هنا والآن، من خلال تناغم داخلي مع الكون ومع الله (وقد تلعب **الذكوريّة اليونغية**[698] **لجوردان بيترسون*** دوراً مشابهاً لدى محبّيه والمعجبين به).

ثم هناك أكثر أشكال الوثنية الجديدة علانيةً وحرفيةً، وهي الأعمال المزدهرة في مجال الأبراج وعلم التنجيم، والوسطاء الروحانيين الذين يقومون بتجارة نشطة في التواصل مع عالم الأرواح، بالإضافة إلى الأشخاص (الممثّلين بشكل مفرط في أقصى اليمين واليسار على الإنترنت، وهو أمر يثير الاهتمام)، والذين يصفون أنفسهم ببساطة بأنهم من الويكا[699] أو الوثنيين الجدد. وبالرغم من أن إيمانهم بالأرواح والآلهة التي يعبدونها متغيّر إلى حد ما، إلا أن أعدادهم تنمو بسرعة كافية، حتى أنهم يكادون ينادون بالوثنية العلنية منافساً لبعض الكنائس البروتستانتية الرئيسية التي تقلّص حضورها في أوروبا والولايات المتحدة.

وأخيراً هناك تأثير الحضارات، وخاصة الحضارات الآسيوية التي لم يخسر فيها تعدّد الآلهة ووحدةُ الوجود المعركةَ مع التوحيد، وتتمثّل في التقاليد الهندوسية والشنتوية والبوذية والأرواحية التي لا تزال سائدة في شبه القارة الهندية وشرق آسيا، ويتسم جميعها بالتأثير المتزايد في أمريكا الشمالية وأوروبا، بغض النظر عن التغيّرات التي تلحق بها أثناء انتقالها.

لم يتم نسج هذه الخيوط المختلفة بعد في نسيج واحد يمكن للمرء أن يصفه بأنه دين جديد، ولكي يحدث ذلك، لا يجب الاكتفاء بأن يكون هناك بعض التقارب التوفيقي بين المعتقدات على المستوى الشعبي بين محبّي «أوبرا»، والهندوس الممارسين، وكهنة الدرويد[700] والشامانات المحتملين، بل يجب كذلك على

---

(698). اليونغية Jungian: نسبة إلى عالم النفس كارل يونغ Carl Jung.

(699). الويكا Wiccan: ديانة وثنية حديثة نشأت في بريطانيا في منتصف القرن الماضي، تنتمي إلى تيار التنجيم والباطنية الغربية.

(700). كهنة الدرويد Druids: زعماء دينيون سلتيون. لم يتركوا آثاراً مكتوبة عن عقيدتهم (ربما لسبب ديني)، وقد عُرفت معتقداتهم وشعائرهم من معاصريهم مثل الرومان والإغريق.

القائلين بوحدة الوجود ذوي الثقافة الرفيعة، أولئك المثقفون وصانعو الأذواق، أن يتبنّوا بشكلٍ أكثر وضوحاً اعتناق عقيدتهم بوصفها مذهباً مميزاً، ومجموعةً من الطقوس العامة التي يمكن للآخرين الإيمان بها وربطها، لنقل مثلاً، بالولاء والتفاني في الكلاسيكيات الرومانية[701]، بدلاً من التجارب الخاصة فقط بالفطر السحري[702] أو التأمل. (قد يوصلكَ الرجل المحترق[703] إلى هناك تقريباً، لكن ليس تماماً...).

ربما يكون هذا التصوّر مستحيلاً، فالمثقفون الغربيون كانوا يشيرون برؤوس أصابعهم في هذا الاتجاه إلى «ثني الملعقة»[704] أو السؤال عن «الأبراج» في تلك الأيام من دين السبعينيات، ولكن في الوقت الحاضر يبدو أن مثقفينا محرجين من أي حديث بشكل صريح عن أي شيء خارق للطبيعة، كما يفضّل أباطرة وادي السيليكون غسل دوافعهم الدينية من خلال اليوتوبيا التقنية بدلاً من طقوس «دين العصر الجديد». وبالإضافة إلى ذلك، فإن مغازلة النخبة الأخيرة المتضخّمة للوثنيّة الجديدة وصلت إلى حدودد «التأليه» المروّع في ألمانيا النازية، أما النخبة اليوم فهي مرتعبة –على نحو مبرَّر– من إطلاق تلك القوى المظلمة، ما يعني أنها قد تتشبّث بمظهر المساواة في المسيحية، حتى لو كانت جزءاً من صورة العالم المتوترة وغير المتماسكة، بدلاً من المخاطرة بالإغراءات الأرستقراطية غير المتساوية (غير المتكافئة) التي يمكن أن تتسلّل عندما يكون العالم الطبيعي هو المعيار

---

(701). أشكال الولاء والتضحية في الديانة الرومانية القديمة.

(702). الفطر السحري: أنواع من الفطر استخدمت في شعائر وطقوس دينية قديمة وما زالت تُستخدم في ثقافات حديثة في أنحاء مختلفة من العالم.

(703). الرجل المحترق Burning Man: احتفال موضوعه الرئيسي المجتمع والفن والتعبير عن الذات يقام سنوياً في غرب الولايات المتحدة. تعود التسمية إلى طقس دائم تُحرق فيه دمية خشبية كبيرة تسمّى الرجل.

(704). ثني الملعقة Spoon-bending: موضوع شائع في الخدع السحرية للإيهام بقدرة العقل على تحريك الأشياء. وقد أثار هذا الخداع جدلاً كبيراً في إعلام السبعينيات. مثله في ذلك مثل الأبراج وتأثير الأفلاك على الحياة الطبيعية. وينسب المؤلف الإيمان بالقوى الخارقة إلى مثقفين السبعينيات من قبيل الازدراء.

الأخلاقي.

مع ذلك، فإن مجموعة الأشكال المختلفة في الوثنية تعني أن المواد الخام موجودة لشيء أكثر دراماتيكية... إذا أصبح فلاسفة وحدة الوجود أقل علمانية وأكثر صوفيّة بعض الشيء، وأصبح أتباع «العصر الجديد» والوثنيون الجدد أكثر تنظيماً ومركزيةً، وتفاعل النزوع إلى التقارب مع التغييرات السياسية والمدنية لخلق نوع جديد من العبادة العامة على نطاق شعبي واسع، فلربما يتم بناء مساحات مقدسة جديدة، أي معابد جديدة، في قلب مدن العالم، إلى الحد الذي يتشكّل فيه الانحطاط الغربي عن طريق مزيج من الضعف والمرونة في المسيحية الغربية، ومأزقها الداخلي الذي يثيره الجدل حول مواجهتها للحداثة، ومكانتها المحافظة ولكن ليست الديناميكية في الثقافة، ومن الصعب آنذاك تخيّل طريقة أكثر حسماً لإنهاء هذه المرحلة من التاريخ أكثر من إحياء التقاليد الدينية الكامل، تلك التقاليد التي حلت محلّها المسيحية ذات يوم.

إسلامٌ غربي! صينٌ مسيحية!

لكن المسيحية لها منافسون آخرون بالطبع، وإذا كانت عودة الوثنية هي أحد سيناريوهات نهاية الانحطاط الديني، فثمة سيناريو آخر أكثر وضوحاً يتمثّل في انتشار الإسلام، في أوروبا على وجه الخصوص، وخارج موقعه الحالي باعتباره «الآخر المعزول»[705] الذي يعيش موروثاً ثقافياً راديكالياً أو مجرّداً يلبي طموح المسلمين لأداء عقيدتهم.

كما ذكرت في الفصل السابع، فإن هذا لا يحدث حالياً، لأن الإسلام ينمو في الغرب من خلال الهجرة بدلاً من التحوّل [واعتناق عقيدة أخرى]، أما بالنسبة

(705). الآخر المعزول Ghettoized Other أي الذي يعيش منعزلاً أو معزولاً. ويعني تحديداً مسلمي أوروبا الذين لا تكاد عبادتهم تكون علنيةً إلا في أحيائهم الخاصة، إن وُجدت. وهو يشبههم بسكان الغيتو المعزولين تماماً، ولكن هذا غير صحيح إطلاقاً. فالغالبية العظمى من مسلمي أوروبا معروفون بمشاركاتهم في الحياة العامة، ومنهم من تبوأ مراكز ومناصب رسمية وقيادية في الدول الأوروبية.

إلى الغرباء [غير المقيمين في أوروبا] فإن الإسلام يتم تعريفه من خلال الاضطرابات المستمرة والحروب الأهلية، ومن خلال خطر الإرهاب بالطبع، أكثر مما يتم من خلال جاذبيته المفترضة بوصف بديلاً عن العلمانية غير المتماسكة والمسيحية الباهتة.

ولكن إذا كان السيناريو الذي اقترحه ميشيل ولبيك* يبدو خيالياً في الوقت الحالي، فلا داعي لأن يكون كذلك دائماً. لقد تمت كتابة مليون كلمة حول ما إذا كان بإمكان الإسلام التخلّص من أصولية داعش القروسطية والتكيّف مع الحداثة مثل المسيحية، لكن هذه الأطر تفرض كليشيهات محدّدة عن العالم الإسلامي بينما هي لا تناسبه في الواقع.

- أولاً: لأن أصولية الإسلام المعاصر نفسها حديثةٌ إلى حدّ بعيد، وقد تم اختراعها من قبيل ردّ الفعل على ضعف الحضارة الإسلامية وانحدارها، ولا يخفى أن رفض أنواع معينة من الأصولية هو بالضبط ما أنجزته الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ما يعني أن نموذج المستقبل الإسلامي قد يكون موجوداً بالفعل في الماضي الإسلامي.

- ثانياً: لأن الحداثة العلمانية بأكملها قد تشكّلت في الحضارة المسيحية التي أعطتها طابعاً محدّداً قبل أن تطيح بها، ومن خلال صراعات الدولة والكنسية التي انبثقت منها الليبرالية الحديثة. لا يوجد سبب إذن لافتراض أن أي دين بلاهوت وتاريخ مختلفين سوف يتبع المسارات المسيحية ببساطة، كالإصلاح والثورة والعلمنة، أثناء تطوره أو تحوّله.

بدلاً من ذلك، فإن الشيء الذي يجعل الإسلام «مشكلة» في السياق الغربي الحالي، هو حقيقة أنه لم يشارك في جدلية العلمانية المسيحية-الإصلاحية Christendom-Reformation secularism dialectic التي لا تزال تميّز العالم الغربي، وتثير أيضاً احتمال أن تتطور أو تستأنف من جديد بطرق يبدو أنها تفلت

من مأزق الإيمان والعلمانية، والمسيحية الليبرالية والمحافظة. يمكن للمرء أن يتخيّل -من الناحية الافتراضية!- إسلاماً حثَّ المفكرين ما بعد المسيحيين على التحوّل من اللاأدرية غير المتماسكة إلى شكل غير غربي من التوحيدية Unitarianism، إسلاماً قدّم للطبقة العاملة الغربية المتدهورة نظاماً اجتماعياً متقشّفاً وتقوده غاية محدّدة ومتمحوراً حول الأسرة، إسلاماً جذبَ إليه بعض الفتيان الضائعين الذين استقطبتهم سياسات أقصى اليمين (قام عدد قليل من شخصيات أقصى اليمين الأوروبية بهذه القفزة في الواقع، «ربما يكون الشكل المعتدل من الإسلام هو الأمل الوحيد للغرب»، هكذا غرّد مايك سيرنوفيتش[706] مؤخراً)، إسلاماً قام على نحو ما بتكييف تقاليد الإيمان المتزمّتة مع النسوية المتزمّتة الحالية (مثل حركة «#أنا أيضاً»[707])... إذا حدث ذلك، فسيكون النموذج المناسب في كل هذه الحالات، هو الشخصية الخيالية التي ابتدعها ميشيل ولبيك في روايته «استسلام»، والتي ابتعدت عن «كاثوليكيّتها» السلفيّة التي لا يبدو أن لها أي مستقبل، لكنها تعتنق الإسلام الذي له مثل هذا المستقبل. قد يكون من الأسهل بالنسبة إلى مجتمع فَقَدَ إحساسه بالغاية الميتافيزيقية أن يعيد اكتشاف المتعالي من خلال دين يبدو في الوقت نفسه متشابهاً ومختلفاً مع دين أسلافه، عندما يبدو أن دينه القديم قد مات أو تلاشى أو أصبح بشكل ما بعيداً جداً عن الإيمان به بكل الطرق.

هناك بالطبع المسيحيون المؤمنون، مثلي، الذين قد يعترضون على أن إيمانهم قد انتهى بالفعل. إن قصة التاريخ المسيحي هي واحدة من قصص البعث[708] غير المتوقّعة، أو ما أسماه جي.كي. تشيسترتون* «وفيّات الإيمان الخمس» (سقوط

(706). مايك سيرنوفيتش Mike Cernovich: مدوّن أمريكي من أقصى اليمين، وأحد منظّري المؤامرة.

(707). حركة «#أنا أيضاً» MeToo#: حركة اجتماعية ضد الاعتداء الجنسي والتحرش طالبت بنشر التجارب الخاصة. بدأت الحركة نشاطها عبر مواقع التواصل الاجتماعي ثم ضمت بالتدريج مشاركين من مختلف أنحاء العالم.

(708). يستخدم المؤلف كلمة البعث (أو الإحياء أو القيامة) Resurrection، وهو في المسيحية العودة إلى الحياة بعد الموت. ونعتبر «قيامة الأموات» عقيدة مشتركة بين الديانات الإبراهيمية الثلاث.

روما، التحدي الإسلامي، أزمة الإصلاح، التنوير، ومسيرة الداروينية)، وهي تفسح المجال للتجديد والولادة من جديد. لذا، إذا تخيلنا أن الانحطاط الديني ينتهي بوثنية جديدة أو نهضة إسلامية، فعلينا أيضاً أن نتخيّل أنه ينتهي بإحياء مسيحي، خاصة وأن المسيحية رغم كل نقاط ضعفها تظلّ ذات أهمية مؤسسيّة، على الأقل حتى الآن، في أمريكا وأوروبا وبقدرٍ لا يمكن لأي دين منافس أن يضاهيه. وفي حالة تجدّد الاهتمام بالمسيحية بين نخبة العالم المتقدم، أو «الصحوة الكبرى»* المتجذرة شعبياً والتي تملأ الفراغ الاجتماعي المتسع حيث تزدهر الشعبوية حالياً، فإن ذلك سيجد بنية تحتية مسيحية ضخمة موجودة مسبقاً، وقد يستعيدها ويملأها بحماس مكتشف حديثاً، «مثل زِقّ نبيذ فارغة يملؤها نبيذ جديد».[709]

لكن، وبالعودة إلى خطاب رويرت سارا في الاحتفاء بشهداء ڤونديه، ربما كانت القيامة التالية للمسيحية تحدث بالفعل خارج الغرب، وسيتشكل مصير المسيحية في أوروبا وأمريكا الشمالية عن طريق قوى من خارج قلب الدين المسيحي القديم. إذا كان من الممكن تخيّل عودة العالم في أواخر القرن الحادي والعشرين من خلال الأرقام الأفريقية والقوة الصينية، فمن الممكن أيضاً تخيّل مشهد ديني أعادت تشكيله المسيحيّتان الأفريقية والصينية. الأولى قوة هامشية لغير الأفارقة حتى الآن، ولكنها قوة ديناميكية تعيد تشكيل القارة جنوب الصحراء، والثانية دين أقلية مضطهدة، لكن يمكن القول أنها أقوى نظرة عالمية غير شيوعية في الصين، مع إمكانية السيطرة على «المملكة الوسطى»[710] مثلما استولت المسيحية ذات مرة على الإمبراطورية الرومانية، ببطء أولاً، ثم السيطرة على الكل دفعةً واحدة.

---

(709). مثل مسيحي ورد في أكثر من مكان في الإنجيل.

(710). المملكة الوسطى Middle Kingdom: من أسماء الصين. ترجمة لكلمة Zhongguo الصينية بمعنى المملكة الوسطى، أي مركز العالم.

تخيّلْ أورو-أفريقيا[711] Eurafrica ومسيحيين سود يملؤون فيها الكنائس القوطيّة التي تعود إلى القارة القديمة[712] (وهو أمر يحدث بالفعل إذا تطلّعت إلى الحي الباريسي)، ثم أنهم اكتسبوا ما يكفي من القوة والتأثير بما يمكنهم من بناء كنائس جديدة، بأساليب قديمة-جديدة، في كل من نانت (فرنسا) ونيروبي (كينيا). تخيّلْ أيضاً إمبراطورية صينية ظهرت حوالي عام 2100، وصارت أكثر مسيحيّةً من منافستها الأمريكية العلمانية أو الوثنية التي تتسابق معها على القوة العالمية، وكانت تحكم تلك الصين نسخة متأثرة بالكونفوشيوسية تدمج بين تكامل **«العرش والمذبح»**[713] القديم الذي أطاحت به الليبرالية. تخيّلْ نهضة عالمية في الفن والعمارة المسيحيين والفلسفة والأدب، حيث لا يكاد يُذكر دور المسيحيين الأمريكيين والأوروبيين. أو تخيلْ عكس السيناريو الذي استحضرته سابقاً، والذي أدى فيه ابتكار صيني في الهندسة الوراثية إلى حرب عالمية حول تحسين النسل. ثم تخيلْ بدلاً من كل ذلك أنها الصين وقد تحوّلت إلى المسيحية تتحالف مع الأفارقة في مناهضة الهندسة الوراثية القادمة من الغرب العلماني، وإجهاض المحاولة الفاشلة التي أرادت صنع «إنسان الله».[714]

في الواقع، يمكن ربط أي سيناريو يتعلق بالإحياء الديني بردّ فعل عنيف ضد بعض التطورات التكنولوجية اللاإنسانية. يمكنك مثلاً تسمية هذ الإمكانية باسم «الجهاد البتلري»[715]، بعد التمرد المستقبلي ضد الذكاء الاصطناعي الذي

---

(711). انظر الفصل السابق.

(712). القارة القديمة (أو القارة العجوز) Old Continent: أوروبا.

(713). «العرش والمذبح» أي وحدة الكنسية والدولة في الكيان السياسي.

(714). يستعير المؤلف عنوان كتاب الأستاذ الجامعي الإسرائيلي يوفال نوح الحراري Yuval Noah Harari (إنسان الله: موجز تاريخ الغد Homo Deus: A Brief History of Tomorrow).

(715). الجهاد البتلري Butlerian Jihad: عنوان رواية من روايات الخيال العلمي (2002). من تأليف بريان هربرت وكيفن أندرسون، وهي «كثبان رملية: الجهاد البتلري» وتدور أحداثها قبل 10000 آلاف سنة من أحداث رواية أخرى اقتبس المؤلفان عنوانها وهي «أساطير الكثبان الرملية» التي صدرت عام 1965. سيرينا بتلر في الرواية هي الشخصية الرئيسة وهي «كاهنة الجهاد» التي تقود آخر حملة صليبية ضد الآلات التي يقودها الكمبيوتر المفكر الواعي أومنيوس.

تمحورت حوله رواية فرانك هربرت[716]، وهي من كلاسيكيات الخيال العلمي: «كثبان رملية»، ولكنك لست في حاجة فعلاً إلى تلك القفزة الهائلة في مجال الذكاء الاصطناعي أو التكنولوجيا الحيوية، فحتى تحسين الواقع الافتراضي القائم الذي يستقطب المزيد من الناس بشكل كامل إلى العنف والمواد الإباحية في الفضاءات غير الواقعية، يبدو أنه يتطلب استجابة دينية، حتى وإن كانت دراماتيكية. ربما هو ليس «الجهاد» تماماً... ولكنه على الأقل محاولة لترويض وإضفاء الطابع الإنساني على تقنيات المحاكاة الجديدة التي تفلت من تصنيفات حرب الثقافة الحالية ببراعة من أجل الدخول في عصر ديني مختلف أخيراً عن ذلك العصر التي صنعه جيل طفرة المواليد.

ليست نهضة واحدة، بل كُثُر

يعتبر التشابك الممكن بين الإحياء الديني والتغيّر التكنولوجي موضوعاً مناسباً لاختتام هذا الفصل، لأن أحد موضوعات هذا الكتاب هو التشابك الأساسي الذي يسم الانحطاط، بمعنى الطريقة التي تعمل بها العناصر الاقتصادية والديموغرافية والفكرية والثقافية في مأزق الحضارة الغربية متّصلة كلها ببعضها بعضاً، بحيث لا يمكنك تحديد سبب أو دافع واحد يؤدي إلى الركود والتكرار، أو حلّ المشكلة من خلال التركيز الضيق على منطقة أو مشكلة واحدة.

إذا كانت المسألة على هذا النحو، فمن المنطقي أن ينطبق الشيء نفسه على أي نهضة، أو أي مخرج معقول، وبدلاً من وجود سبب رئيسي واحد (مثل إطالة العمر! أو الصحوة الدينية! أو #الاشتراكية-الكاملة![717]) يقود كل الثوابت الثانوية، فإن النهضة الحقيقية ستبدو أشبه بولادة العالم الحديث، عندما حدث

---

(716). فرانك هربرت Frank Herbert: من روائي الخيال العلمي. مؤلف رواية «كثبان رملية» الأصلية عام 1965.

(717). هاشتاغ على مواقع التواصل الاجتماعي وجد قبولاً شعبياً.

عصر النهضة والإصلاح والإصلاح المضاد والثورات العلمية وعصر الاكتشاف كانت تلك التغيرات واحداً إثر الآخر، متأثرة ببعضها بعضاً، ومحفّزة بعضها بعضاً على المضي إلى الأمام بطرق كان المؤرخون يفكّكونها ويعيدون تغليفها، وما زالوا يشرحون ويعيدون الشرح منذ ذلك الحين.

إن الإجابة الحقيقية على سؤال: «ما الذي قد ينهي الانحطاط؟» ليست في الواقع شيئاً محدَّداً، بل أشياء كثيرة مجتمعة تحدث مرة واحدة.

- صعود الصين السياسي وصعود أفريقيا الثقافي يؤدّيان إلى تغيير شكل الدين العالمي Global religion.

- الاختراق التكنولوجي يؤدّي إلى إعادة تنشيط النمو الرأسمالي، ويخلق بدوره الأساس المادي لميلاد الاشتراكية الجديد.

- طفرة الهندسة الوراثية أو الذكاء الاصطناعي يؤديان إلى حرب ثقافية جديدة تنشّط بدورها الأديان القائمة أو تصوغ عقيدة جديدة.

- غزو الفضاء يلهم أيضاً الشعراء والفلاسفة وأصحاب الرؤى الدينية ورجال الدولة على الأرض.

- فترة الهجرة التي تنطوي على الحرب وعدم الاستقرار والقسوة، ولكنها في النهاية تنشّط مجتمعات الانحطاط بدلاً من تخليصها منه، تؤدي إلى التحول الثقافي والإنعاش الديموغرافي والابتكار التكنولوجي الجديد والنمو الاقتصادي الأسرع وأشكال جديدة من النظام السياسي...

تحمل ظاهرة «كل شيء معاً»، ربما قبل كل شيء، أمرينِ تفترض بعض الآراءُ المُتحيزة الحديثة أنه لا يمكن الجمع بينهما هما التقدّم العلمي والإحياء الديني، ولا يقتصر الأمر على أن بعض الترقّي التكنولوجي، كما هو مقترح أعلاه، يمكن أن يعمل في نوع من التوتر الإبداعي مع الدين عن طريق إثارة «حرب صليبية» أو

«جهاد» أخلاقيَيْن رداً على ذلك. إنه أيضاً بسبب أن التجارب العلمية والدينية تنطلق من رغبة مماثلة من أجل المعرفة، وهو اعتقاد مشابه بأن الكون منمَّط ومفهوم وأن أسراره قد تنكشف بطريقة ما. هذا هو السبب في أنه في فترات التخمُّر والتطوُّر الفكري الحقيقية، غالباً ما يكون هناك موجة عامة من التجارب التي تمتدّ بطرق متعددة بحثاً عن المعرفة، من العلمية والتجريبية، إلى اللاهوتية والصوفية، وصولاً إلى مناطق رمادية ومجالات متنازَع عليها بين الطرفين.

وهكذا، فإن الافتراض الشائع بين العقلانيين اليوم، القائل بأن الدين يمثل شكلاً من أشكال اللامعقول الذي يجب أن يُخضعه العلم وهو في طريقه إلى عصور جديدة من الاكتشاف، هو افتراض خاطئ بقدر ما هو خاطئ كذلك ردّ الفعل الديني الذي يعتبر العقلية العلمية تهديداً مباشراً للبساطة الورعة التي تميّز الإيمان. لقد كان العلماء الحديثون الأوائل مفتونين فعلاً بنبوءات الكتاب المقدس، وقد قرأ الفيكتوريّون[(718)] داروين أثناء تنظيم جلسات «استحضار الأرواح»، كما كان عصر الفضاء غارقاً في تخمّرات دينية غريبة، وكان في علم الصواريخ في أربعينيات القرن الماضي جانب باطني غامض يؤمن بالخوارق، تجسّد في شخصيات مثل جاك بارسونز[(719)]، المؤسس المشارك في مختبر الدفع النفاث[(720)] وتلميذ أليستر كراولي[(721)]، الذي تلا ترنيمة كراولي «إلى الإله بان»[(722)] أثناء اختبارات الصواريخ، وأجرى طقوساً مع ل. رون هوبارد[(723)] آملاً حضور الإلهة الأنثى «بابلون»[(724)] إلى الأرض، بينما تزامن

---

(718). الفيكتوريّون Victorians: عصر الملكة فيكتوريا (1837- 1901). وقد شهد الثورة الصناعية الأولى، والإصلاح السياسي والتغير الاجتماعي، وفيه عاش تشارلز داروين.

(719). جاك بارسونز Jack Parsons: إلى جانب كونه مهندس صواريخ مخترعاً وكيميائياً فإنه ينتمي أيضاً إلى طائفة «ثيليمية» تدمج بين عدة شعائر وطقوس شرقية وغربية، وثنية وروحانية.

(720). مختبر الدفع النفاث Jet Propulsion Laboratory: مركز أبحاث وتطوير ممول فيدرالياً يتبع وكالة ناسا في كاليفورنيا.

(721). أليستر كراولي Aleister Crowley: مؤسّس الطائفة «الثيليمية» سنة 1904، وضع «كتاب القانون» الذي قال إن كائناً روحانياً لقنه إياه في القاهرة (ت. 1947).

(722). ترنيمة كراولي Crowley's Hymn to Pan: أنشودة موجهة إلى بان وهو إله الصيد والحياة البرية في الميثولوجيا اليونانية، نشرت في «كتاب الاعتدال» الذي ألفه أليستر كراولي.

(723). رون هوبارد L.Ron Hubbard: من روائي الخيال العالمي، ومؤسس كنيسة العلموية (كنيسة

الهبوط على سطح القمر -بالطبع- مع بزوغ فجر عصر الدلو[725] على الأرض. أما مشروع أبولو[726] الأكبر، كما يقول كندريك أوليفر[727] في تأريخه لبرنامج الفضاء، بعنوان: «أن تلمس وجه الله، المقدس والمدنّس في برنامج الفضاء الأمريكي، 1957-1975»، فقد كان متشابكاً مع تطلعات ومخاوف الإحياء البروتستانتي الأمريكي في فترة ما بعد الحرب، وبلغ ذروته في قراءة آيات من سفر التكوين عشية عيد الميلاد[728] من قبل رائد الفضاء بيل أندرس[729] بينما كان أبوللو8 يدور حول الأرض، ثم طفق الرجال يبكون في مركز التحكم في فلوريدا.

يوضح أوليفر في استنتاجه أن الإحساس بالمهمة الدينية كان حاسماً بالنسبة إلى الالتزام الوطني بالسفر إلى الفضاء، وأن خمود الروح التبشيرية، مثله مثل أي عقبة تكنولوجية، ساهم في إغلاق الحدود النهائية:

لقد أشعل أبولو أفكار الله وموت الله في آنٍ واحد. عندما غاب الدين عن البرنامج، أصبح غيابه مصدر قلق ديني، وعندما كان الدين حاضراً، صار حضوره يعني الكثير لعدد من الناس أكثر ممّا كان عليه في أي مهمة وطنية أخرى في ذلك الوقت، وبقدر ما كان ذلك صحيحاً بقدر ما عاش الأمريكيون حقاً في عصر الفضاء.

ربما كان هذا «جارفاً» جداً، ولكنه تذكير بأن العلاقة بين العلم والدين بقدر ما

السيانتولوجيا).

(724). بابلون Babalon: إلهة متخيّلة في نظام تلما Thelema الغامض ابتدعها أليستر كرولي في «كتاب القانون» The Book of the Law، وتسمى أيضاً المرأة القرمزية والأم العظيمة.

(725). انظر المقدمة.

(726). مشروع أبولو Apollo project: برنامج الرحلات الفضائية الذي صممته ونفذته الناسا، ونجح في إنزال أطقم المركبات على سطح القمر من 1969 إلى 1972.

(727). كندريك أوليفر Kendrick Oliver: أستاذ التاريخ الأمريكي بجامعة ساوثهامبتون.

(728). في 24 ديسمبر 1969 (عشية عيد الميلاد) قرأ طاقم أبوللو8 وهم يدورون حول القمر الآيات من 1 إلى 10 من سفر التكوين.

(729). بيل أندرس Bill Anders: رائد فضاء، ومهندس نووي ولواء أمريكي متقاعد. كان أحد أول ثلاثة أشخاص غادروا المدار الأرضي وسافروا إلى القمر. وقام مع رفاقه بالتحليق حول القمر عشر مرات.

يمكن أن تأخذ شكل التعارض بينهما، يمكنها أيضاً أن تعبّر عن تلك الخيمياء الغامضة بين شكليّ الاكتشاف البشري هذين، دون أن تكون هناك علامة تؤكّد حقاً على أن الانحطاط قد انتهى بشيء مثل النهضة أكثر من تلك الخيمياء، لو أنها عادت فجأةً.

11

العناية الإلهية

بعد ذلك الحديث عن الله ورحلة الفضاء، لننتهي بالسماء، من حيث بدأنا.

في وقت ما من عام 2017، في العام الأول من عهد ترمب، دخل جسم غريب نظامنا الشمسي. كان طويلاً وأسطوانياً مثل السيجار، بسمات لا يظهرها كويكب أو نيزك عادي، متّبعاً مساراً غريباً ونمطاً تسارعياً. الجسم الغريب الذي يُدعى أوموامو[730]، دار مثل زجاجة أثناء حركته، وقد ألهمت غرابته آفي لوب[731]، رئيس قسم علم الفلك بجامعة هارفارد، فأشار إلى أنه قد يكون في الواقع قطعة من مركبة فضائية غريبة، عبارة عن مسبار بَيْنجمي بشراع يعمل بالطاقة الشمسية.

لم يتأخر أوموامو، ولم نتمكّن من متابعته، وربما لم يكن من المخلوقات الفضائية التي لطالما توقعناها منذ فترة طويلة. في الواقع، وبحلول صيف 2019، توصلت مجموعة من علماء الفلك الأذكياء إلى تفسيرات معقولة كافية لإعلان أن السيجار الدوّار كان على الأرجح شيئاً من أصل «طبيعي بحت»، لكن بحلول ذلك الوقت، كان هناك سبب مختلف للتفكير في الأجسام الطائرة المجهولة، حيث تعرّض البينتاغون لموجة من الضغط حتّى وافق على إصدار سلسلة من مقاطع

---

(730). أوموامو Oumuamua: أول جسم بينجمي يمرّ عبر النظام الشمسي تم اكتشافه في 19 أكتوبر 2017.

(731). آفي لوب Avi Loeb: عالم فيزياء نظرية إسرائيلي-أمريكي. رئيس مجلس الفيزياء وعلم الفلك، والمدير المؤسس لمبادرة الثقب الأسود بجامعة هارفارد (منذ 2016).

الفيديو التي تُظهر طياريهم وهم يواجهون أجساماً حقيقية غير محددة الهوية، وهي لقطات لا تصبح أقل غرابة عند تكرار المشاهدة، حيث تعرض الأجسام الطائرة الغريبة أنماطاً جامحة من الحركات التي تدلّ بوضوح على بعض القدرات التكنولوجية الغريبة، وشهدت ردود فعل الطيّارين المشتركة على الطابع غير العشوائي لما كانوا يرونه (لقد كانت من ناحية أخرى شهادة على السرعة الفورية في محو المعرفة بالماضي، والتي تسم دورة الأخبار على الإنترنت حيث ظهرت قصص حول هذه اللقطات في «نيويورك تايمز» و«واشنطن بوست» ثم بدا أن الجميع قد نسيها بعد مرور أيام قليلة).

ربما يكون لتلك «المواجهات!» التي صُوّرت بالفيديو بعض التفسير إلى جانب الرجال الخضر القِصار القادمين من الفضاء، ولكن باعتبارها إشارات من مخلوقات سماوية جاءت من خارج كوكب الأرض، فإنها تساعد في إثارة السؤال الأكبر الذي يطارد حضارة منحطة تتمدّد عبر الكوكب، وهي القضايا الكونية التي تكمن وراء موضوعات هذا الكتاب.

لقد ناقشنا الانحطاط باعتباره مشكلة تشهدها الاقتصادات المتقدمة والأنظمة السياسية الراسخة منذ فترة طويلة، أو باعتبارها انسداداً تكنولوجياً أو خموداً مؤقتاً، أو مصفوفةً ثقافية يذبل فيها الإبداع ويتحكم فيها التكرار. لكن السؤال الذي يظلّل كل هذه التوصيفات، وكل سيناريوهات الاستدامة، والانهيار، والنهضة، هو ما إذا كان بإمكان نوع ما من الانحطاط أن يصبح حتمياً بمجرد أن تظهر حضارة عالمية ثم يُكتَشف بعد ذلك أن لا مكان آخر لديها يمكنها أن تذهب إليه!

هل وصلنا إلى المصفاة؟

يبدو الاحتمال الذي يقول بأن الانحطاط يعتبر وجهة حتمية أمام الأنواع التي تعيش على الكوكب، احتمالاً ضمنياً في واحدة من أكثر المحاولات شهرةً لشرح

السبب وراء عدم عثورنا على دليل يثبت وجود حضارات أخرى خارج كوكب الأرض أكثر إقناعاً من لقطات الفيديو التي صوّرت ذلك الجسم الفضائي الطائر، وربما بعض الكويكبات الغريبة (بالرغم من كل تلك النجوم والعوالم التي لا نهاية لها خارج عالمنا)!

تشرح الفكرة التي أطلق عليها منشؤها روبن هانسون[732]، عالم الاقتصاد في جامعة جورج ميسون، اسم «المصفاة (أو المِرْشَحَة) العظيمة»[733]، عزلَتنا الواضحة في المجرة، بالإضافة إلى حقيقة أننا ارتقينا إلى الوعي بالذات، والحضارة، والفهم العلمي المرموق، دون أن نعثر على أي دليل يثبت أن أسلافنا أو نظراءنا قد قاموا بمثل هذا الإنجاز، وذلك باقتراحه أن الحضارات المتقدمة تواجه نوعاً من العائق شبه العالمي، كأنه مصفاة يتعذّر الانسياب منها، وهو ما يمنعهم عموماً من أن يصبحوا نوعاً من الأنواع الحية species التي ترتاد النجوم وتترك آثاراً يمكن أن تلتقطها مراصدنا الراديويّة.[734]

وبعد أن أنشأ هذه الفرضية، ينتقل هانسون إلى السؤال الرئيسي: أين تقع هذه المصفاة تحديداً؟ أحد الاحتمالات، وهذا ما يبعث على الأمل، هو أنه «خلفنا» بالفعل، في مكان ما من تطوّر الحياة المبكّر، أو في انبثاق ذلك الشيء الغريب الذي نسميه الوعي. ربما تكثر الحياة أحاديّة الخليّة في الكون، ولكن لا شيء أكثر تعقيداً من ذلك قادر على الظهور إلا مرةً واحدة كل مائة مليار سنة، وربما تكثر الحياة الحيوانية، لكن القدرة الفكرية لفهم قوانين الفيزياء تبدو أكثر سواداً بين البجعات

---

(732). روبن هانسون Robin Hanson: أستاذ الاقتصاد بجامعة جورج ميسون. وباحث مشارك في معهد مستقبل الإنسانية بجامعة أكسفورد.

(733). المصفاة (أو المرشّحة) العظيمة Great Filter: ابتكر هانسون هذا المصطلح للإشارة إلى كل العوامل التي تمنع المواد غير الحية من التولد الذاتي. ما يعني بالضرورة عدم إمكانية نشأة حضارة ذكية. وقد جاء هذا المفهوم في إطار الجدل العلمي حول ما إذا كان بالإمكان العثور على حضارات ذكية يمكن ملاحظتها في الكون خارج كوكب الأرض.

(734). المرصد أو المقراب الراديوي Radio telescope: تليسكوب لاسلكي لاستقبال موجات الراديو الفلكية وترددات الطيف الكهرومغناطيسي المنبعث من الأجرام الفلكية.

السوداء[735]. في هذه الحالة، نجسّد نحن البشر الاستثناء العظيم في تلك المصفاة العظيمة، لقد تجاوزنا بالفعل عنق الزجاجة الذي يُبقي الكون غير مأهول وصامتاً بشكل مخيف، ولا يوجد حدّ ضروري للمدى الذي قد نصل إليه في نهاية المطاف.

لكن ربما تكون المصفاة هي السفر إلى الفضاء، ذلك يعني الحدود التي تفرضها سرعة الضوء، وقوانين الفيزياء، والفجوة بين النجوم. ربما تكون هناك مجتمعات مثل مجتمعنا مرتبطة بشكل لا مفر منه بمداراتها الكوكبيّة. ربما سيتم اختصار تجربة عصر الفضاء إذا وصلنا إلى المريخ، مع فورة قصيرة من الاهتمام يتبعها إدراك أنه لا شيء هناك على الكوكب الأحمر قد يفيد البشر، وأن تكاليف تحويله إلى أرض ثانية باهظة للغاية ولا يمكن تحمّلها، وكل نجم أو كوكب آخر بعيد جداً عن إمكانية الوصول إليه. ربما تمّ التمرّن ألف ألف مرّة على هذا النوع من التجارب المحبطة من قِبل ألف ألف حضارة قبلنا، وحدث أن وصلت مجموعة كبيرة من المخلوقات الذكية الواحدة تلو الأخرى إلى مرحلة معينة من التطور ثم واجهت أحد خيارين، إما انحطاط مستدام ولكنه محبط، يستمر حتى يحدث تصادم مشؤوم مع كويكب أو مع حادث إطلاق نووي يقضي على الأشياء بشكل دائم، وإما تنافس مدمّر للاستحواذ على الموارد النادرة التي تؤدي في النهاية إلى تدمير كل شيء إلى مستوى الذي عرضه فيلم «ماد ماكس»[736]، ثم يُسمح للحضارة بالبدء من جديد.

إذا كان هذا هو النمط الحتمي الذي هناك، فربما لا شيء (لا نهضة فنية وعلمية، ولا إحياء ديني، ولا ذكاء اصطناعي، ولا خلود جسدي) يمكنه إنقاذ الأنواع الحيّة المرتبط بهذه النقطة الزرقاء الوحيدة [الأرض] وتخليصها من اليأس في نهاية المطاف، وتخليها عن آمال التقدم، وعن الإيمان بالغاية الميتافيزيقية، والشعور

---

(735). البجعة السوداء Black swan: استعارة تصف حدثاً غير متوقَّع (ربما لأن المتوقع دائماً هو بياض البجع). هانسون يقول أنها «بجعة سوداء بين بجعات سوداء، ولكنها أكثر سواداً»، أي أنها مستحيلة الوجود حتى وإن لم يعد وجودها غير متوقَّع.

(736). ماد ماكس Mad Max: فيلم مغامرات (1979) عن نهاية العالم والصراع على آخر الموارد.

بجاذبية ثاناتوس[737] في الرعب الذي صوّره عالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي بليز باسكال[738]، والمفضي إلى الصمت الأبدي والمساحات اللانهائية خارج حدودنا الأرضية. إن متوالية الصعود والانهيار الدوريّيْن بالنسبة إلى الحضارات المرتبطة بالكوكب، في هذه الحالة، هي أكثر ما يمكن لأي نوع ذكي أن يحقّقه دون مساعدة، حتى ينفد حظّها ويهوي فأس الانقراض أخيراً فيقضي على كل شيء.

هذا التصوّر غير قابل للإثبات، لكن النظر إلى العالم الغربي منذ 1969 يمنح شعوراً بحقيقته الممكنة، وهو السبب في أن هذا الكتاب بدأ بقصة الهبوط على سطح القمر، وفي أن استنتاجاته الأخيرة تتحدث الآن عن النجوم. وسواء كان مصيرنا القصير المدى هو النهضة أو نهاية العالم أو مجرد البقاء على الوضع الراهن، فأنا أظن أن الحضارة المعولمة حقاً لا يمكنها أن تمنع الميل نحو الانحطاط طالما أنها لا تزال مرتبطة بالأرض، وطالما لا يوجد أمل في العثور على عوالم جديدة حقيقية يمكن السفر إليها وإخضاعها، أو استكشافها. أظنّ أن ما نراه يحدث في مجتمعنا اليوم (التحوّل نحو المحاكاة والواقع الافتراضيين، وانخفاض معدلات المواليد، والإحساس بالتكرار والركود وعدم الجدوى) مرتبطٌ على مستوى عميق بها بعد مهمة أبولو طالما أن مثل هذا الأمل غير موجود، وأنه لا يوجد فعلاً مكان آخر يذهب إليه الجنس البشري، وأننا عالقون هنا في انتظار إما أن ندمّر أنفسنا بفعل حادث اعتباطي، أو أن تعمد الطبيعة إلى إعادة تشكيل نفسها من جديد عن طريق مذنّب أو طاعون، وتقضي على مشروعنا البشري بدءاً من مرحلة القطاف والصيد القديمتين عندما كنّا نعيش إلى الشرق من عدن.[739]

---

(737). ثاناتوس Thanatos: تجسيد الموت في الميثولوجيا الإغريقية.

(738). بليز باسكال Blaise Pascal (1623- 1662): فيلسوف وعالم لاهوت وفيزيائي وعالم رياضيات ومخترع فرنسي.

(739). شرق عدن East of Eden: هو في خريطة التوراة الغيبية موقع تم نفي قابيل إليه بعد أن قتل هابيل، ويسمى أرض نود (= الهائم على وجهه) وهناك أنجبت زوجته ابنه أخنوخ فأسّس على اسمه

لكل ذلك، وإذا أردنا حقاً أن ننقذ أنفسنا من الانحطاط بمفردنا، وأن نتجاوزه إلى شيء يعيش أطول من موسم واحد، فإننا في غياب أي محاولة هبوط علوية تتنزّل إلى الأسفل، أو أي هبوط تقوم به كائنات غريبة قد تساعدنا، نحتاج إلى إيجاد طريقة تمكننا من التسلّق، وإلى تثبيت سلّم يوصلنا إلى النجوم، وإلى عرض حقيقة جديدة أمام الأجيال القادمة من البشرية تستطيع استكشافها وتكون أكثر اتساعاً من كوكبنا المحاصر، وأكثر استثنائية من أي شيء يمكننا استحضاره بآلات المحاكاة التي نستعملها. يجب علينا أن نثبت خطأ تشاؤمنا من مرحلة بعد أبولو، ويجب علينا أن نجد طريقة تمكننا من جعل النجوم وجهتنا الأخيرة. وبغض النظر عن أفضل الجهود التي قام بها إيلون ماسك*، فإن مثل هذا التصوّر لا يبدو محتملاً في الوقت الحالي، ولكن يبقى ضمن حدود العالم المادي كما نفهمه، فهو الاحتمال الوحيد الذي يوفّر الأمل في أطول أفق زمني يخبّئه المستقبل البشري.

عندما لا يستطيع الإنسان فعل المزيد

سوف أكون مسيحياً بائساً إذا لم أختم بالإشارة إلى أنه لا توجد حضارة -لا حضارتنا ولا أي حضارة أخرى- قد ازدهرت دون الثقة في أن قصة الإنسان إنما هي أكبر من مجرد العالم المادي كما نفهمه، وإذا فقدنا تلك الثقة في عصرنا، وإذا كان الحلم الليبرالي بالتقدم ليس أقل من سلفه المسيحي استسلاماً لنزعة الشكّ التي تفتته شيئاً فشيئاً، فلربما يكون ذلك لأننا وصلنا إلى نهاية قدراتنا في هذه المرحلة من تاريخنا، وأننا نحتاج إلى شيء آخر، إلى شيء إضافي لا يمكن أن يأتي حقاً إلا من خارج إطارنا المرجعي الحالي. «املأوا الأرض، واخضعوها، وتسلَّطوا»[740]، هذا أحد أقدم العِبَر التي أُعطيت للبشرية على الإطلاق. حسناً، لقد فعلنا ذلك، أو صرنا قريبين منه، وربما لسنا مسؤولين عن تحديد ما سيأتي بعد

أول مدينة في الأرض.

(740). سفر التكوين، 1: 38.

ذلك.

لقد كان لبعض منظّري «الأجسام الطائرة المجهولة» الأوائل، الذين يعيدون تدوير نظريات العناية الإلهية في ظل القنبلة الذرية، وجهة نظر يعتقدون بها أننا بانشطار الذرة، وبجعل انقراض البشر عملاً ممكناً، نكون قد عبرنا خطاً سيتحقّق بعده نوع من زيارة الكائنات الفضائية من خارج محيط الأرض، وبعض ردود الفعل من القوى الخفية (المستنيرة أو غيرها) التي تتحكّم في ما وراء حدود النظام الشمسي. هل كان هذا ضرباً من الجنون؟ اذهبوا واسألوا «أوموامو»، أو اسألوا أي شخص يقرأ الكتاب المقدس، ذلك السّرد الذي غالباً ما يزعج فيه الفعلُ البشريّ الكونَ بما يُجازى عليه فيُقابل باستجابة خارجية «تبديليّة»، سواء كان ذلك حُكماً أو عقاباً، أو تنزّلاً أو وحياً من الأعالي.

لقد تعامل المسيحيون الأوائل على هذا النحو من روح العناية الإلهية مع صعود روما، وهي الحضارة الأصلية المعروفة التي عمّت العالم، والنموذج القديم للعالم الحديث، بوصفها تطوراً مقدّساً ومقدّراً، وشرطاً مسبقاً ضرورياً لميلاد يسوع المسيح ونشر البشارة، لكن الكتّاب المسيحيين في وقت لاحق أعطوا لهذا الرأي بعداً آخر أكثر إثارة للاهتمام، ليؤكدوا على أن صعود روما لم يكن هو الذي مهّد الطريق للمسيحية فحسب، بل أن انحطاط روما هو الذي أظهر الحاجة إلى المسيح، وأن الله في عنايته سمح للحضارة البشرية بأن تبلغ ذروة الثروة والثقافة والكفاءة السياسية، وأن تختبر حدود العالم المنهار، تماماً في اللحظة التي أرسل فيها ابنه لإنقاذ ذلك العالم من نفسه.

كانت هذا رأي جي. كي. تشيسترتون في كتابه «**الرجل الأبدي**»، الصادر عام 1925، وهو مخطّط مسيحي عام للتاريخ البشري:

... من الضروري الاعتراف بأن الإمبراطورية الرومانية كانت الإنجاز البشري الأعظم، والأكثر توسّعاً. هناك سرّ مخيف يبدو كأنه نُقشَ كما هو الحال في الكتابة

الهيروغليفية الغامضة على تلك الأعمال الجبارة من الرخام والحجر، وتلك المدرّجات الضخمة والقنوات المائية، مفاده: لم يعد بوسع الإنسان فعل المزيد.

... لم يتبق أي شيء كان بإمكانه أن يقهر روما، ولم يتبق أي شيء أيضاً يمكن أن يحسّنها. كانت أقوى شيء ينمو نمواً ضعيفاً... كانت صرحاً عالمياً يعيش لحظته الكليّة المتقادمة والعقيمة. لقد راكمت الشعوب مواردها ولكنها لم تعد تسدّ احتياجاتها، وتشاركت الإمبراطوريات ولكنها ظلّت مفلسة. لم يوجد فيلسوف كان قادراً حقاً على التفكير في أي شيء سوى أن موجة العالم قد ارتفعت إلى أوجها، في ذلك البحر المتوسّط، وبدا أنها تلامس النجوم، لكن الموجة كانت إذّاك تنحني فعلاً، لأنها لم تكن سوى موجة من موجات العالم.

مع الشعور بالعجز واليأس... لوّح الرجال بقبضاتهم عبثاً في وجه النجوم، لأنهم رأوا أفضل الأعمال الإنسانية تغرق جميعها ببطء وبلا حول في المستنقع. كان بإمكانهم الاعتقاد بسهولة أنه حتى الخليقة نفسها لم تكن خليقة بل سقوطاً دائماً، عندما رأوا أن أثقل وأهم الإبداعات البشرية ينهار بفعل ثقل وزنه. كان بإمكانهم أن يتخيّلوا أن كل النجوم كانت نجوماً ساقطة، وأن كل أعمدة أروقتهم الفخمة قد انحنت تحت نوع من الطوفان التدريجي... لم يكن هناك إله، وإذا كان هناك إله، فمن المؤكد أن تلك هي اللحظة المناسبة التي كان سيحرّك فيها العالم، ينقله وينقذه.

لم يكن تشيسترتون دائماً هو الأكثر دقة أو بحثاً عن التفاصيل، بل كان يفضّل مخططاته العريضة على أي تفاصيل مرهقة (أو غير ملائمة)، ولا أريد أن أدّعي الكثير مقابل هذا التحليل للكيفية التي رأى بها الرومان أنفسهم قبل الأيام التي اكتسحت فيها الثورة المسيحية عالمهم، لكنني سأتحدث عن ذلك بعض الشيء.

لقد بدت بعض الأشياء حقيقيّة بالنسبة إلى روما، لأنها كانت امبراطورية كبيرة بقدر ما يمكن أن تكون عليه أي إمبراطورية، ولأنها شملت العالم المهم آنذاك

بأسره، ولأنها كانت حضارة عالمية حقاً. يبدو هذا حقيقياً بالنسبة إلى الكثير من الناس في حضارتنا العالمية اليوم، ومن المؤكد أن التباين في الشعور الذي ينسبه تشيسترتون للرومان، بشكل عادل أو غير عادل، هو أيضاً صحيح بالنسبة إلى عصرنا. وبهذا المعنى أعود إلى تعريفاتي الأولى لمفهوم الانحطاط، لكونه الجزء الأخير من سلسلة ما ولكنه لا يسمح برؤية عمّا قد يأتي بعده. لذلك، ومن منظور أي شخص يميل إلى اعتبار التاريخ البشري مجرد قصة يتم سردها بدلاً من كونها أشياء «اللعينة» تحدث واحداً تلو الآخر، فإن هناك شيء طبيعيّ تماماً في الفكرة التي تقول بأن بعض التدخّلات المهمة قد تتزامن مع اللحظات التي وصلنا فيها إلى لحظة النجاح التي هي أيضاً لحظة حيرة وارتباك. إنها لحظة الوصول التي طال انتظارها، ولكنها أيضاً نهاية طريق لا تفضي إلى أبعد من ذلك.

باقتفاء هذا الأثر، قد يُنظر إلى قفزتنا الأولى إلى النجوم والتي لم تقطع بنا ذلك الشوط البعيد، وإلى توسّعنا القادم الذي يواجه في الوقت الحالي بعض القيود التي تحدّ منه، على أنها شيء من العناية الإلهية، أكثر من كونها شيئاً مأساوياً، لأن الأثر الذي يقول «املأوا الأرض، واخضعوها» إنما مُنح إلى نوع من البشر لم يكن قد سقط بعد، أما الحالة البشرية في ظل الانحطاط فإنها تشير إلى أن ممكنات السفر إلى الفضاء، دون وجود أشكال أخرى من التجديد، لن تعدو أن تكون هروباً من «الديستوبيا» بدرجة أقل كثيراً من كونها توسيعاً لنطاق اكتشاف الفضاء.

هذه هي القضية الأكثر منطقيةً ضد السفر إلى الفضاء، سواء أكانت بيئيةً أو دينيةً، أو كليهما، فبقدر ما أن «دافع الحداثة لإخضاع الطبيعة هو إفساد لما يجب أن تكون عليه هيمنة البشرية على العالم»، كما قال الكاتب البروتستانتي ميكا ميدوكروفت[741]، لا يمكننا أن نبرّر من الناحية الأخلاقية سعينا إلى النجوم ما لم نصبح أوصياء أفضل على كوكبنا ومجتمعاتنا وأنفسنا. إن أثر هذه الإمكانية يتردّد في

(741). ميكا ميدوكروفت Micah Meadowcroft: كاتب ومحرر صحفي مهتم بالفنون والتاريخ واللاهوت والسياسة. مدير تحريرمجلة «المحافظ الأمريكي».

الموضوعات التحذيرية في أعمال الخيال العلمي التي تهتم بالعصر النووي، من حيث أننا اكتسبنا من القوة ما لم نكن مستعدين له أخلاقياً، وأن وجود قوى أكبر يتطلّب الدخول (مع موضوعات في الخيال العلمي المسيحي في القرن العشرين) إلى روايات مثل «ثلاثية الفضاء» من تأليف سي.اي. لويس[742]، وكتاب مادلين لانجل[743] «**انعطاف الوقت**»، حيث يكون الكون مفعماً فعلاً بالحياة الواعية التي لن يُسمح لنا بمواجهتها لأننا خطاة وآثمون أكثر مما يُحتَمل، وحيث تكون «المصفاة العظيمة» الحقيقية للتوسع البشري هي حالتنا الميؤوسة، ونوعاً من الحجر الصحي الروحي حول عالمنا.

في هذه الحالة، قد تنتهي مواجهتنا الحالية مع حدود قدراتنا، ومع حتمية الانحطاط الذي يبدو عقاباً لنا على نجاحاتنا، بصواريخ أفضل أو بقدرة على السفر بأسرع من الضوء إذا تدخّل شيء آخر ليغيّر أولاً ما هو موجود مسبقاً. وحتى أكون أكثر وضوحاً: أنا لا أتوقّع نهاية العالم أو حلول الألفية هنا، كما أن حججي حول استدامة الانحطاط ستقطع في الواقع مع أي محاولة فجّة لقراءة سفر الرؤيا، بكل حروبه وأوبئته وكوارثه القديمة.

إنما أردت أن أقول فقط أنه إذا كان هذا هو العصر الذي حدث وأن تدخلت فيه بعض القوى الإلهية الكبرى، سواءً كان ذلك متنبأً به منذ فترة طويلة أو غير متوقَّع إطلاقاً، فإن المسألة تكمن في أنه كان علينا أن نرى هذا التدخّل قادماً قبل فوات الأوان، وما كان عليه أن يفاجئ أي أحد في نهاية الانحطاط بينما أنظار الناس متعلّقة بالسماء: نحو إرادة الله أو نحو عالم النجوم، أو كليهما.

لذا... اُجثُ على ركبتيك، وابدأ العمل.[744]

---

(742). سي.اي. لويس C.S. Lewis: كاتب ولاهوتي وأكاديمي بريطاني، (ت. 1963). صدرت ثلاثيته The Space Trilogy المشار إليها بين 1938 و1945 وتدور أحداثها بين الأرض والمريخ والزهرة.

(743). مادلين لانجل Madeleine L'Engle: روائية وشاعرة أمريكية متدينة. تحولت روايتها «انعطاف الوقت» A Wrinkle in Time إلى فيلم سينمائي مؤخراً.

(744). تنتهي الجملة الأخيرة هكذا: «اُجثُ على ركبتيك، وابدأ العمل على محرك الانفتال هذا»، وفي

ذلك إشارة ضمنية (غير مشدَّد عليها) إلى نظام الدفع المسمى في الخيال العلمي (كما في «ستار تريك») المعروف بمحرك الإلتواء (أو الانفتال) Warp drive الذي يمكّن المركبات الفضائية من السفر بأسرع من سرعة الضوء فتنتقل من عالم إلى آخر.

مصطلحات الكتاب

إنجاز جمالي	Aesthetic achievement
لا أدريّة	Agnosticism
اغتراب ، استلاب	Alienation
سلفي	Ancestral
خلل اجتماعي	Anomie
مناهضة سلطة رجال الدين	Anticlericalism
مناهضة الاستعمار	Anticolonialism
مناهضة العولمة	Antiglobalization
تأليه	Apotheosis
حركة ارتدادية	Atavism
نزعة سلطوية (استبدادية)	Authoritarianism
مثبّتات تلقائية	Automatic stabilizers
نزعة كاثوليكية تكاملية	Catholic integralism
فوضى	Chaos
شوفينية	Chauvinism
العالم المسيحي	Christendom
الجموعيّة	Communitarianism
امتثالية	Conformism
البيروقراطية الكونفوشيوسية	Confucian bureaucracy
إجماع	Consensus
نزعة استهلاكية	Consumerism
نزعة عالمية	Cosmopolitanism
ثقافة مضادة	Counterculture
ذميّة	Dhimmitude
تناقض ديالكتيكي	Dialectical antinomy
تنوّع، تنويع	Diversification

نظام بيئي	Ecosystem
نزعة الهروب (من الواقع)	Escapism
إيثوس (الشخصية الجماعية)	Ethos
نزوع إلى اليورو (اليوروية)	Euro-ism
قتل رحيم (لأسباب طبية)	Euthanasia
معدّل الخصوبة	Fertility rate
نزعة مستقبلية	Futurism
مُتعوي (متعلق بالمتعة)	Hedonistic
تراتبي، تدرّجي	Hierarchical
تجانس، مجانسة	Homogenization
مثالية	Idealism
بدائل أيديولوجية	Ideological alternatives
ديمقراطية غير ليبرالية	Illiberal democracy
فردانية	Individualism
أممية	Internationalism
خطاب الإنترنت	Internet discourse
إسلاموية	Islamism
يعاقبة	Jacobins
جهاديّة	Jihadism
تحرّرية	Libertinism
العالم الأكبر	Macrocosm
نزعة إدارية	Managerialism
جنون العظمة [عُظام]	Megalomania
نزعة تحسينيّة	Meliorism
العالم الأصغر	Microcosm
محاكٍ، متّسم بالمحاكاة	Mimetic
تحويل إلى نقود [نقدنة]	Monetization
توحيد	Monotheism
مؤسسة أخلاقية	Moralistic institution
نزعة صوفية	Mysticism
نرجسي	Narcissist
زُنوجة	Negritude
وثنية جديدة	Neo-paganism
وثنية	Paganism

وحدة وجود، حلولية	Pantheism
اصطفائية	Particularism
لغة أبوية	Paternalist language
مَرَضي	Pathological
تعدّد الزوجات	Polygamy
شعبوية	Populism
ما بعد الأسروية	Postfamilialism
ما بعد الليبرالية	Postliberalism
أوائل جيل الطفرة	Protoboomers
ديمقراطية زائفة	Pseudodemocracy
خطاب عام	Public rhetoric
راديكالية	Radicalism
نهضة	Renaissance
مستوى الإحلال	Replacement level
نخبة علمانية	Secular elite
صورة محاكاة زائفة	Simulacrum
نزعة شكوكية	Skepticism
مجتمعيّ	Societal
معتلّ اجتماعياً	Sociopath
تفوّقي (يؤمن بتفوّق عرقه أو دينه)	Supremacist
الحكومة فوق الوطنية	Supranational government
مستوى الإحلال الثانوي	Subreplacement level
مجاز مرسل	Synecdoche
تصنيف، صنافة	Taxonomy
تسامح	Tolerance
نزعة شمولية	Totalitarianism
متعالٍ	Transcendent
عَبر-قومي	Transnational
توحيدية	Unitarianism
طوباوية	Utopianism
رهاب الأجانب	Xenophobia